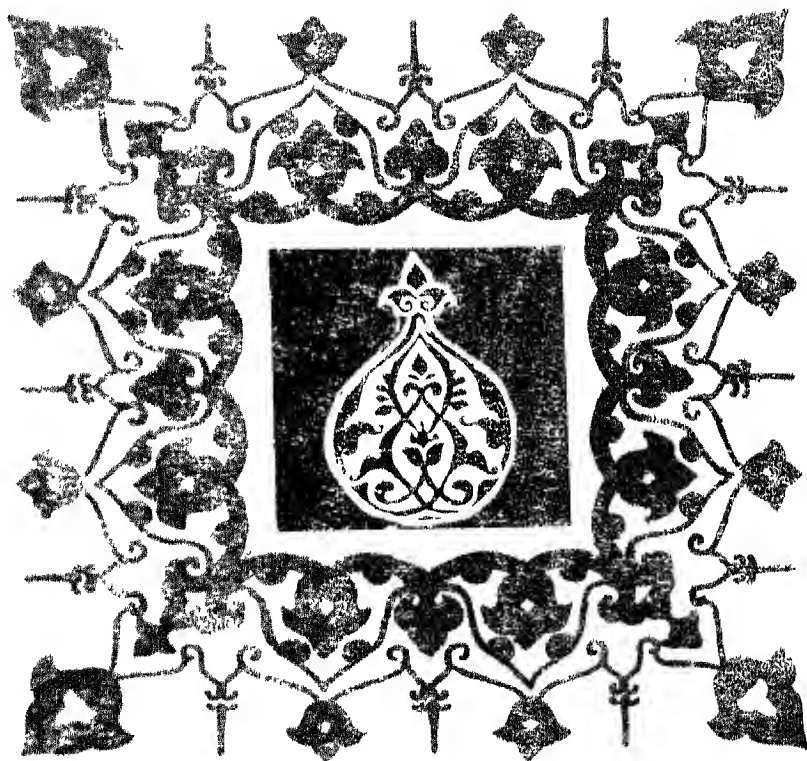


فقه الإسلام



حسن أحمد الخطيب



Bibliotheca Alexandrina



0092404

فَقْهُ الْإِسْلَامِ

- سُمْؤ مَبَادئُهُ
- رَصَانَةُ قَوَاعِدِهِ
- تَعَدُّدُ مَزَايَاهُ وَمَحَاسِنِهِ

تأليف:
حَسَنَ أَحْمَدَ الْخَطِيبِ



المكتبة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

مقدمة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد رسول الله قدوة المجتهدين ،
ولامام الهداة والمصلحين .

أما بعد ، فإن من أعظم نعم الله على عباده أن خلقهم . فلم يتركهم سدى ، ولم
يكلهم إلى أنفسهم في تبين الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، فأوحى لهم
الشرائع المثلى في كتبه المنزلة على رسله الأكرمين ، وعباده المصطفين الأخيار .
وكان أمثل هذه الشرائع ، وأعمها نفعا ، وأرسخها قدما ، وأبعدها أثرا ، وأغناها
بالمبادئ السامية ، والأحكام العادلة ، والسياسة النافعة ، وأبقاها على مر الدهور
والأعصار — تلك الشريعة الإسلامية التي بنى أصولها ، وأسس أحكامها ، وأرسخ
قواعدها ، وأقام بنيانها الكتاب الكريم والقرآن الحكيم ، وقام بتوضيح غامضها ،
وتفصيل مجملها ، وبيان ما استنبه منها ، ووضع أصول الاجتهاد فيها ، وسن الطرق التي
تسلك للوصول إلى مقاصدها — خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبدالله
صلوات الله وسلامه عليه ، فكان حقا علينا — معشر المسلمين — أن نحرص عليها ، لأنها
كفيلة برد الحائر ، وبعث العزة والحياة الصالحة في الأمم . ولنا من التاريخ أنصح
حجة وأقوى دليل : ألم تحول الشريعة الإسلامية الأمة العربية من بدائيتها ، وقسوة
عاداتها ، وتخبطها في حياتها ، إلى أمة متحضرة ، لها نظم وقوانين عادلة ؟ ثم غزت بهذا
القانون السماوي الأمم التي كانت أرق منها حضارة ، وأغرق مدنية ، ولها نظم
وقوانين ، فأذعنوا لعدائته وخروا له ساجدين ، ووجد — فيما بعد — من هذه
الأمم الأعجمية من يعد من أقوى أنصار الشريعة الإسلامية .

ولكننا نحن — معشر المسلمين — قد تركناها في أزمة ضعفتنا مختارين

أو مكرهين ، إذ بهرتنا أضواء المدنية الغربية وكان لجودنا وقتئذ - والحق يقال - أعظم الأثر في التخلي عنها، وعدم استقاء القوانين منها . ولو أننا ابتغيها سبيلا وسطاً ، فنظرنا في الشريعة الإسلامية نظرة توسعة ورحمة ، وفتحنا باب الاجتهاد لأهلها - لاستطاع علماءنا، وأقطاب شريعتنا، وأئمة القانون فينا، أن يخرجوا لنا منها قوانين كانت أحق وأولى بالتطبيق الآن في بلادنا المصرية وسائر البلاد الإسلامية ، ولحلوا الحكم على اتباعها والنزول عند أحكامها ، ولكنهم لم يستطيعوا التقدم هذه الخطوة ، فظنوا الأمر قصور الشريعة الإسلامية عن مسايرة التطور والأحداث ، وعدم وفائها بحاجات الأمم وشؤونها في العصر الحديث ، فاستعاروا لتشريعنا - فيما عدا الأحوال الشخصية (١) - قوانين الأمم الغربية وبخاصة الفرنسية . وليس بالشريعة الإسلامية - علم الله - من قصور ، فإن مبادئها وأصولها والآراء الناضجة فيها تسع كل ما يجد من الحوادث والوقائع ، وتفي بحاجات الأمم وكالاتها في هذا العصر وغيره من العصور ، متى عبدنا طريق الاجتهاد الشرعي ، ودرسنا الفقه الإسلامي في ينابيعه الصافية ، ورجعنا في فهمه واستنباطه إلى أصوله الأولى .

وقد أهانت بي نفسي ، ودوّى في جوانبها صوت الضمير حينما انكبت على كتب الفقه الإسلامي غير متأثر برأي معين ، ولا متعصب لمذهب دون مذهب ، فراعني ما رأيت من دقة الأحكام والتخريج ، وبيان الأصول والقواعد التي ترجع إليها أحكام الحوادث الجزئية ، كما راعني قوة الدليل ، ونصاعة البرهان ، وسطوة الحجاج في المناقشة بين العلماء ، ووقفت معجبا بما رأيته من قوة التشريع الإسلامي ، وغزارة أصوله ، وسمو مبادئه ، وخصب مباحثه ، وقلت في نفسي : إن علينا معشر العلماء والباحثين ردفاً (٢) كبيراً إذ تركنا، هذه الدرر مكتنة في أصدافها ، لا يستطيع

(١) كلمة (الأحوال الشخصية) يراد بها ما يتعلق بذات الإنسان وشخصه ، كالزواج والطلاق وما يتصل بذلك من ثبوت نسب ورضاع وحضانة وثقة وعتة ووصية وميراث وولاية على نفس ومال وحجر . وهو اصطلاح قانوني محدث غير معروف في كتب الفقه الإسلامي ، إذ أن هذه الأحكام متدرجة في قسم المعاملات من الكتب الفقهية .

(٢) الردف : التبعه

الوصول إليها إلا مهرة القواصين ، وهذه الكنوز الثمينة ضائعة في زوايا الغفلة والنسيان ، لا يهتدى إليها إلا القليل ، وتلك الأزاهير الناضرات تتصوح ، ومن حولها الأشواك تعوق الراغبين ، وتمنع الطالبين .

وحز في نفسى أن أرى الشريعة الإسلامية مع ما لها من الحظ الأوفى ، والغنى الأسمى ، والثراء الذى لا حـد له — لا تجد في غير الجامعة الأزهرية ما يجب لها من عناية وتخصص ، وليس لها في غير تلك البيئة وما يماثلها إلا أعوان قليلون . هذا إلى أن الحكومات المصرية المتعاقبة تعول عند تغيير القوانين على اقتباسها من القوانين الغربية ، وقلما تلتفت إلى الأخذ من الشريعة الإسلامية ، إلا حينما تريد أن تشرع لمحاكم الأحوال الشخصية ، فصار الفقه الإسلامى بذلك يدرس دراسة نظرية — وإن شئت قلت تاريخية — في الجامعة الأزهرية — فيما عدا الأحوال الشخصية ، على أن دراسته في تلك الجامعة التى يعتز بها العالم الإسلامى ، والتى نشهد لها بحفظ التراث الدينى واللغوى — لاتعدو تفهم المذاهب الأربعة ، ووقوف كل طائفة من المتعلمين عند آراء إمام معين من أئمة تلك المذاهب ، مع أن هذه الشريعة الإسلامية توجب على العلماء والباحثين ، وطلاب الجامعات في مصر والعالم الإسلامى ، أن يبحثوها بحثاً حراً ، يودى إلى إحياء طريقة السلف في الاجتهاد ، كما توجب أن يصرف كبار علمائنا ، وأعلامهم جل همتهم إلى إخراج كتب الشريعة في ثوب جديد يحبب إليها علماء البلاد من أهل القوانين الوضعية ، بله الناشئين — وهم الذين يجدون من العقاب الصعاب ، والمشاق التى تنجم من الرجوع إلى هذه الكتب — ما يصدفهم عنها ، فليبادروا فإن الزمن موات ، والأحوال ملائمة ، فإن بعض أعلامنا القانونيين قد هداه الله لتذوق شريعته ، ومعرفة بعض أسرارها ومبادئها ، بل إن بعض أعلام القانون في الغرب قد عكف على دراستها ، فنوه بشأنها ، وأعجب بما فيها من جواهر قيمة ، وكنوز ثمينة .

من أجل ذلك كله عولت على إبراز محاسن الشريعة ، بجمع الهام من أصولها وقواعدها ، وذكر شيء من فروعها وأحكامها ، وبيان ما ثبت أنها صالحة للأمم في كل عصر ، ووجوب الرجوع إليها في تشريعنا ، وذكر شهادة أساطين العلم والقانون في الشرق والغرب بفضلها ، عسى أن يتحقق بذلك توجيه أولى العزم إليها ،

وإثارة رغباتهم فيها - لا أبتغي بذلك إلا وجه الله ونيل رضوانه ، فإن وقعت
فذاك ما قصدت ، وإن أخطأت المحجة كان لى من حسن القصد وشرف التأييد
شفيع ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت
والإليه أنيب ، .

ربنا آتتنا من لدنك رحمة ، وهي لنا من أمرنا رشداً ، .

حسن أحمد الخطيب

مباحث الكتاب

هذا الكتاب يلتزم مقاصد عامة ، ويشتمل على سبعة أبواب جامعة ، وتحت كل باب ومقصد عدة فصول ومباحث ، تبين أجزائه ، وتوضح أقسامه .

وهذه هي مقاصده وأبوابه :-

الباب الأول - أصول التشريع الاسلامى ، أو أدلة الأحكام التفصيلية التى اتفق عليها جمهور العلماء .

الباب الثانى - الأدلة المختلف فيها .

الباب الثالث - أسباب اختلاف العلماء فى الأحكام الشرعية .

الباب الرابع - القواعد الفقهية فى التشريع الإسلامى .

الباب الخامس - محاسن الشريعة الإسلامية ومزاياها .

الباب السادس - التشريع الإسلامى وحرية الاجتهاد .

الباب السابع - بحوث وتحقيقات حول الشريعة الإسلامية .

خاتمة الكتاب .



البَابُ الأول

أصول التشريع الإسلامي التي اتفق عليها جمهور العلماء

الشريعة الإسلامية ، أو الأحكام العملية الفقهية لها أدلة ومصادر وأصول نظر فيها فقهاء السلف والصحاب والتابعين ومن تلام من علماء التشريع الإسلامي المجتهدين ، فاستنبطوا منها آراءهم الفقهية ، وتوصلوا بها إلى استخلاص مذاهم في الأحكام الشرعية التي عرفت بالفقه الإسلامي .

هذه الأدلة وتلك الأصول هي ما يتوصل بالنظر الصحيح فيها إلى إدراك الأحكام الشرعية على سبيل العلم أو الظن .

وقد اتفق جمهور العلماء على أن أصول التشريع وأدلة الأحكام التفصيلية - أربعة : كتاب الله ، وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والإجماع ، والقياس ، وإليها أشارت هذه الآية الكريمة (١) : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » .

وبعض العلماء أخافوا إلى هذه الأربعة أدلة أخرى ، رجعوا إليها في استنباط الأحكام الفقهية ، على اختلاف بينهم في اعتبارها ، وحيثها ، وتحديد معناها ، ومدى العمل بها ، يطلق عليها في اصطلاحهم اسم الاستدلال ، وتندرج تحتها هذه الأدلة : الاستحسان ، والمصالح المرسلة ، والاستصحاب ، وشرع من قبلنا ، ومذهب الصحابي ، وسيأتي الكلام عليها في الباب الثاني .

(١) الآية ٥٨ من سورة النساء .

البَابُ الأولُ

أصول التشريع الإسلامي التي اتفق عليها جمهور العلماء

الشريعة الإسلامية ، أو الأحكام العملية الفقهية لها أدلة ومصادر وأصول نظر فيها فقهاء السلف والصحابة والتابعين ومن تلامهم من علماء التشريع الإسلامي المجتهدين ، فاستنبطوا منها آراءهم الفقهية ، وتوصلوا بها إلى استخلاص مذاهم في الأحكام الشرعية التي عرفت بالفقه الإسلامي .

هذه الأدلة وتلك الأصول هي ما يتوصل بالنظر الصحيح فيها إلى إدراك الأحكام الشرعية على سبيل العلم أو الظن .

وقد اتفق جمهور العلماء على أن أصول التشريع وأدلة الأحكام التفصيلية - أربعة : كتاب الله ، وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والإجماع ، والقياس ، وإليها أشارت هذه الآية الكريمة (١) : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا .

وبعض العلماء أضافوا إلى هذه الأربعة أدلة أخرى ، رجعوا إليها في استنباط الأحكام الفقهية ، على اختلاف بينهم في اعتبارها ، وحجيتها ، وتحديد معناها ، ومدى العمل بها ، يطلق عليها في اصطلاحهم اسم الاستدلال ، وتدرج تحته هذه الأدلة : الاستحسان ، والمصالح المرسلة ، والاستصحاب ، وشرع من قبلنا ، ومذهب الصحابي ، وسيأتي الكلام عليها في الباب الثاني .

(١) الآية ٥٨ من سورة النساء .

الفصل الأول

كتاب الله أو القرآن الكريم

هو الأصل الأول من أصول التشريع الإسلامى ، وهو كلام الله - مبارك وتعالى - المنزل على رسوله محمد صلوات الله عليه ، المكتوب فى المصاحف ، المنقول إلينا نقلاً متواتراً ، ليكون للناس دستوراً ، يسرون عليه فى عقائدهم ، وأخلاقهم وقوانينهم ، وقربة يتعبدون بتلاوته . وهو أصل الشريعة ، وعمدة الملة ، وآية الرسالة وضياء العقول ، وربيع القلوب ، ونور البصائر - جمع أسباب السعادة كلها فى الدنيا والآخرة .

القرآن حجة ، وهو الأصل الجامع ،

ومصدر التشريع الأول

اتفقت كلمة العلماء على أنه الدليل الأول على الأحكام ، بل ذهب بعضهم إلى أنه الأصل الجامع الذى لا دليل سواه ، وأن سائر الأدلة بيان له ، وتفريع عنه ، وراجع إليه . ففى وجد فيه الحكم الذى يبحث عنه فلا يسوغ للباحث ، ولا للباحث أن يبحث عنه فى مصدر أو دليل آخر ، وإذا وجد صريح الحكم فى غيره ، كالسنة أو استنبط بالقياس ، أو استند إلى المصالح المرسل - فالقرآن دالٌّ عليه بمبادئه العامة ، وقواعده الكلية ، وروحه العام فى التشريع .

وحجّة القرآن تكاد تكون من الضروريات الدينية التى لا تفتقر إلى إقامة دليل ، أو سياقة برهان ، ولا تحتاج إلى تقرير واستدلال ، لأن ذلك معلوم من دين الأمة ، كما يقول الشاطبى فى الموافقات .

وما لا ريب فيه أن محمداً صلى الله عليه وسلم تحدى المكذبين من قومه أن يأتوا بمثل القرآن ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله ، فجزوا جميعاً عن معارضته ، وهم أهل البيان ، وفيهم قادة البلاغة ، وأرباب الفصاحة ، وذوو

العقول الناضجة ، وأهل الحكمة والتجربة ، فدل عجزهم على أن هذا القرآن ليس من صنع البشر ، وإنما هو من عند الله ، كما أخبر بذلك الصادق الأمين ، وقد نقل إلينا هذا القرآن نقلا متواترا ، موجبا للعلم واليقين ، وظل محفوظا في السطور والصدور ، كما أنزل من بدء الوحي إلى يومنا هذا ، وإلى ما شاء الله ، فلزمت الحجة أعناقنا ، ووجب الرجوع في تشريعنا واستقاء أحكامنا إليه ، لأنه كلام الله الذي تجب طاعته ، وتنفيذ أحكامه « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » .

اقرأ قوله تعالى في سورة آل عمران : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا » وقوله في سورة النساء « وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَدْ حَدُّهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ » وقوله تعالى في سورة المائدة « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ عَمَالِهِ مِنَ الْحَقِّ ، إِلَى أَنْ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : « وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُ أَنْ مَارِيدُ اللَّهِ أَنْ يَصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ، أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » .

ثم اتل قوله جل شأنه في سورة الأنعام : « أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » ، وقوله في السورة نفسها : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » ، وقوله « وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » ، ثم انظر إلى قوله عز وجل في أول سورة الأعراف : « الْمَصِّ ، كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ، فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنَذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » ، اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلا ما تذكرون ،

إذا تلوت هذه الآيات وما يشبهها ، وتدبرت معانيها فإنك تجدها قد تصافرت على إيجاب اتباع القرآن ، وتنفيذ ما جاء به من وصايا وأحكام تشريعية ، وأنا إن لم نفعل كنا ممن يحارب الله ويحاده ويخالفه فيما شرعه ، لتحقيق مصالحنا ، وتوفير سعادتنا ، ودرء المفسد عنا ، وحينئذ يصدق فينا قوله تعالى في سورة المائدة : « وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » وقوله في ختام الآية التالية : « وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » ، وقوله عز وجل بعد « وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » ، وقوله جل شأنه في سورة المجادلة : « إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُتِبَتْ لَهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَقد أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَتَذَكَّرُونَ فِيهَا لِكُلِّ ذَلِيلٍ مَهْدًى ، وقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه (١) تبعاً لما جئت به » . وفي الحديث الآتي بيان عقبي الحكم بغير ما أنزل الله : « سَخَسْتُ بِخَمْسٍ : مَنْ قَضَى الْعَهْدَ قَوْمٌ إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَذَابَهُمْ ، وَمَنْ حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا فُشِيَ فِيهِمُ الْفَقْرُ ، وَمَنْ ظَهَرَ فِيهِمُ الْفَاحِشَةُ إِلَّا فُشِيَ فِيهِمُ الْمَوْتُ ، وَلَا تَطْفَفُوا الْبَكِيلَ إِلَّا مُنِعُوا النَّبَاتُ وَخُفُوا بِالسِّنِينَ ، وَلَا مَنَعُوا الزَّكَاةَ إِلَّا أُحْبِسَ عَنْهُمْ الْقَطَرُ » (٢) .

تشريع القرآن وما اشتمل عليه من الأحكام

شمل التشريع القرآني بما بينه من أحكام تفصيلية ، وبما بثه من مبادئ ، وأصول عامة ، وقواعد كلية ، ومقاصد شرعية - كل ما تحتاج إليه الأمم في جميع أعصارها ، وعامة أزمنتها ، بما يكفل لها حياة الأمن والعزة ، والتمتع بأسباب العدل والمساواة ، ومقومات السعادة الروحية والجسدية ، والمعنوية والحسية ، في حد وسط ، بحاف للإفراط ، ناء عن التفريط ، وهذا هو اللائق بشرية باقية خالدة ، ختم بصاحبها - عليه الصلاة والسلام - عهد النبوة ، وجاء دينه أتم الأديان ، وأكملها وأوفاهها بمحاجات البشر .

(١) هواه - ميله . تبعاً : تابعا - لما جئت به : أي من المهرجة الغراء بأن يعجل قلبه إليه بطبعه كبله إلى محبوبه ، وعند ذلك يكون مؤمناً كاملاً .

(٢) راجع ذلك في تفسيرى البيضاوى وأبى السعود « سورة المطففين » .

لهذا جاء تشريعه - فيما لا يختلف باختلاف الأعصر والأمم - تفصيلاً، كالإصلاح التشريعي الخاص بالبيت والأسرة، وكتشريعه في الحدود التي فرضها على الجرائم الكبرى التي لها أسوأ الأثر في المجتمع، وهي التي يقع فيها التعدي على النفس أو العرض أو المال .

ويلحق بذلك العبادات، من الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، فإنها لا تختلف باختلاف العصور، وليس من شأنها أن تتطور، غير أن أحكامها لم تأت مفصلة في القرآن، وترك لرسول الله صلى الله عليه وسلم بيانها، ففصل أحكامها تفصيلاً، وبين أحوالها وأوصافها تبييناً، بما كان يصدر عنه من قول وعمل معاً وذلك بما منحه الله من سلطان البيان والتشريع . وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم . .

والحكمة في أن القرآن لم يستقل بتفصيلها، وتركه للسنة، أن العبادات مشتملة على فرائض، ولها شروط، وسنن، ومستحبات، وطرق معينة لأدائها حتى تقع صحيحة مقبولة، فالبيان القولي وحده لا يكفي لهداية الناس إلى ما يطلب إليهم أدائه منها، فكان من المصلحة والحكمة أن يترك تفصيلها وبيانها للرسول، يشرحها، ويعلمها، ويبينها للناس قولاً وعملاً، حتى يكون في الناس والافتقار به أعظم هاد ومرشد، وأكبر عون على فهمها، وحفظها، واستيعاب طريقة أدائها، ولذلك صلى - عليه الصلاة والسلام - وقال : « صلُّوا كما رأيتموني أُصَلِّي »، وحج وقال : « خذوا عني مناسككم » . .

وفي غير ذلك من الشئون تجد تشريع القرآن غالباً بجملاً كلياً، قلما يتعرض لبيان الحوادث الجزئية وأحكامها، إنما يضع القواعد الكلية، والأصول، والقانونية والمبادئ التشريعية ليرجع إليها العلماء المجتهدون - في كل أمة وفي أي زمن - فيستنبطونها منها ما يلائم حالة كل عصر، وحاجة كل أمة من الأحكام، متوخين في ذلك المحافظة على أصول تشريعه، وقواعد أحكامه .

ولنتناول ذلك بشيء من التفصيل فنقول :

الآيات التشريعية أو آيات الأحكام كما يسميها الفقهاء والمفسرون ليست كثيرة

في القرآن ، إذ فيه نحو ستة آلاف آية ليس فيها من الأحكام العملية من دينية ومدنية ، وقضائية ، وسياسية ، ما يبلغ عشر آياته ، ورأى بعضهم أنها لا تزيد على مائتين (١) ، وعدها بعضهم خمسمائة (٢) - عرض القرآن فيها لما شرعه من العبادات للمكلف ، من صلاة ، وصوم ، وزكاة ، وسائر أنواع الصدقات ، وحج ، وجهاد ، ووفاء بنذر ، واعتكاف ، ولما يتصل بالأسرة من زواج ، وطلاق ، وميراث ، إلى الأمور الجنائية ، من قتل ، وزنى ، وسرقة ، وقطع طريق ، والشئون الدولية ، كالقتال ، وبيان علاقة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم ، وما يتصل بذلك من العهود وغنائم الحرب - إلى الأمور المدنية ، من بيع ، وربا ، ورهن ، وإجارة . ولاهمية آيات التشريع غنى كثير من العلماء بشرحها ، وبيان ما استنبطه المجتهدون ، منها ، واختلاف آرائهم في الأحكام المستندة إليها ، وإنك لتجد آثار هذه العناية في بعض كتب التفسير المطولة ، كالتفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، وروح المعاني للألوسي .

وأول من أفرد آيات الأحكام في تصنيف مقاتل بن سليمان ، وقد جعلها خمسمائة (٣) آية ، ثم جاء بعض العلماء (٤) من بعده ، فأفردوها بالتأليف ، واختصوها بالعناية كمنذر بن سعيد البلوطي قاضي قرطبة المتوفى سنة ٣٥٥ هـ ، وكأبي بكر أحمد بن علي الرازي الحنفي المعروف بالجصاص والمتوفى سنة ٣٧٠ هـ ، فقد ألف كتابه « أحكام القرآن » ، تكلم فيه على ما في القرآن من آيات الأحكام بتفسير معانيها ، وبيان جميع ما استنبطه منها الأئمة والمجتهدون ، من المسائل الأصولية ، والفروع الفقهية ، وما اتفقوا عليه ، وما اختلفوا فيه ، وذكر ما احتج به كل واحد منهم لتأييد مذهبه . ثم أتى من بعده أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي الأندلسي المالكي المتوفى سنة ٥٤٣ هـ ، فألف أيضاً كتابه المعروف بأحكام القرآن .

(١) تاريخ التفسير للخضري صفحة ٤٥ .

(٢) الوحي المحمدي صفحة ٢٢٥ ، ونقل ذلك السيوطي في الإقنان .

(٣) رسائل الإصلاح ج ٣ للاستاذ الجليل محمد الحضر حنين .

(٤) راجع الإقنان للسيوطي .

أنواع الأحكام في التشريع القرآني

اشتمل القرآن على أنواع من الأحكام العملية ، وهي التي تعرف عند العلماء بالأحكام الفقهية ، وهذا بيانها : —

١ — العبادات التي لا تصح إلا بالنية ، وهي ما شرع لتنظيم رابطة الإنسان بخالفه ، وهي أقسام : عبادة بدنية روحية من صلاة وصوم ، وعبادة مالية اجتماعية ، وهي الزكاة وسائر أنواع الصدقات ، وعبادة روحية بدنية مالية ، كالحج ، والجهاد ، والوفاء بالنذر .

٢ — المعاملات التي شرعت أحكامها لتنظيم علاقات الناس بعضهم ببعض ، وإقامة الروابط بين أفراد الأمة وجماعتها ، على أساس العدل ، والرحمة ، والتعاون ، والمحبة ، ودفع أسباب الضر والعدوان ، واجتلاب النفع والخير ، ويدخل في ذلك المعاملات المدنية ، من بيع ، وإجارة ، ورهن ، كما يندرج تحتها ما يعرف في اصطلاح ذلك العصر بالأحوال الشخصية ، وهو ما يختص بالإنسان من حين ولادته إلى حين وفاته وقسمة تركته بين ورثته : من زواج ، وطلاق ، وعدة ، وثبوت نسب ، ورضاع ، ونفقة ، ووصية ، وإرث .

٣ — العقوبات التي شرعت لحفظ حياة الناس وأعراضهم وأموالهم — من أجل ما يرتكب من الجرائم — وهي عقوبات القتل ، والسرقه ، وقطع الطريق ، والزنى ، والقذف ، وهي المعروفة بالقصاص والحدود .

٤ — أحكام وضعت لتحديد علاقة الأمة بالحكومة ، وبيان حقوق الوالي على الرعية ، وحقوق الرعية على الوالي ، وهي أحكام الشورى ، والمساواة ، والعدل ، وطاعة أولى الأمر فيما يجب فيه الطاعة ، وهي المعروفة الآن بالأحكام الدستورية .

٥ — أحكام شرعت للجهاد ونظام الحرب والقتال ، وتنظيم علاقة المسلمين بغيرهم من الأمم ، وما يتبع ذلك من حكم الأسرى والنزاع ، والغنائم ، وهي قريبة الشبه بما يعرف الآن بالقانون الدولي .

تقسيم للتشريع القرآني من حيث الإجمال والتفصيل

إذا تفصّلت تشريع القرآن ، وتنبعت ما جاء فيه من أحكام — من حيث الإجمال والتفصيل — وجدته لا يعدو أربعة أقسام :

القسم الأول

التشريع المجمل الذي لم يبين من أحواله وصفاته إلا القليل ، وأظهر مثل لذلك معظم العبادات من الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، فسنة القرآن فيها بيان أصولها وبجامعها وتكرار التذكير بها .

وأكثر ما يبحث عليه من العبادات (الصلاة) ، فهي العبادة الروحية العليا والاجتماعية المثلى ، وما أعظم أثرها في النفس إذا أدبت على وجهها الصحيح، فهي تعود الإنسان مراقبة الله وخشيته، فيمتنع عن الوقوع فيما حرم عليه ، وتبعث في نفسه الطمأنينة، فلا يستبد بها الجزع إذا أصابها شر، قال تعالى (١): «اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ» ، وقال جل شأنه (٢): «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفَّارٌ» ، وإذا مسه الخير منوعاً ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ، والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . .

وقد أمرنا الله — بجلت حكمته — بالتطهر للصلاة وبعض أنواع العبادات الأخرى ، فشرع الوضوء والغسل ، وشرع التيمم عند عدم وجود الماء — قال تعالى في سورة المائدة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ

(١) من سورة العنكبوت

(٢) من سورة الماعز

لَا مَسْئَمَ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا
فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ
عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ،

ثم (الزكاة) التي هي العبادة المالية الاجتماعية الكبرى - تعود المؤمن
الإحسان ، وتقوى في نفسه الرحمة ، وتطهره من رذيلة البخل والشح ، كما تستل
الأضغان من قلوب البائسين على الأغنياء المترفين ، وتشعر قلوبهم بحبهم ،
وتصددهم عن الإساءة إليهم ، وبها تفرج كربة الغارمين ، وتسد حاجة الفقراء
والمساكين .

وليس في نظام الزكاة الإسلامي عنت للأغنياء، ولا إهمال لشأن الفقراء ،
فتنفيذه يقضي على كثير من مفسد المجتمع وأدوائه - قال جل شأنه : « خُذْ (١)
مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » ، وقال :
« كُلُوا (٢) مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » .

ثم (الصوم) . وقد شرعه الله تعالى ليغرس في قلب المؤمن التقوى ، فيربي
فيه الصدق في خشية الله تعالى ومراقبته ، والصبر ، واحتمال المشاق ، والقناعة ،
وضبط النفس ، وقوة الإرادة ، ويرقق الشعور والوجدان ، فيعطف الصائم على
الضعيف، ويؤتي المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين . وبالصوم الشرعى
المركب من أعمال القلب والمنع عن المآكل والمشارب وغيرها سكون النفس الأمانة
بالسوء، وقهرها، وكسر سورتها، وصفاء القلب من الكدر، هذا إلى ما فيه من الفوائد
والمنافع لصحة البدن والجسم في بابى الوقاية والعلاج - قال تعالى في سورة البقرة:
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ
كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ،

(١) من سورة التوبة . (٢) من سورة الأنعام .

وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

ثم (الحج) فرضه الله في العمر مرة واحدة ، لأن أعماله تشعر بالمساواة ، فإن المسلمين عند أداء هذه الفريضة يكونون متجردين من زينة الحياة الدنيا ، ليس على الرجل منهم إلا إزار ورداء ، وكلهم خاضع خاشع لعظمته تعالى وجلاله ، لا فرق بين صعلوك وأمير ، ولا بين غني وفقير ، هنالك تعرف النفوس أن زخرف الحياة باطل ، وأن متاعها قليل زائل ، وأنه لا ينبغي الاستعلاء والاستكبار لجاه أو مال ، وأن الناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب . هذا إلى أن أداء الحج كل عام ، وتوجه كثير من المسلمين من بقاع الأرض كلها إلى مكة والبيت الحرام - يهيئ للامة الإسلامية كل عام مؤتمراً عظيم النفع ، جليل الأثر ، تتبادل فيه الأفكار ، وتبحث فيه شئون المسلمين ، فيعملون على رفع شأنهم ، وإعلاء مكانتهم ، وإصلاح أحوالهم ، وتحقيق أسباب العزة والسعادة لهم أجمعين ، فما أجلاها من عبادة ، وما أعظمها من نسك : إنها تركي النفس ، وتطهر الروح ، وتشعر المسلمين بوحدةهم ، ومساواتهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، وتبني لهم أسباب النظر في إصلاح أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . اقرأ قول الله (١) جل شأنه : **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَلا تَشْرِكْ بِي شَيْئًا ، وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ**

(١) من سورة الحج .

السُّجُود، وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا، وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ، فَكُلُوا مِنْهَا، وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ، ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ، وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوُّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ، . وقوله تعالى (١) . واللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، وقوله عز وجل (٢) . الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ . فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ، وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، وَاتَّقُوا يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ، فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ، وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ، ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ، وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ، أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا، فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . .

هذه معظم عبادات الإسلام، افقه ى الحث عليها، والإشارة إلى

(٢) من سورة البقرة .

(١) من سورة آ١٢

بعض أعمالها ، وأسرارها ومنافعها ، وكل لها من منافع روحية واجتماعية وصحية ، ولم يذكر من بيان أحوالها ، وصفة أعمالها إلا القليل ، لأن ذلك - كما أسلفنا - يؤخذ من بيان الرسول ، ويُحفظ بالعمل ، ويُفهم بالاقتداء ، وليس في ذكره تزكية للنفس ، ولا تغذية للإيمان .

ومن أمثلة التشريع المجمل في القرآن المعاملات المدنية ، وهي العقود التي بها يتبادل الناس منافعهم ، فقد عرض لها القرآن بطريقة إجمالية ، وقواعد كلية ، تاركاً تفصيلها للسنة وللمجتهدين من الأمة وذلك فيما عدا كتابة الدين الموجل الذي سيأتى بيانه في القسم الثالث ،

يوضح ذلك :

أولاً :- أن الله تعالى أمر أمراً عاماً بالوفاء بالعقود . قال جل شأنه في سورة المائدة : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ، وهي تشمل جميع الالتزامات .

ثانياً :- أنه - جلّت حكمته - أباح التجارة ، ونهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، فقال في سورة النساء : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ . .

ثالثاً - عرض القرآن - بصفة عامة - للبيع والربا ، فأحل الأول ، وحرم الثاني . فقال في سورة البقرة : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيعُ مثلُ الرِّبَا ، وأحلَّ الله البيعَ ، وحَرَّمَ الرِّبَا ، ثم قال : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِمَحْرَبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ تُبْتِغُوا فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ . لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ، وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، .

القسم الثاني

التشريع المبين بعض البيان، فصلت بعض أحواله تفصيلا، وترك الباقي للسنة واجتهاد علماء الأمة وأولى الأمر فيها، ومن ذلك أحكام القرآن التي شرعت الجهاد ونظام الحرب والقتال، وتنظيم علاقة المسلمين بغيرهم من الأمم، وما يتبع ذلك من حكم الأسرى والغنائم والقيء. وقد تكفلت أوامر القرآن الحكيم، وإرشاداته في القتال. بإصلاح نظام الحرب، ودفع مفسدها، وقصرها على دفع الاعتداء، وهي صريحة في أن المؤمنين أذنوا بالقتال لأمرين:

أحدهما: الدفاع عن النفس عند التعدي.

وثانيهما: الدفاع عن الدعوة الإسلامية إذا وقف أحد في سبيلها بفتنة من آمن، أو بصد من أراد الدخول في الإسلام، أو بمنع الداعي من تبليغ دعوته، واقترنت هذه الأوامر بالنهي عن قتال الاعتداء والبغى والظلم، وقرر القرآن أن السلم هو الأصل الذي يجب أن يكون عليه الناس، فأمرنا بإيثارها على الحرب إذا جنح العدو لها ورضى بها، كما أمرنا بالوفاء بالعهود والمواثيق، وحرّم علينا الخيانة فيها.

اقرأ هذه الآيات:-

أولا - قول الله تعالى في سورة الحج (اذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ

بأنهم ظَلِمُوا ، وإنَّ اللهَ عَلَىٰ تَصَرُّهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ
بغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ . وَلَوْ لَا دَفَعُ اللهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ لَهْكَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا
اسْمُ اللهِ كَثِيراً ، وَلِيَنْصَرِنَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ .

ثانياً :- قوله في سورة النساء (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ
وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً ، وَاجْعَلْ لَنَا مِن
لَّدُنكَ نَصِيرًا) .

ثالثاً :- قوله في سورة البقرة (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ
وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ ،
وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمْ ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُم فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلَكُم فَاقْتُلُوهُمْ ، كَذَلِكَ يَجْزَاءُ الْكَافِرِينَ .
فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ، وَيَكُونَ الدِّينُ
لِلَّهِ ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) ثم قال (فَمَنْ اعْتَدَى
عَلَيْكُمْ فَاغْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ
مَعِ الْمُتَّقِينَ) .

رابعاً :- قوله تعالى في سورة الأنفال في شأن السلم « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ
فاجتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وَإِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ
فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ ، هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ
أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ أَلْفَ بِسْمِهِمْ ، إِنَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

خامساً :- قوله جل شأنه في الوفاء بالعهود في سورة النحل « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ

إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقصت عزها من بعد قوة أنكاثاً تتخفون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة . .

سادساً :- قوله تعالى في سورة محمد ، مبيناً حكم أسرى الحرب ، وهو التخيير بين المنّ وهو العفو والإرسال بغير مقابل ، والفداء وهو أخذ العوض بشرط الإلتحان في الأرض ، وهو أن يكون الغلب والرجحان في القتال للمسلمين ، مع أمنهم على أنفسهم من ظهور العدو عليهم (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منّا بعد ، وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) .

سابعاً :- قوله في معاملة المسلمين المخالفين في الدين في سورة الممتحنة (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم ، أن تولّوهم ، ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون) وتلك فضيلة تؤيد سموّ تعاليم القرآن ووصاياه .

ثامناً :- قول الله تعالى في تقسيم الغنائم من سورة الأنفال (واعلموا أنّها غنيمتكم من شيء فأنّ الله خمسه للرّسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) . وقال في النّية في سورة الحشر ، وهو ما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلّه وللرّسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) .

ومن أمثلة القسم الثاني أيضاً - ما شرعه الله لحفظ الأموال عامة ، وأموال
اليتام خاصة ، ونهينا عن إيتاء السفهاء والصغار الذين لم يرشدوا أموالهم . قال
تعالى في سورة النساء : وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا
وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا . وابتلوا اليتامى حتى إذا
بلغُوا النِّكَاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا
إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْتُوبُوا ، وَمَنْ كَانَ عَيْنِيًّا فَلْيَسْتَغْفِرْ ، وَمَنْ
كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَى
بِاللَّهِ حَسِيبًا) وقال (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا
خَافُوا عَلَيْهِمْ ، فَلْيَسْتَقُوا اللَّهَ ، وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ، إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ
الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) .



القسم الثالث

التشريع التفصيلي

هو تشريع قد فُصل تفصيلاً ، لم يترك منه إلا قليل لبيان السنة ، واجتهاد المجتهدين ، لأنه متصل بأحكام ينبني عليها درء المفاسد والآثام عن العباد ، وتحقيق مصالحهم العظمى ، وتكوين الأمة أفراداً وجماعات بحيث تتوافر لهم أسباب العزة والطمأنينة والأمن والتعاون والقوة ؛ فليس من شأنها التطور ، ولا الاختلاف باختلاف الزمن والأهم ، وذلك كما في الأحكام الآتية :

أولاً :- العقوبات الدنيوية المعروفة بالقصاص والحدود ، وهي عقوبات فرضت على أشد الجرائم فتكاً بالأفراد والجماعات ، وضررها بالغ ، وحبوها كبير ، ومفاسدها عامة لا تقف عند حد ، ومتى شاعت في أمة تمزقت أوصالها ، واستشرى فيها الفساد ، وعمتها الفوضى ، وشملها الاضطراب ، وحسبك أنها التعدي على النفس بإزهاق الأرواح ، أو التعدي على الأعراس ، أو السطو على الأموال ، أما ماعداها من الجرائم وضروب البغي والعدوان ، التي هي أقل شأنًا من الأجرام السابقة - فلم يشأ القرآن الكريم أن يقيد أمة الإسلام - وقد شرع لها الدين موافقاً لفطرتها ، مناسباً لأحوالها وتطورها على مدى الأيام والدهور - بجزء معين ، أو عقوبة خاصة ، بل ترك ذلك لأولى الأمر والمجتهدين يقضون فيه على حسب الأحوال والأزمان ، وهو ما يعرف بالتعزير في الشريعة الإسلامية ، وهو باب واسع ، وميدان رغيب ، فيه للحكام المقسطين ، والأئمة المجتهدين ، وأولى الأمر المختارين مجال أى مجال .

وهذه هي الجرائم التي بين القرآن أحكامها :

١ - القتل العمد : وجزاؤه القصاص إلا أن يعفو ولي الدم ، أو يرضى بأخذ الدية (١) . قال الله تعالى في سورة البقرة : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى : الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ، وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ، فَمَنْ عُصِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعُوهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاؤُهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ اعْتَدَى بِكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) وقال جلَّ شأنه في سورة الإسراء : (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنْ كَانَ مَنصُورًا)

قال جَارُ اللَّهِ الزَّخَّشِيُّ في كتابه الكشاف عند تفسير قوله تعالى : (فَمَنْ عُصِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعُوهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاؤُهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ) : هذه توصية للعفو عنه ، والعافي جميعاً ، يعني فليتبّع الوليُّ القاتلَ بالمعروفِ بآلِ يعنف به ، ولا يطالبه إلا بمطالبة جميلة ، وليؤدِّ إليه القاتلَ بَدَلِ الدَّمِ أداءً بإحسانٍ بآلِ يعطل ولا ينخس ذلك ، الحكم المذكور من العفو والدية « تخفيف من ربكم ورحمة » لأنَّ أهل التوراة كُتِبَ عليهم القصاص البتّة وحَرَّمَ العفو وأخذ الدية ، وعلى أهل الإنجيل العفو ، وخيَّرت هذه الأمة - يقصد الأمة الإسلامية - بين الثلاث القصاص ، والدية ، والعفو ، توسعة عليهم وتيسيراً . ١٥

(١) فلوليُّ الدَّمِ بالخيار : إن شاء اقتس ، وإن شاء أخذ الدية رضى القاتل أو لم يرض . وهذا رأي الشافعي وأحمد ومالك في رواية أشهب عنه . وقال مالك في رواية ابن القاسم عنه ليس للولي إلا أن يقتس أو يعفو عن غير دية إلا أن يرضى بإعطاء الدية القاتل . وعند الحنفية : للولي القصاص أو الصلح على مال أو العفو . وأولياء الدَّمِ الذين لهم حق القصاص أو حق إسقاطه بالعفو - هم المصبة عند مالك . وعند غيره : كل من يرث . « راجع بداية المجتهد ، وكتب الفقه ، وتفسيرى البضاوى والكشاف » .

وفي الحديث : « من قُتِلَ له قَتِيلٌ فهو بخير النظرين : إما أن يفتدى وإما أن يقتل ، رواه الجماعة ، لكن لفظ الترمذى : « إما أن يعفو ، وإما أن يقتل » .

وعن أبي شريح الخزاعى : قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ أُصِيبَ بَدَنٌ أَوْ خَبِلَ - وَالْخَبْلُ : الْجِرَاحُ - فهو بالخيار بين إحدى ثلاث : إما أن يقتصص ، أو يأخذ العقل (١) أو يعفو ، فان أراد رابعة ففعلوا على يديه (٢) » .

من ذلك يتبين أن الشريعة الإسلامية اعتبرت القصاص من حق ولى الدم ، وجعلت له حقّ العفو المسقط للقصاص ، سواء أكان ذلك بلا مقابل ، أم فى مقابل الدية أو الصلح على مال ، ومن ثم صرح (٣) فقهاء الحنفية بأن القصاص من الحقوق التى اجتمع فيها الحقان : حق العبد وحق الله ، ولكن حق العبد فيه غالب . وما كان لشريعة الإسلام التى جاءت وفق العقل والفطرة الإنسانية ، بحققة لمصالح العباد ، دارئة عنهم المفاسد - أن تنزع من أولياء الدم حق العفو ، أو تجعل حق القصاص لغيرهم ، والجناية واقعة عليهم أولا وبالذات ، ثم تعداهم إلى المجتمع ثانياً ، فهم أول طوائف المجتمع تأثراً بها ، والحاملون لأدراكها (٤) وتبعاتها ، وعليهم تقع آثارها وأضرارها المباشرة . وهم بحكم طبيعتهم التى غرست فيهم ، وفطرتهم التى فطرهم الله عليها أشد الناس حرصاً على الاستمسك بالقصاص ، والأخذ بالثأر لمن فجعوا فيه ونكبوا بقتله ، فهم لذلك إذا مالوا إلى العفو ميلاً حقيقياً عن رضا واختيار ، أو جنحوا لغير القصاص بمال أو بغير مال وآثروا العفو عليه - فلا بد أن يكون ذلك لغاية أو هدف يسمو على الغاية من القصاص أو لتقدير ملاسات وظروف تربو فيها مصلحة العفو على اعتبارات القصاص وبواعثه ، إذ لا يخالف

« ١٠ » العقل : الدية

« ٢ » راجع الجزء السابع من كتاب نيل الأوطار .

« ٣ » الجزء الرابع من حاشية العلامة ابن عابدين من كتاب القضاء .

« ٤ » جمع درك بمعنى التبعة .

الإِنسان ما رُكِّز في طبيعته ومارُكِّب عليه خلقته إلا لأمر أهم شأنًا وأبعد غوراً، وأجدر بالملاحظة والإِثار والترجيح . وهذا لا ينافي - في رأي - ضرورة وجود النيابة العمومية بجانب أولياء الدم ، تشدُّ أزرهم، وتعين على إثبات الجريمة . وقد توجد حالات تستوجب المصلحة العامة فيها تفيد حق العفو ، أو حرمان وليّ الدم منه - كما في بعض الجرائم التي تقع على الأشخاص العموميين بسبب تأدية أعمالهم العامة التي توكل إليهم بحكم القانون والنظام العام ، أو في القضايا التي تدل الدلائل على أن العفو فيها صوري رغبة من أولياء الدم في الانتقام للمعنى عليه بأنفسهم ، وكما إذا كان القاتل من أليف الجريمة ، واعتاد القتل ، وعاد إليه بعد العفو مرة بعد أخرى ، وكثر تهديده الآمنين في أنفسهم وأموالهم ، أو كولي الدم الذي قتل القاتل بعد العفو ، أو أخذ الدية « ١ » . وهذه الحالات وأشباهها يمكن استثنائها وتنظيمها بتشريع خاص بعد عرضها على أهل الفتيا والاجتهاد من العلماء وموافقتهم عليها .

أما القتل الخطأ فقد بُيِّن حكمه في سورة النساء : (وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطْأً فَتَحْرِيرُ رَقِيَّةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا ، فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقِيَّةٍ مُّؤْمِنَةٍ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقِيَّةٍ مُّؤْمِنَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ،

وقد بينت السنة نظام الدييات ، وسيأتى ذكرها في التشريع النبوي .

ب - السرقة : وقد بين الله جزاءها في سورة المائدة فقال : (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا ، نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مُعَزِّزٌ حَكِيمٌ ، فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ مُظْلِمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) .

« ١ » هذه الحالة الأخيرة ذكرها العلامة البضاوي كأحد احتمالين في تفسير قوله تعالى (فَمَنْ أَعَادَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

وأكثر العلماء على أن توبة السارق المشار إليها في الآية — لا تسقط عنه الحد في الدنيا ، وإنما تسقط عنه العذاب في الآخرة ، ورأى بعض العلماء إسقاط الحدود بالتوبة في السرقة وغيرها إذا جاء من استحق إقامة الحد عليه تائباً بنفسه من غير أن يُطلب ، وسلك ابن تيمية مسلكاً وسطاً بين هذين القولين : فقال إن الإمام مُنْخِر إذا جاء تائباً بين أن يتركه ، كما قال الرسول صلوات الله عليه ، لصاحب الحد الذي اعترف به : « اذهب فقد غفر الله لك » ، وبين أن يقيمه . كما أقامه على ما عر والغامدية ، وقد اعترفا بالزنى لما اختارا إقامته وأبيا إلا التطهير به « ١٠ » .

جـ - الحرابة وقطع الطريق : فرض الله جزاءه في سورة المائدة أيضاً ، فقال :

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا : أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

د - الزنى : وجزاؤه كما بينه القرآن : جلد الزانى مائة جلدة بدون تفصيل . قال

تعالى في سورة النور : (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) .

لكن السنة وردت بـ رجم الزانى إذا كان مُحَصَّنًا « ٢٠ » وقد جاء في صحيح مسلم « أن أبا إسحق الشيباني سأل عبد الله بن أبي أوفى : هل رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، قال : بعد ما أنزلت سورة النور أم قبلها ؟ قال : لأدرى « ٢١ » ،

« ١٠ » القياس في المروع الإسلامي ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ من الطبعة السليبة سنة ١٣٤٦ ، وكذا تفسير البضاوى .

« ٢٠ » فيكون الجلد في الآية خاصاً بغير المحصن ، والإحصان هنا بالحرية والبلوغ والعقل والإصابة في نكاح صحيح وزاد الحنفية فبدأ آخر وهو الإسلام .

« ٢١ » تاريخ التفريرع للخضرى الطبعة الرابعة ص ١١٣ .

هـ - قذف المحصنات «١» بالزنى : فرض القرآن على القاذف ثمانين جلدة .
قال الله تعالى فى سورة النور : (والذين يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا
بأربعة شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَئِكَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ) .

غير أن القرآن جعل للأزواج إذا رموا زوجاتهم ، ولم يكن لهم شهاداء إلا
أنفسهم - نظاماً خاصاً ، هو الذى يعرف باللعان ، قال جلت حكمته فى السورة
نفسها بعد الآيتين السابقتين : (والذين يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ
شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ،
وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ
تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ، وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ
كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) . وقد كان موجب القذف قبل هذه الآيات الحد ، سواء أكان
الذى رمى المرأة بالزنى زوجها ، أم كان أجنبياً عنها لما سبق من قوله تعالى (والذين
يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ... الخ) ثم
حدث بعد ذلك ما كان سبباً فى نزول الآيات التى عرضت لبيان حكم القذف إذا
كان موجهاً من الرجال إلى زوجاتهم ، ولم يكن لهم شهاداء إلا أنفسهم ، وذلك هو
اللعان «٢» ، أو الملاعة . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى سبب نزولها :

«١» ومثله قذف المحصنين ، والمراد بالرمى فى الآية قذف المحصنة أو المحصن بالزنى ،
فإن كان القذف بشيره ، كان فيه التعزير دون الحد ، وكذا إذا قذف بالزنى غير المحصن ،
والإحصاء هاهنا بالحرية والبلوغ والعقل والإسلام والفقہ « راجع تفسير البيضاوى ،
وكتب الفقہ » .

«٢» هو فى المصراع أربع شهادات مؤكدة بالإيمان ، مقرونة بشهادة الرجل باللان
وشهادة المرأة بالنضب . على ما هو مذكور فى آيات اللعان وعلى نحو ما هو مبسوط فى كتب
الفقہ .

كنا جلوساً في المسجد ليلة الجمعة إذ دخل أنصاري ، فقال : يا رسول الله ، أرايت الرجل يجد مع زوجته رجلاً ، فإن قتله قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكنت على غيظ ، ثم قال : اللهم افتح ، فنزلت آية اللعان .

أما الخمر فلم ينص القرآن إلا على تحريمها وأنها رجس ، فلم يبين عقوبتها ، ولم يفرض لها حداً كالذي فرضه لكل جريمة من الجرائم السابقة ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب فيها بالأيدي والنعال وأطراف الثياب والجريد ، وضرب فيها أربعين ، فلما استخف الناس بأمرها وتابعوا في ارتكابها ، غلظها الخليفة الراشد عمر بن الخطاب الذي أمرنا باتباع سنته ، فجعلها بالسوط ثمانين ، ونفى فيها ، وحلق الرأس - قال ابن القيم « ١ » : « وهذا من فقه السنة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الشارب في المرة الرابعة ، ولم ينسخ ذلك ، ولم يجعله حداً لأبد منه ، فهو عقوبة ترجع إلى اجتهاد الإمام في المصلحة ، فزيادة أربعين والنفي والحلق أسهل من القتل » ٢ .

وجام القول : أن العقوبات المقدرة من الشارع على الجرائم المقررة تسمى حدوداً كالتى بينها القرآن في الزنى والقذف والسرقة والحراة ، أما العقوبات غير المقدرة وهى التى ترجع إلى اجتهاد الأئمة بحسب المصالح ، ويختلف تقديرها باختلاف الأحوال والأشخاص والأزمنة ، فهى التى تسمى تعزيراً ، وأمره راجع إلى المجتهدين وأولى الأمر فى كل زمان ومكان بحسب المصلحة .

ولهذا قسموا المعاصى وجعلوها ثلاثة أنواع : نوع فيه الحد ولا كفارة فيه ، كالسرقة والزنى والقذف ، ونوع فيه الكفارة ، ولاحد فيه كقربان الصائم وزوجه فى نهار رمضان ، ونوع لحد فيه ولا كفارة ، وإنما فيه التعزير كقبلة الأجنبية ، والحلوة بها ، ودخول الحمام بغير مئزر . ونحو ذلك .

« ١ » القياس فى المصروع الإسلامى ص ١٥٢ الطبعة السلفية .

« ٢ » وسند ذكر أقوال العلماء فى عقوبة شارب الخمر « فى مبحث خصب المعصية الإسلامية وتقبلها لحرية الرأى فيما يباح فيه الاجتهاد .

ثانياً - التدوين ، وما شرعه الله تعالى للاستيثاق في العقود والحقوق والأموال :

فقد أُرشدنا في آية المداينة إلى وسائل هذا الاستيثاق من الكتابة والاستشهاد وأخذ الرهان ، وليس وراها غاية لمن يتوخى الحذر ، ويتحرى الضمان ، وكفالة الحقوق في المعاملات . قال جل شأنه في سورة البقرة : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبُهُ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ، وَلَا يَخْسَ مِنْهُ شَيْئاً ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً ، أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ ظَنِّمْلْ لِنِيبِهِ بِالْعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ، أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ، ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ . وَإِذْنِي أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ - وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) .

ثالثاً - الحلال والحرام من الطعام : فصل القرآن ذلك تفصيلاً في عدة

آيات - قال تعالى في سورة البقرة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ

مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ لِيَاءِهِ تَعْبُدُونَ ، إِنَّمَا حَرَّمَ
 عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ (١) وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ، وَمَا أَهْلَ بِهِ (٢) لِغَيْرِ
 اللَّهِ ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ ، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ : «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ
 الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، وَالْمُنْخَنِقَةُ (٣) ، وَالْمُتَرَدِّبَةُ
 وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيجَةُ ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّبْتُمْ ، وَمَا ذُبِحَ
 عَلَى النُّصَبِ (٤) ، إِلَى أَنْ قَالَ : فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ (٥) ، غَيْرَ
 مَتَجَانِفٍ (٦) ، لِإِيْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ
 قُلْ : أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمُ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ (٧) ،
 تَعْلَمُونَهُنَّ مَا عَلَيْكُمْ اللَّهُ ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ، وَادْكُرُوا
 اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ، الْيَوْمَ أُحِلَّ
 لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ، وَطَعَامُكُمْ
 حِلٌّ لَهُمْ ، . وَقَالَ : « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ

«١» الميتة هي التي ماتت من غير ذكاة

«٢» أي رفع به الصوت لغير الله عند ذبحه .

«٣» المنخقة : التي ماتت بالخنق ، والموقوذة : المضروبة بنحو خشب أو حجر حتى
 تموت ، والمتردية : التي تردت من علو أو في بثر فماتت ، والنطيحة : التي نطحها أخرى
 فماتت بالنطح .

«٤» أحيار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويعدون ذلك قربة ، . وقيل : هي
 الأصنام .

«٥» مجاعة

«٦» غير مائل ومنحرف إليه ، بأن يأكلها تلذذاً أو مجاوزاً حد الرخصة .

«٧» أي مطهين لإيهاها الصيد ، والمكلب : مؤدب الجوارح ومضربها بالعبد

والسِّيَّارَةِ . . وقال في سورة الأنعام : « فكلوا مما ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عليه إن كنتم بآياته مؤمنين » . وقال في السورة نفسها : « ولا تأكلوا مما لم يُذَكَرْ اسْمُ اللَّهِ عليه ، وإنه لفسقٌ » . وقال فيها أيضاً : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَبْتَغِيهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْةٍ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِزْيِرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . وقال في سورة الأعراف يصف الرسول صلوات الله عليه : « وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ » .

وحرم القرآن من الشراب الخمر — قال تعالى في سورة المائدة « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ » (١) من عمل الشيطان فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وبين حكمة ذلك فقال : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ » .

رابعاً — الآيمان . بين القرآن أنواع اليمين وما تجب فيه الكفارة منها في هذه الآيات : قال الله تبارك وتعالى في سورة البقرة : « وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ » ، وقال في سورة المائدة « لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ » (٢)

« ١ » قدر .

« ٢ » هو ما يبدر من المرء بلا قصد ، كقول الرجل : لا والله . لي والله ، وإليه ذهب الشافعي ، وقيل : الحلف على أمر ماضٍ أو حاضر وهو يظن أنه كما قال والواقع ليس كذلك ، وإليه ذهب أبو حنيفة .

فَأَيُّهَا أَيُّهَاكُمْ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ ۖ الْإِيمَانَ، فَكَفَّارَتُهُ
إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ، أَوْ
كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، ذَلِكَ
كَفَّارَةُ أَثْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ، وَاحْذَرُوا أَثْمَانَكُمْ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

وجاء في السنة أن اليمين لا تكون إلا بالله تعالى . فقد روى عن عبد الله بن عمر
أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع عمر بن الخطاب وهو يحلف بأبيه ، فقال : « إِنَّ
اللَّهَ يَنْهَاهُمْ أَنْ سَخَفُوا بِآبَائِهِمْ . مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ
أَوْ لِيَصُمْتُ » .

خامساً - الزواج : عني الإسلام والقرآن بالأسرة أعظم عناية ، فوضع لها من
النظم والأحكام ما يكفل لها الوحدة الشاملة ، والحياة الصالحة ، والرابطة الوثيقة ،
وأقامها على دعائم من المودة والرحمة ، والمعدلة والإحسان .

رغب القرآن الكريم في الزواج ، وحث عليه ، فقال في سورة النور :
« وَاتَّكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ » ، إِنَّ
يَكُونُوا فَرَاءً يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ، وَلِيُتَعَفَّفِ
الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ . ثم بين الله جليل
حكيمته ، وعظيم نعمته ، حتى جعله من آياته التي يمتن بها على عباده ، فقال في سورة
الروم : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا
وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » ، لَأَنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .
وجعل على الزوج مهراً يؤديه للزوجة ، فقال تعالى في سورة النساء : « وَآتُوا

١٠ أي بما وثقتم الأيمان عليه بالقصد والنية - راجع كتب التفسير والتفهيم
٢٠ جمع أيم وهو من لا زوج له من الرجال والنساء ، بكروا كان أو ثيبا .

النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ «١» نَحْلَةً . كما قال في السورة نفسها : « وَأُحِلَّ لَكُمْ ما وراءَ ذلكُمْ أَكُنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ «٢» غَيْرَ مُسَالِحِينَ . »
وبين القرآن المحلات والمحرمات من النساء لقراة ، أو رضاع ، أو مصاهرة ، فقال في سورة النساء :

« وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ
إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ، حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ
وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبناتُ الْأَخِ وَبناتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ
الَّتِلَاثِ الْأَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ
وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ،
فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ «٣» أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ
مِنْ أَصْلَابِكُمْ «٤» . وَأَنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ،
إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ، وَالْمُحْصَنَاتُ «٥» مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَأُحِلَّ لَكُمْ ما وراءَ ذلكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا
بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَالِحِينَ ، فَا سْتَمْتِعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً . »

وأحل نساء أهل الكتاب بقوله في سورة المائدة : « الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ
وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ

«١» صدقاتهن : مهرهن ، ونحلة : عطية

«٢» الإحصان : العفة ، والسفاح : الزنى

«٣» زوجاتهم .

«٤» احتز به عن المتبين .

«٥» ذوات الأزواج .

المؤمنات والمُحصَنات من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم إذا
آتيتهم من أجورهم مُحصنين غير مُساخين ولا مُتخين أئذانٍ ،

وحرم زواج المسلم بالمشركة ، والمسئلة بغير المسلم . قال تعالى في سورة البقرة :
« وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ » ، وَلَا مَؤْمِنَةٌ مُّشْرِكَةٌ وَلَا مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ
مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ، وَلَعَبْدٌ
مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أولئك يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، واللهُ
يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْغَفْرِ بِإِذْنِهِ وَيُؤَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .
وقال جل شأنه في سورة الممتحنة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ
مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ » ، الله أعلمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا
تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَآهِنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لِهِنَّ .

وما يجب التعرض له هنا أن القرآن أباح تعدد الزوجات للرجل الواحد إلى
أربع ، وقد كان التعدد عند العرب في الجاهلية شائعاً منتشراً ، ولم يكونوا
يقفون فيه عند عدد معين ، فربما تزوج أحدهم عشرة ، كذلك كان التعدد شائعاً
بين اليهود قبل السبي ، في ملوكهم وأنبيائهم ، كما كان شائعاً في أكثر الأمم
الأخرى ، إما بطريقة شرعية ، وإما بطريقة فعلية ، وأهل أوروبا الآن وإن حرموا
التعدد قانوناً ، لم يحرموه فعلاً ، فقد لجأ كثير منهم إلى المساقفة واتخاذ الأئذان ،
مما ترتب عليه كثير من الشرور والآثام .

فما الذي جاء به الإسلام وكتابه ؟ . رخص للرجل في الزواج بأكثر من
واحدة ، على أن لا يتجاوز أربعاً . قال تعالى في سورة النساء : « فَانكِحُوا
مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ، مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا
تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » ، أو ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، ذلك أدنى أَلَّا تَعُولُوا ،
فكان ذلك أمراً سائناً لا إنكار فيه ولا اعتراض ، بل تلقاه المسلمون وقتئذ

بأحسن قبول ، وفهموا حكمته ، وعرفوا موطنه الذى فيه يباح ، كما عرفوا الإصلاح الذى جاء به الإسلام والقرآن فى هذا الشأن . فقد كان التعدد لاحد له ، وكان الرجل فى الجاهلية لاسلطان عليه ولا زاجر ، فلا تطالبه نفسه ، ولا يلزمه مجتمع بالعدل بين هؤلاء النسوة ، فكان يؤثر بعضهن على بعض ، ويشق بعضهم بعض ، ولا حق لمن قبله فى معاشرته بمعروف ولا فى إنفاق ، ولا عدل فى القسم بينهن ، فجاء الإسلام ، فلم يحرم تعدد الزوجات تحريماً مطلقاً ، ولم يترك أمر التعدد للرجال كما كان من قبل من الإسراف فى العدد وفى ظلم النساء ، بل قيده بقيدين : أحدهما ، ألا يتجاوز أربعاً ، والثانى عدم الخوف من الجور ، فإن خاف على نفسه الظلم بإيثار زوجة على أخرى ، أو لأنه لا يستطيع الإنفاق على أكثر من واحدة ، ومن باب أولى إذا استيقن الظلم أو عزم على الجور - لم يسح له التعدد ، ووجب الاكتفاء بواحدة . « فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » ، أو « مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » ، ذلك أدنى أن لا تعولوا . والعول : الجور . أى ذلك الاقتصار على زوجة واحدة أقرب الوسائل لعدم وقوعكم فى الجور المانع من تعدد الزوجات لمن خاف الوقوع فيه .

وقد أوجب الإسلام عند التعدد ، أن يعاشرهن جميعهن بالمعروف ، وأن يعدل بينهن فى القسم ، ويسوى بينهن فى المبيت والنفقة والمعاشرة بالمعروف وسائر الشئون الزوجية إلا فيما يختص بالمحبة والميل القلبى ، فإن ذلك - لأنه فوق الوسع ، وخارج عن الاستطاعة البشرية - تجاوز الله عنه ورخص فى بعضه ، ونهانا أن نميل كل الميل ، وذلك هو قوله تعالى « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ » ، فلا تميلوا كل الميل ، فتذرؤنها كالمعلقة ، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً . . . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه ، فيعدل ، ثم يقول : « اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيكَ أَمْلِكْ ، فَلَا تُؤَاخِذْنِي فِيكَ تَمْلِكْ وَلَا أُمْلِكْ » ،

وفي رواية : « وأنت أعلم بما لا أملك (١) » .

ربما قيل : كان من واجب الإسلام وقد جاء للإصلاح الشامل - أن يقضى على التعدد ويحرمه تحريماً ، كما حرم غيره من آثار الجاهلية ، فنقول : ما كان لدين جاء خاتم الأديان ، وصالحاً لكل زمان ومكان ، قد وافق الفطرة الإنسانية ، وجاء محققاً لمصلحة المجتمع - أن يغلق باب التعدد ويحظره في جميع الحالات ، فقد تكون امرأة الرجل عاقراً ، أو دخلت في سن اليأس من الحمل ، ويرى أنه مستعد للإعقاب من غيرها ، أو ذات مرض مانع منه ، أو من إحصان الرجل ، وهو لا يرغب في فراقها ، أو يرى أن المرأة الواحدة لا تكفي لإحصانه ، لأن مزاجه يدفعه إلى كثرة الإفضاء ، ومزاجها يخالفه ، ويرى نفسه مضطراً إلى أحد الأمرين : التزوج بثانية ، أو الزنى الذي يضيع الدين والمال والصحة ، ويكون شراً على الزوجة من ضم واحدة إليها متى روعيت شروط إباحتها في الإسلام التي أسلفنا بيانها ، وقد تكون الأمة في حاجة إلى التعدد للإكثار من نسلها ، لقلة رجالها وكثرة نساها في أعقاب حرب أو أمراض جائحة ، فهل يوجد مشروع منصف ، أو حكيم اجتماعي مصلح يحظر التعدد في مثل هذه الأحوال أو تلك الضرورات ؟ اللهم لا ، وهذا ما فعله الإسلام ، وزاد عليه أن قيده بعدم الخوف من الجور ، وجعله عند تحقق شرطه مباحاً ولم يوجبه ، هذا إلى أن النساء مخيرات في قبول العقد على رجل متزوج وعدم قبوله ، بل أجازت الشريعة لهن ، أن يشترطن في عقد زواجهن جعل عصمتهم بأيديهن ليطلقن أنفسهن إذا شئن - بناء على ما ذهب إليه بعض أئمة الفقه من صحة كل شرط يتعاقد عليه الناس غير مخالف لنص قطعي في الكتاب والسنة ولا سيما شروط الزوجية - على أنه لو قبلت المرأة أن تتزوج على أخرى ، ولم تشترط جعل عصمتها بيدها ، أو لم يُقبل منها هذا الشرط ، واضطرت إلى قبول التزوج بدونه ، ثم وقع عليها الضرر بعد ذلك من زوجها .

(١) يعني فرط محبة لعائشة « اظر تفسير أبي السعود »

وثبت عدم عدله في القسم، كما ثبت عسفه وجوره بما لا يستطاع معه دوام
المعاشرة بالمعروف، فما الذي يمنع شرعاً أن يكون لها حق طلب التفريق بينها
وبين زوجها من طريق القضاء ؟

كذلك إذا امتنع الزوج عن الإنفاق، أو غاب، ولم يكن له مال ظاهر تنفق
منه الزوجة، أو ثبت إعساره وعجزه، فإن بعض الأئمة جعل لها الحق في طلب
التفريق لدى القاضي، وقد أخذ قانون المحاكم الشرعية المصرية بهذا الرأي على
تفصيل مذكور فيه «١» فهل توجد حوافظ للمرأة، وعواصم لها من السوء خير
بما قرره الإسلام لها من هذه الأحكام ؟ .

وقد شهد المنصفون من علماء أوروبا وحكامها بعدل الإسلام وورق تشريعه في
ذلك، وكل من يعترض لإباحة التعدد في الإسلام، إما أن يكون منشأ اعتراضه
الجهل بما اشترطه الإسلام لإباحته، متخذاً عمل بعض المسلمين الذين لم يراعوا في
التعدد روح الإسلام وحكمته، ولم ينزلوا عند شرطه حجة على اعتراضه، وإما
التقليد لأهل أوروبا، وترديد مازعه غير المنصفين من كتابها «٢» .

ومن عظيم مآثره القرآن للحياة الزوجية، أن رفع من شأنها وأعلى من
مكانتها، فجعل كلا من الزوجة والزوج شخصية نافعة، وعضواً عاملاً، وراعياً
مستولاً، ولم يقر الزوجة في وضعها الأول حيث كانت متاعاً للرجل، وأداة مسخرة

(١) واجع المادتين ٤، ٥ من القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠، والمادة السادسة من
القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩

(٢) ومن أراد مزيداً من البيان في هذا المبحث فليرجع إلى ما كتبه العالم المحقق السيد
محمد رشيد رضا في كتابه «الوحي المحمدي»، و «حقوق النساء في الإسلام»، وإلى كتاب «أسرار
الفرقة الإسلامية، للأستاذ إبراهيم علي، وجاء في العدد ٦٦٥ من مجلة الرسالة الصادر
في أول أبريل سنة ١٩٤٦ أن في ولاية «أوتاوة» في القارة الأمريكية بطاقة ترف
(بالورمون) تدعو إلى تعدد الزوجات، وأن أحد الكتاب قال فيهم : إن تجربتهم قد
أسفرت عن نجاح لا ريب فيه، ولكننا لم نطلع على النظام الذي وضموه للتعدد .

له . قال تعالى في سورة البقرة : وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ
وَالرِّجَالُ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ ، وبذلك هدم جميع الدعاوى والعادات والتقاليد التي
كان يستبد بها الرجال الأقوياء ، ويستعلون بها على النساء الضعيفات ، في أنفسهن
وأموالهن ، ووضع قاعدة جليلة قضت بمساواة المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات ،
غير أنه رعاية لمقتضى الفطرة والاستعداد - والإسلام دين الفطرة - قسمها بين
الرجل والمرأة على حسب هذه الفطرة ، وذلك الاستعداد ، ففرض على الرجل
النفقة والحماية والدفاع الخاص بالأسرة والعالم للأمة والدولة ، إذ كان الرجل في
غالب جنسه فوقها في القوة والقدرة على الكسب ، فهو أوسع عقلاً ، وأقوى عضلاً ،
وأعظم استعداداً للعلوم ، وأقدر على مختلف الأعمال ، واحتمال المشاق ، وخص
المرأة بالرضاع ، وحضانة الأطفال ، وواجبات الأمومة ، وتدير شؤون البيت .
غير أن الحياة الزوجية حياة اجتماعية ، ولا بد لكل اجتماع من رئيس ، لأن
المجتمعين قد تختلف آراؤهم ورغباتهم في بعض الأمور ، فلا تقوم مصالحهم ، ولا
تبقى وحدتهم ونظامهم إلا إذا كان لهم رئيس يرجع إلى رأيه . فيجسم الخلاف
ويبقى على الوحدة ، ويرعى النظام ، ولا شك أن الرجل أحق بالرياسة ، لأنه أعلم
بالمصلحة ، وأقدر على التنفيذ بقوته وماله ونفاذ بصيرته وقوة إرادته ، واحتماله
وصبره ، وهي الدرجة التي جعلها الله للرجال على النساء ، درجة الرياسة والقيام
عليهن ، وذلك لسببين : أحدهما فطري بما أعطاهم الله مالم يعطهن من الحول والقوة
وحسن التدبير ، فكان التنوع في بعض التكاليف والأحكام ، أثراً للتفاوت في
الفطرة والاستعداد ، والآخر كسبي وهو ما يبذلونه من المال في المهور والنفقات ،
على أن تلك الرياسة ليست باستبدادية ، بل هي شورية مقيدة بأوامر الشريعة
ونواهيها ، وبالعرف المرعى بين الناس في المعاشرة بالمعروف ، وما يجب لهن من
الرعاية والتكريم . قال جل شأنه في سورة النساء : وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ
فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا
كثيراً . . فهي رياسة الغرض منها المحافظة على نظام الأسرة ورعايتها ، ولما
واجبات على الرجل هي حماية الأسرة ، ودرء الشر والفساد عنها ، ونفقة الزوجة

والأولاد وتعهدهم ، لا تُكَلِّفُ منها شيئاً ، وإن كانت أغنى منه ، وليس عليها بإزاء ذلك إلا طاعة الرجل في المعروف ، وحفظ ماله ، وصيانة شرفها ، وحيطة حصانتها ، ومعظمها واجبات تعود منافعها إليها قبل أن تعود إليه .

وقد بين الله هذه الدرجة وصفة الصالحات من النساء ، وحكم الناشئات منهن فقال في سورة النساء : الرَّجَالُ قَوَّامُونَ (١) عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَاتِنَاتٌ مَا فُظِّلَتْ لُغَيْبٍ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً .

سادساً - الطلاق : شرع القرآن نظام الطلاق والفرقة بين الزوجين ، كما شرع

نظام الوحدة والاجتماع بينهما ، لكنه لم يشرعه عبثاً ، ولم يبيحه إذا كان فيه بغي وظلم ، أو وقع بغير سبب يستوجبه أو مصلحة تقتضيه ، ونصوص الكتاب الكريم وقواعده العامة التي تحرم الظلم ، وتمنع الأذى والضرر - من أقوى الدلائل على ذلك ، فكيف إذا ظاهرتها نصوص السنة الصريحة التي وردت في هذا الشأن من مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « مَا أَحَلَّ اللَّهُ شَيْئاً أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنْ

(١) جاء في تفسير البيضاوي عند ذكر هذه الآية : أن الرجال قوامون على النساء ، يقومون عليهن قيام الولاية على الرعية ، وأن الله فضل الرجال عليهن بكمال العقل ومزيد القوة في الأعمال والطاعات ، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر ووجوب الجهاد وصلاة الجمعة ونحوها والتعصيب وزيادة السهم في الميراث ، والافراد بالطلاق ، وفسر نشوز المرأة بعبثائها ، وترفعها عن مطاوعة الأزواج ، وضربها بأنه ضرب غير مبرح ولا شائن ، كما قال : إن الوطء والمهر والضرب أمور مرتبة ينبغي أن يتدرج فيها ، وأن المرأة متى أفطعت من النشوز لم يكن للرجل عليها سبيل بالتوبيخ أو الإيذاء ، ووجب أن يجعل ما كان منها كأت لم يكن .

الطلاق ، وقوله : « أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ الطَّلَاقَ » ، وقوله : « أَيُّهَا امْرَأَةُ سَأَلْتُ زَوْجَهَا طَلَاقَهَا مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَأْتُهُ الْجَنَّةَ » ، وقوله من حديث آخر : « وَإِنَّ الْمُخْتَلِعَاتِ مِنْ الْمُنَاقِقَاتِ » .

إذاً لماذا شرع الإسلام الطلاق ؟ شرعه تحقيقاً لأصل من أصوله القيمة ، وهو اتخاذ حد وسط بين الإفراط والتفريط ، فهو لم يُفْرِط ولم يُفْرِطْ ولم يَغْلُ في المحافظة على عقدة النكاح واستمراره طوال الحياة ، لأنه قد يحدث ما يوجب الفُرقة ، وما يكون معه استمرار الزوجية فساداً ووبالاً ، كأن يتصف أحدهما أو كلاهما بسوء في خلقه ، أو فساد في تربيته ، أو يكون بينهما تخالف في الطبع ، أو تنافر في المقاصد ، ترتب عليه عجزهما عن أداء الحقوق ، وإقامة حدود الله ، وعز عليهما الصبر ، واستحكم الشقاق ، المفضي إلى الشقاء الدائم - كذلك لم يُفْرِطْ فيه ، فلم يترك الطلاق فوضى ، بل حاط عقد الزوجية بما يحفظها من المؤثرات الطارئة ، والعوامل العارضة التي لا تلبث أن تزول عند سكوت الغضب ، ورجوع العقل إلى أسباب الثبوت ، ووسائل التفكير الهادئ الرزين .

ولا أدل على عدل الإسلام ورحمة القرآن بما رأيناه أولاً بين الإفراج من المفاسد والآثام حينما كان الطلاق محرماً بينهم لا يباح إلا بسبب الزنى ، وما شاهدناه فيهم « ثانياً » من الإسراف في الطلاق بما لا يبيحه الإسلام حينما جعلوا طلبه حقاً للرجال والنساء ، وبخاصة في « أمريكا » .

كان الطلاق مشروعاً في التوراة ، والذي كُوِّن في الشريعة عند اليهود وجرى عليه العمل ، أن الطلاق يباح بغير عذر ، كرجية الرجل في التزويج بأجل من امرأته ، ولكنه لا يحسن بدون عذر ، والأعذار عندهم كثيرة ، منها عيوب في الخلقة ، وغيوب في الأخلاق ، والزنى أقوى الأعذار عندهم ، وتكفي فيه الإشاعة وإن لم تثبت ، بيد أن المسيح عليه السلام لم يقر منها إلا علة الزنى ، وأما المرأة فليس لها أن تطلب الطلاق مهما تكن عيوب زوجها ، كذلك كان الطلاق معروفاً عند غير أهل الكتاب من الوثنيين ومنهم العرب ، ولم يكن له حد ولا نظام ، فكان

يُقع على النساء منه ظلم كثير ، وشر مستطير . فمن ذلك : أن العرب في الجاهلية كان لهم طلاق ومراجعة في العدة ، ولكن لم يكن للطلاق حد ولا عدد ، فإن كان لمغاضبة عارضة ، عاد الزوج فراجع واستقامت عثرته ، وإن كان لمضارة المرأة راجع قبل انقضاء العدة ، واستأنف طلاقاً ، ثم يعود إلى ذلك المرأة بعد المرة ، فكانت المرأة لعبة بيد الرجل يضارها بالطلاق ماشاء أن يضارها .

فكان ذلك مما أصلحه الإسلام من أمور الاجتماع ، فإنه أبطل كل ما كان عليه العرب من مضارة للنساء في الطلاق ، وجعله مرتين . حتى إذا كانت الثالثة حرمت المرأة على مطلقها حتى تنكح زوجاً غيره ، ثم شرع من الأوامر ، وقرر من الأحكام والنظم ما لم يقع الطلاق إلا عند وجود ما يقتضيه ، وإذا كان يكون حاجة من حاجات المجتمع ، وضرورة من ضروراته ، واتباعها أيضاً تنفي المفاسد التي تنجم منه .

يوضح ذلك أحكامه وأوامره الآتية :-

(١) شكك الله المرأة في وجدانه عند حصول نفرة ، فقال في سورة النساء : **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَهُوَ فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ « لَا يَفْرُكُ » (١) مؤمنٌ مؤمنة ، إن كره منها مُخلقاً رَضِيَ منها آخَرٌ ، كما رغب القرآن المرأة في طلب الصلح فقال : « وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا ، أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ » .**

(٢) أمر بالتحكيم عند خوف الشقاق ، فقال مخاطباً المسلمين في سورة النساء : **« وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ »**

(١) لا يفضها .

أَهْلِيهَا ، إِنَّ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوقِّتُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا . .

(٣) تحديده العدد الذى يملك الرجل الرجعة فيه بمرتين ، ولم يكن عند العرب محدودا . قال تعالى فى سورة البقرة ، الطلاقُ مَرَّتَانِ فإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ، فإذا طلق الثالثة حرمتُ عليه ، فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَتَكَبَّرَ زَوْجًا غَيْرُهُ . .

(٤) تحريمه إمساك المرأة ومراجعتها ضراراً . قال تعالى فى سورة البقرة ، وإذا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ قَبْلَ أَنْ أَجْلِهِنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لْتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ . .

(٥) نهى أولياء المرأة عن عضلها أى منعها بعد انقضاء العدة من الزواج مطلقاً ، أو الرجوع إلى زوجها الأول بعقد جديد إذا تراضيا على ذلك بالمعروف ، وذلك هو قوله تعالى فى سورة البقرة : « وإذا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ قَبْلَ أَنْ أَجْلِهِنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ » (١) أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَمْ أَزْكَى (٢) لَكُمْ وَأَطْهَرُ ؛ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . .

(٦) نهى القرآن المطلق أو المخالغ أن يأخذ من المرأة شيئاً مما كان قد أعطاه إياها عند الزواج من مهر وغيره إذا كان البغض والنشوز والإساءة من قبله

(١) العضل : النع والحبس والتضييق .

(٢) أَزْكَى : أتمى وأتق .

وأراد استبدال زوج مكان زوج غيرها ، وهو ما يدل عليه قوله تعالى في سورة النساء : « وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ ، وَآتَيْتُمْ أَحَدَهُمْ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ؟ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ ، وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا (١) غَلِيظًا ، وَأَبَاحَ أَخْذَ الْقَدِيَةِ وَالْعَوْضَ الْمَالِي مِنَ الْمَرْأَةِ عِنْدَ الطَّلَاقِ وَالْخُلْعِ إِذَا خَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، بَأَن تَكُونَ مَبْغُضَةً لَهُ ، أَوْ سَيِّئَةً خَلْقًا ، أَوْ كَانَ النِّشُوزُ مِنْهُمَا ، وَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فِي حَسَنِ الْعَشْرَةِ ، وَتَوْفِيَةِ مَا أَرْزَمَهُمَا اللَّهُ بِهِ مِنْ حَقُوقِ النِّكَاحِ ، وَهَذَا هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : « وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » . فَلَا تَعَارِضَ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ ، وَشَذَّ مِنْ قَالٍ : إِنْ هَذِهِ الْآيَةُ مَفْسُوخَةٌ بِالْآيَةِ الْأُولَى .

روى على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : « إِذَا تَرَكْتَ الزَّوْجَةَ إِقَامَةَ حُدُودِ اللَّهِ اسْتَخْفَافًا بِحَقُوقِ الزَّوْجِ ، وَلِسَوْءِ خَلْقِهَا ، فَقَالَتْ : لَا أُبْرِكَ قِسْمًا ، وَلَا أَطَالُكَ مَضْجَعًا ، وَلَا أَطِيعُ لَكَ أَمْرًا ، فَقَدْ حُلَّ لَهَا مِنْهَا الْقَدِيَّةُ ، وَلَا يَأْخُذُ أَكْثَرُ مَا أَعْطَاهَا شَيْئًا ، وَيَحِلُّ سَبِيلُهَا وَإِنْ كَانَتْ الْإِسَاءَةُ مِنْ قَبْلِهَا » .

والحنفية قالوا : إِنْ كَانَ النِّشُوزُ مِنْ قَبْلِهَا ، حُلَّ لَهَا أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا مَا أَعْطَاهَا ، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَبْلِهِ لَمْ يَحِلَّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا شَيْئًا ، فَإِنْ فَعَلَ جَازَ فِي الْقَضَاءِ ، وَإِنْ كَانَ بِسَبَبِ خِيثٍ . وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ الْإِمَامُ مَالِكٌ ، فَقَدْ ثَقُلَ وَهَبَ عَنْهُ أَنَّهُ إِذَا طَلَّقَهَا ، أَوْ خَالَعَهَا عَلَى مَالٍ ، وَثَبَتَ أَنَّهُ أَضَرَّ بِهَا ، وَضَيَّقَ عَلَيْهَا ، وَأَنَّهُ ظَالَمَ لَهَا ، قَضَى عَلَيْهَا بِالطَّلَاقِ ، وَرَدَّ عَلَيْهَا مَالَهَا . وَهُوَ رَأْيُ سَدِيدٍ .

(١) عهداً وثيقاً - وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « أَخْذَتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةٍ اللَّهِ ، وَاسْتَخْلَطْتُمْ فِرْجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ »

وما أحسن ما قاله أبو بكر الجصاص في كتابه (أحكام القرآن) : « قد أنزل الله في الخلع آيات ، منها قوله تعالى « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » فهذا يمنع أخذ شيء منها إذا كان النشوز من قبله ، وقال في آية أخرى : « ولا يحل لکم أن تأخذوا بما آتیتموهن شيئا ، إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله » فأباح في هذه الآية الأخذ عند خوفهما ترك إقامة حدود الله ، وذلك من بغض المرأة لزوجها ، وسوء خلقها ، أو كان ذلك منها ، فيباح له أخذ ما أعطاهما ولا يرداد » .

ومن العلماء من أباح للرجل في هذه الحالة أخذ الزيادة (١) .

(٧) إذا لم يكن بد من الطلاق فسنة الإسلام أن يوقعه الرجل في ابتداء العدة ، وذلك بأن يطلقها في طهر لم يمسه فيها ، لئلا يطول عليها زمن العدة ، قال جل ذكره في سورة الطلاق : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ (٢) وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ » .

(٨) أمر في سورة الطلاق أن تبقى الزوجة في أثناء عدتها في بيت الزوجية ، ما لم يحصل منها ما يوجب خروجها : « لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ، وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا » . وقد أشارت الآية إلى حكمة قرارها في بيتها .

(٩) جعل القرآن الزوج أحق بالمرأة مادامت في عدة الطلاق الرجعي . قال

(١) راجع الجزء الأول من أحكام القرآت ، والهداية وفتح القدير في مبحث الخلع .
(٢) أى في وقتها وهو الطهر فإن اللام في الأزمان وما يشبهها للتأقبت ، ومن قال : إن العدة بالحيض على اللام بمحذوف أى مستقبلات لعدتهن « راجع تفسيرى البياضى وأبى السعود »

تعالى في سورة البقرة: «وَبُعُولَتُهُنَّ» (١) أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا . .

(١٠) أمر القرآن أن تتمتع المرأة عند الفراق - تطيبها لقلبها ، وإزالة لتوهم احتقار الرجل لها ، أو إرتيابه فيها . قال تعالى في سورة البقرة : «وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ ، وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ ، مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْحَسَنِينَ ، وَقَالَ «وَالْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ،

(١١) جعل الإسلام الطلاق بيد الرجل - دون المرأة - لأنه بمقتضى عقله ، واستعداده الفطرى أصبر على احتمال المكاره ، وأشد ثباتا في الأمور ، وأبعد نظرا في العواقب من المرأة ، فلا يسارع إلى الطلاق في كل غضبة ، ولا ي سبب ، هذا إلى أنه أحرص على بقاء الزوجية التي أنفق في سبيلها من المال ما يحتاج إلى مثله ، إذا طلق وأراد التزوج بأخرى ، وعليه تبعات مالية تترتب على الطلاق من مؤخر الصداق ، ومتعة الطلاق ، ونفقة العدة ، ولا كذلك المرأة ، فإنها أسرع منه غضبا ، وأقل احتمالا ، وليس عليها من تبعات الطلاق ونفقاته مثل ما عليه ، فإذا جعل الطلاق بيدها تعرضت كثيرا عقدة الزوجية للانفصام لأدنى الأسباب ، أو لأسباب غير سائفة ولا مقبولة ، كما يشاهد ذلك في أمريكا وإنجلترا وغيرهما من البلاد التي جعلت طلب الطلاق حقا للرجال والنساء على السواء ، فكثر الطلاق عندهم وصار أضعاف ما عند المسلمين (٢) .

سابعاً : العدة : بما شرعه القرآن عند حصول الفرقة بين الزوجين أن تعتد

(١) أى أزواج المطلقات - جمع بعل .

(٢) نداء للجلس الطيف أو حقوق النساء في الإسلام للسيد محمد رشيد رضا ، وأسرار الميرمية الإسلامية للأستاذ إبراهيم على .

المرأة . والعدة أجل مُضرب لانقضاء ما بقى من آثار النكاح ، فلا تتزوج بغير زوجها الأول حتى تنقضى عدتها ، وفي حال الطلاق الرجعى ، وهو مرتان يجوز للرجل أن يراجع مطلقته في أثناء العدة بدون عقد جديد ولا مهر ، وإنما تجب العدة إذا وقعت الفرة بعد الدخول ، إلا إذا كانت بسبب الوفاة ، فإنها تجب مطلقا ، وإن كانت قبل الدخول - دلَّ على الإطلاق في الوفاة قوله تعالى في سورة البقرة : « وَالتَّائِبَاتِ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا . فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا يُنَاجِي عَلَيْكُمْ فِيهَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ . وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » . أما المطلقة ومن في حكمها فإن عليها العدة بعد الدخول لا قبله - لقوله تعالى في سورة الأحزاب : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمْسُوهُنَّ ، فَالْكُفُّ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسَرَاحُهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا » .

ولتشريع العدة حكم وأسرار ومنافع جليلة ، فهي في الاصل لتعريف براءة رحم المرأة من الحمل ، وصون الانساب من الاختلاط ، ولذلك لم تكن على المطلقة قبل الدخول عدة . ولكن الشرع راعى حكما وأسرارا أخرى إلى جانب هذه الحكمة الأصلية ، وهي إظهار شأن النكاح ، والإعلام بأنه لجليل خطره - لا ينحل إلا بربص يعلم به انحلاله ، كما أنه لم ينعقد أول بدءه إلا بشهود يشهدون انعقاده ، كذلك هي فرصة يتمكن فيها الرجل من مراجعة زوجته ، وذلك في عدة الطلاق الرجعى ، فعسى أن يسكت عنه الغضب ، ويشوب إليه الرشد ، فيمكن تلافي الأمر بالمراجعة قبل انقضاء العدة ، وقد اختصت عدة الوفاة إلى جانب الحكمة الأولى بحكمة أخرى هي الحداد على الزوج ، وإظهار الوفاء له ، ولذلك وجبت على المرأة وإن لم يدخل بها .

والعدة كما قررها القرآن أربعة أنواع :

١ - عدة بالاقراء لذوات الحيض - قال جلّت حكمته في سورة البقرة :
« وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » . والقرء : الحيض
أو الطهر على الخلاف في ذلك .

٢ - عدة بثلاثة أشهر ، وذلك للإيسات ، ومن لم يحضن . قال تعالى في سورة
الطلاق : « وَاللَّائِي يَتَّبِعْنَ مِنْ الْحَيْضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبَسْتُمْ
فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ » .

٣ - عدة بأربعة أشهر وعشرة أيام ، للتوفى عنها زوجها - قال جل شأنه :
« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ
أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » .

٤ - عدة بوضع الحمل : وذلك لذوات الحمل وإن كانت الفرقة بالوفاة . لقوله
تبارك وتعالى في سورة الطلاق : « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ
حَمْلَهُنَّ » ، وهذا ما فهمه جمهور العلماء من الآيتين السابقتين - محتجين بما احتج
به ابن مسعود رضى الله عنه من أن آية وضع الحمل نزلت بعد آية الوفاة التي
خصت بما إذا لم تكن المرأة حاملا ، ورأى على رضى الله تعالى عنه - في الحامل
المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الاجلين عملا بالآيتين جميعا ، ووافقه على ذلك
ابن عباس .

ثامنا - نظام التوريث :

شرع القرآن للإرث نظاما عادلا محكما ، حرم به كثيرا من ضروب الظلم التي
كانت شائعة في العرب وغيرهم من الأمم ، فقد كان الأولون لا يورثون الأطلاق
ولا النساء (١) إنما كانوا يورثون الكبار من الأبناء ، لأنهم هم الذين يحملون

(١) تفسير الفيضاني .

السيف ، ويحمون البيضة ، ويذبون عن الحوزة ، وقد وقع كثير من الامة الاخرى حتى اليوم في مثل هذا الظلم ، وفاتهم أن الصغير يحتاج في تربيته وتنشئته ، وكذا فيما يستقبله من الأيام إلى المال ، كما يحتاج الكبير ، بل ربما كانت حاجته أشد ، وسيصير إذا قدرت له الحياة كبيراً ، ويحمل من الأعباء والتبعات مثلاً يحمل ، كذلك المرأة في حاجة إلى المال يصونها من الفقر والابتذال إذا لم تجد من يعولها . وما عليها من الواجبات الاجتماعية في السلم ، ومعونة الرجال في الجهاد والحرب ، لا يقل عن واجبات الرجل .

أقر الإسلام مبدأ التوريث ، فأبطل بذلك أيضاً بعض النظم المتطرفة الهدامة التي تدعو إلى إبطال الإرث وإلغاء انتقال الملكية به . لأن إبطاله منافي لما ركز في الفطرة الإنسانية ، والجلبة الطبيعية ، من أن الإنسان إنما يدفعه إلى الكدح في الحياة ، والسعى في جمع المال وتنميته - حاجته إلى الإنفاق منه على نفسه وأهله وولده ، وهو يشعر شعوراً جبلياً قوياً بأن عليه - في حدود استطاعته - ادخار شيء من ماله لأولاده بعد وفاته ، وإذا كان زوال ملكه عنه بعد موته أمراً ليس عنه محيص - فمن الأولي به ؟ ومن هو اللاحق بأخذه ؟ لاشك أنهم أولاده وأبواه وذوو قرباه ، لأنهم أهل نصرته ، وموطن محبته ومودته ، هم الذين يشدون أزره ، ويفرجون كربه في الشدائد والملمات ، ويحملون عنه من المغارم والأعباء ما لا يحمله سواهم ، أضف إلى هذا أنه قد يكون لهم من الجهد والمؤازرة ما أعان على تكوين مال مورثهم ، وحفظه ونمائه وفيرته . ذلك وفي الميراث - كما شرع الإسلام - توزيع عادل للملكية والثروة .

وهذه هي أحكام القرآن في الميراث :

(١) هدم ما كانت عليه الجاهلية من قصر الاستحقاق على الرجال ، وقضى باستحقاق المرأة الإرث ، فقال تعالى في سورة النساء : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

والأقربون ، بما قتل منه أو كثر نصيباً مفروضاً .

(٢) بين أحوال أولاد الميت ، ونصيبهم في كل حال ، بقوله في السورة نفسها « يوصيكم الله في أولادكم ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن مثل ما ترك ، وإن كانت واحدةً فلهما النصف » . والحكمة في تفضيل الذكر على الأنثى ، وأخذه مثل حظ الأنثيين : أن على الرجل من التبعات المالية ما وضعه الله عن المرأة ، فهو عند الزوج يعطى امرأته مهرآ . ويجب عليه أن يعد لها مسكناً ، وأن ينفق من ماله عليها وعلى أولاده منها ، سواء أكانت فقيرة أم غنية ، وليس عليها نفقة نفسها ، ولا شيء من نفقة أولادها ، ثم قابل ذلك بأخته التي أخذت نصف نصيبه . فهي إذا تزوجت لا تبذل مهرآ ، وعلى زوجها نفقتها ونفقة أولادها منه ، وهي لا تكلف شيئاً من ذلك ، إلا أن تطوع . وما نصيبها الذي تستحقه إرثاً إلا بمثابة المال المدخر لها ، لوقت الحاجة أو الاضطرار ، كما إذا لم يتح لها الزواج ، أو مات زوجها ، ولم يترك لها ما تنفقه على نفسها أو نحو ذلك . فالذكر أحوج إلى المال من الأنثى ، لأن الرجال قوامون على النساء ، كما أنه أنفع للميت في حياته منها ، وإلى ذلك أشار الله سبحانه وتعالى بقوله بعد أن فرض الفرائض ، وجعلها متفاوتة في مقدارها : « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ، فريضة من الله ، إن الله كان عليماً حكيماً » (١) .

بقي أن يقال : إن الآية سكنت عن بيان نصيب البنين ، ولذلك قال ابن عباس : حكمهما حكم الواحدة ، لأنه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما ، ولكن جمهور العلماء على استحقاقهما الثلثين ، لأنه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الأنثيين

(١) راجع الجزء الثاني من أعلام الموقعين ص ١١٣ من الطبعة المنيرة .

إذا كان معه أنثى وهو الثلثان - اقتضى ذلك أن فرضهما الثلثان أيضا، ثم لما أوهم ذلك أن يزداد النصيب على الثلثين بزيادة العدد - دفع هذا الوهم بقوله : « فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ » . يؤيد ذلك أن البنت الواحدة تستحق الثلث مع أخيها ، فمن باب أولى تستحقه مع أخت مثلها (١) .

(٣) قال الله تعالى في ميراث الوالدين : « وَلَا بَيَّوْتُهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشَّدَسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِلْمَتِّهِ الثَّلَاثُ » ، فإن كان له إخوة فَلِلْمَتِّهِ الشَّدَسُ مِنْ بَعْدِ (٢) وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ . . .

(٤) وقال جل شأنه في ميراث الزوجين : « وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثَّمَنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ مُوُصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ . . .

(٥) ثم بين ميراث أولاد الأم ، فقال تعالى : « وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً (٣) أَوْ امْرَأَةٌ ، وَلَهُ أُخٌ أَوْ أُخْتُ (٤) فَلِكُلِّ

(١) راجع تفسير البيضاوى .

(٢) ذلك راجع إلى قسمة الموارث كلها : بين الأولاد أو الوالدين أو غيرهم .

(٣) الكلاله إن كانت صفة للميت كانت دالة على المورث الذى لم يخلف ولدا ولا والدا ، وإن كانت صفة للوارث ، فالمراد منها قرابة ليست من جهة الوالد ولا الولد .

(٤) أى لأم بدليل قراءة أبي ، وللإجماع على أن المراد بهم الإخوة لأم .

واحدٍ منهما السُّدُسُ ، فإنْ كانوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهَمْ شَرَكاءُ
فِي الثُّلُثِ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ ،
وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَليمٌ حَليمٌ .

وظاهر الآية التسوية بين ذكورهم وإناثهم في القسمة ، وذلك راجع إلى أنهم
جميعاً يدلون بمحض الأنوثة ، وأن انشعابهم من الأم يجعلهم جميعاً في منزلة الإناث ،
هذا إلى أن ذكورهم لا يتوافر فيهم معنى الحاية والنصرة ، والذب عن الدمار ؛
لأنهم أبناء قوم آخرين ، ولأن قرابة غيرهم من الذكور آتية من جهة العاصب ،
ولا كذلك أولاد الأم ، فإن قرابتهم آتية من جهة الأم ، وهي ليست بمصبة .
قال ابن قيم الجوزية ، مبينا حكمة التسوية بينهم في الإرث : « إنهم يرثون بالرحم
المجرد . فالقرابة التي يرثون بها قرابة أنثى فقط ، وهم فيها سواء ، فلا معنى لتفضيل
ذكرهم على أنثاهم ، بخلاف قرابة الأب (١) » .

(٦) وبين ميراث الإخوة والأخوات لأبوين ، أو لأب ، فقال في آخر سورة
النساء : « يَسْتَفْتُونَكَ ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ، إِنْ امْرُؤٌ
هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا
تَرَكَ ؛ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً ، فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ
الْأُنثَيْنِ . يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَليمٌ » .

تاسعا - ما شرعه القرآن للبراء عند خروجها - بما يصونها ، ويحفظ لها كرامتها ،
ويبعد عنها الريبة والظنة . ويدبرأ عنها قالة السوء والشبهات ، وهو أن تدنى عليها فضل

جلبائها لتستر به رأسها وصدرها بعد ستر سائر بدنها ، وذلك قوله تعالى في سورة الاحزاب : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَائِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ (١) ، ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يُعْرِقْنَ فَلَا يُؤْذِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . »

عاشراً :- أخذ القرآن المؤمنين والمؤمنات بالآداب العالية التي تحفظ للبرأة مكانتها ، وتجعلها بنجوة من تلاعب الرجال ، وبمنأى عن الريبة والشر والفساد ، فأمر المؤمنين بالغض من الأبصار عند رؤية النساء ، وبحفظ فروجهم ، وأمر المؤمنات بمثل ذلك ، كما أمرهن ألا يبدن زينتهن إلا لمن استثنتهن الآية الآتية ، واستثنى من الزينة ما ظهر منها لضرورة التعامل ، والقيام بالأعمال المشروعة - من دينية ودنيوية ، وفسره العلماء بالوجه (٢) والكفين ، وبالملابس الظاهرة كالقناع والجلباب . وذلك هو قوله تعالى في سورة النور :

« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُتُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ، وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ (٤) ، »

-
- (١) جمع جلباب ، وهو الملحفة والملاءة التي تلبس فوق الثياب كلها .
 (٢) وبض العلماء يرى عدم جواز النظر إلى الوجه إن خيفت منه فتنة تنفي إلى المحرام سداً للذريعة .
 (٣) أى يدرنها على جيوب نصهن ، يسترن بها صدورهن وصدورهن ، لعدم الحاجة إلى إبداء غير وجوههن في أعمالهن على مرأى من الرجال الأجانب .
 (٤) أزواجهن .

أَوْ آبَائِهِمْ ، أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِيهِمْ ، أَوْ أَبْنَاءُ بُعُولَتِيهِمْ
 أَوْ إِخْوَانِهِمْ ، أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِمْ ، أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِمْ ، أَوْ نِسَائِهِمْ
 أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ، أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ (١) أُولَى الْإِرْبَةِ مِنْ
 الرِّجَالِ ، أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ، وَلَا
 يَحْضُرُونَ بَارِئِينَ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِمْ ، وَتَوْبُوا
 إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، (٢) .

(١) هم الذين لا حاجة لهم في النساء كالشيخ الهرم ودى ..
 (٢) راجع نداء للجنس اللطيف ص ١٠٩ ، ١١٢ طبعة سنة ١٣٥١ هـ ، وكتب التفسير .

القسم الرابع

تشريع القواعد والأصول العامة

في هذا القسم ، ترى القرآن الكريم ، وهو ذلك الكتاب الخالد ، الباقي على وجه الدهر ، والذي يُجَعِّلُ دستوراً للسلدين ، مابقيت السماء والأرض - يذكر مقاصد كلية ، ويرشد إلى قواعد ومبادئ عامة تشريعية ، ليرجع إليها العلماء وأولو الأمر ، والمجتهدون الذين لا ينبغي أن يخلو منهم عصر ، فيستخلصوا منها أحكامهم ، ويستنبطوا منها آراءهم فيما لا نص فيه ، أو ما ليس له حكم صريح في كتاب الله ، ولا في سنة رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - وذلك لأن الحوادث والوقائع الجزئية ، والنوازل الملمة لا يمكن حصرها لتجديدها ، وعدم انقطاعها ، وحدوثها في كل عصر ، مع اختلاف نوعها وصفتها ، ولأنها قد تختلف أحكامها باختلاف البيئات والأمم ، فكان من عدل هذه الشريعة ، ورحمة الله وإحسانه . أن تركها لمجتهدى هذه الأمة يبحثونها ، ويقبلون وجوه النظر فيها ، مستهدين بتلك الأصول القرآنية ، والمبادئ الإسلامية ، ومستلهمين تلك الروح التشريعية التي تجلت في كتاب الله المجيد ، وسنة رسوله الكريم .

تلك المبادئ والمقاصد العامة التي وضعها القرآن الكريم والسنة ، لوجوب مراعاتها في التشريع ، والفتيا ، ووضع الأحكام - أهمها يرجع إلى القواعد الآتية :

الأولى : تحرُّى الحق الشامل ، والعدل المطلق .

الثانية : المساواة في الحقوق والواجبات والأحكام ، إلا فيما اقتضت المصلحة العامة ، أو الضرورة ، أو الفطرة ، عدم المساواة فيه .

الثالثة : إرادة اليسر ، ورفع الحرج .

الرابعة : حفظ المصالح ، ودرء المفاسد .

الخامسة : مراعاة العرف بشرطه (١) .

السادسة : لا ضرر ولا ضرار .

السابعة ، الضرورات تبيح المحظورات .

الثامنة : الضرورة تقدر بقدرها .

التاسعة : الحدود تدرأ بالشبهات .

العاشر : دوران المعاملات على مراعاة الفضائل ، واجتناب الرذائل .

وقد حاولنا أن نثبت هنا الآيات القرآنية ، الدالة على هذه القواعد وغيرها ، فلم نستطع لكثرتها ، وحسبنا أن نذكر بعض الشواهد نموذجاً ومثالاً ، ولتكون دليلاً على ما ترك ، وإشارة إلى ما لم يُذكر :-

أولاً :- أمر الله جلّت حكمته ، وتباركت آلاؤه ، بالعدل والمساواة بين الناس ، ونهى عن اتباع الهوى في الحكم ، أو الشهادة ، ولو كانت على النفس ، لا فرق في ذلك بين القريب والبعيد ، ولا بين الغنى والفقر ، ولا بين الأصدقاء والأعداء - قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » . وقال : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » . وقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ، شُهَدَاءَ لِلَّهِ ، وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا »

(١) سيأتي بيان ذلك في مبحث القواعد العامة للتصريح الإسلامي .

فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا (١) وَإِنْ تَلَوْا
أَوْ نَعَرَمْ نَحْنُ ، فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا نَعْمَلُونَ خَبِيرًا . . . وَقَالَ : « يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ مُشْعَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شَتَانُ (٢) قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ
لِلتَّقْوَىٰ . . . »

ثانياً : - قرر القرآن أن التكليف لا يراود به العسر والإعنت ، وإنما يراود به
البسر ومصالح العباد . قال جل شأنه : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَا » . . . وَقَالَ : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ، وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
الْعُسْرَ » . . . وَقَالَ : « مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ » . . .
وَقَالَ : « وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ ،
وَمَا يَجْعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » . . .

ثالثاً : - قرر أيضاً تلك القاعدة التي يدور عليها أكثر الأحكام التشريعية ،
وهي حفظ المصالح ، ودرء المفاسد ، وكذا قاعدة « لا ضرر ولا ضرار » . - اقرأ
هذه الآيات : -

(١) « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ يَينَ بَيْنِكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَعْدِلُوا
بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » . . .

(ب) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ يَينَ بَيْنِكُمْ
بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ » . . .

(١) أى كرامة أن تعدلوا .

(٢) الشتان : البغض والمداوة .

(ج) « الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ ، وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ،
مَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى
عَلَيْكُمْ » .

(د) « وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى
التَّهْلُكَةِ ، وَأَحْسِنُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » .

(هـ) « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى
الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » .

(و) « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْغَيْرِ ،
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

(ز) « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى
يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » .

(ح) « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » .

(ط) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » .

(ي) « لَا يُضَارَّ وَالِدَةٌ بَوْلِدِهَا ، وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ » .

(ك) « وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ » .

(ل) « وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آفٍ
مِنْ قَلْبِهِ » .

(م) « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ، وَلَا تَبْسُطْهَا
مُكَلًّا الْبَسْطَ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا » .

«وَالَّذِينَ إِذَا أَفْتَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ، وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» .

«وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا» .

(ن) «وَلَنْ نُعْطِيَهُمْ (١) قَلْبَهُمْ رَءُوسُ أَمْوَالِهِمْ لَا تُظْلِمُون»
وَلَا تُظْلِمُونَ ، وَلَنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ . .

رابعاً :- جعل للضرورة أحكاماً خاصة ، فأباح بها المحظورات ، وقدر الضرورة بقدرها . قال تعالى في سورة البقرة : «فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» . وقال في سورة المائدة : «فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .

خامساً :- تأمل هذه الآيات لتستنبط منها ما يلائم من المقاصد الكلية والقواعد الشرعية :-

(١) «وَلَنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِبْ مَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» .

(ب) «وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» .

(ح) «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ، وَلَمَنِ اتَّصَرَ بِعَدُوِّ ظَلَمِهِ

(١) أى من الربا واعتقاد حله .

فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ
النَّاسَ ، وَيَبْغُونِ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ، .

(د) د وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ
وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ، .

(هـ) د قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ
وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، .

(و) د فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ
كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ،

(ز) د وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ،
وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُوْمِنِينَ نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى ، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ
مَصِيرًا ، .

(ح) د هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (١)
مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنْهُمْ
مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ، فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ،
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ
فَاعْتَبِرُوا (٢) يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ، .

(١) ثم بنو النضير .

(٢) استدل بها بعض العلماء على أن القياس حجة .

والخلاصة أنه ثبت مما ذكرناه في تشريع القرآن ، أن بعض الأحكام ذكر مفصلاً ، وبعضها ذكر مجملاً ، وبعض هذا التشريع ذكر بقواعد كلية ، وأصول ومبادئ عامة ، يرجع إليها بيان السنة ، واجتهاد المجتهدين . ومن ثم قال الإمام الشافعي : « جميع ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن » . وقال : « ليست تنزل بأحد في الدين نازلة ، إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين (١) » .

بهذا يتبين أن القرآن لا تحصى عجائبه ، وأنه لا يوجد نوع من العلوم ، ولا أصل من الأصول ، إلا وفي القرآن ما يدل عليه ، أو يشير إليه - قال تعالى : « وَزَوَّجْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ » . وقال صلى الله عليه وسلم : « سَنَكُونُ قَتْنٌ ، قِيلَ : وما المَخْرُجُ منها ؟ قال : كتابُ الله فيه تَبَيُّنٌ ما قَبْلَكُمْ ، وَنَجْرٌ ما بَعْدَكُمْ ، وَحُكْمٌ ما تَلَيْنَكُمْ » (٢) .

(١) قال البيهقي : معنى أصول العلم - راجع الإتيان للسيوطي .
(٢) الجزء الثاني من الإتيان للسيوطي .

أَسَاسُ التَّشْرِيعِ الْقُرْآنِيِّ وَمَزَايَاهُ

التشريع القرآني قام على القواعد العامة التي أسلفنا ذكرها ، وفي مقدمتها
أساس أربعة (١) :

الأول :- التيسير وعدم الحرج ، ولذلك شرعت الرخص ، كالفطر في رمضان
للمسافر والمريض ، والتيمم لمن لم يجد الماء ، وأبيع ما حرم عند الضرورة .

الثاني :- قلة تكاليفه ، وسهولة فهمها ، وقد كان الأعرابي يجهل النبي صلى الله
عليه وسلم من البادية ، فيسلم ، فيعمله ما أوجب الله ، وما حرم عليه في مجلس
واحد ، وقد ورد في الحديث : « إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ،
وَاحِدَةً مُّحْدُوذًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهَكُوهَا ،
وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لِّكُمْ ، غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْخَثُوا عَنْهَا » .

الثالث :- التدريج في التشريع ، فقد كان للعرب قبل الإسلام عادات راسخة
ومعاملات مردوا عليها ، فيشق عليهم إبطالها ، أو تحريمها من أول الأمر ،
كما يشق عليهم أن تشرع لهم الأحكام والواجبات دفعة واحدة ، فاقنضت حكمته
تعالى أن يتدرج بهم شيئاً فشيئاً ، حتى تستعد نفوسهم ، وتتهيأ لقبول الأحكام
والتكاليف الجديدة ، دون أن تشعر بعنت أو حرج ، يؤيد ذلك أن العبادات
لم تشرع في سنة واحدة ، ولم تفرض جملة أول بدء على المسلمين ، ولما سئل رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن الخمر والميسر أجاب بلسان القرآن : « قُلْ : فِيهِمَا إِثْمٌ

(١) تاريخ الترميز للنخري الطبعة الرابعة من ص ١٨ إلى ص ٢٣ .

كَبِيرٌ ، وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ تَفْعِهِمَا . .
ولم يصرح بالنهي عنهما ، وإن كان يفهمه من هذه الآية فقيه النفس ، العالم
بسرِّ التشريع ، ثم نهاهم عن الصلاة وهم سُكَارَى ، فقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » . ثم
صرَّح بالنهي عن شربها في كل وقت ، فقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ
وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ
فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

الرابع :- الإجمال ثم التفصيل ، وهو مبني على الأصل السابق ، ويتجلى
هذا من المقابلة بين التشريع المكي ، والتشريع المدني ، فالتشريع المكي : مجمل
قلما يذكر أحكاماً تفصيلية . أما التشريع المدني : فقد بسط فيه التشريع التفصيلي
الذي تعرض له كتاب الله تعالى ، وقد بينا ذلك في القسمين : الثاني والثالث ، من
تشريع القرآن ، وهو الذي ذكر أكثره في سور البقرة ، والنساء ، والمائدة ،
والأنفال ، والتوبة ، والحج ، والنور ، والأحزاب .

أما مزايا التشريع القرآني فإننا نجمل أهمها فيما يأتي ، بعد أن ذكرنا
فيما سبق نصوص التشريع ، وآيات الأحكام :

الأولى :- موافقته لمقتضى العقل ، والفطرة الإنسانية (١) .

الثانية :- كونه يسراً لا حرج فيه ، ولا عسر (٢) .

الثالثة :- انقسام التكليف فيه إلى عزائم ورخص .

الرابعة :- أن تشريعه التفصيلي لم يكن إلا في الأمور الثابتة ، التي لا تختلف

(١) يكن في إثبات ذلك إلقاء نظرة على آيات الأحكام والتفريع التي مضى ذكرها .

(٢) مضى إثبات ذلك .

أحكامها باختلاف الأعصر والامم ، أما في غير هذه الأمور فإنه لم يتناولها إلا بمواعد كلية ، ومبادئ عامة ، ليترك باب التشريع مفتوحاً لأهل الاجتهاد في كل أمة ، وفي أى عصر ، ليستنبطوا من الأحكام ما يتفق مع حاجات الناس ومصالحهم ، وما يدرأ المفاسد عنهم ، وهذا هو اللائق بشريعة باقية ، لا تحتل النسخ ، ولا يجوز فيها التبديل ، ولا لإحلال شريعة أخرى محلها .

الخامسة :- أن الغاية من تشريعه تحقيق مصالح العباد ، ولذلك تجد أحكامه معللة ، وتشريعه محوطاً بالحكم العالية ، والمقاصد النافعة ، ومتفقاً مع مقتضى العقل السليم .

السادسة :- أن أحكامه التشريعية ، شخصية ومدنية ، وسياسية وحربية - قائمة على مراعاة الفضائل ، من الحق والعدل ، والصدق والأمانة ، والوفاء بالعهود والعقود ، والرحمة والبر والإحسان ، واجتناب الرذائل ، من الظلم والغدر ، ونقض العهود ، والكذب والخيانة ، والغش والخداع والقسوة ، وأكل أموال الناس بالباطل ، كالسحت والرشوة والربا .

من أجل ذلك كانت شريعة القرآن ، وأحكام الإسلام أعدل الشرائع ، وأسماها ، وأجدرها بالاتباع ، وأحقها بالإذعان والطاعة والقبول .



مراجع هذا البحث

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - إرشاد الفحول للشوكاني .
- ٣ - الموافقات للشاطبي .
- ٤ - تاريخ التشريع للخضري .
- ٥ - الوحي المحمدي للسيد رشيد رضا .
- ٦ - نداء للجنس اللطيف للسيد رشيد رضا .
- ٧ - أسرار الشريعة الإسلامية .
- ٨ - القياس في الشرع الإسلامي لابن تيمية ؛ وابن القيم .
- ٩ - أحكام القرآن لأبي بكر الرازي .
- ١٠ - تفسير البيضاوي .
- ١١ - تفسير أبي السعود .
- ١٢ - فتح القدير .
- ١٣ - أعلام الموقعين لابن القيم .
- ١٤ - بداية المجتهد لابن رشد .
- ١٥ - الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي .



الفصل الثاني

السنة

هي الأصل الثاني من أصول التشريع الإسلامي ، وفيها بحوث كثيرة ، أهمها مايتصل بها من حيث هي مصدر تشريعي ، ودليل على الأحكام ، وهذه البحوث هي :

- ١ - بيان معناها .
- ٢ - حجيتها .
- ٣ - رأى الطائفة التي ردت السنة ، وإبطال قولهم .
- ٤ - رتبها التشريعية .
- ٥ - منزلتها من القرآن .
- ٦ - منزلتها من التشريع الإسلامي .
- ٧ - كتب السنة ، وأحاديث الأحكام .
- ٨ - شذرات من التشريع النبوي .

١ - معنى السنة لغة وشرعا

هي لغة الطريقة السلوكية ، وقال الكسائي : معناها : الدوام ، فقولهم سنة ، معناه : الأمر بالإدامة ، من قولك : سنت الماء ، إذا واليت في صبه ، وفسرها بعضهم بالطريقة المعتادة ، سواء أكانت حسنة أم سيئة ، محمودة أم غير محمودة . يؤيد ذلك ما جاء في الحديث الصحيح : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا »

وَأَجْرُ مَنْ سَمِعَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً
كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوَزْرُ مَنْ سَمِعَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وتطلق في عرف الفقهاء على ما ليس بواجب ، فالمطلوب فعله إن طلب على وجه الحتم ، فهو واجب ، وإن طلب لأعلى وجه الحتم ، فهو سنة . وقد يطلقها بعض الفقهاء على ما واطب على فعله الرسول مع ترك ما بلا عذر ، وقد تطلق السنة على ما يقابل البدعة ، كما في تقسيم الطلاق إلى سني وبدعي ، فيقال : فلان على سنة ، إذا كان عمله على وفق عمله عليه الصلاة والسلام ، وفلان على بدعة إذا كان عمله مخالفاً له .

والسنة في عرف المحدثين وجمهور أهل الشرع : كل ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، سواء أصدر عنه باعتباره رسولا أم باعتباره إنساناً من البشر .

أما في اصطلاح الأصوليين فهي ما صدر عنه ، من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، من حيث كونه دليلاً على الأحكام ، ومصدراً من مصادر التشريع ، وهو المقصود هنا بالبحث . قال الشاطبي : ويطلق أيضاً لفظ السنة على عمل الصحابة ، وجد ذلك في الكتاب ، أو السنة ، أو لم يوجد ، لكونه اتباعاً لسنة ثبتت عندهم لم تنقل إلينا ، أو اجتهداً مجتمعاً عليه منهم ، أو من خلفائهم ، فيدخل تحت هذا الإطلاق المصالح المرسلة والاستحسان ، كما فعلوا في حدّ الخمر ، وجمع المصحف ، وحمل الناس على القراءة بحرف واحد من الحروف السبعة ، وتدوين الدواوين ، ويشهد لذلك قوله صلوات الله وسلامه عليه : « عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي ، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ » .

فإذا ضم هذا الإطلاق الأخير إلى معنى السنة في اصطلاح الأصوليين ، كان للسنة أربعة أوجه : قوله عليه الصلاة والسلام ، وفعله ، وإقراره ، وما جاء عن الصحابة ، أو الخلفاء .

وما أثر عن الرسول ، من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، إما مُتلقى بالوحي ، أو بالاجتهاد بناء على صحة الاجتهاد في حقه (١) . وقد نقل الشوكاني في كتابه إرشاد الفحول ، أن العلماء كرهوا أن يقال : سنة أبي بكر وعمر ، وإنما يقال : سنة الله وسنة رسوله ، قال : ويجب عن هذا بما ورد في الحديث الصحيح : « عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ » ، ويمكن أن يقال : إنه صلى الله عليه وسلم أراد بالسنة هنا : الطريقة (٢) .

٢ — حجية السنة ووجوب اتباعها

أجمع المسلمون - إلا طائفة قليلة لا يعتد برأيها - على أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدر من مصادر التشريع بعد القرآن الكريم، فهي إما مبينة له ، أو مكملة لما جاء به من تشريع الأحكام ، وأن ما ورد بها من أحكام يجب اتباعه والعمل به متى ثبت ورودده وصح نقله ، حتى قال الإمام الشافعي : لم أسمع أحداً نسبته للناس أو نسب نفسه إلى علم ، يخالف في أن فرض الله عز وجل اتباع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتسليم لحكمه ، وأنه لا يلزم قول إلا بكتاب الله أو سنة رسوله ، وأن ما سواهما تبع لهما (٣) .

والدليل على ذلك من عدة وجوه :

الأول :- أن الله سبحانه وتعالى كما أمر الرسول بالتبليغ ، فقال : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » . جعله معلماً ومبيناً لما جاء في الذكر الحكيم - وبما جاء فيه الأحكام الشرعية ، والقوانين السماوية - انظر

- (١) الجزء الرابع من الموافقات ص ٢ ، ٣ الطبعة السلفية سنة ١٣٤١ هـ . من التصريف .
(٢) راجع إرشاد الفحول ص ٢٩ طبعة صبيح سنة ١٣٤٩ .
(٣) الجزء السابع من الأم من كتاب جامع العلم .

إلى قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » . . وإلى قوله جل شأنه : « كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رُسُلًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » . ومن معاني التبيين توضيح المجمل ، وتعيين المراد من المحتمل ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وبناء على هذه النصوص يكون إذا بَيَّنَّ أحكاماً ، أو عَلَّمَ أحكاماً ، فعن الله بين ، وبإذنه أرشد ، وبتفويض منه علَّم ، وما دام تبين الرسول وتعليمه بإذن الله وأمره ، فإنه يجب طاعته فيما حكم به ، كما يجب اتباع أمره ، واجتناب نهيه ، إذ لا فائدة في تعليمه وتبيينه إذا لم يجب اتباعه

الثاني :- أن الله سبحانه وتعالى فرض على المسلمين في كثير من آيات القرآن إطاعة رسوله واتباع أمره ، وحذرهم مخالفته ، وأوجب عليهم التسليم لحكمه ، وجعل عصيانه ضلالا مبينا ، كما جعل له طاعة خاصة ، وأمرًا يجب اتباعه ، ونهياً يجب الانتهاء عنه ، بما يدل على أن الله سبحانه وتعالى منحه إلى واجب التبليغ ، وواجب البيان والتعليم ، سلطة أخرى ، هي سلطة الحكم والتشريع . من هذه الآيات قوله تعالى في سورة النساء : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » . وقوله في سورة الأحزاب : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِرِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا » . وقوله في سورة النور : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » . وقوله في سورة آل عمران : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ، فَإِنْ

تولثوا فإن الله لا يحب الكافرين . وقوله في سورة الحشر « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » . وقوله في سورة النساء : « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » .

فهذه الآيات - ومثلها كثير في كتاب الله - صريحة في وجوب اتباع الرسول فيما شرعه بسنته ، وتشير - بتكرير إيجاب الطاعة لله ولرسوله - إلى أن له أحكاماً غير ما في القرآن يجب أن يطاع فيها ، كما يجب طاعة الله في أحكامه التي جاء بها القرآن ، وليست أحكام الرسول في الواقع إلا أحكاماً الله سبحانه ، لأنها صادرة إما عن إلهام إلهي ، وإما عن اجتهاد قد أقره الله عليه .

الثالث : - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مراد القرآن فيما أجمله من الفرائض والأحكام ، مثل : الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج . إذ لاسبيل إلى أدائها ، إلا باتباع السنة التي بينت أوقاتها ، وطريقة أدائها وأركانها وشروطها ، فقد صلى عليه الصلاة والسلام ، وقال : « صلُّوا كما رأيتموني أُصَلِّي » . وحج وقال : « خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ » . وحينئذ فآداء الفرائض القرآنية المجملة يستلزم اتباع السنن التي وردت ببيانها ، ويلزم من ذلك اتباع كل سنة تشريعية صدرت عن الرسول المعصوم (صلوات الله وسلامه عليه) متى وردت إلينا بالطرق الموثوق بصحتها ، إذ لا فرق بين هذه وتلك ، إذ كان المصدر واحداً ، وطريق النقل واحداً ، فالتفريق بين بعضها وبعض ليس له برهان ، ولا يؤيده دليل .

الرابع : - أن الصحابة اتفقوا - في حياة الرسول ، وأجمعوا بعد وفاته على التزام العمل بسنته ، وإطاعته فيما قضى به ، وما أفتى فيه مما ليس في كتاب الله تعالى ، وكانوا يرجعون إلى السنة يبحثون فيها عن الحكم الذي يريدون الوصول إليه ، إذا لم يجدوه في القرآن الكريم ، يدل ذلك على هذا حديث (١) معاذ الذي اعتبر دستوراً للقضاة والمفتين والمجتهدين ، وما كان عليه أبو بكر وعمر وغيرهما من

(١) سيأتي ذكره في رتبة السنة في التمرير .

الصحابة والخلفاء حينما كانوا ينشدون حكم حادثة ترفع إليهم ، فقد دلّ ما أثر عنهم على أنهم إذا لم يجدوا لها حكماً في كتاب الله تعالى ، ووجدوا فيها سنة ، تمسكوا بها ، ولم يعدلوا عنها ، ولم يسوغوا لأنفسهم اجتهاداً ولا بحثاً في غيرها (١) .

٣ — رأى الطائفة التي ردت السنة

وإبطال قولها

بعد ما بيناه في البحث السابق من حجية السنة ، وكونها دليلاً ومصدراً من مصادر الأحكام الشرعية ، وبعد ما سقناه من الحجج الواضحة ، والبراهين الساطعة على ذلك - كنا نظن أن اعتبارها حجة والرجوع إليها في استقراء الأحكام أمر مجمع عليه ، وأن الخلاف بينهم إنما هو في طريق ثبوتها ، وشروط قبولها .

ولكننا عثرنا على طائفة رأت الاقتصار على كتاب الله تعالى ، واطّراح أحكام السنة ، وتأولوا كتاب الله على غير تأويله ، وقالوا : لا يقبل الحديث إلا إذا وافق كتاب الله . حكى ذلك الإمام الشاطبي في الموافقات ، وأشار إليه الشوكاني في إرشاد الفحول ، وربما استدلوا لمذهبهم بحديث « ما أتاكم من عني فاعرضوه » على كتاب الله ، فإن وافق كتاب الله فأنا مُقتله ، وإن خالف كتاب الله فلم أقبله أنا ، وكيف أخالف كتاب الله ، وبه هداى الله (٢) . وهذا الذي استدلوا به لا يصح الاعتماد عليه ، فإن أهل العلم بالحديث صرحوا بأنه موضوع ، حتى قال عبد الرحمن بن مهدي : الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث ، وقال يحيى بن معين : إنه موضوع ، وقال الشافعي : ما رواه أحد عن ثبت حديثه في شيء صغير ولا كبير . كما قالوا : إن هذه الألفاظ لا تصح عنه صلى الله عليه وسلم عند أهل العلم الذين يميزون صحيح النقل من سقيمه (٣) .

«١» راجع كتاب أصول الفقه للأستاذ الجليل عبد الوهاب خلاف « مبحث السنة » .

«٢» روى عبارات وألفاظ أخرى تختلف زيادة وقصا .

«٣» الجزء الرابع من الموافقات ص ٨ ، ٦ ، ١٠ .

على أنه لو فرض صحة هذا الحديث فليس لهم فيه حجة على نبد أحكام السنة ، والافتصار على القرآن ، فإن هذا الحديث إن صح ، لا يدل على أكثر من ترك العمل بالحديث في حالة واحدة ، وهي حالة معارضته صراحة لما جاء في القرآن مما لا يمكن معه الجمع بينهما ، وهذا لا ينافي العمل بالسنة فيما عدا ذلك ، وهو يشمل الأحوال الآتية :-

- (١) أن يوافق الحديث ما جاء صريحاً في الكتاب .
 - (٢) أن يخالف في الظاهر ما جاء به مخالفة لا تمنع التوفيق والجمع بينهما .
 - (٣) أن تجيء السنة بما ليس في الكتاب ، مما لا يقال فيه : موافق أو مخالف .
- كذلك الإمام الشافعي في الجزء السابع من كتاب الام ، ذكر باباً خاصاً بحكاية قول الطائفة التي ردت الاخبار كلها ، ورأت عدم العمل بالحديث ، وقد ذهب في ذلك مذهبين ، أو انقسمت فرقتين .

أحدهما قال : ما كان فيه قرآن يقبل فيه الخبر ، وهذا القول يدل على أن الحديث عند هذا الفريق لا يُقبل إلا إذا كان فيه قرآن يؤيده ويوافقه ، فإن خالفه ، أو لم يكن في موضوعه قرآن - طرح ولم يعمل به ، والظاهر أن هذا الفريق هو الذي أشار إليه الشافعي في الموافقات ، وهو الذي بينا رأيه ، ورددنا عليه فيما سبق ، ويؤخذ مما ذكره في الموافقات أنه رأى لبعض الزنادقة والخوارج ، ونسبه إلى أهل البدع .

والآخر : لا يقبل خبراً وفي كتاب الله البيان ، وقد أفضى به ذلك إلى عظيم من الأمر ، فقال : من جاء بما يقع عليه اسم صلاة ، وأقل ما يقع عليه اسم زكاة ، فقد أدى ما عليه ، وقال : ما لم يكن في كتاب الله فليس على أحد فيه فرض .

والشافعي لم يُسمِّ هذه الجماعة بقسميها ، ولا ذكر زعيماً من زعمائها ، وإن كان العلامة الخضرى في كتابه تاريخ التشريع يظن أن هذه الجماعة كانت بالبصرة ، وأنهم بعض علماء الكلام من المعتزلة «١» . على أن هذه الطائفة وإن كانت قليلة ، ولم يعتد برأيها ، قد وجدت من يردد رأيها حديثاً ؛ ففي الجزء السابع من المجلد

«١» تاريخ التشريع ص ١٩٧ الطبعة الرابعة ١٣٥٣ هـ .

التاسع من المنار مقال موضوعه « الإسلام هو القرآن وحده » أورد فيه كاتبه عدة شبه تنفي حجية السنة ، ولكن جاء فيما يلي هذا الجزء عدة مقالات في إدحاض تلك الشبه وإبطالها .

ونحن نثبت هنا أهم ما اعتمدوا عليه من تلك الشبه مع دفعها والرد عليها :

الشبهة الأولى :

قالوا : إن القرآن كتب في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بأمره ، أما السنة فإنها لم تكتب في عهده ، ولا أشار الرسول بكتابتها ، ولو كانت قانوناً عاماً واجباً تبليغه للمسلمين كالقرآن - لأمر الرسول بكتابتها ، كما أمر بكتابته ، ولغنى الكاتبون من الصحابة بتدوينها كما عنوا بتدوينه ، بل روى عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه نهى عن كتابتها ، ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمتحهُ ، وحدثوا عني فلا حرجَ ومن كذب عليّ مُتعمداً فليتبوا مقعده من النار » (١) .

وهذه الشبهة بادية الضعف ، ظاهرة الوهن ، فإنه لا ارتباط بين عدم كتابة السنة في عهد الرسول ، ونفي كونها قانوناً عاماً ، وأحكاماً ملزمة ، ومصدراً من مصادر التشريع ، فإنه لشيوخ الأئمة بينهم ، وقلة الكاتبين فيهم كان جل الصحابة يحفظون ما يسمعون من الرسول ولا يكتبونه (٢) ، إذ كان يشق عليهم إلزامهم بكتابة القرآن والسنة معاً ، وما لاشك فيه أن كتاب الله أولى بالعناية والتقديم ، ولذلك عنوا بكتابته ، كما عني كثير منهم بحفظه ، واهتموا كذلك بما سمعوه من حديث الرسول حفظاً ورواية ، على أن للقرآن الكريم منزلة خاصة ليست لسواه ، وهي أن ألفاظه ومعانيه من عند الله ، ومن وجوه إعجازه ما يرجع إلى متنه ونظمه ، فأى تغيير

« ١ » أخر الإسلام ، وورد في كتاب تأويل مختلف الحديث « لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب مني شيئاً فليمتحه » وفي النهاية في غريب الحديث ورد في مادة كتب : « لا تكتبوا عني غير القرآن » .

« ٢ » تاريخ الترمذي ص ٤٤ الطبعة الرابعة .

في ألفاظه تبديل لكلمات الله ، وأى تغيير في نظمه قد يذهب بوجه من وجوه إعجازه ، لذلك خصه الرسول بالأمر بكتابته على ما فيها من مشقة في أمة أمية ، حتى لا يلحقه أى تغيير وتبديل .

والنهي عن كتابة السنة في حديث أبي سعيد لا يستلزم أنها ليست مرجعاً للأحكام ، ولا مصدراً للتشريع ، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث نفسه « وَحَدِّثُوا عَنِّي فَلَا حَرَجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَىَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » . فأمر بنقل الحديث عنه ، وحذر من الكذب فيه ، وليس لذلك فائدة إلا العمل بحديثه ، واتباع ما جاء فيه من النصائح والأحكام ، وإلا خلا التحديث عنه ، ومراعاة الصدق فيه من الفائدة .

بقى البحث عن علة النهي في الحديث : لم ينهى الرسول عن كتابة سنته ؟ قد اختلف العلماء في ذلك ، فقال بعضهم : إن سبب النهي هو توفير دواعي المحافظة على كتاب الله ، فقد كان النهي عن كتابة السنة وقت نزول القرآن خشية (١) التباس القرآن بالحديث ، وعندى أن ذلك السبب ليس بقوى ، لأنه إن كتبت السنة في ذلك الوقت - كما كان يكتب القرآن فإنما كانت تدون على أنها أحاديث الرسول لأعلى أنها آيات قرآنية ، فمن أين يوجد الالتباس ؟ فالظاهر أن رسول الله وصحابه لفرط محافظتهم على كتاب الله ، وحرصهم على توجيه كل عنايتهم إليه ، لم يشاءوا أن يشغروا المسلمين أول أمرهم - بكتابة السنة وقت نزول القرآن ، وكتابته مع شيوع الأمية فيهم ، وقلة من يحسن الكتابة منهم ، وللرغبة في التوفر على كتابة القرآن ، كتاب الله ، ودستور الإسلام ، بل رأى بعض الصحابة مبالغة في الحذر والحيلة ، ألا يوجد بجانب كتاب الله تعالى كتاب آخر ، ولو كان هو السنة ، لجواز أن يشغل الناس عن كتاب الله . روى (٢) عن عمر بن الخطاب أنه أراد أن يكتب السنن ، واستشار فيه أصحاب رسول الله ، فأشار عليه عامتهم بذلك ، فلبث شهراً

(١) فجر الإسلام .

(٢) تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك ، وتاريخ التمرغ للخصري صفحة ١٢٣ .

يستخير الله في ذلك شاكا فيه ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ، فقال : إني كنت ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ، ثم ذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً ، فأكبوا عليها ، وتركوا كتاب الله ، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء ، فترك كتابة السنن . وجاء مثله في الطبقات لابن سعد : « أن عمر أراد أن يكتب السنن ، فاستخار الله شهراً ، ثم أصبح ، فقال : ذكرت قوما كتبوا كتاباً ، فأقبلوا عليه ، وتركوا كتاب الله » .

على أني أرجح أن هذا النهي الوارد في حديث أبي سعيد كان مؤقتاً ، وفي حالة خاصة اقتضته ، فإنه لو كان نهياً غير مؤقت ، وكان عاماً يشمل جميع الحالات ما فكر عمر في كتابة السنن ، وما استشار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابتها ، وما أشار عليه عامتهم بذلك . ويؤيد ما ذهب إليه من هذا الترجيح أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أذن لعبد الله بن عمرو بن العاص بكتابة ما سمعه من أحاديثه - روى (١) أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو قال « كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أريد حفظه ، فنهني قريش ، فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضا ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اكتب ، فواللذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق » . وفي كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة الدينوري ورد وجهان للتوفيق بين النهي عن كتابة السنة والإذن لابن عمرو بكتابتها : أحدهما : أن يكون الرسول نهى عن كتابة قوله في أول الأمر ، ثم رأى بعدُ لما علم أن السنن تكثر وتفوت الحفظ - أن تكتب وتقيد . والآخر : أن يكون خص بهذا ابن عمرو ، لأنه كان يكتب بالسريانية والعربية ، ويقرأ الكتب المتقدمة ، فأمن عليه الخطأ في الكتابة ، ولذلك أذن له ، أما غيره فقد خشى عليه الغلط فيما يكتب ، فنهأ عنها لشيوع الأمية من جهة ، وعدم إحسان الكتابة ممن يكتب من جهة أخرى .

(١) تاريخ الترمذ ص ٤٤ .

وأبين من ذلك في الدلالة على مذهبته إليه من أن النهي عن كتابة السنة كان مؤقتاً، وبسبب خاص «١» لا يدوم - مائت من إذن الرسول بكتابتها ، ومن إجماع الأمة على جوازها - قال ابن الأثير في كتابه النهاية في غريب الحديث في مادة كتب «٢» : وجه الجمع بين هذا الحديث « لا تكتبوا عني غير القرآن » وبين إذنه في كتابة الحديث عنه ، أن الإذن في الكتابة ناسخ للمنع منها بالحديث الثابت ، وبإجماع الأمة على جوازها ، وقيل : إنما نهى أن يكتب الحديث مع القرآن في صحيفة واحدة ، والاول الوجه . ١ هـ

الشبهة الثانية :

أن الله جعل القرآن تبياناً لكل شيء ، وما فرط فيه من شيء ، وأجدر الأشياء وأحقها بالتبيين ، وعدم التفريط فيها الأحكام الشرعية التي أراد الله منا اتباعها ، فلا حاجة بنا إلى دليل على الأحكام غير القرآن ، قال الله عز وجل : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيءٍ وهدى ورحمةً وبشرى للمسلمين » . وهذه الشبهة أيضاً داحضة ، فإننا إذا تقرينا ما في القرآن من الأحكام التشريعية المنصوص عليها ، وجدناها نورا يسيرا ، وألفينا الوقائع التي لانص في القرآن على أحكامها كثيرة ، بعضها نص عليه في السنة ، وبعضها مستنبط باجتهاد الأئمة ، ولا يعقل أن يكون القرآن على غير هذه الطريقة ، فإن الوقائع تتعدد ، كما تتكرر وتتجدد ، ولا تكاد تحصى من حيث عددها ونوعها ، ويتغير حكمها بتغير الزمن والبيئة ، ويختلف باختلاف أحوال الأمم ، فالقرآن وهو ذلك الدستور القيم ، والقانون السماوي السرمدي الذي لا يعتريه تغير ولا تبدل - ليس من شأنه أن يعرض لكل حادثة ، فيضع لها حكماً ، أو لكل واقعة ، فيسن لها تشريعاً ، إنما الشأن في تشريعه ، وآيات أحكامه ، أن تكون على هذه

الوجه الثلاثة :

-
- (١) هو شيوع الأمية فيهم ، وقلة من يحسن الكتابة منهم ، وشدة الرغبة في الفراغ لكتابة القرآن ، الذي هو دستور الإسلام ومصدره الأول .
(٢) الجزء الرابع من النهاية ص ٧ طبعة سنة ١٣١١ هـ

الأول :- أحكام تفصيلية ، وذلك لكل ما يثبت له الدوام والاستمرار ، ويثبت صلاحه لكل زمان ومكان ، كأحكامه التي سنّها للزواج ، وبيان المحللات والمحرمات من النساء ، وكتشريع الطلاق ، والعدة ، والميراث ، وتحريم الربا ، وما وضعه لبعض الجنايات من الأحكام ، كالسرقة ، وقطع الطريق ، والزنا ، والقذف ، والقتل ، وبيان ما يحرم وما يحل من الأطعمة .

الثاني :- أحكام إجمالية يبنّيها السنة ، كالعبادات ، من الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج .

الثالث :- قواعد كلية ، ومبادئ تشريعية ، بلغت غاية السمو في العدالة والإصلاح ، وقد بينا ذلك في تشريع القرآن . وبهذا يتبين أن في كتاب الله تبياناً لكل شيء ، حتى بالنسبة للأحكام التشريعية ، فقد نص على بعض الأحكام جملة أو تفصيلاً ، كما شمل باقيها بما سنّه من القواعد العامة ، والمبادئ التشريعية ، والطرق التي أرشد إليها ، لمعرفة حكم ما لم ينص عليه ، ومن جملة ما فيه ، وأرشد إليه : أنه فرض علينا اتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والرجوع إلى سنته ، بما منحه الله من سلطى البيان والتشريع ، وبما أوجب علينا من إطااعته - قال تعالى « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » . وقال جل شأنه : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » ، وقال : « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » .

الشبهة الثالثة :

أن معظم السنن ظنى الثبوت ، لم يبلغ إلينا بطريق يفيد العلم ، ولا كذلك القرآن ، فإنه قطعى الورد ، فقد يروى الحديث عن رجل عن آخر ، وليس أحد إلا وهو عرضة للخطأ أو النسيان أو الكذب - قالوا (١) : فلنستقبل منها شيئاً

(١) أى الذين ردوا السنة .

إذا كانت عرضة للوهم ، ولا نقبل إلا كتاب الله الذى لا يسع أحداً الشك فى حرف منه ، كما أنه لا يسوغ تأويل نص قطعى من القرآن بنص ظنى من السنة .

ودفع هذه الشبهة من وجهين :-

الأول :- أن كل ماورد من السنة لايعتبر حجة واجب الاتباع والعمل به ، إنما الذى يعتبر حجة منها هو ما روى بطريق موثوق به ، يفيد على الأقل غلبة الظن بصحة نقله عن الرسول ، وهذا يجب أن يكون مثل القطعى فى وجوب العمل به ، لأن أكثر عبادات الناس ، ومعاملاتهم ، وقضاء القضاة - مبنى على الظن الراجح ، لا على العلم واليقين ، انظر إلى المصلى إذا اشتبهت عليه القبلة ، فإنه يجب عليه أن يتحرى ، ثم يتجه إلى الجهة التى أداه تحريه إلى أنها الكعبة ، والتحرى لا يفيد إلا الظن ، والمرء يحكم عليه القاضى بالقتل قصاصاً بشهادة الشهود ، وهى لا تفيد إلا الظن . وهكذا كل ما ثبت باليقين من حرمة الأموال والأنفس ، وبرائة الدم ، يزول بالدليل الظنى ، بل إن فى القرآن نصوصاً ظنية الدلالة ، وإن كانت قطعية الثبوت ، يجب العمل بما يفهم منها ، وإنما هو ظن ، ولو وقفنا عند الدليل القطعى الذى يفيد العلم ، والتزمنا ألا نعمل إلا به ، لأصاب الناس حرج شديد ، وتعطلت الأعمال ، ولعطلت عدة من النصوص ، إذا كانت ظنية الدلالة .

الثانى :- أن تأويل النص القطعى الثبوت كالقرآن بنص ظنى من السنة لا يحظر فيه ، متى كان النص الأول ظنى الدلالة ، لأنه فى هذه الحالة يحتمل الدلالة على معنى آخر غير ما يستفاد من ظاهره ، كما إذا كان مطلقاً يحتمل أن يقيد ، أو كان عاماً يحتمل أن يخص ، مثل تخصيص عام الميتة فى قوله تعالى « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ » بقول الرسول فى البحر « هُوَ الطَّهُّورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ » . لأن الآية ظنية الدلالة ، تحتمل المعنى الذى دلت عليه السنة ، فاتباع السنة فى بيانها للنصوص القرآنية إذا كانت ظنية الدلالة - ليس فيه تغيير ، ولا

مخالفة لما ، وإنما هو فهمها على وجه من وجوها التي تحتملها (١) .

بذلك كله اتضح ضلال هذا المذهب الذي أنكر العمل بالسنة ، وقد اختفى بما صدم به من قوة أصحاب الحديث ، وانتصر مذهب أصحاب الاعتماد على السنة كأصل من أصول التشريع الإسلامى بعد القرآن - فإن الشك في بعض الأحاديث أو الاستيقان بكذب بعضها ، لا يوجب رفض ما يثبت منها بطريق التواتر العملي أو القولى ، أو بطريق الشهرة والقبول من الأمة ، أو ماروى بطريق موثوق به ، يفيد غلبة الظن بصدقه وصحته . وقد أفنى العلماء المخلصون لدينهم وربهم أعمارهم ، وتجهشوا الصعاب ، واقتحموا العقاب في سبيل تخليص الآثار الصحيحة من باطلها وزائفها ، حتى سلم لنا منها الجم الغفير ، فكيف تترك هذا التراث العظيم ، وفيه من الجواهر النفيس ، والدر الثمين ، ما لا يصح أن ينزل بقيمته ، أو يصدفنا عن النظر إلى حرجوهره ، بعض ماعلق به من التراب ، أو تتخلله من الشوك ، بل الواجب علينا أن ننفض عنه ذلك التراب ، ونعصده عنه تلك الأشواك ، ليظل - على وجه الدهر - المرجع السليم ، والمصدر الصحيح ، للتشريع القيم ، والإصلاح الشامل ، والأدب الرفيع ، والخلق العظيم .

٤ - رتبة السنة في التشريع

هى في المرتبة الثانية عند استنباط الأحكام الشرعية ، فالمجتهد عند البحث عن حكم للواقعة أو النازلة يرجع أولاً إلى القرآن الكريم ، فإن لم يجد فيه حكماً ، التجأ إلى ينبوع الثاني للدين ، وهو ماصح من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يبحث فيها عن الحكم المطلوب ، فإذا وجد الحكم في النصوص القرآنية لا يبحث في السنة عن حكم غيره ، كما أنه لا يرجع إليها إلا بعد الرجوع إلى القرآن ، فهى متأخرة عن الكتاب في الاعتبار ، والدليل على ذلك أمور :

الأول : - أن القرآن مقطوع به من حيث ثبوته ونقله إلينا بطريق قطعى ،

(١) راجع كتاب أصول الفقه للأستاذ عبد الوهاب خلاف بك .

لاشك فيه ، هو طريق التواتر ، ولا كذلك السنة فإنها ظنية ، من حيث ثبوتها ونقلها ، إلا في المتواتر منها ، وهو قليل ، فهي في غير المتواتر مهما علت درجة سندها - لا تفيد إلا الظن بورود المنقول منها ، والقطع فيها إنما يصح في الجملة ، لا في التفصيل ، أما الكتاب فمقطوع به جملة وتفصيلا ، والمقطوع به مقدم على المظنون ، فلم من ذلك تقديم الكتاب على السنة .

الثاني : - ما دل على ذلك من الأخبار والآثار ، فالرسول صلوات الله وسلامه عليه ، كان في حياته إذا استفتى أو سئل عن حادثة ، اتبع فيها ما أوحى إليه من القرآن ، وما كان يسن حكماً باجتهاده إلا حيث لا يوحى إليه بقرآن ، وهذا حديث معاذ بن جبل ، لما ولاه رسول الله قاضياً على اليمن ، أوضح دليل على ذلك ، فإنه قال له : **« دِيعَمَ كَقَضَى إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ ؟ »** قال : **« بَكِتَابِ اللَّهِ ، قَالَ : فَإِنْ لَمْ تَجِدْ ؟ »** قال : **« بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ، قَالَ : فَإِنْ لَمْ تَجِدْ ؟ »** قال : **« أَجْتَهِدُ رَأْيِي . »** فأقره الرسول على ذلك . وعلى هذا درج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأبو بكر في خلافته كان إذا ورد عليه الخصوم ، نظر في كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضى به بينهم ، قضى ، وإن لم يجد في الكتاب ، وعلم من رسول الله في ذلك الأمر سنة ، قضى بها ، فإن أعياء خرج ، فسأل المسلمين ؛ وقال : **« أتاني كذا وكذا ، فهل علمتم أن رسول الله قضى في ذلك الأمر بقضاء ؟ »** فربما اجتمع عليه نفر كلهم ، يذكر عن رسول الله فيه قضاء ، فيقول أبو بكر : الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ سنة نبينا - كذلك كان عمر يسلك سنة أبي بكر - وقد روى أنه كتب إلى شريح قاضيه بالكوفة : **« إذا أتاك أمرٌ فاقض بما في كتاب الله ، فإن أتاك ما ليس في كتاب الله ، فاقض بما سنَّ فيه رسول الله . »** وفي رواية أخرى : **« انظر ما يتبين لك في كتاب الله ، فلا تسأل عنه أحدا ، وما لم يتبين لك في كتاب الله ، فاتبع فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . »** وقد روى مثل هذا عن ابن مسعود : **« مَنْ عَرَضَ لَهُ مِنْكُمْ قَضَاءٌ فَلْيَقْضِ بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ، فَإِنْ جَاءَهُ مَا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، فَلْيَقْضِ بِمَا »**

قضى به نبيه صلى الله عليه وسلم . وهكذا تجد ما ورد عن الصحابة والتابعين من أقوال وأفعال متفقة في أن السنة هي المرجع الثاني لمعرفة الأحكام واستنباطها بعد كتاب الله الكريم .

الثالث :- أن السنة « على ما يأتي » إما بيان للكتاب ، أو زيادة على ما فيه ، فإن كانت بياناً فهي تابعة للمبين في الاعتبار ، مردودة إليه ، وإن لم تكن بياناً ، فلا اعتبار لها ، إلا بعد الرجوع إلى الكتاب ، وعدم وجود الحكم فيه ، وقد بينا ذلك في الدليلين السابقين .

٥ — منزلة السنة من القرآن

منزلتها من القرآن منزلة الشارح والمفسر والمبين ، فهي تفسر آياته ، وتبين مجمله ، وتعين المراد من نصوصه « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » . وتقيس على أحكامه ، وترجع إلى قواعده وروحه التشريعية العامة ، وسيأتي لذلك مزيد إيضاح في المبحث التالي .

والبيان من النبي صلى الله عليه وسلم بوجه عام - سواء أكان متصلاً بالنصوص القرآنية أم لا - أقسام (١) :

الأول :- بيان ما أوحى إليه بتبليغه ، وظهوره على لسانه بعد أن كان خفياً .

الثاني :- تفسير آيات القرآن ، وتأويلها ، وبيان معناها ، كتفسيره الظلم في

قوله تعالى : « وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » ، بالشرك ، والحساب اليسير بالعرض ، والخطيب الأبيض والأسود ببياض النهار وسواد الليل ، وكما فسر اتخاذ أهل الكتاب أجبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله - بأن ذلك باستحلال

(١) الجزء الثاني من أعلام الموقعين ص ٢٣٨ من الطبعة المنيرية .

ما أحلوه لهم من الحرام ، وتحريم ما حرموه عليهم من الحلال .
الثالث :- بيانه إباحة الشيء عفوا بالسكوت عن تحريمه ، وإن لم يتحدث بالإذن به .

الرابع :- بيانه للأمة جواز الشيء بفعله ، وعدم نهيمهم عن الاقتداء به .
الخامس :- بيانه جواز الشيء بإقراره لهم على فعله ، وهو يشاهده ، أو يعلم أنهم يفعلونه .

السادس :- بيان ما سئل فيه بالوحي ، وإن لم يكن قرآنا ، كما سئل عن رجل أحرم في جبة بعد ما تضمنخ (١) بالخلوق ، فجاء الوحي بنزع الجبة ، وغسل أثر الخلوق .

السابع :- بيان السنة لبعض الأحكام ابتداء من غير سؤال ، كتحريمه عليه الصلاة والسلام لحوم الحمر الأهلية .

الثامن :- أن ينص في القرآن على حكم شيء بإيجابه ، أو إباحته ، أو تحريمه ، ويكون لذلك الحكم شروط ، وقبوض ، وموانع ، وأوقات مخصوصة ، وأحوال ، وأوصاف ، فتجىء السنة ببيان ذلك كله ، كقوله تعالى : « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي كَرِهَ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ » . فالآية أوجبت الإرث بالولادة وحدها ، ولكن السنة أضافت إلى ذلك اشتراط اتحاد الدين ، وعدم الرق والقتل ، وبينت أن كلا من القتل ، والرق ، واختلاف الدين ، يمنع من الإرث ، ولذلك قال الأوزاعي : « الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب » ، إذ هي التي تفسره ، وتعين المراد من نصوصه ، حتى قال ابن عبد البر : إنها تقضي عليه ، وتبين المراد منه .

(١) التضمخ : التلطخ بالطيب وغيره والإكثار منه . والخلوق بفتح الخاء : طيب مركب يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب ، وتلب عليه الحرة والصفرة - راجع النهاية .

٦ - منزلة السنة من التشريع

السنة بالنسبة للأحكام الشرعية المستقاة منها لا تعدو ثلاثة أوجه :
 الأول : - سنة شرعت ما شرعه الله في كتابه الكريم ، فتكون سنة مقررّة ، موافقة لما جاء به من الأحكام ، داعية إلى اتباعها وتنفيذها ، كما إذا ورد في السنة شيء عن إرث أصحاب الفروض المبين في القرآن ، أو ورد فيها أمر بأداء الزكاة أو الحج ، وبأداء الأمانات ، والوفاء بالعقود ، أو نهى عن الفواحش ، وقول الزور ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، فإنما هو تقرير لما دل عليه القرآن وترديد لأحكامه .

الثاني : - سنة بينت ما شرعه القرآن ، بتوضيح مجمله ، وتخصيص عامه ، وتقيد مطلقه ، وتعيين المراد من نص محتمل معنيين أو أكثر ، فتكون سنة مفسرة للكتاب ، تبين مراد الله منه . وأمثلة هذا النوع كثيرة : فآلة سبحانه وتعالى فرض علينا في القرآن الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، ولكنه لم يبين كيف تؤدونها ، ولا ما يجب لها من أركان وشروط ، فجاءت السنة مبيّنة في الصلاة عدد الفرائض كل يوم وليلة ، ووقت كل صلاة ، وعدد ركعاتها ، وأركانها ، وشروطها ، كما بينت في الزكاة : مقدار النصاب ، والأموال التي تزكى ، ومقدار ما يجب إخراجه من كل نوع ، ومثل ذلك في الصوم والحج ، ومن أمثلة هذا النوع من السنة عدم جواز الوصية للوارث إلا بإجازة الورثة ، وتحديد نصاب السرقة لوجوب القطع . وبما لا شك فيه أن الرسول أن يبين مراد الله فيما شرعه من الأحكام القرآنية ، فإن الله منحه سلطة البيان والتفسير - بالآية التي سبق ذكرها غير مرة « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » . غير أن بيانه هذا لا يكون إلا بإلهام ووحى إلهي ، لأنه لا مجال لاجتهاد العقل فيه ، فالرسول إذا بين مجملاً ، أو خصص عاماً ، أو قيد مطلقاً ، أو عيّن المراد من نص محتمل - فعن الله بَيِّن أو خصص أو عيّن . وقد قال الشافعي : كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو بما فهمه من القرآن .

الثالث : - سنة شرعت أحكاماً زائدة ، سكّت عنها القرآن ، فقد اتفق من

يعتد به من أهل العلم على أن السنة تستقل بتشريع الأحكام ، وأنها كالقرآن في تحليل الحلال ، وتحريم الحرام ، وفرض الحقوق ، كورث الجدة السدس ، وتحريم لحوم الحمر الأهلية ، وتحريم كل ذى ناب من السباع ، كالذئب ، والفهد ، والثمر ، وكل ذى مخلب من الطير ، كالصقر ، والحدأة . وكاشتراط الشهود لصحة عقد الزواج ، وكتحريم الجمع بين المرأة وعمتها ، وبينها وبين خالتها ، وتحريمها بالرضاع ما يحرم من النسب ، ونفى التوارث بين المسلم ومخالفه في الدين ، وكذا القضاء بشاهد واحد مع يمين المدعى .

فكما أن الله جل شأنه - ملكه سلطة البيان منحه سلطة التشريع - قال تعالى: «مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ» . وقال «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» . وقال «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» . فهذه النصوص صريحة في أن للرسول أمراً ونهياً ، وأن له طاعة خاصة ، وذلك لا يتحقق على وجه الكمال إلا إذا كان له حق التشريع فيما سكت القرآن عن بيان حكمه ، وقد يشهد لهذا قوله عليه الصلاة والسلام «أَلَا لَئِنْ أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» (١) .

هذه هي الأحكام التشريعية المستقلة التي وردت بها السنة ، بعضها صدر من الرسول بإلهام ووحى إلهي ، وبعضها صدر باجتهاده الذي كفل سداده

(١) أى أوتيت القرآن ، وأوتيت مثله من السنة التي لم ينطق بها القرآن . «إرشاد الفحول» والإيمان ج ٢ ص ٢٠٧ . وروى هذا الحديث في الجزء الرابع من النهاية بلفظ «ألا لئِنْ أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» . وقال صاحب النهاية في شرحه : «يحتمل وجوبين من التأويل : أحدهما : أنه أوتي من الوحي الباطل غير المتلو مثل ما أعطى من الظاهر المتلو . والثاني : أنه أوتي الكتاب وحياً ، وأوتي من البيان مثله ، أى أذن له أن يبين ما في الكتاب ، فيم ويخص ، ويزيد وينقص ، فيكون في وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن .

وصوابه ، لأنه إذا فرض وقوع خطأ فيه ، فإن الله لا يقره عليه ، على أن اجتهاده عليه الصلاة والسلام مستمد من آيات القرآن ، وروحه التشريعية العامة ، والإمام الشافعي في رسالته الأصولية بيّن آراء العلماء في مرجع السنن التي من هذا النوع ، فبعضهم قال : إن الله أعطاه سلطة تشريعية ، أن يسن فيما ليس فيه نص في كتابه ، ومنهم من قال : لم يسن سنة قط إلا ولها أصل في القرآن ، ومنهم من قال : بل جاءته به رسالة الله عز وجل ، فأثبت سنته بفرض الله ، ومنهم من قال : ألتى في روعه كل ماسنّ ، وقد أكثر العلماء القول في هذا المبحث ، وخير من تكلم فيه ابن قيم الجوزية في كتابيه : الطرق الحكيمة ، وأعلام الموقعين ، قال فيها ما خلاصته :

السنن مع كتاب الله على ثلاث منازل :

المنزلة الأولى : سنة موافقة شاهدة بنفس ما شهد به الكتاب ، فيكون توارّد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارّد الأدلة وتضافرها .

المنزلة الثانية : سنة تفسر الكتاب ، وتبين مراد الله منه ، وتقيد مطلقه ، وهذا هو الشأن الغالب في السنة ، لأن رسول الله هو المبين لكتاب الله ، وعليه أنزل ، وبه هداه الله ، وهو أعلم الخلق بتأويله ومراده ، ولذلك لم تأت سنة صحيحة واحدة عن رسول الله تناقض كتاب الله ، وتخالفه البتة .

المنزلة الثالثة : سنة متضمنة لحكم سكّت عنه الكتاب ، فتبينه بياناً مبتدأ ، فقد توجب حكماً سكّت القرآن عن إيجابه ، أو تحريم ما سكّت عن تحريمه .

ولا يخرج السنة عن هذه الأقسام الثلاثة ، فلا تعارض القرآن بوجه ما ، وما جاء فيها زائداً عليه ، فهو تشريع مبتدأ من النبي صلى الله عليه وسلم ، تجب طاعته فيه ، ولا تحمل معصيته ، وليس في هذا تقديم للسنة على كتاب الله ، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله .

دلالة الكتاب على ما جاء في السنة من الأحكام :

ذهب جمهور العلماء إلى أن ما في السنة من الأحكام - راجع في جملة إلى القرآن ، وأنه دالّ عليها دلالة إجمالية ، أو تفصيلية ، وأنه متضمن لها في الجملة ، وللعلماء في بيان ذلك طرق وأوجه (١) أهمها أربعة :-

الوجه الأول :- عام ، وهو ما ورد في الكتاب من الدليل على صحة العمل بالسنة ولزوم اتباعها ، من مثل قوله تعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » . وغيره مما سبق ذكره ، حتى إن عبد الله بن مسعود قال : « لعنَ الله الواشياتِ والمستوشياتِ ، والمتنمصاتِ والمتفلجاتِ للحسنِ المغيراتِ خلقَ الله » ، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد ، فقالت : يا أبا عبد الرحمن ، بلغني عنك أنك لعنت كيت وكيت ، فقال : وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في كتاب الله ، فقالت المرأة : لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته ، فقال لها عبد الله : أما قرأت قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .

الثاني :- أن التشريع القرآني يرجع إلى معان كلية ، وما في السنة من أحكام لا يعدو هذه المعاني ، فالقرآن جاء مبينا طريق السعادة في الدارين ، لنسلكه ، وطريق الشقاء فيهما ، لنحذره .

والسعادة في الدارين إنما تتحقق للمرء بثلاثة أشياء :-

١ - المحافظة على الدين ، والنفس ، والنسل ، والمال ، والعقل ، وهي الضروريات الخمس .

٢ - مراعاة الحاجيات الدائرة على التوسعة ، والتيسير ، والرفق ، ورفع الحرج والضيق ، كإباحة الفطر في المرض والسفر ، والتيمم عند فقدان الماء .

(١) انظر تفصيل ذلك في الجزء الرابع من المواقف للشاطبي ص ١٣ وما بعدها من الطبعة السلفية .

٣ - التحلي بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات ، وهي المعروفة بالتحسينيات .
فالكتاب أتى بهذه الأمور الثلاثة أصولاً يرجع إليها ، والسنة أتت بها تفرعاً
على الكتاب ، وتفصيلاً لما ورد فيه منها ، فالكتاب والسنة بعد التحليل يرجعان
إلى أصول واحدة .

الثالث :- الوجه المشهور عند العلماء ، وهو أنها بيان لما وقع بجملاً في
القرآن ، وقد تقدم شرح ذلك في بحث منزلة السنة من القرآن .

الوجه الرابع :- محاولة بعض العلماء أن يرجعوا كل حكم ورد في السنة ،
وليس فيه نص صريح - إلى أصل في الكتاب : إما بإلحاق أمر وسط مشتببه فيه
بأحد طرفين واضحين مبين حكمهما في القرآن ، وإما بالقياس على ما جاء فيه .

يتضح لك النوع الأول من هذه الأمثلة :

١ - أحل الله الطيبات ، وحرم الخبائث . وبين هذين الأصلين أشياء مشتبهة،
يمكن إلحاقها بأحدهما ، كأكل لحوم الحرم الأهلية ، وكل ذى ناب من السباع ،
ومغلب من الطير ، فألحقها النبي صلى الله عليه وسلم بالخبائث ، ولذلك حرمها ونهى
عن أكلها .

٢ - أن الله تعالى حرم الميتة ، وأباح المذكاة ، فدار الجنين الخارج من بطن
المذكاة بين هذين الطرفين ، فألحقه النبي عليه الصلاة والسلام بالمذكاة ، وقال :
« ذكاة الجنين ذكاة أمه » . ترجيحاً للجانب الجزئية على جانب الاستقلال .

٣ - قال الله تعالى : « فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ » . فبقيت البنتان
مسكوتاً عنهما ، فنقل في السنة حكمهما ، وهو إعطاؤهما الثلثين إلحاقاً لهما بالنساء
إذا كن فوق اثنتين .

وأما القياس على ما جاء في القرآن الكريم فإنه قد ترد فيه نصوص تبين بعض
الأحكام، وتشير إلى أن نظائرها تجري عليها مثل هذه الأحكام ، فيكتفى في الكتاب
ببيان أحكام الأصول ، ويستغنى بها عن تفریع الفروع، اعتماداً على بيان السنة، وذلك بناءً

على أن المقيس عليه وإن كان خاصا - هو في حكم العام معنى ، وسواء أقاله النبي صلى الله عليه وسلم بالقياس ، أم بالوحى - فهو جار في أفهامنا مجرى المقيس والأصل .

ومن أمثلة ذلك :

١ - أن الله تعالى حرم الجمع بين الأم وابنتها في النكاح ، وبين الأختين ، ومع أنه جاء في القرآن ، وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ، قد نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن الجمع بين المرأة وعمتها ، وعن الجمع بين المرأة وخالتها - قياساً على حرمة الجمع بين الأم وابنتها ، وحرمة الجمع بين الأختين ، لأن المعنى الذى لأجله ذم الجمع في المقيس عليه يتحقق في المقيس ، وقد سيق هذا المعنى على سبيل العلة في الحديث (١) الذى نهى عن الجمع المذكور ، وذلك بقوله عليه الصلاة والسلام : **« فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ قَطَعْتُمْ أَرْحَامَكُمْ »** . والتعليل يشعر بوجه القياس .

٢ - أن الله تعالى ذكر من تحريم الرضاغة ما جاء في قوله : **« وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ، وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ »** . فألحق النبي عليه الصلاة والسلام بالأمهات والأخوات سائر القرابات من الرضاغة ، كالعمة ، والحالة ، وبنت الأخ ، وبنت الأخت ، وأشباههن ، فقال : **« إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا حَرَّمَ مِنَ النَّسَبِ »** .

٣ - ذكر الله تعالى الفرائض المقدرة في الميراث ، ولم يذكر ميراث العصبية إلا ما أشار إليه في الأبوين : **« فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ - فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ »** . وقوله في الأولاد : **« لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ »** . وقوله في الإخوة : **« وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ »** . وبقي سائر العصبية غير من ذكر ، كالجد ، والعم ، وابن

(١) يراد به الحديث الذى نص فيه على حرمة الجمع بين المرأة وعمتها ، والجمع بين

١١ : وخالتها .

العم ، وأشباههم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « الْحَقُّوا الْقَرَائِضَ بِأَهْلِهَا ، فَاَبَقِيَ فَهُوَ لِأَوَّلَى رَجُلٍ ذَكَرَ » . وفي رواية « فَلَأَوَّلَى عَصْبَةِ ذَكَرَ » . فتورث أى عاصب الباقي بعد أصحاب الفروض أساسه القياس على من ذكروا من العصبة فى آيات الموارث .

٧ - كتب السنة وأحاديث الأحكام

مضى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تُدَوَّنْ فيه أحاديثه وسننه ، كما دُوِّنَ القرآن . وقد بينا فيما سبق كل ما يحتمل أن يكون سبباً لذلك ، ولا يستثنى من هذا إلا ما روى من كتابة بعض قليل من الصحابة لما كان يسمعه من أحاديث الرسول كالذى نسب إلى عبد الله بن عمرو ، ثم ساورت فكرة كتابتها عمر بن الخطاب ، وحاكت فى نفسه شهراً ، ثم لم يلبث أن رغب عنها ، وزهد فيها ، ثم ذهب هذا التردد ، وذلك الخلاف فيما بعد ، ووجد من الخلفاء والعلماء من يرى المصلحة فى جمع الحديث وتدوينه ، وأول من عرف أنه خطا خطوة فعلية فى ذلك : الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ، ويغلب أن يكون ذلك فى نهاية المائة الأولى من الهجرة ، فى الموطأ « من رواية محمد بن الحسن ، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبى بكر (١) بن محمد بن عمرو بن حزم « أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته فاكتبه ، فإنى خفتُ دُروس العلم ، وذهاب العلماء . وأوصاه أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر » . وأخرج أبو نعيم فى تاريخ أصبهان عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى أهل الآفاق : « انظروا إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه » .

كذلك امتاز فى هذا العصر بكتابة السنة وإملائها محمد بن مسلم بن شهاب الزهري

(١) كان أنصاري مدنياً ، ولى القضاء على المدينة لسليمان بن عبد الملك ، ولعمر بن عبد العزيز ، وتوفى سنة ١٢٠ هـ .

الذى كان من أئمة حفاظ السنة ، ولكن لم يصل إلينا شيء عن جمع هذين العالمين :
أبى بكر والزهرى .

فلما جاء العصر العباسى تنبه رواة الحديث وحفاظه ، إلى وجوب تدوينه ،
ووجدت هذه النزعة في أمصار مختلفة ، وفي أوقات متقاربة ، حتى لم يعرف من له
فضيلة السبق إلى تدوين السنة ، ويغلب على الظن أن ذلك الجمع كان في نهاية النصف
الأول من القرن الثانى الهجرى ، وأوائل النصف الثانى منه ، فكان من هؤلاء
بالمدينة محمد بن إسحق ومالك بن أنس ، وبمكة ابن جريج ، وبالكوفة سفيان
الثورى ، وبالبصرة حماد بن سلية ، وسعيد بن أبى عروبة ، وبالمن معمر بن راشد ،
وبخراسان عبد الله بن المبارك ، وبالشام عبد الرحمن الأوزاعى ، وبمصر الليث
ابن سعد . غير أنه لم يصل إلينا مما جمعه سوى موطأ الإمام مالك ، ووصف
لبعض المجموعات الأخرى ، وكلها عُرف عنها أنها مزجت الحديث بأقوال
الصحابة وفنأوى التابعين .

ثم جاءت طبقة ثانية على رأس المائتين ، رأت أن تفرد حديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن غيره ، فألفوا ما يعرف بالمسانيد ، وهى التى رتبت
فيها الأحاديث على حسب رواتها من الصحابة ، فيذكرون مسند أبى بكر ، فيدون
فيه كل ما روى عنه مهما اختلفت الموضوعات ، ثم يذكرون بعده الصحابة واحداً
بعد واحد على هذا النحو . ولما جاء أحمد بن حنبل بعدهم نهج نهجهم ، ولذلك سُمى
كتابه الجامع للحديث « مسند أحمد » ، وهو الذى وصل إلينا من هذه المسانيد .

ثم جاءت الطبقة الثالثة في القرن الثالث الهجرى الذى نشطت فيه حركة الجمع
والنقد ، وتميز الصحيح من الضعيف ، وتعديل الرجال وتجريرهم ؛ فألفت أهم
كتب الحديث ، ومنها استمدت الكتب المؤلفة بعد ، وعليها بنت واعتمدت . وفى
طليعة هذه الطبقة الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ
مؤلف الجامع الصحيح ، والإمام مسلم بن الحجاج النيسابورى المتوفى سنة ٢٦١ هـ
مؤلف صحيح مسلم ، ويعتبر كتاباهما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى . ثم اقتفى

أثرهما ، وحذا حذوهما كثير من العلماء ، فألفت سنن ابن ماجة لأبي عبد الله محمد ابن يزيد القزويني المعروف بابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٣ هـ . وسنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ . وجامع الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى السلي الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩ هـ . وسنن أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ . وهذه الكتب هي المعروفة في لسان أهل الحديث بالكتب الستة ، وقد عدت أصح كتب الحديث ، وحازت عند المسلمين درجة عظيمة في الثقة والاعتبار والقبول . ولا سيما صحيح البخاري ومسلم ، ويلحق بها مسند الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ .

ومن الكتب التي عنيت بشرح أحاديث الأحكام ، وذكر آراء المجتهدين فيها : فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ، حينما تعرض له هذه الأحاديث ، وزاد المعاد في هدى خير العباد لابن قيم الجوزية . ومن العلماء من اختص تأليفه بأحاديث الأحكام . فمن ذلك كتاب منتخب الأخبار لأبي البركات محمد الدين عبد السلام (١) بن عبد الله بن أبي القاسم المعروف بابن تيمية والمتوفى سنة ٦٥٢ هـ . وشرحه المعروف ببئيل الأوطار لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٥ هـ . وكتاب بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام للحافظ ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ . وشرحه المسمى سبل السلام لمحمد بن إسماعيل الصنعاني المتوفى سنة ١١٨٢ هـ . وهذان الكتابان مع شرحيهما يعدان خير مرجع لمعرفة شرائع السنة وأحاديث الأحكام ، وما دار حولها من اختلاف العلماء والمجتهدين في فهمها والاستنباط منها .

هذه الكتب وغيرها وهي التي جمعت فيها السنة والأحاديث - انتظمت كل ما يُتصور أن يتناوله أئمة الهداة وقادة الفكر والإصلاح ؛ فمن آداب نبوية ، وأخلاق قرآنية ، وحكم بلغت الغاية في صدق النظر وسداد الرأي ، ومواعظ

(١) هو جده شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد المشهور بابن تيمية والمتوفى سنة

وأمثال تفيض بالعبرة والادكار ، وتنزع بالنفوس نحو الهداية والإصلاح ، إلى تشريع محكم ، وأحكام اشتملت على ما يحتاج إليه البشر في عباداتهم ، ومعاملاتهم ، وتنظيم شئون دينهم ودنياهم ، قد بنيت على المساواة والعدالة المطلقة ، وشيدت على رفيع الاخلاق والفضائل ، وأسست على قواعد من تحقيق مصالح العباد ، ودرء المفاسد عنهم ، فلا ضرر ولا ضرار ، ولا غبن ولا خلافة ، ولا حرج ولا عسر ، ولا تفاضل بين الناس في تنفيذ الأحكام وإلزامهم بها . بل كلهم أمام الشرع بواء ، وتجلى فيها مراعاة اليسر ، والرفق ، ومسايرة الفطرة الزكية ، وموافقة الحكمة ، ومقتضى العقل السليم . حتى أصبحت أبلغ آية في سمو التشريع . وخير سبيل لإصلاح الأفراد وإسعاد الجماعات .

وسنعرض عليك صوراً وأمثلة من تشريع السنة لتعرف سمو تشريع الإسلام ، وعدالة أحكامه ، ومدى تغلغله في جميع نواحي الإصلاح ، وبخاصة الإصلاح الاجتماعي والخلقى .

٨ - شذور من التشريع (١) النبوى

١ - صورة من تشريع العبادات

١ - طهورية ماء البحر وحل ميتته :

عن أبى هريرة قال : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : إنا نركب البحر ، ونحمل معنا القليل من الماء ، فإن توضأنا به عطشنا ، أفنتوضأ بماء البحر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هو

(١) كنا نود لو تبسر لنا شرح كل حديث من الأحاديث الآتية ، وبيان ما تفيد من الأحكام ، غير أن ذلك يخرجنا عن الغرض من تأليف هذا الكتاب ، ومن شاء فليرجع إلى كتب نيل الأوطار ، وسبل السلام ، وفتح البارى وغيرها ، فإنه يجد شرحها وافياً ، كما يجد ما يدور حولها من استقاء الأحكام ، وما ورد فيها من مذاهب العلماء والمجتهدين ويختلف آرائهم في استنباط الأحكام الفقهية منها .

الطَّهْرُ (١) مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ . رواه الخمسة . وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . وروى عن الشافعى قوله : هذا الحديث نصف علم الطهارة

٢ - حكم الاغتسال فى الماء الدائم :

عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لَا يَغْتَسِلَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ وَهُوَ مُجْنُبٌ » فقالوا : يا أبا هريرة ، كيف يفعل ؟ قال : يَتَنَاوَلُهُ تَنَاوُلًا . ولأحمد وأبى داود : « لَا يَتَوَلَّى أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ (٢) وَلَا يَغْتَسِلُ فِيهِ مِنْ جَنَابَةٍ » .

٣ - حكم سؤر الهرة :

« عَنْ كَبْشَةَ بِنْتِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ، وَكَانَتْ تَحْتَ ابْنِ أَبِي قَتَادَةَ : أَنْ أَبَا قَتَادَةَ دَخَلَ عَلَيْهَا فَسَكَبَتْ لَهُ وَضْوءًا ، فجاءَتْ هِرَّةٌ تُشْرِبُ مِنْهُ ، فأصْنَى لَهَا الْإِنَاءَ حَتَّى شَرِبَتْ مِنْهُ ، قَالَتْ كَبْشَةُ : فَرَأَى أَنْظَرُ ، فقال : أتعجبين يا ابنة أخى ؟ فقلت : نعم ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ ، إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ » . رواه الخمسة .

وعن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يُصْنَى (٣) إِلَى الْهِرَّةِ الْإِنَاءَ حَتَّى تُشْرِبَ ، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ بِفَضْلِهَا . رواه الدارقطنى .

٤ - الحث على السواك وبيان سنن الفطرة :

(١) عن عائشة رضى الله عنها ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « السَّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ » .

«١» هو الطاهر المطهر .

«٢» الماء الدائم هو الساكن .

«٣» أصنى الإناء : أمله .

(ب) وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » . وفي رواية لأحمد « لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء » .

(ج) وعن حذيفة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك . والشوص : الدلك . وللنساء عن حذيفة قال : كنا نؤمر بالسواك إذا قمنا من الليل .

(د) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خمس من الفطرة » ١٠ . الاستحذاء « ٢ » ، والختان ، وقص الشارب ، وتنف الإبط ، وتقليم الأظفار » .

هـ - التطيب :

عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حُببَ إلىَّ من الدنيا : النساء والطيب ، وجعلتُ قرَّةَ عيني في الصلاة » .

٦ - استحباب غسل اليدين قبل المضمضة ، وتأكيده لنوم الليل :
عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا استيقظ أحدكم من منامه ، فلا يدخل يده في الإناء حتى يغسلها ثلاث مرات ، فإنه لا يدرى أين باتت يده ، أو أين طافت يده » .
وعن أوس بن أوس الثقفي قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ، فاستوكف ثلاثاً . أى غسل كفيه .

« ١ » أى أن هذه الأشياء إذا تحققت اتصف فاعلمها بالفطرة التي فطر الله العباد عليها ، وحتم عليها ، واستحبها لهم ، ليكونوا على أكل الصفات ، وأشرفها صورة ، وفسر بعض العلماء الفطرة بالدين . وقبل : هى الحلقة المبتدأة ، كما قبل : هى السنة القديمة ، التي اختارها الأنبياء وافقت عليها الشرائع فكانها أمر جبل ينطوون عليها .
« ٢ » هو حلق المانة .

٧ - شرعية المسح على الخفين :

عن عبد الرحمن بن أبي بكره ، عن أبيه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه رخص للمسافر ثلاثة أيام ولياليهن ، وللبقيم يوماً وليلة إذا تطهر ، فلبس خفيه - أن يمسح عليهما ،

وعن المغيرة بن شعبة قال : قلنا : يا رسول الله ، أيمسح أحدنا على الخفين ؟ قال : نعم ، إذا أدخلتهما وهما طاهرتان .

٨ - استحباب الوضوء لمن أراد النوم :

عن البراء بن عازب قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، ثم قل : اللهم أسألتك نفسي إليك ، ووجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنيبك الذي أرسلت ، فإن ميتاً من ليبتك ، فانت على الفطرة (١) ، واجعلهن آخر ما تتكلم به . »

٩ - تحريم قربان الحائض ، وما يباح منها :

عن أنس بن مالك أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ، ولم يجامعوها في البيوت ، فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم الله عز وجل : « ويسألونك عن المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى ، فاعترضوا النساء في المَحِيضِ - إلى آخر الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اصنعوا كل شيء إلا التكاثر » ، وفي لفظ : « إلا الجماع (٢) » .

١٠ - الحائض تقضى الصوم دون الصلاة :

عن معاذة قالت : سألت عائشة ، فقلت : « ما بال الحائض تقضى الصوم ولا

« ١ » المراد بالفطرة هنا السنه .

« ٢ » رواه الجماعة إلا البخاري - راجع الجزء الأول من نيل الأوطار .

تقضى الصلاة؟ قالت: كان يُصينا ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتؤمر بقضاء الصوم، ولا تؤمر بقضاء الصلاة.

١١ - شرعية التيمم وصفته :

عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فَضَّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تَرَبُّثُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ». رواه مسلم.

وعن عمار بن ياسر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «فِي التَّيْمُمِ ضَرْبَةٌ لِلْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ، وَفِي لَفْظِ «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَهُ بِالتَّيْمُمِ لِلْوَجْهِ وَالْكَفَيْنِ».

١٢ - الصلوات المكتوبة وشرائع الإسلام :

عن طلحة بن عبيد الله أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثر الرأس، فقال: يا رسول الله، أخبرني ما فرض الله على من الصلاة؟ قال: «الصلوات الخمس إلا أن تطوع شيئا». قال: أخبرني ما فرض الله على من الصيام؟ قال: شهر رمضان إلا أن تطوع شيئا، قال: أخبرني ما فرض الله على من الزكاة؟ قال: فأخبره رسول الله بشرائع الإسلام كلها، فقال: والذي أكرمك لا أطوع شيئا، ولا أنقص مما فرض الله على شيئا، فقال رسول الله: أَقْلَحَ إِنْ صَدَقَ، أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ..

١٣ - أمر الصبي بالصلاة تمريناً لا وجوباً :

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مُرُوا صِبْيَانَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوا بِهَمْ عَلَيْهِا لَعَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ».

١٤ - نهى المرأة أن تلبس ما يحمي بدنها ، أو تشبه بالرجال :

(١) عن أسامة بن زيد قال « كساني رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضية (١) كثيفة ، كانت مما أهدى له دحية الكلبي ، فكسوتها امرأتى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما لك لا تلبس القُبْطِيَّةَ ؟ فقلت : يا رسول الله ، كسوتها امرأتى ، فقال : مُرْها أن تجعلَ تَحْتَهَا غِلَالَةً (٢) فَإِنِّي أخاف أن تصيفَ حَجْمَ عِظَامِها . »

(ب) وعن أبي هريرة « أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الرجل يلبس لبس المرأة ، والمرأة تلبس لبس الرجل ، وأخرج البخاري وأبو داود والترمذي وغيرهم من حديث ابن عباس قال « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء (٣) . »

١٥ - حكم الصلاة إلى القبور :

(١) عن أبي مرزوق الغنوي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تَهْتَلُوا إلى القُبُورِ ، ولا تَجْلِسُوا عليها . »

(ب) وعن مُجَنَّد بن عبد الله البجلي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول : « إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ ، إِنِّي أَنهَاكُمُ عَنْ ذَلِكَ (٤) . »

«١» بضم القاف على غير قياس ، وقد تكسر - نسبة إلى القبط .

«٢» الغلالة شعار يلبس تحت الثوب .

«٣» نيل الأوطار ج ٢ ص ٩٨ طبعة سنة ١٣٤٧ هـ .

«٤» حكمة النهي - كما في نيل الأوطار - الخوف من المبالغة في تعظيم الموتى والافتتان

بهم ، وربما أدى ذلك إلى الكفر ، كما جرى لكثير من الأمم الخالية - ج ٢

ص ١١٣ ، ١١٤ .

١٦ - ما يقال في افتتاح الصلاة ، وفي الركوع ، والسجود ، وبعد التشهد :

(أ) عن علي بن أبي طالب قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة قال : « وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ، ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي ، فَاعْفُ عَنِّي ذُنُوبِي جَمِيعًا ، لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئًا ، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئًا إِلَّا أَنْتَ ، كَلْبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ » .

وإذا ركع قال : « اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَلَكَ أَسَلْتُ ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي ، وَبَصَرِي ، وَخُفِّي ، وَعَظْمِي ، وَعَصْبِي » . وإذا رفع رأسه قال : « اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ » . وإذا سجد قال : « اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَلَكَ أَسَلْتُ ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ ، وَصَوَّرَهُ ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » . ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَسْرَقْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ الْمَقْدُمُ وَأَنْتَ الْمُوَخَّرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ » .

(ب) وعن عائشة قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا استفتح الصلاة

قال : « سبحانَكَ اللهم ، وبحمْدِكَ ، وتبارَكَ اسمُكَ ، وتعالى جَدُّكَ (١) ولا إلهَ غيرُكَ » .

(ج) وعن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كبر في الصلاة سكت هنيهة قبل القراءة ، فقلت : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، أرايت سكوتك بين التكبير والقراءة ، ما تقول ؟ قال : « أقول : اللهم باعدْ بيني وبينَ خطاياي ، كما باعدتَ بين المشرق والمغرب ، اللهم تقني من خطاياي ، كما تُنقي الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلني من خطاياي ، بالماء والبارد » .

والذكر والدعاء في هذه الأحاديث الثلاثة كل منها - كما ترى - بنور النبوة يشع ، ويعرّف الرسالة يتنوّع .

١٧ - وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة :

عن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا صلاةَ لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » . رواه الجماعة ، وفي لفظ : « لا تُجزي صلاةَ من لم يقرأ بفاتحة الكتاب » .

١٨ - تحية المسجد :

عن أبي قتادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يُصلّي ركعتين » . وفي رواية أخرى : « أعطوا المساجدَ حقّها ، قالوا : وما حقّها ؟ قال : أنْ تُصَلّوا ركعتين قبل أنْ تجلسوا » .

١٩ - صلاة العيدين وعدد التكبيرات فيها :

عن عمرو بن عوف المزني ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كبر في العيدين في

الأولى سبعا قبل القراءة، وفي الثانية خمسا قبل القراءة، . رواه الترمذى، وقال: هو أحسن شيء في هذا الباب .

وعن أبي سعيد قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يخرج يوم الفطر والأضحية إلى المصلى، وأول شيء يبدأ به الصلاة، ثم ينصرف، فيقوم مقابل الناس، والناس جلوس على صفوفهم، فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم، وإن كان يريد أن يقطع بعثا، أو يأمر بشيء أمر به، ثم ينصرف .

٢٠ - الصلاة والدعاء عند الكسوف، أو الخسوف :

عن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ ، وَلَا لِحَيَاتِهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ ذَلِكَ فَادْعُوا اللَّهَ وَكَبِّرُوا ، وَتَضَعُوا أَيْدِيَكُمْ » .

وعن المغيرة قال : انكسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات إبراهيم : فقال الناس : انكسفت لموت إبراهيم ، فقال النبي : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ ، وَلَا لِحَيَاتِهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا اللَّهَ تَعَالَى ، وَصَلُّوا حَتَّى يَنْجَلِيَ (١) » .

٢١ - زكاة الذهب والفضة، وزكاة الزرع والثمار :

(١) عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ فِيهَا دُونَ خَمْسِ أَوْاقٍ (٢) مِنَ الْوَرَقِ صَدَقَةٌ » ، وَلَيْسَ فِيهَا دُونَ خَمْسِ ذَوْدٍ مِنَ الْإِبِلِ صَدَقَةٌ ، وَلَيْسَ فِيهَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ مِنَ التَّمْرِ صَدَقَةٌ » .

(ب) وعن علي بن أبي طالب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « إِذَا كَانَتْ لَكَ مِائَتَا دِرْهَمٍ ، وَحَالَ عَلَيْهَا الْخَوَلُ ففِيهَا خَمْسَةُ دَرَاهِمٍ ، وَلَيْسَ

«١» نيل الأوطار ج ٣ ص ٢٨٤ .

«٢» قال في الفتح مقدار الأوقية في هذا الحديث أربعون درهما .

عليك شيء - يعني في الذهب - حتى يكون لك عشرون ديناراً ، فإذا كانت لك عشرون ديناراً ، وحال عليها الحول ، ففيها نصف دينار .
(ج) وعن جابر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « فيما سَقَتِ الْأَنْهَارُ وَالْغَيْمُ الْعُشُورُ ، وفيما سُقِيَ بالسَّائِيَةِ ١٠ نصفُ الْعُشُورِ ٢٠ » .

٢٢ - المبادرة إلى إخراج الزكاة :

عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَا خَالَطَتْ الصَّدَقَةُ مَالًا قَطُّ إِلَّا أَهْلَكَتُهُ » ، رواه الشافعي والبخاري في تاريخه ، والحميدي وزاد ، قال : « يَكُونُ قَدْ وَجِبَ عَلَيْكَ فِي مَالِكَ صَدَقَةٌ فَلَا تَخْرِجْهَا ، فَيُهْلِكَ الْحَرَامُ الْحَلَالَ » .

٢٣ - من لا تحمل له الصدقة ولا المسألة :

(أ) عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لَا تَحْمِلْ الصَّدَقَةَ لِمَنْ غَنِيَ ، وَلَا لِذِي مِرَّةٍ ٣ سَوِيٍّ ،
(ب) وعن عبيد الله بن عدي ، أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي صلى الله عليه وسلم يسألانه من الصدقة ، فقلَّبَ فيهما البصر ، ورآهما جثدين ، فقال : « إِنَّ شَيْئًا أُعْطِيَتْكُمَا ، وَلَا حَظَّ فِيهَا لِمَنْ غَنِيَ ، وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ » .

(ج) وعن سهل بن الحنظلية ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « مَنْ سَأَلَ وَعِنْدَهُ مَا يُغْنِيهِ ، فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَهَنَّمَ » قالوا :

١ « السائبة : البعير الذي يستقى به الماء من البئر ، ويقال له : الناضح .

٢ « راجع ج ٤ من نيل الأوطار ص ١١٨ ، ١١٩ .

٣ « المرة : القوة على الكسب والعمل .

يا رسول الله وما ينبغي؟ قال: « ما يُغْدِيهِ ، أو يُعَشِّيهِ » . وفي رواية أخرى « يُغْدِيهِ وَيُعَشِّيهِ » .

(د) وعن قبيصة بن عمار قال : سَمِعْتُ سَمَةَ (١) ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْأَلُهُ فِيهَا ، فَقَالَ : أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ ، فَنَأْمُرَكَ بِهَا ، ثُمَّ قَالَ : « يَا قَبِيصَةُ ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةَ : رَجُلٍ سَمِعَلَ سَمَةَ ، فَخَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاكَ مَا لَهُ ، فَخَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ : سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ قَافَةٌ ، حَتَّى يَقُولَ ثَلَاثَةَ مِنْ ذَوِي الْحِجَابِ مِنْ قَوْمِهِ : لَقَدْ أَصَابَتْ فَلَانًا قَافَةٌ ، فَخَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ ، حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ ، أَوْ قَالَ : سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ ، فَتَأْتِيهِمْ مِنْ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ فَسُحَتْ (٢) ، يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا » .

٢٤ - وجوب الحج في العمر مرة :

عن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ ، فَقَامَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ ، فَقَالَ : أَيْ كُلِّ حَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : لَوْ قُلْتُهَا لَوَجَبَتْ ، وَكَلَّوْا وَجَبَتْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهَا ، وَلَمْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْمَلُوا بِهَا ، الْحَجُّ مَرَّةً ، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَعْلُوعٌ » .

٢٥ - الحج عن الوالدين :

(أ) عن عبد الله بن الزبير قال : « جَاءَ رَجُلٌ مِنْ خَثْعَمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : « إِنْ أَبِي أَدْرَكَهُ الْإِسْلَامُ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ، لَا يَسْتَطِيعُ رُكُوبَ الرَّحْلِ ، وَالْحَجُّ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ ، أَفَأُحْجِ عَنْهُ ؟ قَالَ : « أَنْتَ أَكْبَرُ وَلَدِهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكَ دَيْنٌ فَتَقَصَّيْتَهُ عَنْهُ ، أَوْ كَانَ يَحْجِرُ ذَلِكَ عَنْهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « فَاحْجُجْ عَنْهُ » .

(١) الحالة . ما يتصله الإنسان ويلتزمه فذمته بالاستئذان ، ليدفعه في إصلاح ذات البين ، أو لتسكين فتنة .

(٢) حرام .

(ب) وعن ابن عباس : أن امرأة من جينة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : إن أمي نذرت أن تحج ، فلم تحج حتى ماتت ، أفأحج عنها ؟ قال : « نعم » ، فحجى عنها ، أرايت لو كان على أمك دينٌ أكنت قاضيته ؟ اقتضوا الله ، فالله أحق بالوفاء (١) .

٢٦ - النهى عن سفر المرأة للحج وغيره إلا بمحرم :
عن ابن عباس أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يخطب ، يقول : « لا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ ، وَلَا تُسَافِرُ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ ، قَامَ رَجُلٌ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنْ امْرَأَتِي سَجَرَتْ حَاجَةً ، وَإِنِّي اكْتَتَبْتُ فِي غَزْوَةٍ كَذَا وَكَذَا ، قَالَ : « انْطَلِقِي فَحُجِّي نَعِ امْرَأَتِكَ » .

ب - أمثلة من تشريع المعاملات

١ - النهى عن بيع الفَرَر (٢) :
(١) عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَا تَشْتَرُوا السَّمَكَ فِي الْمَاءِ فَإِنَّهُ فَرَرٌ » .
(ب) وعن ابن عمر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع حَبَل (٣) الحَبْلَةِ . وفي رواية : نهى عن بيع حَبَلِ الحَبْلَةِ . وحبل الحبلَة : أن تفتج الناقة ما في بطنها ، ثم تحمل التي تُتَجَت .

١٥ « بل الأوطار ج ٤ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .
٢٥ « قال النووي : النهى عن بيع الفرز أسل من أسول الفرع ، يدخل تحته مسائل كثيرة جداً .

٣ « فسرهم ببيع لحم الجوزور بمن مؤجل إلى أن يلد ولد الناقة ، وفسره آخرون بأنه يبيع ولد الناقة الحامل في الحال ، فتكون حلة النهى على الأول جهالة الأجل ، وعلى الثاني بيع الفرز ، لكونه معدوماً ومجهولاً وغير مقدور على تسليمه .

(ج) وعن شهر بن حوشب عن أبي سعيد قال : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن شراء مافي بطون الأنعام حتى تضع ، وعن بيع مافي ضروعها إلا بكيل ، وعن شراء العبد وهو آبق ، وعن شراء المغانم حتى تُنقسم ، وعن شراء الصدقات حتى تقبض ، وعن ضربة الغائص .

٢ - ما يحرم بيعه :

(أ) عن جابر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ ، وَالْمَيْتَةِ ، وَالْخِنْزِيرِ ، وَالْأَصْنَامِ ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ ، فَإِنَّهُ يُطْلَى بِهَا السَّفَنُ ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ ، وَيَسْتَصْبَحُ بِهَا النَّاسُ ؟ فَقَالَ : لَا ، هُوَ حَرَامٌ » ، ثم قال رسول الله عند ذلك : « قَاتِلَ اللَّهُ الْيَهُودَ ، إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَعَلُوهُ (١) ، ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا سَمْنَهُ » ، (ب) وعن أنس قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمر عشرة : عاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وساقبها ، وبائعها ، وآكل ثمنها ، والمشتري لها ، والمشتراة له .

٣ - النهى عن بيع ما ليس عندك :

عن حكيم بن حزام قال : قلت : يا رسول الله ، يأتيني الرجل ، فيسألني عن البيع ليس عندي ما أبيع منه ، ثم أبتاعه من السوق ، فقال : لا تبيع ما ليس عندك .

٤ - حكم بيع السلعة مرتين :

عن سمرّة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إِذَا بَاعَ امْرَأَةٌ زَوْجَهَا تَوَلَّيَانِ ، فَهِيَ لِلأَوَّلِ مِنْهُمَا ، وَإِذَا بَاعَ رَجُلٌ بَيْعًا مِنْ رَجُلَيْنِ ، فَهُوَ لِلأَوَّلِ مِنْهُمَا (٢) » .

« ١ » بفتح الجيم والميم أى أذا بوه .

« ٢ » قال في نيل الأوطار : فيه دليل على أن من باع شيئاً من رجل ، ثم باعه من آخر ، لم يكن البيع الآخر حكم ، بل هو باطل ، لأنه باع غير ما يملك ، إذ قد صار في ملك المشتري الأول

٥ - نهى المشتري عن بيع ما اشتراه قبل قبضه :

(١) عن جابر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا ابتعت (١) طعاما فلا تبعه حتى تستوفيه » .

(ب) وعن حكيم بن حزام قال : قلت : يا رسول الله ، إني أشتري يبيوعا فما يحمل لي منها ، وما يحرم علي ؟ قال : « إذا اشتريت شيئا فلا تبعه حتى تقبضه » .

(ج) وعن زيد بن ثابت ، أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن تباع السلع حيث تبنتاع ، حتى يحوزها التجار إلى رحالهم .

٦ - النهى عن التجش ، وعن تلتقى الركبان :

(١) عن ابن عمر قال : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التجش (٢) .

(ب) وعن ابن مسعود قال : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تلتقى البيوع (٣) .

(ج) وعن أبي هريرة قال : نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يتلقى الجلب ، فإن تلقاه إنسان ، فابتاعه ، فصاحب السلعة فيها بالخيار إذا ورد السوق .

٧ - النهى عن بيع الرجل على بيع أخيه وسومه إلا في المزايدة :

(١) عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يبيع أحدكم

«١» اشترى .

«٢» التجش : الختل والحديمة - فسرره بعض العلماء بأن تحضر السلعة تباع ، فتريد في ثمنها ، وأنت لا تريد شراءها ، ليمتنى بك السوام ، فيطووا بها أكثر ، اغتدما بك ، فإذا وقع أحدهم في الشراء بسبب ذلك ، قالت طائفة من العلماء بفساد البيع إذا كان بمواظاة البائع ، وتبيل : ثبت له الخيار .

«٣» شرح هذا الحديث والذي بعده وبيان آراء العلماء فيهما مبسوط في الجزء الخامس من نيل الأوطار ص ٣٤١ .

على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه ، إلا أن يأذن له .
وفي رواية لأبي هريرة : « لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ، ولا يسوم
على سوميته . »

(ب) وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم باع قدحا وحلّسا فيمن
يزيد (١) . »

٨ - النهي عن بيع الثمر قبل بدو صلاحه :

(١) عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الثمار حتى يبدو
صلاحها ، نهى البائع والمبتاع .

(ب) وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الثمرة حتى
تمزهي ، قالوا : وما تمزهي ؟ قال : تخمر ، وقال : « إذا منع الله الثمرة
فيم كستحل مال أخيك » . »

٩ - شرط السلامة من الغبن في البيع :

عن ابن عمر أن منقذاً سفع (٢) في رأسه في الجاهلية مأمومة (٣) ،
تجلست لسانه ، فكان إذا باع يتخذع في البيع ، فقال له رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « بايع ، وقل : لا خلافة » (٤) ثم أنت بالخيار ثلاثا . قال
ابن عمر : فسمعتة يبايع ويقول : لا خذابة لا خذابة .

١٠ - خيار المجلس :

عن حكيم بن حزام أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « البيعان (٥) بالخيار

(١) ولفظ الحديث عند أبي داود وأحمد « أن النبي صلى الله عليه وسلم نادى على
قدح ، وحلّس بعض أصحابه ، فقال رجل : هما على بدرهم ، ثم قال آخر : هما على بدرهمين ،
نيل الأوطار ج . »

(٢) ضرب .

(٣) المأمومة : التي بلغت أم الرأس وهي الدماغ ، أو الجدة الرقيقة التي عليه .

(٤) بكسر الخاء أي لا خديعة .

(٥) بتشديد الباء : هما البائع والمشتري .

ما لم يَفْتَرِقَا ، أَوْ قَالَ دَ حَتَّى يَفْتَرِقَا - فَإِنْ صَدَقَا وَيَتَنَا بُورِكَ لهما فِي يَتَعِيهِمَا ، وَإِنْ كَذَبَا وَكَمَا مُحِثَتْ بَرَكَةُ يَتَعِيهِمَا .

١١ - حرمة الربا والتحذير منه :

عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن آكل الربا ، ومؤكله ، وشاهديه ، وكاتبه . ولفظ النسائي : آكل الربا ، ومؤكله ، وشاهديه ، وكاتبه ، إذا علوا ذلك ، ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة .

١٢ - ما يجري فيه الربا :

(أ) عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم د لا تبيعوا الذهب بالذهب ، إلا مثلاً بمثل ، ولا تشفوا (١) بعضها على بعض ، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلاً بمثل ، ولا تشفوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا منها غائباً بناجز . وفي لفظ : الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مثلاً بمثل ، يدًا بيد ، فن زاد ، أو استزاد ، فقد أُرْبِي ، الآخذ ، والمعطى ، فيه سواء .

(ب) وعن عبادة بن الصامت ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مثلاً بمثل سواءً بسواء ، يدًا بيد ، فإذا اختلفت هذه الأصناف ، فبيعوا كيف شئتم ، إذا كان يدًا بيد .

١٣ - حكم بيع العينة (٢) - إبطال الحيل :

عن ابن إسحق السبكي ، عن امرأته ، أنها دخلت على عائشة ، فدخلت

(١) أى لا تقضوا .

(٢) بكسر الهمزة ، وفتح الميم : هو أن يبيع شيئاً من غيره بشئ مؤجل ، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بشئ من الثمن المؤجل .

معه أم ولد زيد بن أرقم ، فقالت يا أم المؤمنين : إني بعت غلاما من زيد بن أرقم بثمانمائة درهم نسيئة ، وإني ابتعته منه بستمائة نقداً ، فقالت لها عائشة : بئس ما اشتريت ، وبئس ما شريت ، إن جهاده مع رسول الله قد بطل إلا أن يتوب .

١٤ - وجوب تبين العيب :

(أ) عن واثلة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَبِيعَ شَيْئًا إِلَّا بَيَّنَّ مَا فِيهِ ، وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا بَيَّنَّهُ » .
(ب) وعن أبي هريرة أن النبي مرَّ برجل يبيع طعاماً ، فأدخل يده فيه ، فإذا هو مبلول ، فقال : « مَنْ كَغَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » .

١٥ - الخراج بالضمان ، والكسب الحادث لا يمنع الرد بالعيب :

عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى : إن الخراج (١) بالضمان ، وفي رواية : أن رجلاً ابتاع غلاماً فاستغله (٢) ، ثم وجد به عيباً ، فردّه بالعيب ، فقال البائع : غلة عبدي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « الْعَلَّةُ بِالضَّمَانِ » .

١٦ - ما جاء في الاحتكار :

(أ) عن سعيد بن المسيّب ، عن معمر بن عبد الله العدويّ ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ » (٣) . وكان سعيد يحتكر الزيت .

(ب) وعن معقل بن يسار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ دَخَلَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْعَارِ الْمُسْلِمِينَ لِيُغْلِبَهُ عَلَيْهِمْ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُقْعِدَهُ بِعُظْمٍ » (٤) مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

(١) الخراج : الدخل والمنفعة .

(٢) استغله : أى أخذ فله .

(٣) الخاطئ : المذنب العاصي .

(٤) أى يمكن عظيم من النار .

(ج) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ اخْتَرَ حُكْرَةً (١) يريدُ أن يُغْلَى بها على المسلمين فهوَ خاطئٌ » .

١٧ - السَّلَمُ (٢) وما يشترط فيه :

عن ابن عباس قال : قدِمَ النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يُسَلِفُونَ في الثمار السنة والسنتين ، فقال « مَنْ أَسْلَفَ فَلْيُسَلِفْ في كيلٍ معلومٍ ، ووزنٍ معلومٍ ، إلى أجلٍ معلومٍ » .

١٨ - فضيلة القرض - الإحسان في القضاء - عدم قبول الهدية من المستقرض :

(أ) عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُقْرِضُ مُسْلِمًا قَرْضًا مَرَّتَيْنِ إِلَّا كَانَ كَصَدَقَتِهَا مَرَّةً » .

(ب) وعن أبي هريرة قال : كان لرجل على النبي صلى الله عليه وسلم سن من الإبل ، فجاء يتقاضاه ، فقال « أعطوه » فطلبوا سنه ، فلم يجدوا إلا سنا فوقها ، فقال : « أعطوه » فقال : « أَوْفَيْتَنِي أَوْفَاكَ اللَّهُ » ، فقال النبي « إِنْ سَخِرَ كَمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً » .

(ج) وعن أبي بردة بن أبي موسى قال : قدمت المدينة ، فلقيت عبد الله بن سَلَامَ ، فقال لي : إِنْكَ بَارِضٌ فِيهَا الرِّبَا فَاشْرِ ، فَإِذَا كَانَ لَكَ عَلَى رَجُلٍ حَقٌّ ، فَأَهْدِ إِلَيْكَ حِمْلَ تَبْنٍ ، أَوْ حِمْلَ شَعِيرٍ ، أَوْ حِمْلَ قَتٍّ ، فَلَا تَأْخُذْهُ ، فَإِنَّهُ رِبَا .

(د) وعن ألس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِذَا أَقْرَضَ فَلَا يَأْخُذْ هَدِيَّةً » .

١٩ - ضمان درك المبيع على البائع إذا خرج مستحقاً :

عن الحسن عن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ وَجَدَ

«١» بضم الحاء وسكون الكاف ، وهي حبس السلع عن البيع .

«٢» قال في الفتح : السلم شرها بيع موصوف في الذمة ، وزيد في المد يبدل يعطى

عاجلاً - النخ ، والسلم شروط مبسوط في كتب الفقه .

عَيْنَ مَا لِهٖ عِنْدَ رَجُلٍ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ ، وَيَتَّبِعُ الْبَيْعُ (١) مَنْ بَاعَهُ ، وَفِي لَفْظٍ
« إِذَا سُْرِقَ مِنْ الرَّجُلِ مَتَاعٌ أَوْ ضَاعَ مِنْهُ ، فَوَجَدَهُ بِيَدِ رَجُلٍ بَعِيْنِهِ ، فَهُوَ
أَحَقُّ بِهِ ، وَيَرْجِعُ الْمُشْتَرَى عَلَى الْبَائِعِ بِالثَّمَنِ »

٢٠ - ملازمة المولى ، وإطلاق المعسر - الحجر على المدين وبيع ماله في قضاء

دينه :

(١) عن عمرو بن الشريد ، عن أبيه ؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :
« كَلَى الْوَاجِدِ ظُلْمٌ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ (٢) » .

(ب) وعن أبي سعيد قال : أصيب رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثمار ابتاعها ، فكثر دينه ، فقال : « تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ ، فَتَصَدَّقِ النَّاسُ
عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ وَفَاءَ دَيْنُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِفَرَمَائِهِ « مُخَذُّوا مَا وَجَدْتُمْ ،
وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ » .

(ج) عن كعب بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم حجر على مُعَاذَ مَالَتِهِ ،
وباعه في دينٍ كان عليه .

٢١ - الصلح :

عن عمرو بن عوف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الصُّلْحُ
جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، إِلَّا مُصْلَحًا حَرَّمَ حَلَالًا ، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا ، وَزَيْدٌ فِي بَعْضِ
الرِّوَايَاتِ : « الْمُسْلِمُونَ عَلَى مُثْرُوطِهِمْ (٣) » ، إِلَّا مُثْرَطًا حَرَّمَ حَلَالًا ، أَوْ
أَحَلَّ حَرَامًا » .

« ١ » المشتري .

« ٢ » اللى : الضل ، والواجد : الفتى ، وقوله : يحل عرضه : أى شكايته ، وعقوبته :
حبسه ، واستدل بعض العلماء بالحديث على جواز حبس من عليه الدين ، حتى يقضيه ، إذا
كان قادراً على القضاء ، تأدياً له ، وتثديداً عليه ، وقال الجمهور : يبيع عليه الحاكم ، وأما
غير الواجد ، فقال الجمهور : إنه لا يحبس - راجع نيل الأوطار .
« ٣ » أى تاجون عليها لا يجمعون عنها .

٢٢ - الوديعة والعارية :

(١) عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا ضمان على مؤتمنٍ » .

(ب) وعن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أذا أمانةً إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك » .

(ج) وعن صفوان بن أمية : أن النبي صلى الله عليه وسلم استعار منه يوم حنين أدراعاً ، فقال : أغضباً يا محمد ؟ قال « بل عارية مضمونة » . قال : فضاع بعضها ، فعرض عليه النبي أن يضمها له ، فقال : أنا اليوم في الإسلام أرغب .

٢٣ - إحياء الموات :

(١) عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أحيا أرضاً ميتةً فهي له » . وفي لفظ : « من أحاط حائطاً على أرضٍ فهي له » .

(ب) وعن سعيد بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحيا أرضاً ميتةً فهي له ، وليس لعريق ظلمٍ حق » .

(ج) وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من عمّر أرضاً ليست لأحدٍ ، فهو أحقُّ بها » .

٢٤ - الغصب والضمان :

(١) عن السائب بن يزيد ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يأخذن أحدكم متاع أخيه ، جاداً ولا لاعباً ، وإذا أخذ أحدكم عصاً أخيه فليردّها عليه » .

(ب) وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحِلُّ مالُ امرئٍ مسلمٍ إلا بطيب نفسه » .

(ج) وعن سعيد بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ مُطْلَمًا ، فَإِنَّهُ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ » .

(د) وعن رافع بن خديج ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ زَرَعَ فِي أَرْضٍ قَوْمٍ بغيرِ إِذْنِهِمْ ، فَلَيْسَ لَهُ مِنَ الزَّرْعِ شَيْءٌ ، وَلَهُ كَفَقَتُهُ (١) » .
(هـ) وعن عائشة أنها قالت : ما رأيت صانعةً طعاماً مثل صفيّة ، أهدتْ . إلى النبي صلى الله عليه وسلم لِنَاءً مِنْ طَعَامٍ ، فَمَا مَلَكَتْ نَفْسِي أَنْ كَسَرْتُهُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا كَفَّارَتُهُ ؟ قَالَ : « لِنَاءٌ كِلَانَاءٍ ، وَطَعَامٌ كَطَعَامٍ » .

٢٥ - جناية البهيمة :

(أ) قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الْعَجَمَاءُ مُبْرَحُهَا مُجَبَّار (٢) » ،
(ب) وعن حرام بن مُحَيِّصَة : أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً ، فأفسدت فيه ، ف قضى نبي الله صلى الله عليه وسلم : أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار ، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضامن (٣) على أهلها .

(ج) وعن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ وَقَفَ دَابَّةً فِي سَبِيلٍ مِنْ سَبِيلِ الْمُسْلِمِينَ ، أَوْ فِي سَوْقٍ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ ، فَأَوْطَأَتْ بِيَدٍ أَوْ رَجْلٍ ، فَهُوَ ضَامِنٌ » .

٢٦ - جواز مقاتلة من أراد أخذ مال إنسان بغير حق :

(أ) عن أبي هريرة قال : جاء رجل ، فقال : يا رسول الله ، أ رأيتَ إن جاء

(١) راجع آراء العلماء فيمن غصب أرضاً وزرعها في الجزء الخامس من نيل الأوطار

س ٢٧١ .

(٢) هدر ، وظاهره : أن جناية البهائم غير مضمونة ، ولكن المراد إذا فعلت ذلك بنفسها ، ولم تكن عقوراً ، ولا فرط مالكتها في حفظها ، حيث يجب عليه الحفظ ، وتام الكلام في نيل الأوطار .

(٣) أي مضمون على أهلها .

رجل يريد أخذ مالى؟ قال : فلا تُعطيه مالك ، قال : أرأيت إن قاتلتني؟ قال :
« قاتلته » ، قال : أرأيت إن قاتلتني؟ قال : فأنت شهيدٌ ، قال : أرأيت إن
قتلته؟ قال : « هو فى النار » .

(ب) وعن سعيد بن زيد قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ قُتِلَ
دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ
دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ » .

٢٧ - الشفعة :

(١) عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بالشفعة فى كل مالم يقسم ،
فإذا وقعت الحدود ، وصرفت الطرق ، فلا شفعة .

(ب) وعن جابر أن النبي قضى بالشفعة فى كل شركة ، لم تقسم ربعة (١)
أو حائط لا يحل له أن يبيع حتى يؤذن شريكه ، فإن شاء أخذ ، وإن شاء ترك ،
فإن باعه ولم يؤذنه فهو أحق به .

(ج) وعن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بالشفعة بين
الشركاء فى الأرضين والدور .

(د) وعن سمرة ، عن النبي قال : « جَارُ الدَّارِ أَحَقُّ بِالدَّارِ مِنْ
غَيْرِهِ » .

(هـ) وعن الشريد بن سويد قال : قلتُ : يا رسول الله ، أرض ليس
لأحدٍ فيها شرك ، ولا قسمٌ إلا الجوار؟ فقال : « الْجَارُ أَحَقُّ بِسِقْبِهِ (٢)
مَا كَانَ » .

(و) وعن عبد الملك بن أبى سليمان ، عن عطاء ، عن جابر قال : قال النبي

(١) تأنيث ربيع .

(٢) الترب والمجاورة .

صلى الله عليه وسلم « الجارُ أَحَقُّ بِشَفْعَةِ جَارِهِ ، يُنْتَظَرُ بها وإنْ كان غائِباً ،
إذا كان طريقهما واحداً (١) » .

٢٨ - مراعاة العدل بين الأولاد في العطية :

(١) عن النعمان بن بشير قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اعتدِلوا
بين أبنائكم ، اعتدِلوا بين أبنائكم » .

(ب) وعن جابر قال : قالت امرأة بشير : انتحل ابني غلاماً ، وأشهد لي
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى رسول الله ، فقال : إن ابنة فلان سألتني أن
أنحل ابنها غلاماً ، فقال : « كَلْهُ لْإِخْوَةَ ؟ » ، قال : نعم ، قال : « فَكُلْتُمُ أُعْطِيتَ
مِثْلَ مَا أُعْطِيتَهُ ؟ » ، قال : لا ، قال : « فَلْيَسَّ يَصْلُحْ هَذَا ، وَإِنِّي لَا أَشْهَدُ
إِلَّا عَلَى حَقٍّ » . ورواه أبو داود من حديث النعمان بن بشير ، وقال فيه :
« لَا تُشْهِدْنِي عَلَى جَوْرِ » ، إِنَّ لِبَنِيكَ عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ أَنْ تَعْدَلَ
بَيْنَهُمْ » . وفي رواية لمسلم « اعتدِلوا بين أولادكم في النحل (٢) » ، كما يُحِبُّونَ
أَنْ يَعْدِلُوا بَيْنَكُمْ فِي الْبِرِّ » . ولأبي داود « إِنَّ لَكُمْ عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ أَنْ تَعْدَلَ
بَيْنَهُمْ ، كَمَا لَكَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقِّ أَنْ يَبْرُوكَ (٣) » .

٢٩ - حكم الرجوع في الهبة :

(١) عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « العائدُ في هِبَتِهِ
كالعائدِ يَعودُ في قَيْتِهِ » .

(ب) وعن طاوس أن ابن عمر وابن عباس رفعاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« لَا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُعْطِيَ الْعَطِيَّةَ ، فَيَرْجِعَ فِيهَا ، إِلَّا الْوَالِدَ فِيمَا يَعْطِي وَلَدَهُ ،

«١» اختلاف العلماء في أسباب استحقاق الشفعة مبسوط في كتب الفقه ، وفي كتاب

القياس لابن القيم ص ١٨٢ وما بعدها طبعة سنة ١٣٤٦

«٢» النحلة بكسر النون وسكون الهاء : العطية بشير عوض

«٣» الجزء السادس من نيل الأوطار ص ٨

وَمَثَلُ الرَّجُلِ يُعْطَى الْعُطْيَةَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ فِيهَا كَمَثَلِ الْكَلْبِ أَكَلَ حَتَّى إِذَا شَبِعَ قَامَ ثُمَّ رَجَعَ فِي قَيْئِهِ .

٣٠ - الوصية للأجنبي - حكم الوصية للوارث (١) :

(١) عن أبي الدرداء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بِثُلُثِ أَمْوَالِكُمْ عِنْدَ وَفَاتِكُمْ زِيَادَةً فِي حَسَنَاتِكُمْ ، لِيَجْعَلَهَا لَكُمْ زِيَادَةً فِي أَعْمَالِكُمْ » .

(ب) وعن سعد بن أبي وقاص أنه قال : جاعني رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني من وجع اشتد بي ، فقلت : يا رسول الله ، إني قد بلغ بي من الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ، ولا يرثني إلا ابنتي ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : « لا ، قلت : فالشطر يا رسول الله ؟ قال : « لا ، قلت : فالثلث ؟ قال : « الثلث والثلث كثير » (أو كبير) إنك أن تذر ورثتك أغنياء ، خيرٌ من أن تدعهم عالةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » .

(ج) وعن أبي أمامة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، فَلَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ » .

(د) وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تَجُوزُ وَصِيَّةُ لَوَارِثٍ ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الْوَرِثَةُ » .

(ج) صورة من تشريع الأسرة

١ - الحث على النكاح - كراهة تركه للقادر عليه - صفة المرأة التي تستحب خطبتها :

(١) عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَا مَعْشَرَ

«١» راجع آراء الفقهاء ومذاهبهم في الوصية في نيل الأوطار ج ٦ ص ٣٣ و ٣٥ طبعة سنة ١٣٤٧

الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغْضَىٰ لِلْبَصَرِ ،
وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ .

(ب) وعن أنس : أن نقرأ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال بعضهم :
لا أتزوج ، وقال بعضهم : أصلي ولا أنام ، وقال بعضهم : أصوم ولا أفطر ،
فبلغ ذلك النبي ، فقال : ما بال أقوام قالوا : كذا وكذا ، لكنني أصوم ، وأفطر
وأصلي ، وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني .

(ج) وعن أنس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يأمر بالباءة ، وينهى
عن التبثُل نهياً شديداً ، ويقول : تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلَدَ ، فَإِنِّي مُكَافِّرُ بِكُمْ
الْأَنْبِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

(د) وعن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : تُنْكَحُ
الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا ، وَلِحَسَبِهَا ، وَلِجَاهِهَا ، وَلِدِينِهَا ، فَافْطَرِ بِذَاتِ
الدِّينِ كَرَبْتَ يَدَاكَ .

٢ - النظر إلى المخطوبة - نهى الرجل أن يخطب على خطبة أخيه :

(أ) عن المغيرة بن شعبة ، أنه خطب امرأة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
« انْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤَدَّمَ (١) بَيْنَكُمَا » .

(ب) وعن عقبة بن عامر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ ، فَلَا يَحِلُّ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَبْتَاعَ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ ، وَلَا
يُخْطَبَ عَلَى خُطْبَةِ أَخِيهِ ، حَتَّى يَذَرَ » .

٣ - استثمار المرأة ، أو استئذانها قبل الزواج :

(أ) عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النَّيِّبُ
أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا ، وَالْبِكْرُ تُسْتَأْذَنُ فِي نَفْسِهَا ، وَإِذَا نُهَا عَنْهَا ،

« ١ » أي تحصل الموافقة والملازمة بينكما .

(ب) وعن أبي هريرة قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تُنكحُ
الأيِّمُ حتى تُستأمرَ »^١ ، ولا البكرُ حتى تُستأذنَ قالوا : يا رسول الله ،
وكيف إذنْها ؟ قال « أن تسكُتَ » .

(ج) وعن عائشة قالت : قلتُ يا رسول الله ، تُستأمرُ النساءُ في
أُبضاعِهِنَّ ؟ قال « نعم » ، قلتُ : إن البكرَ تُستأمرُ ، فتستحي . فتسكت ،
فقال « سُكَّاتُهَا إذنْها » .

(د) وعن خنساء بنت خِذام الأنصارية ، أن أباهَا زَوَّجَهَا وهي ثيب ،
فكرهت ذلك ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرد نكاحها .

(هـ) وعن ابن عباس ، أن جاريةً بَكَرًا أتت رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فذكرت أن أباهَا زَوَّجَهَا وهي كارهة ، فغَيَّرَهَا النبي صلى الله عليه وسلم .
(و) وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « آمِرُوا النساءَ في
بَنَاتِهِنَّ » .

٤ - الشهادة في النكاح :

عن عمران بن حصين ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا نكاحَ إلا بوليٍّ
وشاهدَيْنِ عدلٍ » .

٥ - الكفاءة في النكاح :

(١) عن عبد الله بن بُريدة ، عن أبيه قال : جاءت فتاة إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقالت . إن أبي زَوَّجَنِي ابن أخيه ، ليرفع بي خسيسته ، قال : فجعل الأمر
إليها ، فقالت : قد أجرت ما صنع أبي ، ولكن أردت أن أُعْلِمَ النساءُ أن ليس
إلى الآباء من الأمر شيء .

(ب) عن عائشة ، وعن عمر قال : لا مُنْعَنَ تزوُّجَ ذواتِ الأحسابِ إلا
من الأكفاء .

«١» الاستئثار : طلب الأمر ، أى لا يعقد عليها حتى يطلب الأمر منها

(ج) وعن أبي حاتم المؤنّي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا
أتاكم من ترّضون دينه ومُطّقته فأنكِحوه ، إلا تفعلوه تَكُنْ فِتْنَةٌ
في الأرض وفساد كبيرٌ (١) » .

٦ - الشروط في النكاح ، وما مُنهي عنه منها :
(١) عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَحَقُّ
الشروطِ أَنْ يُوقَى بِهِ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ » .
(ب) وعن عبد الله بن عمرو ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« لَا يَحِلُّ أَنْ تُنْكَحَ امْرَأَةٌ بِطَلَاقٍ أُخْرَى » .

٧ - النهي عن الجمع بين المرأة وعمتها ، أو خالتها :
عن أبي هريرة قال : نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن تنكح المرأة على عمتها ،
أو خالتها . وفي رواية : نهى أن يُجْمَعَ بين المرأة وعمتها ، وبين المرأة
وخالتها .

٨ - حكم من أسلم وتحتة أختان أو أكثر من أربع :
عن الضحاك بن فيروز ، عن أبيه قال : أسلمت وعندى امرأتان أختان ، فأمرني
النبي صلى الله عليه وسلم أن أطلق إحداهما ، وفي لفظ الترمذی « اخْتَرْتُ ابْنَتَهَا
شَتَّتَ » .

وعن الزهري ، عن سالم ، عن ابن عمر قال : أسلم غيلان الثقفي ، وتحتة عشر
نسوة في الجاهلية ، فأسلن معه ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يختار
منهن أربعاً .

٩ - إحسان العشرة ، وبيان حق الزوجين :
(١) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الْمَرْأَةَ
(١) راجع آراء العلماء فيما تتحقق به الكفاة في كتب الفقه ، وفي نيل الأوطار ،
ج ٦ ص ١١١ .

كالضَّلَعِ، إِنْ ذَهَبْتَ مُتَقِيْمًا كَسَرْتَهَا، وَإِنْ تَرَكْتَهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا عَلَى عَوَجٍ، وَفِي لَفْظٍ «اسْتَوَّصُوا بِالنِّسَاءِ»، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ مُخْلَقَتٌ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنْ أَعْوَجَ شَيْءٌ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ مُتَقِيْمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوَّصُوا بِالنِّسَاءِ».

(ب) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «لَا يَفْرُكُ (١) مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا مُخْلَقًا، رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ».

(ج) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «أَكَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِمَانًا أَحْسَنُهُمْ مُطْلَقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ».

(د) وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْأَحْوَصِ، أَنَّهُ شَهِدَ حُجَّةَ الْوُدَّاعِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَتَى عَلَيْهِ، وَذَكَرَ، وَوَعظَ، ثُمَّ قَالَ: «اسْتَوَّصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ، لَيْسَ يَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَّةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا، إِنْ لَكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ حَقٌّ، وَلِلنِّسَاءِ عَلَيْكُمْ حَقٌّ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ، فَلَا يُؤْطِئَنَّ فَرْشَكُمْ مِنْ تَكَرُّهٍ، وَلَا يَأْذَنَنَّ فِي بَيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ، أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تَحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كَسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ».

(هـ) وَعَنْ معاوية القُشَيْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَهُ رَجُلٌ: مَا حَقُّ الْمَرْأَةِ عَلَى الزَّوْجِ؟ قَالَ: «مُطْعِمُهَا إِذَا طَعِمَتْ، وَتَكْسُوها إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تُتَبَّحْ، وَلَا تَهْجُرَ (٢) إِلَّا فِي الْبَيْتِ».

(و) وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي».

(١) لَا يَفْرُكُ .

(٢) الْمُرَادُ أَنَّهُ إِذَا رَابَهُ مِنْهَا أَمْرٌ يَهْجُرُهَا فِي الْمَضْجَعِ، وَلَا يَتَحَوَّلُ عَنْهَا إِلَى دَارٍ أُخْرَى أَوْ يَحْوِلُهَا إِلَيْهَا - رَاجِعٌ نَبْلُ الْأَوْتَارِ .

١٠ - العدل بين الزوجات :

(١) عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ يَمِيلُ لِأَحَدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْرُ أَحَدُ شِقَاقَيْهِ ، سَاقِطاً أَوْ مَائِلاً » (١) .

(ب) وعن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقْسِمُ ، فيعدل ، ويقول : « اللَّهُمَّ هَذَا قَسَمِي فِيكَ أَمْلِكُ ، فَلَا تَلْنِي فِيكَ كَمَلِكُ وَلَا أَمْلِكُ » (٢) .

(ج) وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يخرج سفراً ، أقرع بين أزواجه ، فأتيهن خرج مهملها خرج بها معه .

١١ - جواز الطلاق للحاجة ، وكرامته مع عدمها :

(١) عن لقيط بن صبرة قال : قلت : يا رسول الله ، إن لي امرأة ، فذكر من بذلتها ، قال : « طَلَّقْهَا » ، قلت : إن لها صحبة وولدا ، قال : « مُرَّهَا ، أَوْ قُلْ لَهَا ، فَإِنْ يَكُنْ فِيهَا خَيْرٌ سَتَفْعَلُ » ، وَلَا تَضْرِبْ ظَهْرَ بَنَتِكَ ضَرْبَكَ أَمْسَكَ .

(ب) وعن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَيُّهَا امْرَأَةُ سَأَلْتُ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَرَأَاهُ عَلَيْهِ رَأْيُهُ الْجَنَّةِ » .

(ج) وعن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الطَّلَاقُ » .

«١» فيه دليل على تعريم الميل إلى إحدى الزوجتين دون الأخرى إذا كان ذلك في أمر يملكه الزوج ، كالقسمة والطعام والكسوة ، ولا يجب على الزوج التسوية فيما لا يملكه كالخبرة القلبية ونحوها ، لحديث عائشة المذكور بعد .

«٢» قال الترمذي : يعني به الحب .

١٢ - انتهى عن الطلاق في الحيض ، وفي الطهر بعد أن يجامعها ما لم يبين حملها :

(١) عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض ، فذكر ذلك عمر للنبي صلى الله عليه وسلم ، فتغيظ رسول الله ، ثم قال : لِيُرْ أَجِيعَهَا ، ثُمَّ يُمَسِّكُهَا حَتَّى تَطْهُرَ ، ثُمَّ تَحِيضُ فَتَطْهُرَ ، فَإِنْ بَدَأَ لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا ، فَلْيُطَلِّقْهَا قَبْلَ أَنْ يُمَسِّكَهَا ، فَتَكِ الْعِدَّةُ ، كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَفِي لَفْظٍ : فَتَكِ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُطَلِّقَ لَهَا النِّسَاءَ .

(ب) وعن عكرمة قال : قال ابن عباس : الطلاق على أربعة أوجه : وجهان حلال ، ووجهان حرام ، فأما اللذان هما حلال ، فَأَنْ يُطَلِّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ طَاهِرًا مِنْ غَيْرِ جَمَاعٍ ، أَوْ يُطَلِّقَهَا حَامِلًا مُسْتَبِينًا حَمْلًا ، وَأَمَّا اللذان هما حرام ، فَأَنْ يُطَلِّقَهَا حَائِضًا ، أَوْ يُطَلِّقَهَا عِنْدَ الْجَمَاعِ ، لَا يَدْرِي أَشْتَمَلَ الرَّحِمَ عَلَى وَلَدٍ أَمْ لَا ؟ .

١٣ - حكم تعليق الطلاق قبل النكاح :

(١) عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لَا تَذَرُ لَابْنَ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ ، وَلَا عِتْقَ لَهُ فِيمَا لَا يَمْلِكُ ، وَلَا طَلَاقَ لَهُ فِيمَا لَا يَمْلِكُ .

(ب) وعن مسور بن سخزمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لَا طَلَاقَ قَبْلَ نِكَاحٍ ، وَلَا عِتْقَ قَبْلَ مِلْكٍ .

١٤ - الخلع :

عن ابن عباس أن جميلة بنت سلول أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : والله ما أعتب على ثابت في دين ، ولا خلعتي ، ولكنني أكره الكفر في الإسلام لا أطيقه بغضاً ، فقال لها النبي : أَرُدِّيْنِ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ «١» ، «٢» ، قالت : نعم ، فأمره رسول الله أن يأخذ منها حديثه ولا يرداد .

«١» وكان أصدقها حديثه .

١٥ - بم تحل المطلقة ثلاثاً لزوجها الأول ؟

عن عائشة قالت : جاءت امرأة رفاة الفُرْطَى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : كنت عند رفاة ، فطلقني ، فبت طلاق ، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير ، وإنما معه مثل هُدْبَةِ الثوب ، فقال : « أُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رفاة ؟ لا ، حتى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ ، ويذوقَ عُسَيْلَتِكَ » .

١٦ - حكم نكاح المحلل :

(أ) عن ابن مسعود قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمُحلَّلَ له .

(ب) وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبرُكم بالتَّيْسِ المُسْتَعَارِ ؟ ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « هو المحللُ ، لعن اللهُ المحللُ والمُحلَّلَ له » .

١٧ - عدة الحامل بوضع الحمل :

(أ) عن ابن مسعود في المتوفى عنها زوجها وهي حامل قال : أتجعلون عليها التغليب ، ولا تجعلون عليها الرخصة ، أنزلت سورة النساء القصوى بعد الطولي : « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » .

(ب) وعن أبي بن كعب قال : قلتُ : يا رسول الله ، وأولات الأجمال أجلهن أن يضعن حملهن للمطلقة ثلاثاً وللمتوفى عنها ؟ فقال : « هي للمطلقة ثلاثاً ، وللمتوفى عنها » :

١٨ - يحرم من الرضاة ما يحرم من النسب :

(أ) عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم أُريدَ على ابنة حمزة ، فقال : « إنها لا تحلُّ لي ، لأنها ابنة أخي من الرضاة ، ويحرمُ من الرضاة ما يحرمُ من الرَّحِمِ ، وفي لفظ « من النسب » .

(ب) وعن الإمام على رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إن الله حَرَّمَ من الرضاع ما حَرَّمَ من النَّسَبِ » .

١٩ - نفقة الزوجة ، وتقديمها على نفقة الأقارب :

عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل : « ابدأ بنفسك فتصدقْ عليها ، فإن فضلَ شيءٍ فلاهِمِكَ ، فإن فضلَ عن أهيك شيءٌ فإِذِي قرابتِكَ ، فإن فضلَ عن ذِي قرابتك شيءٌ فهكذا (١) وهكذا » .

٢٠ - اعتبار حال الزوج في النفقة - أخذ المرأة نفقتها بدون علم الزوج إذا منعها الكفاية :

(١) عن معاوية القُشَيْرِي قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : قلتُ : ما تقول في نساءنا ؟ قال : « أطمعوهن بما تأكلون ، واكسوهن بما تكسونهن ، ولا تضربوهن » ، ولا تُقبِّحوهن » .

(ب) وعن عائشة أن هنداً قالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح ، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي ، إلا ما أخذت منه ، وهو لا يعلم ، فقال : « مُخَذِّي ما يكفيكِ ، وولديك بالمعروف » .

٢١ - من أحق بكفالة الطفل ؟ :

(١) عن البراء بن عازب أن ابنة حمزة اختصم فيها على ، وجعفر ، وزيد ، فقال على : أنا أحق بها ، هي ابنة عمي ، وقال جعفر : بنت عمي ، وخالتها تحتي ، وقال زيد : ابنة أخي ، فقضى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالتها ، وقال : « الحالةُ بمنزلة الأم » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن امرأة قالت : يا رسول الله ، إن ابني هذا كان بطني له وعاء ، وحجري له حواء ، وثديي له سقاء ، وزعم أبوه أنه ينزعه مني ، فقال : « أنت أحقُّ به ما لم تُنكحْ » . رواه أحمد ، وأبو داود ، لكن في لفظه : « وأن أباه طلقني ، وزعم أنه ينزعه مني » .

(١) أي يمينا وشمالا ، كناية عن التصديق .

د - بعض ما ورد في تشريع الميراث

١ - الفرائض :

عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « العلم ثلاثة ، وما سوى ذلك فضل : آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة » .

٢ - البداءة بذوى الفروض ، وإعطاء العصبية الباقي :

(١) عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر » .

(ب) وعن جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنتها من سعد ، فقالت : يا رسول الله ، هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قتل أبوهما معك في أحد شهيداً ، وإن عمهما أخذ مالهما ، فلم يدع لهما مالا ، ولا ينكحان إلا بآل ، فقال : « يقضى الله في ذلك » ، فنزلت آية الميراث ، فأرسل رسول الله إلى عمهما فقال : « أعط ابنتي سعد الثلاثين ، وأمهما الثمن » ، وما بقي فهو لك » .

٣ - الأخوات مع البنات عصبية :

(١) عن هزيل بن شرحبيل قال : سئل أبو موسى عن ابنة ، وابنة ابن ، وأخت ، فقال : للابنة النصف ، وللأخت النصف ، وأنت ابن مسعود ، فسئل ابن مسعود ، وأخبر بقول أبي موسى ، فقال : لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ، أقضى فيها بما قضى النبي صلى الله عليه وسلم : للبنات النصف ، وللأخت الابن السدس تكلمة الثلاثين ، وما بقي فلأخت . وزاد أحمد ، والبخاري : فأتيننا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود ، فقال : لا تسألوني مادام هذا الخبر (١) فيكم .

(ب) وعن الأسود أن معاذ بن جبل ورث أختاً وابنة : جعل لكل واحدة منهما النصف ، وهو بالين ، ونبي الله صلى الله عليه وسلم يومئذ حتى .

(١) الخبر ، بفتح الحاء وكسرهما : العالم .

٤ - ميراث الجدة :

عن قبيصة بن ذؤيب قال : جاءت الجدة إلى أبي بكر ، فسألت ميراثها ، فقال مالك في كتاب الله شيء ، وما علمت لك في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، فارجعي حتى أسأل الناس ، فسأل الناس ، فقال المغيرة بن شعبة : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاهما السدس ، فقال : هل معك غيرك ؟ فقال محمد بن مسلمة الأنصاري ، فقال مثل ما قال المغيرة بن شعبة ، فأنفذه لها أبو بكر ، قال : ثم جاءت الجدة الأخرى إلى عمر ، فسألت ميراثها ، فقال : مالك في كتاب الله شيء ، ولكن هو ذاك السدس ، فإن اجتمعتما فهو بينكما ، وأيكما خلت به فهو لها .

٥ - القاتل لا يرث - دية المقتول لجميع ورثته من زوجة وغيرها :

(١) عن عمر قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس لقاتل ميراث » .

(ب) وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى : أن العَقْلَ (١) ميراث بين ورثة القتيل على فرائضهم .

٦ - امتناع الإرث باختلاف الدين :

(١) عن أسامة بن زيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يرث المسلم الكافر ، ولا الكافر المسلم » .

(ب) وعن عبد الله بن عمرو ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يتوارث أهل ملتين شتى » .

٧ - ما جاء في ذوى الأرحام ، ويدت المال :

عن المقدم بن مَعْدِيكَرْب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلِوَرَثَتِهِ ، وَأَنَا وَارِثُ مَنْ لَا وَارِثَ لَهُ ، أَعْقِلُ عَنْهُ ، وَارِثُ ، وَالحَالُ وَارِثُ مَنْ لَا وَارِثَ لَهُ ، يَعْقِلُ عَنْهُ ، وَيَرِثُهُ » .

(١) العقل : الدية .

هـ - بعض ما جاء في تشريع الجنايات والحدود والعقوبات

١ - إيجاب القصاص بالقتل العمد - مستحقه بالخيار بينه وبين الدية :

(أ) عن عائشة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحلُّ قتلُ مُسلمٍ إلا بإحدى ثلاث خصال : زانٍ مُحْصَنٍ ، فَيْرُجَمُ ، ورجل يقتلُ مُسْلِمًا مُتَعَمِّدًا ، فيُقتلُ ، ورجل يخرجُ من الإسلام ، فيحاربُ اللهَ ورسولَهُ ، فيُقتلُ ، أو يُصلبُ ، أو يُنْفَى من الأرضِ (١) . »

(ب) وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ قُتِلَ له قَتِيلٌ فهو بخيرِ النَّظَرَيْنِ : إما أن يَفْتَدَى ، وإما أن يَقتلَ . » ولفظ الترمذى : « إما أن يعفو ، وإما أن يقتلَ . »

(ج) وعن أبي شريح الخزاعي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ أُصِيبَ بدمٍ ، أو خبلٍ - والخبلُ : الجراحُ - فهو بالخيار بين إحدى ثلاث : إما أن يَقتَصَّ ، أو يأخذَ العَقْلَ . أو يعفو ، فإن أراد رابعة فخذوا على يديه . »

٢ - المؤمنون تسكافاً دماؤهم :

عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمنون تسكافاً دماؤهم (٢) ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على مَنْ سواهم ، ولا يُقتلُ مؤمنٌ بكافرٍ ، ولا ذو عهدٍ في عهده (٣) . »

«١» الحديث هذا النص في الجزء الثالث من كتاب سبل السلام من ٣١٩ طبع

سنة ١٣٤٤ هـ .

«٢» أى تساوى في القصاص والديات .

«٣» راجع سبل السلام من ٣٢٤ ج ٣ :

٣ - تحريم قتل المعاهد والذمي :

عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أَلَا مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهِدَةً لَهَا ذِمَّةُ اللَّهِ ، وَذِمَّةُ رَسُولِهِ ، فَقَدْ أَخْفَرَ (١) ذِمَّةَ اللَّهِ ، وَلَا يَرَحُ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا » .

٤ - ما جاء في شبه العمد :

(١) عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَلَا إِنْ قَتَلَ الْخَطَا شِبْهَ الْعَمْدِ ، قَتِيلَ السُّوْطِ أَوْ الْعَصَا فِيهِ مِائَةٌ مِنَ الْإِبِلِ ، مِنْهَا أَرْبَعُونَ فِي بَطُونِهَا أَوْ لَادُهَا » .

(ب) عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « عَقِلُ شِبْهِ الْعَمْدِ (٢) مُفْلَظٌ مِثْلُ عَقْلِ الْعَمْدِ ، وَلَا يُقْتَلُ صَاحِبُهُ ، وَذَلِكَ أَنْ يَنْزُوَ الشَّيْطَانُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَتَكُونَ دِمَاةٌ فِي غَيْرِ ضَعِيفَةٍ ، وَلَا حَمْلُ سِلَاحٍ » .

٥ - حكم المسك :

(١) عن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِذَا أُمْسَكَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ ، وَقَتَلَهُ الْآخَرُ ، يُقْتَلُ الَّذِي قَتَلَ ، وَيُجْبَسُ الَّذِي أُمْسَكَ » .
(ب) وعن علي رضي الله عنه أنه قضى في رجل قتل رجلاً متعمداً وأمسكه آخر ، قال : « يُقْتَلُ الْقَاتِلُ ، وَيُجْبَسُ الْآخَرُ فِي السِّجْنِ حَتَّى يَمُوتَ » .

٦ - القصاص في السن :

عن أنس أن الرُّبَيْعَ بَنَتَ النَّضْرَ عَمَتَهُ (٣) ، كَسَرَتْ ثَلَاثَةَ جَارِيَةٍ ، فَطَلَبُوا إِلَيْهَا الْعَفْوَ ، فَأَبَوْا ، فَعَرَضُوا الْأَرْضَ فَأَبَوْا ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَبَوْا إِلَّا الْقَصَاصَ ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ بِالْقَصَاصِ ، فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَتُكْسِرُ ثَلَاثَةَ الرُّبَيْعِ ، لَا ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تُكْسِرُ ثَلَاثَةً ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

«١» نفس عهده وغدر .

«٢» شبه العمد : هو الضرب بما لا يقتل مثله في العادة ، كالعصا والسوط .

«٣» أمية أنس بن مالك .

صلى الله عليه وسلم : يا أنس كتاب الله القصاص ، فرضى القوم ، فعفوا ، فقال رسول الله : « إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّةَ لَهُ » .

٧ - ماجاء فى قاتل نفسه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ ، لَحْدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ (١) بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مَخْلَدًا فِيهَا أَبَدًا ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسُمٍّ ، فُسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مَخْلَدًا فِيهَا أَبَدًا ، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ مُتَرَدٍّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مَخْلَدًا فِيهَا أَبَدًا » .

٨ - دية النفس وأعضائها :

عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، عن أبيه ، عن جده ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل اليمن كتاباً ، وكان فى كتابه : « أَنْ مَنْ اعْتَبَطَ (٢) مَوْمَاتًا عَنْ يَتْنَةٍ ، فَإِنَّهُ قَوْدٌ ، إِلَّا أَنْ يُرْضَى أَوْلِيَاؤُ الْمُقْتُولِ ، وَإِنَّ فِي النَّفْسِ الدِّيَّةَ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ ، وَإِنَّ فِي الْأَنْفِ إِذَا أَوْعِبَ (٣) جَدْعُهُ الدِّيَّةُ ، وَفِي اللِّسَانِ الدِّيَّةُ ، وَفِي الشَّفَتَيْنِ الدِّيَّةُ ، وَفِي الْبَيْضَتَيْنِ الدِّيَّةُ ، وَفِي الذِّكْرِ الدِّيَّةُ ، وَفِي الصُّلْبِ الدِّيَّةُ ، وَفِي الْعَيْنَيْنِ الدِّيَّةُ ، وَفِي الرَّجُلِ الْوَاحِدَةِ نِصْفُ الدِّيَّةِ ، وَفِي الْمَأْمُومَةِ (٤) ثُلُثُ الدِّيَّةِ ، وَفِي الْجَائِفَةِ (٥) ثُلُثُ الدِّيَّةِ ، وَفِي الْمُنْقَلَةِ (٦) خَمْسَ عَشْرَةَ مِنَ الْإِبِلِ ، وَفِي

« ١ » أى يضرب بها نفسه .

« ٢ » أى قتله بلا جناية منه ولا جريمة توجب قتله ، من اعتبط الناقة إذا ذبحها من غير مرض ولا داء .

« ٣ » قطع جبهه .

« ٤ » الجناية التى بلغت أم الرأس وهو الدماغ ، أو الجلدة الرقيقة التى عليه .

« ٥ » الطلعة تبلغ الجوف .

« ٦ » هى التى تخرج منها صنار العظام ، وتنقل من أماكنها ، وقيل : التى تنقل العظم

أى تكسره .

كل إصبع من أصابع اليد والرجل عشر من الإبل ، وفي السن خمس من الإبل ، وفي الموضحة (١) خمس من الإبل ، وإن الرجل يقتل المرأة وعلى أهل الذهب ألف دينار .

٩ - أجناس مال الدية :

(١) عن الحجاج بن أرطاة ، عن زيد بن جبير ، عن خشف بن مالك الطائي ، عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « في دية الخطأ عشرون حقة ، وعشرون جذعة ، وعشرون بنت نخاض ، وعشرون بنت لبون ، وعشرون ابن نخاض ذكرًا » .

(ب) في رواية عن عطاء ، عن جابر قال : فرض رسول الله في الدية على أهل الإبل مائة من الإبل ، وعلى أهل البقر مائة بقرة ، وعلى أهل الشاة ألفي شاة ، وعلى أهل الحلال مائة حلة (٢) .

(ج) وعن عتبة بن أوس ، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنه خطب يوم فتح مكة ، فقال : « ألا وإن قتل خطأ العمد بالسوط ، والعصا ، والحجر ، دية مغلفة مائة من الإبل ، منها أربعون من ثنية إلى بازل عامها كلهن خليفة » (٣) .

١٠ - العاقلة وما تحمله :

(١) صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قضى بدية المرأة المقتولة ، ودية جنيها على عصابة القاتلة (٤) .

«١» هي التي توضح العظم وتكشفه .

«٢» الجزء السابع من نيل الأوطار ص ٦٥ ، ٦٦ .

«٣» بفتح الحاء ، وكسر اللام ، وهي المائل .

«٤» راجع الجزء السابع من نيل الأوطار ص ٦٨ ، ٦٩ ، وقد نقل عن الأسم ، وأكثر الحوارج أن دية الخطأ في مال القاتل ، ولا تلزم العاقلة ، وحكى عن علقمة ، وابن شبرمة ، وابن أبي ليلى ، أن الذي يلزم العاقلة هو الخطأ المحض ، وعمد الخطأ في مال القاتل .

(ب) وعن عمر قال : العمد ، والعبد ، والصلح ، والاعتراف ، لا تعقله العاقلة . وقال الزهري : مضت السنة أن العاقلة لا تحمل شيئاً من دية العمد ، إلا أن يشاموا .

١١ - تضمين المتطبيب ما أئلفه :

عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده - رفعه - قال : من تطبَّبَ (١) ولم يكن بالطب معروفاً ، فأصاب نفساً فما دونها ، فهو ضامن (٢) .

١٢ - ماجاء في رجم الزاني المحصن ، وجلد البكر ، وتغريبه :

عن أبي هريرة ، وزيد بن خالد ، أنهما قالَا : إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله ، وقال الخصم الآخر ، وهو أقره منه : نعم ، فاقض بيننا بكتاب الله ، واثبتني لي ، فقال رسول الله : قل ، قال : إن ابني كان عسيفاً على هذا ، فزنا بامراته ، وإني أخبرتُ أن على ابني الرجم ، فاقتديت منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم ، فأخبروني أن على ابني جلد مائة ، وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده لا أقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنم ردٌّ ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، واغدُ يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها ، قال : ففدا عليها ، فاعترفت ، فأمر بها رسول الله فَرُجِمَتْ . قال مالك : العسيف : الأجير .

١٣ - تكرار الإقرار بالزنا :

عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للماعز بن مالك : د أحق ما بلغني عنك ؟ ، قال : وما بلغك عني ؟ قال : بلغني أنك وقعتَ بجارية

(١) تكلمت الطب ولم يكن طبيباً

(٢) راجع الجزء الثالث من كتاب سبل السلام .

آل فلان ، قال : نعم ، فشهد أربع شهادات ، فأمر به فرْجِمَ ، وفي رواية قال : جاء ماعز بن مالك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فاعترف بالزنا مرتين ، فطرده ، ثم جاء فاعترف بالزنا مرتين ، فقال : كُهِدَتْ عَلَى نَفْسِكَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ ، اذْهَبُوا بِهِ فَارْجُوهُ .

١٤ - الحد لا يجب بالثهم ، ويسقط بالشبهات :

(أ) عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ كُنْتُ رَاجِئاً أَحَدًا بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ ، لَرَجَمْتُ فُلَانَةَ ، فَقَدْ ظَهَرَ مِنْهَا الرَّيْبُ فِي مَنْطِقِهَا ، وَهَيْئَتِهَا ، وَمَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهَا . »

(ب) وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذْرُؤُوا الْحُدُودَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ؛ فَإِنْ كَانَ لَهُ مَخْرَجٌ نَخَلُوا سَبِيلَهُ ، فَإِنَّ الْإِمَامَ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ » ، رواه الترمذی ، وذكر أنه قد رُوِيَ مَوْقُوفاً ، وَأَنَّ الْوَقْفَ أَصَحُّ .

١٥ - تأخير الرجم عن الحبلى حتى تضع ، وتأخير الجلد عن ذى المرض المرجو زواله :

(أ) عن سليمان بن بُرَيْدَةَ ، عن أبيه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءته امرأة من غامد من الأزد ، فقالت : يا رسول الله طهرني ، فقال : « وَيُحْكِكِ ، ارْجِعِي ، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ ، وَتَوْبِي إِلَيْهِ » ، فقالت : أراك تريد أن تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَّذْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ ؟ قال : « وَمَا ذَاكَ ؟ » قالت : لأنها حبلى من الزنا ، قال : « أَنْتِ ؟ » قالت : نعم ، فقال لها « حَتَّى تَضَعِيَ مَا فِي بَطْنِكَ » ، قال : فَكَفَّلَهَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ حَتَّى وَضَعَتْ ، قال : فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : قَدْ وَضَعَتِ الْغَامِدِيَّةُ ، فَقَالَ : « إِذَنْ لَا نَرْجُمُهَا ، وَنَدَعُ وَلَدَهَا صَغِيرًا لَيْسَ لَهُ مَنْ يُرْضِعُهُ » ، فقام رجل من الأنصار ، فقال : إِيَّا رَضَاعُهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، قال : فَرَجَمَهَا .

(ب) وعن علي قال : إن أمةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم زنت ، فأمرني أن أجعلها ، فأيتها ، فإذا هي حديثة عهد بنفاس ، نخشيت أن أجعلها أن أقتلها ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال « أحسنت ، أتركها حتى تمّايل » .
١٦ - الحث على إقامة الحد إذا ثبت ، والنهي عن الشفاعة فيه :

(١) عن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ، فَهُوَ مُضَادُّ اللَّهِ فِي أَمْرِهِ » .

(ب) وعن (١) عائشة أن قريشاً أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت ، قالوا : « مَنْ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله ، فكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ؟ » ثم قام ، فخطب ، فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا أَهْلَكَ (٢) الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَأَيُّمُ اللَّهِ ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ ، لَقَطَعْتُ مُحَمَّدٌ يَدَهَا » .

١٧ - حد شارب الخمر :

(١) عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم جلد في الخمر بالجريد ، والتعال ، وجلد أبو بكر أربعين .

(ب) وعن السائب بن يزيد قال : كنا نؤتّى بالشارب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإمرة أبي بكر ، وصدرأ من خلافة عمر فنقوم إليه بأيدينا ، ونيعالنا ، وأرديتنا (٣) ، حتى كان آخر إمرة عمر لجلد أربعين (٤) ،

«١» نيل الأوطار ج ٧ ص ١١٠ ، ١١٤ وسبل السلام ج ٤ ص ٢٦ .

«٢» وفي لفظ : إنما هلك من كان قبلكم بأنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه - الخ .

«٣» أي فنضربه بها ، وفي بعض الروايات : فنقوم إليه فنضربه بأيدينا - الخ .

«٤» قال في فتح الباري المراد بالغاية المذكورة أولاً استمرار الأربعين ، فليست القاه معقبة لآخر الإمرة ، بل لزمان أبي بكر وبيان ما وقع في زمن عمر ، فالتقدير فاستمر جلد أربعين ، وقد أخرجه النسائي : « حتى كان وسط إمارة عمر ، فجلد فيها أربعين ، حتى إذا عتوا وفسقوا جلد ثمانين » . وهذه الرواية أوضح .

حتى إذا عَتَوْا وفسقوا جلد ثمانين (١) .

(ج) وعن علي رضي الله عنه في شرب الخمر قال : إنه إذا شرب سَكِرَ ، وإذا سكر هنى ، وإذا هنى افتري ، وعلى المفتري ثمانون جلدة .

١٨ - المجلس في التهم :

عن يَهْز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس رجلا في تهمَةٍ ، ثم خطب عنه .

١٩ - ماجاء في المحاربين وقطاع الطريق ، ومفرق الجماعات :

(أ) عن ابن عباس في قطاع الطريق : إذا قتلوا وأخذوا المال قَتَلُوا ، وَصَلَبُوا ، وإذا قتلوا ، ولم يأخذوا المال قَتَلُوا ، ولم يُصَلَبُوا ، وإذا أخذوا المال ، ولم يَقْتُلُوا قطعت أيديهم ، وأرجلهم من خلاف ، وإذا أخافوا السبيل ، ولم يأخذوا مالا نُفُوا من الأرض .

(ب) وعن عُرْجَةَ الْأَشْجَعِي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : دَمَنَ أَمَّاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جميع على رجلٍ واحدٍ يريدُ أن يَشُقَّ عَصَاكُمْ ، فَيُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ ، فَاقْتُلُوهُ .

(و) سمو التشريع النبوي في الجهاد

١ - الحث على الجهاد - فضل الشهادة والرباط والحرس :

(أ) عن أبي أيوب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غَدَاةٌ ، أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتِ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ، وَغَرَبَتِ » .

(ب) عن أبي عَبْسٍ الْحَارِثِي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

« ١٠ » الحديث بهذا النص من رواية البخاري .

يقول : « مَنِ اغْتَبَرَتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ » .
 (ج) وعن عثمان بن عفان قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :
 « رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ » .
 (د) وعن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
 عَيْنَانِ لَا تَمْسُهَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ » .

٢ - إخلاص النية في الجهاد :

(١) عن أبي موسى قال : سئل رسول الله عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل
 حمية ، ويقاتل رياء ، فأى ذلك في سبيل الله ؟ فقال : « مَنِ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةً
 اللَّهُ هِيَ الْعِلْيَا ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » .

(ب) وعن أبي أمامة قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له :
 « أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ ، مَا لَهُ ؟ » فقال رسول الله : « لَا شَيْءَ لَهُ ،
 فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ : « لَا شَيْءَ لَهُ » ، ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ
 لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا ، وَابْتَغَى بِهِ وَجْهَهُ » .

(ج) وعن زيد بن خالد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنِ
 جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا ، وَمَنِ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا » .

٣ - مشاورة الإمام الجيش ، ورفقه بهم :

(١) عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان ،
 فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ، ثم تكلم عمر فأعرض عنه ، فقام سعد بن عبادَةَ ،
 فقال : إِيَّاَنَا تَرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخَيِّضَهَا (١)
 الْبَحْرَ لَأَخْضَعْنَاهَا ، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرَكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا ،
 قَالَ : فَتَدْبِرُ رَسُولُ اللَّهِ النَّاسَ فَانْطَلَقُوا .

« ١ » أَيِ الْحَيْلِ .

(ب) وعن أبي هريرة قال : ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(ج) وعن جابر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخطف في المسير فيُزجى (١) الضعيف ، ويُردف (٢) ، ويدعو لهم .

٤ - ما يفعله قائد الجيش إذا أراد الغزو :

(١) عن كعب بن مالك ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها .

(ب) وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحربُ مُنْخَذَعَةٌ » (٣) .

(ج) وعن جابر قال : قال رسول الله : « مَنْ يَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ - يَوْمَ الْأَحْزَابِ - فَقَالَ الزَّيْبُ : أَنَا ، ثُمَّ قَالَ : مَنْ يَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟ قَالَ الزَّيْبُ : أَنَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ ، وَحَوَارِيُّ الزَّيْبِ » .

٥ - تشييع الغازي واستقباله .

(١) عن سهل بن مُعَاذٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « لَأَنْ أَشِيعَ غَازِيَا فَأَكْفِيَهُ فِي رَحْلِهِ ، غَدَاةً ، أَوْ رَوْحَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » .

(ب) وعن السائب بن يزيد قال : لما قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ خَرَجَ النَّاسُ يَتَلَقَوْنَهُ مِنْ نَنْبِيَّةِ الْوَدَاعِ ، قَالَ السَّائِبُ . فَخَرَجْتُ مَعَ النَّاسِ وَأَنَا غَلَامٌ .

«١» يسوق ويدفع برفق .

«٢» المراد أنه كان يردف خلفه من ليس له راحلة إذا كان يضعف عن المعى .

«٣» بفتح الحاء وضمها مع سكون الدال ، وبضم أوله وفتح ثانيه .

(ج) وعن ابن عباس قال : مشى معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بقيع الغرقد ، ثم وجههم ، ثم قال : « انطلقوا على اسم الله » ، وقال : اللهم أعينهم » - يعنى نفر الذين وجههم إلى كعب بن الأشرف .

٦ - غزو النساء ، وعملن في الحرب :

(أ) عن الربييع بنت معوذ قالت : كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : نسقى القوم ، ونخدمهم ، ونزد القتلى والجرحى إلى المدينة .

(ب) وعن أنس قال : كان رسول الله يغزو بأمر سليم ونسوة معها من الأنصار يسقين الماء ، ويداوين الجرحى .

(ج) جاء في صحيح مسلم عن أنس أن أم سليم اتخذت خنجرأ يوم حنين ، فقالت : اتخذته إن دنا منى أحد من المشركين بقرت بطنه (١) .

٧ - الكف عن قصد النساء والصبيان والرهبان والشيخ الفاني بالقتل :

(أ) عن ابن عمر قال : « وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنهى رسول الله عن قتل النساء والصبيان .

(ب) وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انطلقوا باسم الله ، وبالله ، وعلى ملة رسول الله ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً صغيراً ، ولا امرأة ، ولا تغفلوا (٢) ، وضموا غنائمكم ، وأصلحوا ، وأحسنوا ، إن الله يحب المحسنين » .

(ج) وعن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال : « اخرجوا باسم الله تعالى ، تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ، ولا تغفلوا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا الولدان ، ولا أصحاب الصوامع » .

«١» راجع ذلك في الجزء السابع من نيل الأوطار ص ٢٠٠ .

«٢» القتل : الخيانة في المقام .

(د) وعن الأسود بن سريّع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« لا تقتلوا الذرّيّةَ في الحرب ، فقالوا : يا رسول الله ، أو ليس هم أولادُ
المشركين ؟ قال : أو ليس خيارُكم أولادُ المشركين ؟ » .

٨ - الكف عن المثلة ، والتحريق ، وقطع الشجر ، وهدم العمران - إلا
لحاجة ومصلحة :

(ا) عن صفوان بن عَسَّال قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في
سريّةٍ فقال : « سيروا باسم الله ، وفي سبيل الله ، قاتلوا مَنْ كفر بالله ، ولا
تُمَثِّلُوا ، ولا تَغْدُرُوا ، ولا تقتلوا وليدًا » .

(ب) وعن يحيى بن سعيد أن أبا بكر بعث جيوشاً إلى الشام ، فخرج يمشي مع يزيد
ابن أبي سفيان ، وكان يزيد أمير رُبْعٍ من تلك الأرباع ، فقال : إني موصيك
بعشر خلال : لا تقتل امرأة ، ولا صبيّاً ، ولا كبيراً هَرِمًا ، ولا تقطع شجرةً
ثمراً ، ولا تخرب عامراً ، ولا تعقرن شاةً ، ولا بعيراً ، إلا لئلاّ كُله ، ولا
تعقرن نخلاً ، ولا تحرقه ، ولا تغلّل الخ .

٩ - مشروعية المسابقة بما يُعلّم الفروسية ، ويعين على الجهاد ، والرياضة
المحمودة :

(ا) عن ابن عمر قال : سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخيل ،
فأُرْسِلَت التي ضمرت منها ، وأمدّها الحَفِيَاءُ إلى ثَنيّةِ الوداع ؛ والتي
لم تضرر أمدّها ثنية الوداع إلى مسجد بني زُرَيْق . وفي الصحيحين عن موسى بن
عقبة أن بين الحفيا إلى ثنية الوداع ستة أميال أو سبعة . والبخاري قال سفيان :
من الحفيا إلى ثنية الوداع خمسة أميال أو ستة ، ومن ثنية الوداع إلى مسجد بني
زريق ميل (١) .

«١» الحديث فيه مشروعية المسابقة إذا لم تكن قناراً ، وأنها ليست من العبث بل من
الرياضة المحمودة الموصلة إلى تحصيل المقاصد في النزو ، والانتفاع بها عند الحاجة ، وهي
دائرة بين الاستحباب والإباحة بحسب الباعث على ذلك ، وفي بعض كتب الحنفية : لا بأس =

(ب) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا سَبَقَ إلا في خُفٍّ ، أو تَصَلٍّ ، أو حافِرٍ (١) » .
(ج) وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أَدْخَلَ

== بالمسابقة ، في الرمي ، والفرس ، والإبل ، وعلى الأقدام ، لأنه من أسباب الجهاد ، فيكون مندوباً إذا قصد به التدريب ، والتقوى على الجهاد ، أما إذا قصد التلهي ، أو الفخر فإظهار الكراهة ، لأن الأعمال بالنيات ، وقال القرطبي : لا خلاف في جواز المسابقة على الخيل وغيرها من الدواب ، وعلى الأقدام ، وكذا الرمي بالسهم ، واستعمال الأسلحة ، وقصرها فريق من العلماء على الخف ، والحافر ، والنصل ، وخصها بعض العلماء بالخيل ، وأجازها عطاء في كل شيء . كل هذا إذا كانت بتغير عوض ، فإن كانت بموض كان فيها التفصيل الذي سنذكره بعد .

(١) السبق - بفتح السين والياء : هو ما يجعل للسابق على سبقه من جعل ، وكفى الخف عن الإبل ، وبالحافر عن الخيل ، وبالنصل من السهم . وفي هذا الحديث الثاني جواز السباق على جعل ، غير أن في ذلك تفصيلاً ، خلاصته أن العلماء اتفقوا على جواز المسابقة في حالتين الأولى : أن تكون المسابقة بتغير عوض ، الثانية : أن تكون على جعل إذا كان من غير المتسابقين ، كالإمام ، بأن يقول الأمير لفارسين ، أو راميين : من سبق منك فلا كذا ، ومن سبق فلا شيء له . وحكى عن مالك أنه لا يجوز أن يكون العوض من غير الإمام .

وذهب جمهور العلماء إلى جوازها في حالة ثالثة ، وهي أن يكون المال من جانب واحد ، كأن يقول أحد المتسابقين لصاحبه : إن سبقتني أعطيتك كذا ، وإن سبقتك لا آخذ منك شيئاً .

أما إذا شرط المال من الجانبين فإنها تحرم ، بأن يقول : إن سبق فرسك فلك على كذا ، وإن سبق فرسي فلي عليك كذا ، لأنه يصير قاراً ، فإن كل واحد في هذه الحالة يجوز أن يذهب ماله إلى صاحبه ، ويجوز أن يستفيد مال صاحبه ، وهو حرام بالنسبة ، غير أن كثيراً من الفقهاء أجازوا السباق في هذه الحالة ، إذا كان معهما ثالث محلل ، بصرط ألا يخرج من عنده شيئاً ، ليخرج القدر عن تناول القمار ، وصورته أن يقال : إن سبقهما آخذ منهما كذا أنصافاً ، وإن لم يسبق لم يعطهما شيئاً ، وإن سبق أي واحد منهما الآخر فلا كذا من مال الآخر ، فآخذ المحلل منهما الجمل إن سبقهما ، ولا يعطيهما شيئاً إن لم يسبقهما ، وفيما بينهما سبق آخذ من صاحبه ما شرط له ، قال الزيلعي : وإنما جاز هذا لأن الثالث لا يفرم على الاحتمالات كلها قطلاً أو بقاء ، فخرج بذلك من أن يكون قاراً ، وحكى عن مالك وابن الصباغ أنه لا يصح بذل المال من جهتهما ، وإن دخل المحلل . وللمسابقة في حالات جوازها شروط مبسطة في كتب الفقه - راجع نيل الأوطار ج ٨ ص ٦٥ ، ورد المختار ج ٥ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

فَرَسًا بَيْنَ فَرَسَيْنِ ، وَهُوَ لَا يَأْمَنُ أَنْ يَسْبِقَ فَلَا بَأْسَ ، وَمَنْ أَدْخَلَ فَرَسًا بَيْنَ فَرَسَيْنِ ، وَهُوَ آمِنٌ أَنْ يَسْبِقَ فَهُوَ قَارٌ .

(د) وعن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « د الخيلُ ثلاثةٌ : فَرَسٌ لِلرَّحْمَنِ ، وَفَرَسٌ لِلْإِنْسَانِ ، وَفَرَسٌ لِلشَّيْطَانِ ، فَأَمَّا فَرَسُ الرَّحْمَنِ فَالَّذِي يَرْتَبِطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَعَلَفَهُ ، وَرَوَّاهُ ، وَبَوَّاهُ ، وَذَكَرَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَأَمَّا فَرَسُ الشَّيْطَانِ فَالَّذِي يَقَامِرُ ، أَوْ يَرَاهِنُ عَلَيْهِ ، وَأَمَّا فَرَسُ الْإِنْسَانِ ، فَالْقَرَسُ يَرْتَبِطُهُ الْإِنْسَانُ ، يَلْتَمِسُ بَطْنَهَا ، فَهِيَ سِتْرٌ قَفْصِيٌّ . »

(هـ) وعن رجل من الأنصار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « د الخيلُ ثلاثةٌ : فَرَسٌ يَرْتَبِطُهُ الرَّجُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَتَمْنُهُ أَجْرُهُ ، وَرُكُوبُهُ أَجْرُهُ ، وَعَارِيَتُهُ أَجْرُهُ ، وَعَلَفُهُ أَجْرُهُ ، وَفَرَسٌ يُغَالِقُ فِيهِ الرَّجُلُ وَيَرَاهِنُهُ ، فَتَمْنُهُ وَزُرُّهُ ، وَعَلَفُهُ وَزُرُّهُ ، وَرُكُوبُهُ وَزُرُّهُ ، وَفَرَسٌ لِلْبَطْنَةِ ، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ سِدَادًا مِنَ الْفَقْرِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . »

ز — بعض ماورد في الولاية والقضاء والأحكام والشهادة

١ - كراهة الحرص على الولاية وطلبها :

(أ) عن أبي موسى قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم أنا ورجلان من بني عَمِي ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَمَرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقَالَ الْآخَرُ : مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقَالَ : « د إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُؤَلِّي هَذَا الْعَمَلَ أَحَدًا يُسْأَلُهُ ، أَوْ أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ . »

(ب) وعن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « د يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِينْتَ عَلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتَ إِلَيْهَا . »

٢ - منزلة القاضى العادل ، والقاضى الجائر :

(١) عن عبد الله بن أبي أوفى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إنَّ اللهَ مع القاضى مالم يَجُرْ ، فإذا جَارَ وَكَلَهُ إلى نَفْسِهِ ، وفى لفظ « اللهُ
مع القاضى مالم يَجُرْ ، فإذا جَارَ تَخَلَّى عنه ، ولزمه الشيطان » .

(ب) وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ
المُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ، وَكَلَّمْنَا يَدَيْهِ يَمِينٌ ،
الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ ، وَأَهْلِيهِمْ ، وَمَا أُوتُوا » .

٣ - المنع من ولاية من لا يحسن القضاء ، أو يضعف عن القيام بحقه :

(١) عن بُرَيْدَةَ ، عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « الْقَضَاءُ ثَلَاثَةٌ :
وَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَاثْنَانِ فِي النَّارِ ، فَأَمَّا الَّذِي فِي الْجَنَّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ ، فَقَضَى
بِهِ ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ ، وَجَارَ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ
عَلَى جَهْلٍ ، فَهُوَ فِي النَّارِ » .

(ب) وعن أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلَا تَسْتَعْمَلُنِي ؟ قَالَ : فَضْرَبَ
بِيَدِهِ عَلَى مَنْكَبِي ، ثُمَّ قَالَ : « يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإِنَّمَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّمَا يَوْمُ
الْقِيَامَةِ خَزْوًى وَنَدَامَةٌ ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا » .

٤ - النهى عن الحكم فى حال الغضب :

عن أَبِي بَكْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « لَا يَقْضَيْنَّ
حَاكِمٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضَبَانِ » .

٥ - نهى الحاكم عن الرشوة :

(١) عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الرَّاشِيِّ وَالْمُرْتَشِيِّ » .

(ب) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَعْنَةُ اللَّهِ
عَلَى الرَّاشِيِّ وَالْمُرْتَشِيِّ فِي الْحُكْمِ » .

٦ - جلوس الخصمين بين يدي القاضى ، والتسوية بينهما في الدفاع :
(١) عن عبد الله بن الزبير قال : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الخصمين يقعدان بين يدي الحاكم .

(ب) وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« يا علي إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول ، فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء . »

٧ - حكم الحاكم ينفذ ظاهراً لا باطناً :
عن أم سلتة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فاقضى بنحو مما أسمع ، فتن قصبت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار . »

٨ - الحكم بالشاهد واليمين :
(١) عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى باليمين مع الشاهد .
(ب) وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن أمير المؤمنين علي أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بشهادة شاهد واحد ، ويمين صاحب الحق ، وقضى به أمير المؤمنين علي بالعراق .

٩ - استعلاف المدعى عليه - التشديد في اليمين الكاذبة :
(١) عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى باليمين على المدعى عليه وفي رواية : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو أعطى الناس بدعواهم ، لادّعى ناس دماء رجال وأموالهم ، ولكن اليمين على المدعى عليه . »
وقد أخرج الحديث البيهقي بلفظ : « البينة على المدعى ، واليمين على من أنكر (١) . »

«١٠» زعم بعضهم أن قوله : البينة ... الخ . إدراج في الحديث .

(ب) وعن أبي أمامة الحارثي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ اقتطع حقَّ امرئٍ مُسلمٍ يمينه فقد أوجب الله له النارَ ، وحرم عليه الجنة . فقال رجل : وإن كان شيئاً يسيراً ؟ قال : وإن كان قضييًّا من أَرَاكَ ،

(ج) وعن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الكِبَارُ : الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ ، وَالْيَمِينِ الْغَمُوسُ » .

١٠ - من لا يجوز الحكم بشهادته - التشديد في شهادة الزور :

(أ) عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجوزُ شهادةُ غائِبٍ ، ولا خائنة ، ولا ذئبٍ غميرٍ (١) على أخيه ، ولا تجوزُ شهادةُ القانع (٢) لأهل البيت ، والقانع : الذي يُنفق عليه أهل البيت .

(ب) وعن أبي بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئُكُمْ بأَكْبَرِ الكِبَارِ ؟ قلنا : بلى ، يا رسول الله ، قال : الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَكَانَ مُتَكَنًّا ، لَجُلُسٍ وَقَالَ : أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ ، وشهادة الزورِ ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته (٣) سكت ، .

١١ - آداب القاضي ، وصفة الحكم :

من أحسن ما يعرفه القضاة كتاب (٤) عمر رضى الله عنه الذي كتبه إلى أبي موسى ، قال فيه : أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فعليك بالعقل والفهم وكثرة الذكر ، فافهم إذا أدلى إليك الرجل الحجة ، فاقض إذا فهمت ، وأمض إذا قضيت ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس بين الناس في وجهك ، ومجلسك ، وقضائك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يئأس ضعيف من عدلك . البيئنة على المدعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحاً أحلَّ حراماً ، أو حرم حلالاً . ومن ادعى حقاً غائباً أو بيئنة ، فاضرب له أمدأ

«١» الثمر - بكسر التين وسكون الميم : الحقد والعداوة .

«٢» القانع : الخادم المنقطع إلى الخدمة - لا تقبل شهادته لانهية ، وذلك كالأجير الخاص .

«٣» أى شفقة عليه وكرامية لا يرضيه .

«٤» راجع الجزء الرابع من كتاب سبل السلام صفحة ١٥٩ سنة ١٣٤٤ هـ .

ينتهي إليه ، فإن جاء بيئته أعطيته حقه ، وإلا استحللت عليه القضية ، فإن ذلك أبلغ في العذر ، وأجلى للعمى ، ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم ، فراجعت فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماذى في الباطل ، الفهم الفهم ، فيما يختلج في صدرك بما ليس في كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم اعرف الأشباه والأمثال ، وقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله تعالى ، وأشبهها بالحق . المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنيئاً في ولاء ، أو سب ، أو قرابة ، فإن الله تعالى تولى منكم السرائر . وادراً بالبينات والأيمان ، وإياك والغضب ، والقلق ، والضجر ، والتأذى بالناس عند الخصومة ، والتنكر عند الخصومات ، فإن القضاء عند مواطن الحق ، يوجب الله تعالى به الأجر ، ويحسن به الذكر ، فمن خلصت نيته في الحق ، ولو على نفسه ، كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما ليس في قلبه ، شانه الله تعالى ، فإن الله تعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً ، فما ظنك بثواب من الله في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته ، والسلام .

عرضت هذه الأمثلة ، وتلك الصور من التشريع النبوى ، ليعرف الناس مبلغ إحاطة التشريع الإسلامى ، ومدى تغلغله في كل ناحية من نواحي الحياة . فما أشد عجبى حينما يلجأ أولو الأمر في تشريعنا إلى القوانين الأجنبية ، وبين أيدينا هذه الثروة العظيمة ، من التشريع الإسلامى ، وهذا التراث القيم ، الذى لا صلاح لأحوالنا الدينية والدينية ، والاجتماعية والخلقية ، إلا بإحيائه ، والرجوع إليه .

مراجع هذا البحث

- ١ - الموافقات للشاطبي .
- ٢ - إرشاد الفحول للشوكاني .
- ٣ - تاريخ التشريع للخضري .
- ٤ - كتاب الام .
- ٥ - أصول الفقه للأستاذ عبد الوهاب خلاف بك .
- ٦ - فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين بك .
- ٧ - أعلام الموقعين لابن القيم .
- ٨ - الطرق الحكيمة لابن القيم .
- ٩ - النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير .
- ١٠ - تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة الدينوري .
- ١١ - سبل السلام .
- ١٢ - نيل الأوطار .
- ١٣ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري .

— الفصل الثالث —

— الإجماع —

هو الأصل الثالث من أصول التشريع الإسلامي ، والكلام فيه ينتظم هذه البحوث :

- ١ - المراد بالإجماع .
- ٢ - النزاع في إمكانه .
- ٣ - حجية الإجماع .
- ٤ - سند الإجماع .
- ٥ - إجماع الصحابة .
- ٦ - هل ينقض الإجماع بإجماع آخر ؟ .

١ - المراد بالإجماع

الإجماع هو اتفاق المجتهدين وأهل الرأي من هذه الأمة في عصر من العصور على حكم شرعي ، فلا يعتبر وفاق العوام ؛ ولا خلافتهم ، كما أنه لا يعتبر اتفاق بعض المجتهدين دون بعض .

٢ - النزاع في إمكانه ؛ وفي العلم به ، وفي طريق نقله

ذهب قوم منهم النظام (١) ، وبعض الشيعة إلى استحالة إمكان الإجماع ، لأن

(١) هو إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام ، ويكنى أبا إسحق ، وكان من صفه يتوقد ذكاء ، ويتدفق فصاحة ، يعد من كبار المعتزلة وأئمتهم ، توفي سنة ٢٢١ هـ

اتفاق جميع المجتهدين على الحكم الواحد ، الذى لا يكون معلوماً بالضرورة محال ، كاستحالة اتفاقهم على التكلم بكلمة واحدة ، فى لحظة واحدة ، وحجتهم هذه داحضة ، لأنه لا يمتنع اتفاقهم عند الرجحان بقيام الدليل ، أو الأمانة الظاهرة ، كذلك استدلوأ بأن اتفاقهم فرع تساويهم فى نقل الحكم إليهم ، وانتشارهم فى الأقطار يمنع وصول الحكم إليهم ، وهذا أيضاً مدفوع بأن انتشارهم فى البلاد لا يمنع اتفاقهم ، متى جدوا فى الطلب ، وبحثوا عن الأدلة .

ثم قالوا : لو سلمنا إمكان حصوله فى نفسه ، فإننا نمنع إمكان العلم به ، لأن العلم باتفاق المجتهدين - وهم منتشرون فى البلاد والأقطار - لا يحصل إلا بعد معرفة كل واحد منهم ، وذلك متعذر ، ومن ذلك الذى يعرف جميع المجتهدين من الأمة فى الشرق والغرب ، وسائر البلاد الإسلامية ؟ فإن العمر يفتى دون مجرد البلوغ إلى كل مكان من الأمكنة التى يسكنها أهل العلم ، فضلاً عن اختبار أحوالهم ، ومعرفة من هو من أهل الإجماع منهم ، ومن لم يكن من أهله ، إلى آخر ما قالوه ، وقالوا أيضاً : لو سلمنا إمكان العلم به ، فكيف ينقل الإجماع إلى من يحتج به ؟ فإذا أن ينقل بطريق التواتر ، وإما أن ينقل بطريق الآحاد ، لاسبيل إلى الأول ، لتعذره عادة ، وأما طريق الآحاد ، فلا يعول عليه ، ولا يعمل به فى نقل الإجماع (١) .

وغاية ما يدل عليه قولهم : استبعاد العلم به ، والشك فى طريق نقله ، وذلك لا يقدح فى إمكان وقوعه : ولا فى اعتباره حجة ، إذا وقع ، وكل ما ساقوه من الأدلة ، إنما هى شكوك وفروض ، لا تقوى على النهوض عند النظر الصحيح ، وقد يكون لبعض العلماء الفلج فى الحجة ، والقول المقبول ، إذ ذهبوا إلى استبعاد وجوده بعد عصر الصحابة ، وتفرقهم فى مختلف البلاد ، وبعد انتشار الفتح الإسلامى فى الممالك المتباعدة الأطراف ، مع تعذر المواصلات ، وصعوبة الوصول إلى معرفة آراء العلماء فى المسألة الواحدة فى مختلف الأقطار ، بله اتفاقهم على حكم واحد ، ولذلك جعل الأصفهاني الخلاف فى غير إجماع الصحابة ، ورجح تعذر الاطلاع على إجماع غيرهم ، لأنه بعد انتشار الإسلام ، وكثرة العلماء ، لا متمع

« ١ » إرشاد النحول فى مبحث الإجماع .

في العلم به ، أما في عصر الصحابة ، فسبيل العلم بالإجماع ميسور ، لأن الجمعين وهم العلماء منهم كانوا في قلة ، وهذا ما اختاره الإمام أحمد مع قرب عهده من الصحابة ، وقوة حفظه ، وشدة اطلاعه على الأمور النقلية ، ولذلك روى عنه قوله : من ادعى وجود الإجماع ، فهو كاذب . مع اعترافه بحجية الإجماع ، متى ثبت وجوده ، بل إن الشافعي نفسه بعد أن استدلل على حجية الإجماع ، وكونه أصلاً من أصول التشريع ، استبعد وجوده ، بناء على أنه قد يوجد مخالف فيما ادعى فيه الإجماع ، كما أنه لم يطمئن في ميدان مناظرته ، إلى طريقة نقله ، ومع ذلك كان يرى من الحججة في الدين أن ينقل الحكم عن السلف ، ولا يعلم أنهم اختلفوا فيه (١) ، ونقل البيضاوي في مناهجه قول بعضهم بتعذر الوقوف عليه لانتشار العلماء ، وجواز خفاء واحد منهم وخموله ، أو كذبه تقية وخوفاً ، أو رجوعه قبل فتوى الآخر .

وإذا ضربنا صفحاً عن منكرى الإجماع لعدم إمكانه ، أو لانه لاسبيل إلى العلم به - فإننا نجد سائر العلماء الذين قالوا بالإجماع ، ولكنهم استبعدوا وجوده - من رأيهم في الغالب على تفرق العلماء ، وصعوبة اتفاقهم ، وتعذر معرفة رأيهم في الحكم الواحد ، وإذا كان ذلك مقبولا في العصور الماضية ، والأزمنة الغابرة ، لصعوبة المواصلات ، وتباعد المسافات - فإنه لا يقبل في العصر الحاضر بعد أن ذلك المواصلات ، وارتبطت الأمم كلها بعضها ببعض ، وأقرب شاهد على ذلك تلك المؤتمرات التي نراها تنعقد في مختلف الأمصار والبلاد - سياسية كانت ، أو علمية ، أو قانونية - ويصل المجتمعون فيها ، وهم أولو الرأي ، وأهل الذكر إلى آراء قد اتفقوا عليها ، بعد تبادل الأفكار ، وطول الحوار ، ودقة البحث والمشاورة ، فأى مانع - إذا فتح باب الاجتهاد ، ووجد المجتهدون - من تحقق الإجماع ، ولو في بعض المسائل التشريعية ، إذا دعوا إلى مؤتمرات سنوية ، تطرح فيها على بساط البحث المشكلات القانونية ؟ وعلى هذا فالإجماع ميسور في هذا العصر متى فتح باب الاجتهاد ، والعمل به واجب ، وبخاصة في المسائل الكبرى ، التي تهتم العالم الإسلامي .

«١» تاريخ الترميز ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ من الطبعة الرابعة .

٣ - حجة الإجماع

ذهب النظام ، وبعض الخوارج ، والشيعية الإمامية إلى أنه ليس بحجة ، وإنما الحجة فيما اعتمد عليه الإجماع من دليل إن ظهر لنا ، فإن لم يظهر لم يقدرُوا الإجماع دليلاً تقوم به الحجة (١) ، وليس الإجماع أصلاً من أصول التشريع عند الشيعة الإمامية ، لأن مذهبهم مبني على القول بعصمة أئمتهم ، وأن آراءهم كنصوص من قبل الشارع ، فلا أثر لقول من ليس من الأئمة (٢) .

أما جمهور العلماء فقد رأوا أنه حجة ، ودليل على الأحكام ، وأصل من أصول التشريع ، فإذا لم يكن في نازلة كتاب ولا سنة ، وأتى فيها السلف بفتوى ، ولم يعلم عن أحد منهم خلاف في تلك الفتوى - فإن جمهور الفقهاء يرون ذلك حجة في الدين ، وقد استدلوها بعمل أبي بكر وعمر ، وبالسنة والكتاب :

(١) أخرج البغوي ، عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر إذا ورد عليه الخوصوم نظر في كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضى به بينهم - قضى به ، وإن لم يكن في الكتاب ، وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الأمر سنة قضى بها ، فإن أعياء خرج فسأل المسلمين ، وقال : أتاني كذا وكذا ، فهل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في ذلك بقضاء ؟ فربما اجتمع عليه نفر كلهم يذكر فيه عن رسول الله قضاء ، فإن أعياء أن يجد فيه سنة عن رسول الله ، جمع رموس الناس وخيارهم ، فاستشارهم ، فإن أجمع رأيهم على شيء قضى به ، وكان عمر يفعل ذلك ، فإن أعياء أن يجد ذلك في القرآن والسنة سأل : هل كان أبو بكر قضى فيه بقضاء ؟ فإن كان لأبي بكر قضاء قضى به ، وإلا دعا رموس الناس ، فإذا اجتمعوا على أمر قضى به .

والإجماع بالمعنى المتقدم في عصر الصحابة ميسور ، لأن عدد المجتهدين منهم إذ ذاك محصور ، فيمكن استشارتهم ، ومعرفة ما يتفقون عليه من رأى .

(ب) وروى عن سعيد بن المسيب ، عن علي قال : قلت : يا رسول الله ، الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه القرآن ، ولم تمض فيه منك سنة ؛ قال : « اجمعوا له العالمين -

«٢» تاريخ التشريع ص ٢٧٦ من الطبعة الرابعة .

«١» إرشاد الفحول .

أو قال : العابدين من المؤمنين ، فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد .
(ج) كذلك استدلل الجمهور بما أخرجه الترمذى ، عن ابن عمر ، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ ، وَيَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ » . وبحديث « مَنْ فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » .

وبقوله تعالى : « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ، وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ، نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى ، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا » . وقالوا : إن اتباع غير سبيل المؤمنين هو مخالفة الإجماع (١) .

٤ - سند الإجماع

يرى الجمهور عدم انعقاد الإجماع إلا بسند من كتاب ، أو سنة ، أو قياس ، وفائدة الإجماع مع اشتراط السند سقوط البحث عن الدليل ، وحرمة المخالفة ، وصيرورة الحكم قطعياً ، وعلى هذا يجب العمل بالإجماع ، وإن لم يعرف الدليل الذى استند إليه ، وحكى الآمدى وغيره عن بعض الأصوليين أنه لا يشترط السند ، بل يجوز صدور الإجماع عن توفيق ، بأن يوفقهم الله لاختيار الصواب (٢) .

٥ - إجماع الصحابة

هو حجة بلا خلاف ، غير أن القاضى عبد الوهاب نقل عن قوم من المبتدعة ، أنهم يرون أن إجماعهم ليس بحجة ، وذهب داود الظاهرى إلى قصر حجية الإجماع على إجماع الصحابة ، وهذا هو المشهور عن الإمام أحمد بن حنبل بناء على ما رآه من تعذر الإجماع بعد عصرهم .

٦ - هل ينقض الإجماع بإجماع آخر؟

ذلك يحتمل وجهين :

الوجه الأول : أن يكون الإجماع الثانى من المجمعين على الحكم الأول ،

« ١ » هذه الأدلة كلها قابلة للحوار ، وللقول بعدم دلالتها على حجية الإجماع « راجع

« ٢ » الأصول الفخرى .

لإرشاد الفحول » .

كما لو اجتمع أهل مصر على حكم ، ثم ظهر لهم ما يوجب الرجوع عنه ، فأجمعوا على الحكم الآخر الذي ظهر لهم ، فمن العلماء من منعه ، ومنهم من أجازاه .

الثاني : أن يكون الإجماع من غيرهم ، وقد منعه الجمهور ، لأن كون الإجماع حجة يقتضى امتناع حصول إجماع آخر مخالف له ، وذهب أبو عبد الله البصرى إلى جواز ذلك ، لأن الإجماع الأول ليس بحجة دائمة ، بل يبقى حجة حتى يحصل إجماع آخر ، وقد رجحه الرازى ، وقال الصنفى الهندى : إن مأخذه قوى (١) .

وقد ذكر صدر الشريعة عبيد الله بن مسعود البخارى الحنفى فى كتابه أصول الفقه المسمى التوضيح أن الإجماع على مراتب : إجماع الصحابة ، ثم إجماع مَنْ بعدهم فيما لم يُروَ فيه خلاف الصحابة ، ثم إجماعهم فيما روى فيه خلافهم ، فهذا إجماع مختلف فيه (٢) ، وفى مثل هذا الإجماع يجوز التبديل فى عصر واحد ، وفى عصرين .

وذهب فخر الإسلام على بن محمد البزدوى - على حسب ما جاء فى كتاب التلويح - إلى أنه يجوز نسخ الإجماع بالإجماع ، وإن كان قطعيا ، حتى لو أجمع الصحابة على حكم ، ثم أجمعوا على خلافه جاز . ثم قال صاحب كتاب التلويح المذكور : والمختار عند الجمهور التفصيل ، وهو أن الإجماع القطعى المنفق عليه لا يجوز تبديله ، وهو المراد من قول علماء الأصول : إن الإجماع لا ينسخ ، ولا ينسخ به ، والمختلف فيه يجوز تبديله ، كما إذا أجمع القرن الثانى على حكم يروى فيه خلاف من الصحابة ، ثم أجمعوا بأنفسهم ، أو أجمع من بعدهم على خلافه ، فإنه يجوز ، لجواز أن تنتهى مدة الحكم الثابت بالإجماع ، فيوفق الله تعالى أهل الإجماع للإجماع على خلافه ، وما يقال : إن انقطاع الوحي يوجب امتناع النسخ فختص بما يتوقف على الوحي ، والإجماع ليس كذلك (٣) .

«١» راجع لإرشاد الفحول .

«٢» فالمرتبة الأولى بمنزلة الآية ، والخبر المتواتر يكفر جاحده ، والثانية بمنزلة الخبر المشهور يضل جاحده ، والثالثة لا يضل جاحده ، لما فيه من الاختلاف « راجع التلويح فى أصول الفقه »

«٣» الجزء الثانى من التلويح لسعد الدين الفتازانى .

مصادر هذا البحث

- ١ - إرشاد الفحول للشوكاني .
- ٢ - أصول الفقه للخضري .
- ٣ - تاريخ التشريع للخضري .
- ٤ - شرح العيون لابن نباته .
- ٥ - التوضيح في أصول الفقه لعبيد الله بن مسعود .
- ٦ - التلويح لسعد الدين التفتازاني .



الفصل الرابع

الرأى والقياس

هو الأصل الرابع من أصول التشريع ، والكلام فيه يشمل هذه المباحث :

- ١ - المراد بالرأى والقياس .
- ٢ - تعريفات العلماء للقياس .
- ٣ - حجية القياس ، وبيان رأى المنكرين للقياس ، والمثبتين له .
- ٤ - التفريط والإفراط فى القياس .
- ٥ - مالا يجرى فيه القياس .

١ - المراد بالرأى والقياس

كان الصحابة والتابعون إذا لم يجدوا حكم الحادثة فى كتاب الله ، ولا فى سنة نبيه - فزعوا إلى الاجتهاد بالرأى والقياس ، وكان يراد به فى ذلك العصر - على ما يظهر من فتاويهم - الحكم بناء على القواعد العامة للدين ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا ضررَ ، ولا ضرارَ » ، وقوله : « دَعْ ما يَريُّكَ إلى ما لا يَريُّكَ » ، أو مراعاة ما يحقق للعباد العدالة والمصالح ، ويدبرأ عنهم المفاسد ، فلم يشغلوا أنفسهم بالبحث عن أصل معين يقيسون عليه الحادثة ، التى يريدون الإفتاء فيها ، وذلك كما قضى عمر على محمد بن مسلمة بمرور خليج جاره فى أرضه ، لأنه ينفع جاره ولا يضره ، فعُلِّل الحكم بأصل عام ، وقاعدة كلية ، وهو إباحة النافع ، وحظر الضرر ، ورعاية المصالح ، ودرء المفاسد ، ولم يقسه على أصل معين منصوص على

حكمه ، وهذا قريب مما يعرف عند الفقهاء بالمصالح المرسلة (١) . وفسر ابن قيم الجوزية الرأي الذى كانوا يفرعون إليه عند عدم النص بقوله : « هو ما يراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب » .

ثم خشى العلماء - على مدى الزمن - من التوسع فى رأى فنظموه ، واشتدوا أن يكون للسنتنبط بالرأى أصل معين يرجع إليه فى فتواه ؛ وهذا هو القياس الذى اعتبروه أصلاً من أصول التشريع بعد الكتاب والسنة (٢) .

٢ - تعريف القياس

أورد الإمام الشوكانى وغيره من علماء الأصول عدة تعريفات للقياس لم يسلم أكثرها من الاعتراض والنقد ، وليس من قصدنا أن نعرض لها كما عرضوا ، وإنما نسوق بعضها تقريباً للحقيقة ، ورياضة للعقل :

عرفه بعض العلماء بأنه بذل الجهد فى طلب الحق ، وآخرون بأنه إلحاق المسكوت عنه بالمنطوق به ، وقال جماعة من المحققين : إنه مساواة فرع لأصل فى علة الحكم ، أو زيادته عليه فى المعنى المعتبر فى الحكم ، وقال بعضهم : هو تحصيل حكم الأصل فى الفرع ، لاشتباههما فى علة الحكم عند المجتهد ، كما قيل : هو إظهار مثل حكم الأصل فى الفرع لوجود علته فيه .

ومن أمثلة ذلك ما روى أن عمر (٣) قال لرسول الله صلوات الله عليه : صنعت اليوم يا رسول الله أمراً عظيماً : قبلت وأنا صائم ، فقال له رسول الله « أرايت لو تمضمضت بماء وأنت صائم ؟ » ، فقلت : لا بأس بذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فصم » ، فهنا قاس عليه الصلاة والسلام القبلة التى هى وسيلة إلى قربان - على وضع الماء فى الفم الذى هو وسيلة إلى شربه ، فكأن هذا الأمر لا يؤثر فى الصوم ، فكذلك الآخر .

«١» تاريخ التشريع ص ٢١١ .

«٢» المصدر السابق .

«٣» الجزء الأول من أعلام الموقعين .

ومن الأمثلة أيضاً ما رواه عبادة بن الصامت ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الذهبُ بالذهب ، والفضةُ بالفضة ، والبُرُّ بالبُرِّ ، والشعيرُ بالشعير ، والتمرُّ بالتمر ، والمِلْحُ بالمِلْح ، مثلاً بمثل ، سواءً بسواء ، يدًا بيد ، فإذا اختلفتْ هذه الأصنافُ فبيعوا كيف شئتم ، إذا كان يدًا بيد . فهذا الحديث قد دل بعبارته على حرمة ربا الفضل في الأصناف الستة المذكورة فيه ، إذا بيع كل صنف بجنسه ، وسكت عن حكم ربا الفضل في بيع الشيء بمثله من سائر الأصناف التي لم تذكر ، كالذرة بالذرة ، والحديد بالحديد ، والأرز بالأرز ، فاجتهد الأئمة في معرفة مناهج التحريم في الأصناف المذكورة في الحديث ، ولكنهم لم يتفقوا على علة واحدة ، فذهب الحنفية إلى أن علة التحريم القدر والجنس « ١ » ، فالنهي عن التفاضل في بيع الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ؛ لأنهما من الموزونات مع الاتحاد في الجنس ، والنهي عنه في بيع الحنطة بالحنطة ، أو الشعير بالشعير ... الخ لأن العوضين من المكيلات ، ومتحدان جنساً ، ولذلك قاسوا الحديد على الذهب ، والأرز والذرة على البُرِّ والحنطة ، وحكموا فيها بحرمة الربا عند اتحاد الجنس ، فبيع البُرِّ بالبُرِّ ، أو الفضة بالفضة الذي نص على حكمه في الحديث هو الأصل ، وبيع الحديد بالحديد ، أو الأرز بالأرز الذي سكت عنه الحديث هو الفرع ، والمناط المتحقق في كل من الأصل والفرع هو العلة ، وذاك هو اتحاد القدر والجنس ، ولذا حرم التفاضل في الفرع ، كما حرم في الأصل من طريق القياس .

٣ - حجية القياس

المنكرون له والمثبتون

اتفق العلماء على أن القياس حجة في الأمور الدنيوية ، كما في الأدوية والأغذية ، إنما الخلاف في القياس الشرعي ، فأنكره قوم أقلاء ، وأثبتته الأكثرون والجمهور .

« ١ » واتفق الشافعية والمالكية على أن مناهج التحريم في الذهب والفضة المجلس والثنية ، وفي سائر الأصناف قالت المالكية : إنه المجلس والاعتبات والادخار ، وقال الشافعية : إنه الاتفاق في الجنس والعلم ، وقالت الظاهرية : إنه لا يلحق بالأصناف المذكورة في الحديث غيرها في الحكم ، لعدم قولهم بالقياس « راجع نيل الأوطار وحكتب الفقهاء » .

أما منكرو القياس فهم ثلاث طوائف :

الأولى : قوم من المعتزلة ، على رأسهم النظام ، بل قيل : إنه هو أول من باح بإنكاره ، قال أبو القاسم البغدادى : ما علمت أحداً سبق النظام إلى القول بنفى القياس .

الثانية : الشيعة الإمامية ، وذلك لأن القياس رأى ، والدين عندهم لا يتنازل بالرأى ، والأحكام الشرعية من الدين ، فهي لا تتنازل بالرأى والاجتهاد ، وإنما تؤخذ عن الله ورسوله ، وعن أئمتهم الذين اعتدوا فيهم العصمة ، وعدم الوقوع فى الخطأ .

الثالثة : داود (١) بن علي الظاهري وأتباعه ، فقد ذهبوا إلى أن القياس فى دين الله باطل ، ولا يجوز القول به ، وزعم داود أنه لاحادثة إلا وفيها حكم منصوص عليه فى القرآن أو السنة ، أو مأخوذ بفحوى النص ودليله ، وذلك يعنى عن القياس ، كما قال ابن حزم الظاهري : القول بالعلل باطل ، فهم لا يقولون بالقياس ، وإن ذكرت العلة فى النص الشرعى على ما رواه الشوكاني ، ومن باب أولى ليس لمجتهد عندهم - إذا لم ينص على العلة - أن يبحث عنها ويقيس بها ، وما ينسب للظاهرية قولهم : ما أوجبه صاحب الشريعة فهو واجب ، وما حرمه فهو حرام ، وما سكوت عنه فهو معفو عنه .

وقيل : إن داود لا ينكر القياس الجلى ، وإنما ينكر الخفى فقط ، ونقل عنه أنه لا يبيح القياس إلا إذا ورد نص بتحريم ، أو تحليل ، ونص فيه على العلة ، مثل أن يقال : حرم بيع الحنطة بالحنطة مع التفاضل ، لأنها مكيلة ، واغسل هذا الثوب لأن فيه دماً ، وهكذا ، ومع ذلك فهو يقول : إن الذى يوجب الحكم فى

«١» هو داود بن علي بن خلف الأصبهاني ، ولد بالكوفة سنة ٢٠٠ هـ أو ٢٠٢ هـ ، وُلد ببغداد ، وتوفى بها سنة ٢٧٠ هـ ، كونه مذهباً خاصاً ، أساسه العمل بظاهر الكتاب والسنة ما لم يدل دليل منهما ، أو من الإجماع على أنه يراد به غير الظاهر ، ولذلك رفض القياس ، وزعم أن فى عمومات النصوص من الكتاب والسنة ما يتقضى عنه .

هذه الحالة هو النص الذي وردت فيه العلة ، فكأنه لا يسمى منصوص العلة قياساً إلا على ضرب من التسامح (١) .

ومن منكرى القياس من اعترف ببعض صورته دون بعض ، فقال به في صورتين اثنتين :

إحداهما : إذا كانت علة الحكم في الأصل قد نص عليها .
والثانية : إذا كان حكم المسكوت عنه ثابتاً بالطريق الأول ، كما في قوله تعالى « وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ » . فالآية إذا كانت قد نصت على حرمة قول « أف » ، للوالدين - فهي تحرم ضربهما من باب أولى ، وإلى هذا يميل العلامة الشوكاني ، فإنه بعد أن نقد أدلة القائسين رأى أن القياس الذي يصح أن يؤخذ به هو ما وقع النص على علة ، وما قطع فيه بنى الفارق ... الخ .
ونحن نسوق لك هنا بعض أدلة النافين للقياس :

١ - احتجوا بقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » . والرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى الرسول هو الرجوع إليه في حضوره وحياته ، وإلى سنته في غيبته وبعد مماته ، والقياس ليس واحداً من هذين .

٢ - واحتجوا أيضاً بقوله تعالى « وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُهُ إِلَى اللَّهِ » ، فقد قرر أنه عند الاختلاف في شيء يكون حكمه إلى الله ، ولم يقل إلى قياسكم وآرائكم ، ولم يجعل الله آراء الرجال وأقيستهم حاكمة بين الأمة أبداً .

٣ - وزعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يدع أمته إلى القياس قط ، بل قد صح عنه أنه أنكر على عمر وأسامة ماذها إليه من القياس في شأن حلي الحرير اللتين بعث بهما إليهما ، فلبسها أسامة قياساً للبسها على تملكها ، وردها عمر قياساً لملكها على لبسها ، فعمر حرّم ، وأسامة أباح قياساً ، فأبطل رسول الله

١٥٨ (١) راجع تاريخ التشريع ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

القياسين كليهما ، وقال لعمر : « إِنَّمَا بَعَثْتُ بِهَا إِلَيْكَ لِتَسْتَمْتِعَ بِهَا » . وقال لأسامة : « إِنِّي لَمْ أَبْعَثْهَا إِلَيْكَ لِتَلْبَسَهَا ، وَلَكِنْ بَعَثْتُهَا إِلَيْكَ لِتُشَقِّقَهَا مُنْخَرًا لِنِسَائِكَ » .

٤ - واستدلوا أيضا بما روى من قوله عليه الصلاة والسلام « إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ مُحَدِّدًا فَلَا تَعْتَدُوهَا » ، ونهى عن أشياء فلا تلتبسوها ، وسكت عن أشياء رحمة لکم غير نسيان فلا تبحثوها عنها ، فقالوا : لا يجوز أن نبعث عما سكت عنه ، لنحرمه أو نوجبه .

٥ - وقالوا : لو كان القياس حجة ما تعارضت الأقيسة ، وما ناقض بعضها بعضاً ، فترى كل واحد من المتنازعين من أرباب القياس يزعم أن قوله هو القياس ، وقد تختلف أقيستهم ، وتعارض أحكامها ، وحجج الله وبيناته لا تعارض ، ولا تناف ، وقد تناقض أهل القياس ، واضطربوا فيه اضطراباً ، فكيف يعتبر دليلاً على الأحكام (١) ؟ هذا إلى أنهم قد يجمعون بين ما فرق الله بينه ، وقد يفرقون بين ما جمع الله بينه ، فمن الأول جمعهم بين إزالة النجاسة ورفع الحدث ، وتسويتهم بينهما في صحة كل منهما بغیر نية ، وكان من الواجب التفرقة بينهما ، فإن الماء مطهر بطبعه بالنسبة لإزالة النجاسة ، فلم تشترط نية ، ولا كذلك رفع الحدث بالوضوء ، أو الغسل ، فإن الماء ليس رافعاً له بطبعه ، إذ الحدث ليس شيئاً يحس حتى يرفعه الماء بطبعه ، وإنما يرفعه بالنية - ومن الثاني تفريقهم بين ما جمع الله ورسوله بينهما من ترتيب أعضاء الوضوء ، وترتيب أركان الصلاة ، فأوجبوا الثاني دون الأول ، مع أنه لا فرق بينهما في

« ١ » عند النظر في الآيتين السابقتين ، ترى لأول واهلة أنه ليس فيهما ما يمنع القياس ، أما الدليل الثالث فأقصى ما يدل عليه خطأ قياسي أسامة وعمر ، إذ ليس كل قياس صحيحاً ، وهذا لا يدل على المنع من استعمال القياس شرعاً ، كذلك ما استدلوا به من الحديث المذكور ليس مما نحن فيه ، لأن ذلك جاء نهياً عن كثرة المسألة ، والإلحاف في السؤال ، حتى لا يجرم شيء بسبب ذلك من طريق الوحي أو غيره ، كالذي سأل من الحجج « أتى كل عام » وأما دليلهم الخامس فأقصى ما يدل عليه أن الإسراف في استعمال القياس - كالتدبیر - ينسب إلى بعض الحنفية - قد يؤدي إلى خطأ بعض الأقيسة واضطرابها ، وهذا لا يدل على أن المبرع يحظر استعمال القياس .

المعنى ، ولا في النقل ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم - وهو المبين عن الله أمره ونهيه - لم يتوضأ قط إلا مرتباً ، ولا مرة واحدة في عمره ، كما أنه لم يصل إلا مرتباً فمن أين استقيم هذا التفريق ؟

والحق أن نفاة القياس - كما بينا ذلك في ذيل الصفحة السابقة - ليس لهم دليل يثبت على النقد ، أو يسلم من الطعن ، ورأيهم لا يليق بشرعية هي خاتمة الشرائع كالشرعية الإسلامية ، التي أراد الله لها القوة والبقاء والخلود ، فإنه يكاد يكون من المحال أن تشمل النصوص جميع ما يستجد من الأحداث والوقائع التي يراد معرفة أحكامها ، وحينئذ فلا سبيل إلى معرفتها إلا باللجأ إلى الاجتهاد ، سواء اعتمد على النصوص أم استند إلى الرأي والقياس ، كما سيأتي بيان ذلك .

مشتبوه القياس وأدلتهم :

ذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والفقهاء والمتكلمين إلى أن الاجتهاد بالرأي والقياس - أصل من أصول التشريع يستدل به على الأحكام ، وردت بذلك أحاديث وآثار تدل على العمل به في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين - إذا لم يكن نص في الكتاب ولا في السنة .

استدلوا على ثبوت القياس الشرعي بأدلة عقلية ، وأخرى عقلية ، رجعوا فيها إلى الكتاب والسنة والإجماع ، وليس كل دليل ساقوه قد سلم من النقد ، أو برئ من الضعف ، ولكن حججهم في جملتها قوية صحيحة ، وهذا بيان بعضها :

١ - قالوا : إن النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية لا تنفي صراحة بالأحكام ، فإنها متناهية ، والحوادث غير متناهية ، فنحن مفتقرون إلى الرأي والقياس لإنبات الأحكام فيما لم ينص عليه ، معتمدين على ما عرف من قواعد الدين العامة ، وقواعده الكلية ، ومستندين إلى علل أحكامه ، وأسرار تشريعه بحمل النظر على نظائره ، والشئ على أمثاله وأشباهه .

٢ - قال الله تعالى في سورة الحشر « فاعتبروا يا أولي الأبصار » وفي استنباط حجية القياس من الآية حوار طويل بين المثبتين والنافين .

٣ - أقر النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً على اجتهاده برأيه فيما لم يجد فيه نصاً عن الله ورسوله ، فإنه عليه الصلاة والسلام لما بعثه إلى اليمن - قال له : « كيف تصنعُ إذا عرض لك قضاء ؟ » قال : أقضي بما في كتاب الله ، قال « فإن لم يكن في كتاب الله ؟ » قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال « فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟ » قال : أجتهد رأيي لا آلو . قال معاذ : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدرى ، ثم قال : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله » .

٤ - ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من الأقيسة الكثيرة ، حتى صنف ناصح الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الخبيلي (١) كتاباً في أقيسته عليه الصلاة والسلام ، فمن ذلك : أن امرأة جاءت إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فقالت : إن أمي نذرت أن تحج ، فأتت قبل أن تحج ، أفأحج عنها ؟ قال : « نعم حجتي عنها ، أرأيت لو كان على أمك دينارٌ ، أكنتِ قاضيتَه ؟ » قالت : نعم ، فقال : « اقضوا الله ، فإن الله أحقُّ بالوفاء » .

ومنه : ما روى أبي أعرايياً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن امرأتى ولدت غلاماً أسود ، وإنى أسكرته ، فقال له رسول الله : « هل لك من لبيل ؟ » قال : نعم ، قال : « فما ألوانها ؟ » قال : حمر ، قال : « هل فيها من ورق ؟ » قال : إن فيها ورقاً ، قال : « فأنى ترى ذلك جاءها ؟ » قال : يا رسول الله عرق نزعه ، قال : « ولعل هذا عرق نزعه (٢) » ، ولم يرخص له في الانتفاء منه .

٥ - ذكر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كثيراً من الأحكام مع عللها ، وأوصافها المؤثرة فيها ، وذلك يدل على ارتباطها بها ، وتعددها بتعدى أوصافها

«١» ولد ومات بدمشق ، وكانت وفاته سنة ٦٣٤ هـ .

«٢» الجزء الأول من كتاب أعلام الموقعين ص ١٧٣ .

وعلمها ، وهذا هو معنى القياس ، كقوله عليه الصلاة والسلام في الهرة : « ليست بنجس ، إنها من الطوائف عليكم والطوائف » . وقوله تعليلا للنهي عن نكاح المرأة على عمتها وخالتها : « إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » ، وقوله : « إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الخمر ، فإنها رجس » . وقوله تعالى : « ويسألونك عن المحيض ، قل : هو أذى ، فاعزلوا النساء في المحيض » .

٦ - ماثبت من أقوال بعض الصحابة في إقرار الاجتهاد بالرأى والقياس ، فمن ذلك ما جاء في رسالة عمر بن الخطاب في القضاء إلى أبي موسى الأشعري : الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك ، بما ليس في كتاب ، ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق . وكذا ما رواه شريح أن عمر قال له : « اقض بما استبان لك من كتاب الله ، فإن لم تعلم كل كتاب الله فاقض بما استبان لك من قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن لم تعلم كل أقضية رسول الله فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين ، فإن لم تعلم كل ما قضت به أئمة المهتدين فاجتهد رأيك ، واستشر أهل العلم والصلاح (١) » .

٧ - اشتهار العمل بالقياس في أقطار الأرض شرقا وغربا ، قرناً بعد قرن عند جمهور الأمة إلا من شذ (٢) ، وادعى بعض العلماء إجماع الصحابة على استعمال القياس ، والثابت الذي لا شك فيه أن كثيراً من الصحابة كانوا يجتهدون في التوازل ، ويقيسون بعض الأحكام على بعض ، ويعتبرون النظر بنظيره ، ويرون استعمال الرأى عند عدم وجود النص ، ولعل عمر كان أظهرهم وأجرأهم في هذا الباب متى بان له وجه الحق فيه ، فمن ذلك أنه رفعت إليه قصة رجل قتلته امرأة أبيه وخليها ،

«١» الجزء الأول من أعلام الموقعين ص ١٧٧ .

«٢» العبارة لابن دقيق العيد .

فتردد عمر : هل يقتل الكثير بالواحد ؟ فقال له علي : أرأيت لو أن نفراً اشتبكوا في سرقة جزور ، فأخذ هذا عضوا ، وهذا عضوا ، أكنت قاطعهم ؟ قال : نعم ، قال : فكذلك ، فعل عمر برأيه ، وكتب إلى عامله أن اقتلها (١) . وروى عن عمر أيضا أنه لم يقطع يد السارق في عام المجاعة ، وأوقع الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثاً ، وقال : إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيده عليهم ، فأمضاه . واختلف الصحابة في المسألة المشتركة ، وهي التي توفيت فيها امرأة عن زوج ، وأم ، وإخوة لأم ، وإخوة أشقاء ، فرأى بعضهم أن يعطى الزوج النصف ، والام السدس ، والإخوة لأم الثلث ، فلا يبقى شيء للإخوة الأشقاء ، ورأى بعضهم إشراك الإخوة الأشقاء مع الأخوة لأم في الثلث ، وروى أن عمر رفعت إليه هذه المسألة فلم يجعل للأشقاء شيئاً ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين ، هب أن أبانا كان حماراً ، ألسنا من أم واحدة ؟ فعدل عن رأيه وأشرك بينهم .

قال ابن العربي مستدلاً على أن القياس أصل في الدين : إن عثمان وأعيان الصحابة حينما كتبوا المصحف لجثوا إلى قياس الشبه عند عدم النص ، فآلحوا سورة براءة بسورة الأنفال ، لأنهم رأوا قصة براءة شبيهة بقصة الأنفال ، فإذا كان القياس قد صح واعتبر في تأليف القرآن ، فما ظنك بسائر الأحكام (٢) ؟

وثبت اجتهاد بعض الصحابة في زمن الرسول صلوات الله عليه في كثير من الأحكام ، فلم ينههم ولم يعنفهم ، فقد أمرهم يوم الأحزاب أن يصلوا العصر في بني قريظة ، فاجتهد بعضهم وصلوها في الطريق ، وقالوا : لم يرد منا التأخير ، وإنما أراد سرعة النهوض ، فنظروا إلى المعنى ، واجتهد آخرون وأخروها حتى وصلوا إلى بني قريظة ، فصلوها ليلاً ، واجتهد سعد بن معاذ في بني قريظة ، وحكم

«١» أعلام الموقعين .

«٢» ص ٦٣ من الجزء الثامن من تفسير القرطبي طبع دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٨ هـ

مع شيء من التصرف .

فيهم باجتهاده ، فصوبه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات » .

كذلك الأئمة الأربعة في صدر الفقهاء الذين رأوا القياس أصلاً من أصول التشريع ، بيد أنهم تفاوتوا واختلفوا في استعماله قلة وكثرة ، ولم يكونوا على درجة واحدة في استعمال القياس الفقهي ، فكان أقلهم استعمالاً له الحنابلة ، وكان أطولهم باعاً ، وأرسنهم قدماً فيه الحنفية ، أما المالكية والشافعية فقد كانوا بين الفريقين .

برع فيه أكثر فقهاء العراق ، ومهره أبو حنيفة وأصحابه ، حتى ضرب بهم المثل في إجادة القياس والحدق فيه ، واشتهروا به اشتهاً عظيماً ، فقد سلك أبو حنيفة في القياس مسلكاً فاق فيه كل من سبقه ، وأعانه على ذلك دقة نظره ، وسرعة خاطره ، واستبحاره في علم الكلام قبل أن يتحول إلى الفقه ، وقوة حجته حتى كان - كما قالوا - لو أراد أن يقيم الحجة على أن هذه السارية من ذهب لفعل ، وعدم تهيبه للفتيا ، لايهمه أوقعت الحادثة أم لا ، وكان يقول لقتادة : « إن العلماء يستعدون للبلاء ، ويتحرزون منه قبل نزوله » . وفي كتب المناقب الشيء الكثير مما يدل على براعته في القياس ، وقوة منطقته ، وفوق حجته ، ذكر عند مرة قول من قال : « لا أدري نصف العلم ، فقال : فليقل » لا أدري ، مرتين ليستكمل العلم ، وسئل : ما قولك في الشرب في قدح أو كأس في بعض جوانبها فضة ؟ فقال : لا بأس به ، فقليل له : أليس قد ورد النهي عن الشرب في إناء الفضة والذهب ؟ فقال أبو حنيفة : ما تقول في رجل مر على نهر ، وقد أصابه عطش ، وليس معه إناء ، فاعترف الماء من النهر ، فشربه بكفه ، وفي إصبعه خاتم ؟ فقال مناظره : لا بأس بذلك ، قال أبو حنيفة : فهذا كذلك - وجاءه جماعة من أهل المدينة لينظروه في القراءة خلف الإمام - وهو يقول بعدم القراءة خلفه - فقال لهم : لا يمكنني مناظرة الجميع ، فولوا الكلام أعلمكم ، فأشاروا إلى واحد ، فقال : هذا أعلمكم ؟ والمناظرة معه كالمناظرة معكم ؟ قالوا : نعم ، قال : والحجة عليه كالحجة عليكم ؟ قالوا : نعم ، قال : إن ناظرته لزمتمكم الحجة ، لأنكم اخترتموه ، فجعلتم كلامه كلامكم ، وكذا نحن اخترنا الإمام فقراءته قراءتنا - إلى غير ذلك ، وهو كثير .

٤ - التفريط والإفراط في القياس

بما سبق بيانه وسلف ذكره - يتضح لك أن الظاهرية ، ومن تبعهم من نفاة القياس ، والذين أسرفوا في استعماله كبعض الحنفية - هم بالنسبة إلى القياس في جانب تفريط وإفراط ، فالظاهرية سدوا على أنفسهم باب اعتبار المعاني والعلل والحكم ، والأوصاف المؤثرة التي علق بها الشارع الحكم ، وجوزوا ورود الشريعة بالفرق بين المتساويين ، والجمع بين المختلفين ، فظلبوا الشرع الإسلامي الذي بنى على العقل ، واعتبار العلة ، والحكم ، والمصالح ، ودرء المفاسد ، وفاتهم بذلك حظ عظيم ، كما أن الذين أفرطوا فيه وغلوا ، حتى جمعوا بين الشيثيين اللذين فرق الله بينهما بأدنى جامع ، أو وصف يتخللونه علة - قد دخلوا في باطل ، وفاتهم حق كثير .

فالحير - كما قال ابن قيم الجوزية - أن يسلك المجتهد مسلكاً وسطاً ، والحق في اتباع جانب القصد ، ومجانبة كل من التفريط والإفراط ، ولأنه ليسهرك ويروعك ماسطره ابن القيم في الجزء الأول من كتابه أعلام الموقعين في مبحث القياس ، وهو عيلم الشريعة ، والمحيط بأصولها وفروعها ، فقد بين أن الناس في القياس طرفان ووسط ، وبسط رأى نفاة القياس ومثبتيه ، وأحاط بحجج كل من الفريقين ، ودعا إلى اتخاذ مسلك وسط بين غلاة النافين ، وغلاة المثبتين ، وهو في هذا لم يدع مقصداً لباحث ، ولا غاية لمستزيد .

٥ - ما لا يجري فيه القياس

الأصل أن ما لا يعقل (١) معناه لا يجري فيه القياس ، قيل : هذا متفق عليه ، وقيل : لأنه مذهب الجمهور ، وقد شذت من قال : بثبوتها فيما لا يعقل معناه . وهنا مسألة تختلف

١ « مثل له الشوكاني في إرشاد الفحول - بضرب الدية على العاقلة ، وإن كان تمثيله مما يصح أن يوجه إليه النقد والاعتراض .

العلماء في جريان القياس فيها ، وهي الحدود والكفارات ، فذهب الحنفية إلى منع القياس فيها ، لأن الحدود مشتملة على تقدير لا يعقل ، كعدد المائة في الزنا ، والثمانين في القذف ، فإن العقل لا يدرك الحكمة في اعتبار خصوص هذا العدد ، والقياس فرع تعقل المعنى المعلن به الحكم في الأصل ، وما كان يعقل منها ، كقطع يد السارق ، لأنها جنت بالسرقة ، فقطعت ، فإن الشبهة في القياس لاحتماله الخطأ - توجب المنع من إثباته بطريق القياس ، ومثل ذلك التقدير في الكفارات ، فإنه لا يعقل ، كما لا تعقل أعداد الركعات (١) ، وجوز غير الحنفية القياس في الحدود والكفارات - محتجين بأن الدليل الدال على حجية القياس يتناولها بعمومه ، فوجب العمل به فيهما - ألا ترى أن الصحابة حدوا في الخمر بالقياس إذ تشاوروا فيه ، فقال على رضى الله تعالى عنه : إنه إذا شرب سكر ، وإذا سكر هذى ، وإذا هذى افترى ، فأرى عليه حد الافتراء ، ولذلك جعله عمر مثل حد الفرية تمانين ، كذلك احتجوا بأن القياس إنما يثبت في غير الحدود والكفارات ، لاقتضائه الظن ، وهو قد يتحقق فيهما ، فوجب العمل به (٢) .

(١) وقد رد بعض العلماء على ما ذكره الحنفية - بأن جريان القياس إنما يكون فيما يعقل معناه من الحدود والكفارات لا فيما لا يعقل ، إذ لا خلاف في عدم جريان القياس فيه ، كما في غير الحدود والكفارات ، ولا مدخل لخصوصيتهما في امتناع القياس .
(٢) راجع إرشاد القحول .

مراجع هذا البحث :

- ١ - تاريخ التشريع .
- ٢ - إرشاد الفحول .
- ٣ - أعلام الموقعين .
- ٤ - الطرق الحكمية .
- ٥ - نيل الأوطار .



الباب الثاني الأدلة المختلف فيها أو الاستدلال

هناك - عدا الأدلة المتفق عليها بين جمهور العلماء ، وهي الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس - ينابيع أخرى ، رَجَّع إليها في الاستنباط ، واتخذها دليلا على الأحكام بعض أئمة الشرع المجتهدين ، على خلاف فيها ، وفي تفصيل أحوالها وصورها ، وبيان المراد منها ، وقد أشرنا إليها فيما سبق - يجمعها اسم واحد هو الاستدلال (١) ، وتدرج فيه أربعة أدلة : استصحاب الحال ، والاستحسان ، والمصالح المرسلة ، وشرع من قبلنا - وبما يتصل بمباحث الاستدلال دليان آخران : مذهب الصحابي ، وعمل أهل المدينة .

(١) إرشاد الفحول ص ٢٠٧ طبعة سنة ١٣٤٩ هـ قال الشوكاني: الاستدلال في اصطلاحهم هو ما ليس بنس ولا إجماع ولا قياس .

الفصل الأول مذهب الصحابي -

هنا حالتان:

الأولى: أن يصدر من الصحابي قول شرعي ، أو حكم فقهي في مسائل لا يجري فيها الاجتهاد ، ودل الدليل على التوقيف ، وعلى تلقيها من الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فمضى كان الأمر كذلك ، فالرأي في الحقيقة راجع إلى السنة ، ولا نزاع في اتباعه واعتباره حجة لذلك .

الثانية : أن يكون للصحابي قول في المسائل الاجتهادية ، وفي هذا اتفق العلماء على أنه ليس بحجة على صحابي مثله ، وعن نقل هذا الاتفاق القاضي أبو بكر ، والآمدي ، وابن الحاجب ، وغيرهم - أما بالنسبة لغير الصحابة من المجتهدين فقد اختلف فيه على أقوال (١) :

الأول : أنه حجة شرعية مقدمة على القياس ، ونقل هذا عن مالك ، كما عرى إلى أكثر الحنفية ، وهو قديم قول الشافعي . وقد استدلوا بما روى عنه صلى الله عليه وسلم : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ، وبأنه يرجع أن الصحابي ما قاله إلا بالسمع ، ولو اتقى فإصابته للحق أقرب ، لمكان صحبته من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ومشاهدته الأسباب والأحوال التي نزلت فيها النصوص ، فصار قول الصحابي كالدليل الراجح .

الثاني : أنه حجة إذا عضده (٢) القياس ، وقد حكى القاضي حسين وغيره

(٢) عضده من باب نصر : أعانه.

(١) المصدر السابق .

من أصحاب الشافعي - أن هذا هو رأى الشافعي في قوله الجديد ، وهو الذى استقر عليه مذهبه .

الثالث : أنه ليس بحجة مطلقاً ، وقد ذكر في إرشاد الفحول - أنه رأى الجمهور - استدلو بأن الصحابي في المسائل الاجتهادية ليس معصوما ، فيكون قوله وقول مجتهد آخر سواء ، وبأنه لو كان مذهب الصحابي حجة - للزم اجتماع النقيضين ، لمناقضة بعض الصحابة بعضاً في الأحكام ، لوقوع الاختلاف بينهم في أحكام كثير من المسائل ، وعن انتصر لهذا الرأى الغزالي ، فإن الحجة إنما هي فيما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابي قد يستنبط أو يقيس ، فلعلة قال ما قال عن استنباط واجتهاد (١) - كذلك انتصر له الشوكاني ، قال في إرشاد الفحول : « الحق أنه ليس بحجة ؛ فإن الله سبحانه وتعالى لم يبعث إلى هذه الأمة إلا نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وليس لنا إلا رسول واحد ، وكتاب واحد ، وجميع الأمة مأمورة باتباع كتابه وسنة نبيه ، ولا فرق بين الصحابة ومن بعدهم في ذلك ، فكلهم مكلفون بالتكاليف الشرعية ، وباتباع الكتاب والسنة ، فمن قال : إن الحجة تقوم في دين الله عز وجل بغير كتاب الله وسنة رسوله ، وما يرجع إليهما - فقد قال في دين الله بما لا يثبت ، وأثبت في هذه الشريعة الإسلامية شرعاً لم يأمر الله به ، وهذا أمر عظيم ، ثم قال « وأما ما تمسك به بعض القائلين بحجة قول الصحابي بما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » - فهذا بما لم يثبت قط ، والكلام فيه معروف عند أهل هذا الشأن ، بحيث لا يصح العمل بمثله في أدنى حكم من أحكام الشرع ، فكيف مثل هذا الأمر العظيم ، والخطب الجليل ، وهذا الكلام واضح ، وفيه قنعان (٢) .

تفصيل الحنفية :

لعلماء الحنفية تفصيل في (قول الصحابي) قالوا : إن كان فيما لا يدرك بالرأى ولم يناف القرآن ، ولا السنة الصريحة - فهو حجة بلا خلاف عندهم ، لأنه يكون

(١) الأصول الخمسة .

(٢) فيه قنعان ، أو مقنع ، أى رضا يقنع به .

في حكم المرفوع إليه صلى الله عليه وسلم ، لأن ما لا يدرك بالرأى لا يقضى به صحابي جليل ، ما لم يكن مستنداً إلى حجة شرعية ، وتلك الحجة لا يمكن أن تكون عقلية لأن الحكم بما لا يدرك بالرأى ، ومن أمثله : أن أم ولد زيد بن أرقم قالت لعائشة : إني بعثت من زيد غلاماً بثمانمائة نسيئة ، واشتريته بستائة نقداً ، فقالت عائشة : أبلغني زيدا أن قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن يتوب ، بثمن شريت واشتريت. فهنا استفتت أم ولد زيد عائشة في بيعها وشرائها ، فأفتتها بحرمة هذا البيع (١) ، وببطلان جهاد زيد ، وهو حكم لا يدرك بالرأى ، فيحمل ذلك على أنها سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك يروى أن زيدا نزل على حكم عائشة بعد استنكارها .

كذلك يكون قول الكبير من الصحابة حجة - عند الحنفية - بلا خلاف إذا كان مما تعم به البلوى ، وسكت سائر الصحابة عن إنكاره ، لأنه يكون إجماعاً سكوتياً ، وهو حجة عندهم ، ومن أمثله : الأذان يوم الجمعة ، فقد كان على باب المسجد إذا جلس الخطيب على المنبر ، فلما كثر الناس بالمدينة في خلافة عثمان - زاد قبل ذلك النداء نداء آخر بعد الروال ، وقبل خروجه للخطبة على دار له يقال لها: الزوراء ، ليعلم الناس دخول الوقت وأن الجمعة قد حضرت ، ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة - كما انفقوا على أن قول الصحابي - فيما يدرك بالرأى - لا يكون حجة على صحابي مثله ، بل ليس للصحابي أن يعمل برأى صحابي آخر ، ويدع ما يراه صواباً .

أما قول الصحابي - فيما يدرك بالرأى - فقد اختلف الحنفية في اعتباره حجة بالنسبة لغير الصحابة من المجتهدين ، فذهب أبو بكر الرازي ، وأبو سعيد البردعي ، ونظر الإسلام البزدوي ، وشمس الأئمة السرخسي ، إلى اعتباره حجة ، وغالطهم في ذلك الكرخي . وقد مضى دليل كل من الفريقين (٢) .

«١» يسمى هذا البيع بيع العينة ، وقد حرم لأنه في الحقيقة ربا ،
«٢» راجع إرشاد الفحول للشوكاني ، وأصول الفقه للبخاري .

الفصل الثاني

عمل أهل المدينة وإجماعهم

اشتهر الإمام مالك رضي الله عنه بأنه قد يعتمد في استنباط فقهه وآرائه التشريعية على عمل أهل المدينة وإجماعهم ، لأنه عمل قد توارثوه كإبراً عن كابر ، ومثله يصح به الاحتجاج لأنه لا يخفى ، وذلك لتكرار وقوعه كل يوم ، كما نسب إليه أنه قد يرد (١) به بعض الأحاديث ، وقد ذكر إجماع أهل المدينة في نيف وأربعين مسألة (٢) ، وعلى هذا - اعتبر المالكية ذلك أصلاً من أصولهم ، وقد نازعهم الجمهور فيه ، وقالوا : إن عمل أهل المدينة كعمل غيرهم من أهل الأمصار ، فلا فرق بين عملهم وعمل أهل العراق والشام والحجاز ، وإنما العبرة بالسنة ، فمن كانت معهم فهم أهل العمل المتبع ، وكيف يكون عمل بعضهم حجة على بعض إذا اختلف علماء المسلمين ، وقد انتقل أكثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المدينة وتفرقوا في الأمصار ، وأكثر علمائهم صاروا إلى الكوفة والبصرة والشام ، وإنما الحجة اتباع السنة ، فهي الأصل الذي يجب أن يرجع إليه ، وليس عمل مصر أو بلد أصلاً ولا معياراً في التشريع . على أنه بعد تفرق جمهور الصحابة في البلاد الإسلامية - قد يخفى على أهل المدينة سنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم التي يكون عليها عند غيرهم - فكيف تُترك السنة لعمل من قد يخفى عليهم السنة ؟ .

(١) أصول الفقه للخضرى ص ٣٤٣ طبعة سنة ١٩٣٣م .

(٢) ج ٢٢ أعلام الموقعين ص ٢٩٧ من الطبعة المنيرة

هذه صورة مجملة لرأى مالك ومخالفه ، تحتاج إلى شيء من الإبانة والتفصيل ، يعرف منه مواطن الاتفاق والاختلاف ، ويبين به المراد من عمل أهل المدينة ، الذى يعتبر حجة فى التشريع ، ووضع الأحكام عند من يقول به ، وهل هو حجة ملزمة لجميع الأمة لا يجوز العمل بغيره ؟ وذلك يحتاج إلى هذين المبحثين :

المبحث الأول : تقسيم عمل أهل المدينة وبيان صفته .

والمبحث الثانى : عمل أهل المدينة حيال أخبار الآحاد : أيقدم عليها عند التعارض أم هى التى تقدم عليه فى الحجية والاعتبار ؟ .

المبحث الأول

قسم ابن القيم - وتابعه فى ذلك الخضرى - عمل أهل المدينة وإجماعهم قسمين : أحدهما : ما كان من طريق النقل والحكاية ، والثانى : ما كان من طريق الاجتهاد والاستدلال :

(١) ما كان من طريق النقل والحكاية

هو ثلاثة أنواع :

الأول : نقل شرع عن النبي صلى الله عليه وسلم ، من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، أو ترك لشيء قام سبب وجوده ولم يفعله ، فنقل القول ظاهر ، وهو الأحاديث المدنية التى هى أم الأحاديث النبوية - ونقل الفعل كنقلهم أنه صلوات الله عليه ، كان يخرج كل عيد إلى المصلى ، فيصلى به هو والناس العيد ، وأنه كان يخطبهم قائماً على المنبر ، وظهره إلى القبلة ، ووجهه إليهم ، وأنه كان يعود مرضاهم ، ويشهد جنازتهم ، ونقل التقرير كنقلهم أنه أقرهم على صناعاتهم المختلفة من تجارة ، وخياطة وصياغة ، وإنما حرم عليهم فيها الغش ، والتوسل بها إلى المحرمات ، وعلى لإنشاء الأشعار المباحة ، وذكر أيام الجاهلية ، والمسابقة على الأقدام ، وأنه أقرهم على

الخيلاء في الحرب ، ولبس الحرير فيها - ونقل الترك كنتلهم أنه لم يكن في صلاة العيد أذان ولا إقامة ، وأن شهداء أحد لم يغسلوا ، ولم يصل عليهم ، وترك أخذ الزكاة من الخضراوات ، وهم يزرعونها بالمدينة كل سنة .

هذا النوع قال فيه بعض المحدثين - على ما ذكره الخضرى - إن روايتهم تقدم على رواية غيرهم إذا عارضتها ، ولكن جمهور الفقهاء ينازعون في ذلك ، ولا يرون للراوى المدنى فضلا على غيره من رواة الأمصار الأخرى إلا بالعدالة والضبط ، وقد نقل ابن القيم أن كثيراً من السنن التقريرية - احتج بها الصحابة ، وأئمة الإسلام كلهم .

النوع الثانى : نقل الأعيان ، وتعيين الأماكن ، كنتلهم الصاع والمد ، وتعيين موضع المنبر ، وموقفه للصلاة ، والقبر ، وتعيين الروضة والبقيع والمصلى - ولا شك أن نقل هذا جار مجرى نقل تعيين المناسك : كالصفا ، والمروة ، ومنى ، ومزدلفة ، وعرفة ، ومواقيت الإحرام ، حتى حمل بعض المالكية قول مالك على هذا النوع من النقل .

النوع الثالث : نقل العمل المستمر المتصل زمناً بعد زمن ، من عهده صلى الله عليه وسلم ، كنتلهم المزارعة ، والأذان على المكان المرتفع ، والأذان للصبح قبل الفجر ، وثنية الأذان ، وإفراد الإقامة - ويظهر من كلام مالك فى الموطأ أن هذا النوع هو الذى يريده - قال ابن القيم فى هذا النوع : « وهذا العمل حجة يجب اتباعها ، وسنة متلقة بالقبول ... وإذا ظفر العالم بذلك قرت عينه ، واطمأن إلى نفسه » .

(ب) ما كان من طريق الاجتهاد والاستدلال

فى هذه الحالة - لم يكن عمل أهل المدينة وإجماعهم آتياً من طريق النقل والحكاية إنما حدث من طريق الاجتهاد والاستنباط والترجيح والاستدلال ، كالذى جروا

عليه من بطلان خيار المجلس في البيع ، واكتفائهم بتسليمه واحدة في الصلاة ، ومثل قنوتهم في الفجر قبل الركوع .

وهذا النوع هو معترك النزاع وعمل الجدل - قال القاضي عبد الوهاب المالكي: اختلف أصحابنا فيه على ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه ليس بحجة أصلا ، وأن الحجة هي إجماع أهل المدينة من طريق النقل ، كذلك لا يرجح به أيضا أحد الاجتهادين على الآخر .
الوجه الثاني : أنه - وإن لم يكن حجة - يرجح به اجتهادهم على اجتهاد غيرهم ، وبه قال بعض أصحاب الشافعي .

الوجه الثالث : أن إجماعهم من طريق الاجتهاد حجة وإن لم تحرم مخالفته ، كما إجماعهم من طريق النقل ، وهذا الرأي الأخير يدل على أن عمل أهل المدينة ليس حجة ملزمة لجميع الأمة عند مالك ، وإنما هو اختيار منه لما رأى عليه العمل ، ولم يقل قط في موطنه ولا غيره : لا يجوز العمل بغيره (١) .

المبحث الثاني

عمل أهل المدينة وأخبار الآحاد

إذا اتفق أهل المدينة على عمل ما ، قد رويت فيه أخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق الآحاد (٢) - فلذلك حالتان :

الأولى : أن يوافق عملهم هذه الأخبار ، فيكون ذلك مؤكدا لصحتها ووجوب

١٠ راجع الجزء الثاني من أعلام الموقعين ص ٢٩٧، ٣٠٤، ٣٠٥ من الطبعة المنيرية.
٢ قسم العلماء السنة باعتبار سندها إلى متواتر وخبر آحاد : فالمتواتر: ما رواه جمع يمتنع نواطؤه على الكذب ، وخبر الآحاد هو الذي لم يبلغ حد التواتر ، وزاد الحنفية قسما ثالثا وهو المشهور ، وبيان ذلك وتفصيله في كتب أصول الفقه ، وعلم مصطلح الحديث .

العمل بها إذا كان العمل من طريق النقل ، ومرجحاً للخبر إن كان عملهم من طريق الاجتهاد

الثانية : أن يكون عملهم مخالفاً لخبر الآحاد ، فإن كان من طريق الاجتهاد فالخبر أولى منه إلا عند من قال : إن إجماعهم من طريق الاجتهاد حجة . وإن كان عملهم جارياً مجرى النقل ، كقولهم في الصاع والمد وزكاة الخضر اوات - فهو حجة ، فإذا أجمعوا عليه فهو مقدم على غيره من أخبار الآحاد ، ولهذا فالخبر في هذه الحالة يترك ويقدم عليه عمل أهل المدينة (١) ، لأنهم إذا أجمعوا على شيء نقلاً أو عملاً متصلاً - علم أن ذلك الأمر ثابت بالنقل ، المتواتر الذي يحصل به العلم ، وينقطع فيه العذر ، وبه يجب ترك أخبار الآحاد عند التعارض ، ويكون مثل ذلك مثل خبر الواحد ، إذا خالف ما تواتر به نقل جميع الأمة . ولا يقال ذلك فيما أجمعوا عليه من طريق الاجتهاد ، لأن العصمة لم تضمن لاجتهادهم ، وبهذا التفصيل وضح المراد وزال الاشتباه (٢) .

«١» في هذه الحالة يظهر جل الغرض من الكلام في هذه المسألة .

«٢» مراجع هذا البحث : أصول الفقه للخضرى من ص ٣٤٣ إلى ص ٣٤٥ ، والجزء الثاني

من أعلام الموقعين من ص ٢٩٤ إلى ص ٣٠٦

الفصل الثالث

شروع من قبلنا من الأنبياء

هنا أربع حالات : ثلاث متفق عليها ، وواحدة هي موضع الخلاف بين العلماء ، ودونك بيانها :

الاولى : ماورد من شرائع الانبياء السابقين في كتبهم ، ولكنه لم يرد له ذكر في القرآن الكريم ، ولا فيها صح وثبت من سنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا لا نزاع في أننا غير متعبدين به ، لأنه لا سبيل إلى معرفته ، ولا إلى اعتقاد صحته ، لأنه نقل بطريق لا يوثق به ، ولا يركن إليه .

الثانية : أن يرد شرع السابقين في ديننا ، ولكن شريعتنا تنص على نسخه وإبطاله ، وهذا أيضاً لاخلاف في أنه ليس من شرعنا ، ومن أمثلته : ما أباحه الله لنا من المطاعم ، وقد كان محرماً على بني إسرائيل - قال تعالى : « وَاعْلَى الَّذِينَ كَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمُ تُخُومَهُمَا إِلَّا مَا سَحَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا (١) ، أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ » . ومنها ما أشير إليه في حديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « أُعْطِيَتْ سُفْنَا لَمْ يُعْطِهِنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ، وَذَكَرَ مِنْهَا قَوْلُهُ « وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّهَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ » ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي » .

(١) الحوايا : الأبناء جمع حوية .

الثالثة : ماورد في ديننا من شرائع السابقين ، وأقرته شريعتنا ، وهذا لا نزاع في أننا متعبدون به لأنه من شرعنا ، ومن أمثلته : الأضحية - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ضحوا فإنها سنة أبيكم إبراهيم عليه الصلاة والسلام » .

الحالة الرابعة : ما قصه الله علينا في كتابه أو على لسان نبيه من شرائع من قبلنا ، وسكتت شريعتنا عنه ، فلم تنص على تقريره أو على نسخه ، وهذه الحالة هي التي جرى فيها الاختلاف .

فذهب المعتزلة وبعض العلماء كأبي إسحق الشيرازي في آخر قوله - إلى أننا غير متعبدين بها ، ونسب إلى الغزالي أنه اختار هذا الرأي في آخر عمره ، وصحح هذا القول ابن حزم ، وقد احتج هذا الفريق بأدلة منها :

١ - أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن ، لم يرشده إلا إلى العمل بالكتاب والسنة ، ثم اجتهد الرأي ، فلو كنا متعبدين بشرع من قبلنا لذكره معاذ ، أو لكان الرسول نبهه على خطئه إذ تركه - وقد يدفع هذا الدليل بأن معاذ لم يذكره ، لأن العمل به في الحقيقة مردود إلى الكتاب والسنة .

٢ - قالوا : لو كنا متعبدين بشرع من قبلنا - لوجب علينا تعلمه ، ولوجب على المجتهدين البحث عنه - ويدفع هذا أيضاً بأن الكلام فيما قص علينا في ديننا من القرآن أو السنة الصحيحة - لا فيما لم يقص .

وذهب أكثر العلماء من الشافعية ، والحنفية ، والمالكية ، وطائفة من المتكلمين - إلى أننا متعبدون بشرع من قبلنا إلا ما نسخ منه - مستدلين بقوله عز وجل : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس » - الآية . فإنها بما استدل به في شرعنا على وجوب القصاص ؛ ولولا أننا متعبدون بشرع من قبلنا - ما صح الاستدلال بكون القصاص واجباً في بني إسرائيل على كونه واجباً في شرعنا - واستدلوا أيضاً بأنه صلى الله عليه وسلم لما قال : « مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا قَلْبُصَلَّتْهَا إِذَا ذَكَرَهَا » ، تلا قوله تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي » ، وهي مقولة لموسى عليه السلام ، فلم يكن متعبداً بشرع من قبله - ما كان لتلاوة الآية عند ذلك فائدة (١) .

(١) راجع إرشاد الفحول للشوكاني وأصول الفقه للخضري .

الفصل الرابع

إستصحاب الحال

مباحثه تشمل ما يأتي :-

- (١) معنى الاستصحاب ، ماذا يراد به ؟
- (٢) اختلاف الفقهاء والأصوليين في حجته .
- (٣) أقسامه وصوره .

١ - معنى الاستصحاب

عرفه بعض العلماء بأنه الحكم ببقاء أمر محقق لم يظن عدمه ، وقيل : هو استدالة لإثبات ما كان ثابتاً ، أو نفي ما كان منقياً (١) ، وقد أوضح ذلك العلامة الشوكاني بقوله : معناه أن ما ثبت في الزمن الماضي فالأصل بقاءه في الزمن المستقبل ، مأخوذ من المصاحبة ، وهو بقاء ذلك الأمر ما لم يوجد ما يغيره ، ويؤخذ من ذلك أن استصحاب الحال يكون في الإثبات أو النفي ، وفي الوجودي أو العدمي ، وأنه للأمر يكون في الماضي فيثبت في الحال - ولكن بعض علماء الحنفية كصاحب العناية (٢) أحد شراح الهداية عرفه بأنه الحكم بثبوت أمر في وقت بناء على ثبوته في وقت آخر ، وبناء على ذلك لا يكون استصحاب الحال مقصوراً على ما ثبت في الماضي فيثبت في الحال - بل هو عند بعض العلماء يتضمن نوعين :

١٨ تعريف ابن القيم في أعلام الموقعين .

٢٥ ج ٥ ص ١٥٥ من الطبعة الأولى الأميرية ببولاق .

أحدهما - أن يقال : إنه كان ثابتاً في الماضي فيكون ثابتاً في الحال - كالمفقود إذا غاب ، ولم يدر : أحى هو أم ميت ؟ فإن حياته في الماضي - أى قبل فقده - ثابتة فتثبت تبعاً لذلك في الحال بحكم الاستصحاب ، فلا يورث ماله قبل الحكم بوفاته . والثاني - أن يقال : هو ثابت في الحال فيحكم بثبوته في الماضي - كما إذا مات نصراني ، فجاءت امرأته مسلمة وقالت : أسلمت بعد موته لثرت ، وقالت الورثة : أسلمت قبل موته ليدفعوا استحقاقها للإرث - فالقول للورثة ، ولا تصدق هي إلا بيينة ، لأن سبب الحرمان ثابت في الحال ، فيثبت فيما مضى تحكيميا للحال .

هذا النوع الثاني يسمى الاستصحاب المقلوب . وفي كتب الحنفية بعض القروع التي بني حكمها عليه ، كما أن للمالكية فتاوى مبنية على رعايته ، منها الوقف الذي لا يدرى بعد البحث أصل مصرفه ، وشرط واقفه ، ولكنه يصرف في الزمن الحاضر على صفة أو حالة معينة - فقد قالوا : إن هذه الحالة تستصحب فيما مضى ، ويحمل على أن مصرفه في الأصل كان على وفقها ، وتكون الحالة التي يصرف عليها صحيحة حتى تقوم البيينة على مخالفتها لما صدر من الواقف (١) .

٢ - اختلاف الفقهاء والأصوليين في اعتباره حجة

كثر اختلاف العلماء في استصحاب الحال وحجته - عند عدم الدليل - وفي تحرير موضوع النزاع بينهم ، وفي تحديد صور الاستصحاب ، وقد اضطربت أقوالهم في ذلك اضطراباً شديداً ، حتى عزی أكثر من رأى للعالم الواحد فيها ، وإنا موجزون لك أهم ما تبين لنا - بذكر الأقوال الآتية :

القول الأول :- أنه حجة في النفي والإثبات ، والأمر الوجودي والعدمي ، وبه قالت الحنابلة والمالكية ، وأكثر الشافعية والظاهرية .

الثاني :- أنه ليس بحجة ، وهو قول بعض الحنفية والمتكلمين ، واختاره ابن نجيم

« ١ » الجزء الثالث من رسائل الإصلاح للأستاذ محمد الخضر حسين ، وانظر شرح العناية على الهداية ج ٥ .

من الخفية - احتجوا بأن الثبوت في الزمان الأول يقتدر إلى الدليل ، فكذلك في الزمان الثاني ، لأنه يجوز أن يكون وألا يكون .

الثالث :- أنه حجة في العدم الأصلي ، وليس بحجة في الأمر الوجودي .

الرابع :- جواز الترجيح به لحسب ، ونسب بعضهم هذا الرأي للشافعي ، وقال : إنه الذي يصح عنه لا أنه يحتاج به .

الخامس :- أنه ليس بحجة على الخصم عند المناظرة ، وإن صلح حجة على المجتهد فيما بينه وبين الله تعالى ، فإذا لم يجد دليلاً سواه - جاز له التسك به ، لأنه لا يكلف إلا ما يدخل تحت مقدوره .

السادس :- أنه حجة للدفع لا للإثبات ، أو (حجة دافعة لا مثبتة) ومعنى كونه حجة دافعة أو للدفع - أنه يصلح حجة لدفع الاستحقاق ، أو دفع من ادعى تغيير الحال ليرتب عليه المطالبة بحق من الحقوق ، ومعنى كونه ليس بحجة للإثبات أو ليس بحجة مثبتة أنه لا يصلح مثبتاً لاستحقاق ، ولا ملزماً لخصم ، وهذا الرأي هو اختيار الفحول الثلاثة : أبي زيد ، وشمس الأئمة ، ونظر الإسلام ، وهو الرأي الذي تقرر في أصول الفقه عند الحنفية فهو حجة ضعيفة عندهم ، ومن ثم ترى في كتبهم كثيراً تلك القاعدة المشهورة : « الاستصحاب حجة تصلح للدفع لا للاستحقاق » - ولنوضح ذلك بضرب هذه الأمثلة :

١ - المفقود الذي سبقت الإشارة إليه في بيان معنى الاستصحاب - يجعل حياً قبل حكم القاضي بوفاته - بناء على استصحاب الحال الماضية ، فلا يرثه ورثته ، لأن الاستصحاب يصلح حجة لدفع المطالب ، أو لدفع الاستحقاق ، ولأنه ليس بحجة للإثبات أو للإلزام لم يورثوا المفقود من مورثه ، بل وقفوا له نصيبه حتى تتبين الحال - وعند الشافعية يرث المفقود من مورثه لأنه ثبتت حياته فيحكم ببقائها ، وبما يترتب عليها من ثبوت الإرث له .

٢ - بيع شقص من دار مشتركة ، وطلب الشريك الشفعة ، فأنكر المشتري ملك الطالب لما في يده ، وقال : إنما هو في يدك عارية - فالقول للمشتري ، ولا

شفعة للمدعى الشفعة إلا بينة، وهذا عند الحنفية لأن الاستصحاب عندهم ليس بحجة لإلزام الخصم، وعند الشافعية يثبت للمدعى الشفعة، لأن ملكه ثابت بالاستصحاب، وهو حجة ملزمة عندهم.

٣ - كذلك امرأة النصراني التي جاءت مسلمة، وقالت: أسلمت بعد موته، وقالت الورثة: أسلمت قبل موته (وهو المثال الذي سبق ذكره) لا تصدق، ولا تراث إلا بينة، والقول قول الورثة تحكياً للحال، وبذلك اعتبر سبب حرمانها قائماً قبل موت زوجها بحكم الاستصحاب، وهو حجة تصلح لدفع استحقاقها الإرث.

٤ - لو مات مسلم وله امرأة نصرانية، لجأت مسلمة بعد موته، وقالت: أسلمت قبل موته، وقالت الورثة: أسلمت بعد موته - فالقول للورثة أيضاً عند الحنفية، كما في المثال الثالث، لأنها وإن اعتبرت بحكم استصحاب الحال مسلمة قبل موته، لا تصدق، ولا تراث إلا بينة، لأن استصحاب الحال لا يصلح حجة للاستحقاق، ولا لإلزام الخصم (١).

٣ - أقسام الاستصحاب وصوره

للاستصحاب مواطن وصور كثيرة، بعضها متفق على حكمه، وبعضها مختلف فيه، وهذه أهمها:

١ - استصحاب العدم الأصلي، كبرائة الذمة من التكليف حتى يدل دليل شرعى عليه، كتنفي فرضية صلاة سادسة، وهو حجة باجماع عند من يقولون بأنه لاحكم قبل الشرع.

٢ - استصحاب مادل العقل والشرع على ثبوته ودوامه، كالتزام دوام الحل في الزوجة بعد ثبوت الزواج وتقريره، وشغل الذمة بما تشغل به عند جريان

«١» في كل من المثال الثالث والرابع يمكن تصور نوى الاستصحاب من الحال للماضي، ومن الماضي للحال «راجع العناية على الهداية ج ٥ من ص ١٠٥ إلى ص ١١٧ طبعة بولاق الأميرية».

إتلاف ، ودوام بقاء الملك بعد جريان ما يقتضيه ، وكاستصحاب حكم الطهارة والحدث - وهذا لا خلاف أيضاً في حجيته ووجوب العمل به حتى يثبت خلافه ، أو وجود معارض له .

٣ - استصحاب الدليل مع احتمال قيام المعارض من مخصص ، أو ناسخ ، وهو معمول به إجماعاً ، حتى منع المحققون أن يسمى هذا استصحاباً ، لأن ثبوت الحكم فيه من ناحية اللفظ ، لا من ناحية الاستصحاب .

٤ - استصحاب حكم الإجماع في محل النزاع ، بأن يتفق على حكم في حالة ، ثم تغير صفة المجمع عليه ، وذلك كما إذا تيمم شخص لفقدان الماء ، ودخل الصلاة بطهارة التيمم ، فصلاته صحيحة بالإجماع ، لكن ما الحكم إذا رأى الماء في أثناء صلاته ؟ فهل نقول بصحتها استصحاباً لحكم الإجماع (لأن الإجماع منعقد على صحتها قبل رؤية الماء) إلى أن يدل دليل على أن رؤية الماء مبطله ، أم نقول بطلانها لأن عمل الإجماع قد تغيرت صفته ؟ هذا النوع قد اختلف فيه الفقهاء والأصوليون على قولين :

أحدهما :- أنه ليس بحجة ، والآخر أنه حجة ، فيستصحب حكم الإجماع حتى يدل الدليل على ارتفاعه .

ولابن القيم نهج آخر في تقسيم الاستصحاب : فقد قسمه ثلاثة أقسام : استصحاب البراءة الأصلية ، واستصحاب حكم الإجماع في محل النزاع (وهو ما أسلفنا بيانه) واستصحاب الوصف المثبت للحكم حتى يثبت خلافه - أما القسم الأول والثاني فقد أثبت في كل منهما تنازع الفقهاء والأصوليين في اعتباره حجة أو عدم اعتباره ، وإن كان قد أيد اعتباره حجة في استصحاب حكم الإجماع - أما القسم الثالث فقد ذكر أنه حجة ، وهو عند التأمل لا يخرج عن الصورة الثانية من صور الاستصحاب التي أسلفنا ذكرها .

مصادر هذا البحث

- ١ - إرشاد الفحول للشوكاني .
- ٢ - الأشباه .
- ٣ - شروح الهداية ج ٥ من ص ٥١٥ .
- ٤ - الجزء الأول من أعلام الموقعين ص ٢٩٤ من الطبعة المنيرية .
- ٥ - الجزء الثالث من رسائل الإصلاح .



الفصل الخامس

الإستحسان

كثير الاختلاف وتعددت الآراء والأقوال في حقيقة الاستحسان ، فمنهم من أخذ بظاهر اللفظ وهو ابن حزم في كتابه الإحكام ، فقال : هو ما شتهته النفس ووافقها ، خطأ كان أو صوابا . فكأنه تحليل وتحريم بالهوى من غير دليل ، وإلى ما يقرب من هذا المعنى ذهب الشافعية في فهمه ، فأفاض القول في رده وإخراجه من الأدلة المقبولة الإمام الشافعي في رسالته الأصولية ، وفي الجزء السابع من كتاب الأم ، ومن قوله في ذلك : لا يجوز لمن استأهل أن يكون حاكما أو مفتيا أن يحكم ، ولا أن يفتي إلا من جهة خبر لازم ، وذلك هو الكتاب ، ثم السنة ، أو ما قاله أهل العلم ولا يختلفون فيه ، أو قياس على بعض هذا ، ولا يجوز له أن يحكم ، ولا أن يفتي بالاستحسان ... إلى أن قال : ومن استجاز أن يحكم أو يفتي بلا خبر لازم ولا قياس عليه - كان عجوجا بأن معنى قوله أفعل ماهويت وإن لم أو مر به مخالف معنى الكتاب والسنة ... إلى آخر ما قال (١) ، ونسب إليه قوله : من استحسنت فقد شرع . قال بعضهم : معناه : أنه جعل من نفسه شرعا غير الشرع ، وفي رواية عن الشافعي أنه قال : القول بالاستحسان باطل ، وتبعه الأصوليون من المتكلمين في رد الاستحسان ، وعدّوه من الأدلة الفاسدة التي لا يصح الاعتماد عليها في استنباط الأحكام ، لأنهم ظنّوه تشريعا بلا دليل ، ومن العلماء من قال : إنه دليل ينقدح في نفس المجتهد ، ويعسر عليه التعبير عنه ، وقيل : هو العدول عن

«١» راجع تاريخ التفسير ص ٢١٤ ، ٢١٥ طبعة سنة ١٣٥٣ هـ

قياس إلى قياس أقوى منه ، وقيل : هو العدول عن حكم الدليل إلى العادة لمصلحة الناس .

ومن قال بالاستحسان ، واعتبره من الأدلة التي تستند إليها الأحكام الشرعية الأئمة الثلاثة : أحمد بن حنبل ، ومالك ، وأبو حنيفة ، ولكنه ليس بالاستحسان الذي عناه الشافعي ، فإنه لا يقول به أحد ، إذ هو قول في الدين والتشريع بلا علم ولا حجة .

الاستحسان عند الحنابلة :

قال بعض العلماء : الاستحسان مذهب أحمد بن حنبل ، وهو أن يترك حكم إلى حكم هو أولى منه ، وهذا لا ينكره أحد .

الاستحسان عند المالكية :

هو الأخذ بمصلحة جزئية في مقابلة دليل كلي ، وليس الاستحسان - كما قال الشاطبي في الموافقات - الرجوع إلى مجرد الذوق والتشهى ، وإنما هو الرجوع إلى ما عُلم من قصد الشارع في الجملة (١) ، وذلك كالمسائل التي يقتضى القياس فيها أمراً ، إلا أن ذلك الأمر يؤدي إلى فوت مصلحة ، أو جلب مفسدة ، فإذا أخذ بالقياس وأجرى على إطلاقه - أدى إلى الحرج والمشقة في بعض موارد ، فيستثنى موضع الحرج ، ويقرب من ذلك قول ابن العربي المالكي في تفسير الاستحسان بأنه إشار ترك مقتضى الدليل استثناء وترخصاً لوجود ما يعارضه في بعض مقتضياته ، وقال في أحكام القرآن : « الاستحسان عندنا وعند الجنفية هو العمل بأقوى الدليلين ، فالمالكية ومن أخذ إخضعهم لا يقتضون على مقتضى الدليل العام ، أو القياس العام ، بل يخصونه بالمصلحة استحساناً ، ويراعون تحصيل المصالح ، أو درء المفاسد استثناء من الدليل العام الذي يقتضى منع ذلك ، وقد يؤيدهم في ذلك بعض نصوص الشرع التي جاءت مخصصة للنصوص العامة ، أو مستثنية لبعض ما تقتضيه

١٠ - ومقتضاء على ما ذكر في الموافقات : الرجوع إلى تقديم الاستدلال المرسل على القياس .

وفي المذهب المالكي من هذا المعنى كثير من الأمثلة والأحكام ، كالعرية ، فإنها في مذهب مالك : أن يهب الرجل ثمرة نخلة ، أو نخلات من حائط لرجل معين ، فيجوز للمعري (الوهاب) شراؤها من المعري له بخيرها تمراً ، بشروط مذكورة في كتب فقه المالكية (١) ، والرخصة فيها من جهة استثنائها من المزابنة ، وهي بيع الرطب بالتمر الجاف ، الذي ورد النهي عنه ، لأنه من الأموال الربوية التي يحرم فيها عند اتحاد الجنس التفاضل والنساء ، لكن بيع العرية أبيع رفقا وتوسعة ، ورفعاً للرجح ، فقد كان الرجل يهب ثمرة نخله ، فيشق عليه دخول الموهوب له عليه ، وقد يحتاج إلى الرطب ، فأبيع له أن يشتريها بخيرها تمراً عند الجذاذ استحساناً ، ولو امتنع مطلقاً لكان وسيلة لمنع الإغراء ، على أن هذا الاستحسان ورد به النص أيضاً ، فقد ورد في حديث سهل أن رسول الله صلوات الله عليه وسلامه نهى عن بيع التمر بالرطب ، إلا أنه رخص في العرية أن تباع بخيرها يأكلها أهلها رطباً (٢) - وكالقرض فإنه ربا في الأصل لأنه بيع الدرهم بالدرهم إلى أجل ، ولكنه أبيع لما فيه من الرفق والتوسعة على المحتاجين ، بحيث لو بقي على أصل المنع لكان في ذلك ضيق على المكلفين - ومثله جواز الجمع للمسافر بين صلاتي الظهر والعصر ، أو بين صلاتي المغرب والعشاء ، وجواز الجمع للمطر بين صلاتي المغرب والعشاء - على ما هو مبين في كتب الفروع ؛ وإباحة الاطلاع على العورات للتداوى .

ولكثرة ما جاء من الأحكام على هذا النحو - قال أصبغ بن الفرج من فقهاء المالكية : الاستحسان في العلم قد يكون أغلب من القياس ، وبالنسبة فيه حتى قال : إن المفرق في القياس يكاد يفارق السنة ، وأن الاستحسان عماد العلم ، وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال : « الاستحسان تسعة أعشار العلم » .

«١» ولكل من الشافعية والحنفية تفسير آخر للعرية - راجع في ذلك الجزء الثاني من بداية المجتهد لابن رشد .

«٢» بداية المجتهد والمواقف .

وبما تقدم في بيان الاستحسان يتضح أنه غير خارج عن مقتضى الأدلة، وإنما هو نظر إلى مآل الأدلة ولوازمها، وأن حقيقة مابنى عليه من الأحكام - كما قال الشاطبي - ترجع إلى اعتبار المآل في تحصيل المصالح، أو درء المفاسد على الخصوص حيث كان الدليل العام يقتضى منع ذلك، إذ لو وقفنا عند أصل الدليل العام لأدى وقوفنا إلى رفع ما اقتضاه ذلك الدليل من المصلحة (١).

ولذلك قال ابن السمعاني « إن كان الاستحسان هو القول بما يستحسنه الإنسان ويشتهي من غير دليل - فهو باطل ولا أحد يقول به، وإن كان هو العدول عن دليل إلى دليل أقوى منه - فهذا مما لم ينكره أحد، وقال القفال: « إن كان المراد بالاستحسان ما دلت عليه الأصول بمعانيها فهو حسن لقيام الحجة به، وإن كان ما يقع في الوهم من استنباح الشيء واستحسانه من غير حجة دلت عليه من أصل ونظير - فهو محذور، والقول به غير سائغ.

الاستحسان عند الحنفية:

اشتهر الحنفية بالقول بالاستحسان لكثرة ورودها في كتبهم، وعلى السنة علمائهم، واختصوا من أجل ذلك بإنكار مخالفهم الذين ظنوا أنه قول في الدين بلا حجة، وتشريع للأحكام بلا دليل - وحقيقة الاستحسان الذي ذهب إليه الحنفية ليست كما ظنه أولئك العلماء المنكرون، فهو عندهم لا يخرج عن كونه دليلاً من الأدلة الشرعية من قياس، أو نص، أو إجماع، أو رجوع إلى القواعد والأصول العامة للدين: كقاعدة لا ضرر ولا ضرار، وقاعدة الضرورات تبيح المحظورات، وقاعدة المشقة تجلب التيسير، ولذلك قال أبو بكر الرازي الجصاص من مجتهدي علماء الحنفية « جميع ما يقول فيه أصحابنا بالاستحسان ما قالوه إلا مقروناً بدلائله وحججه، لا على جهة الشهوة واتباع الهوى، ».

وليبيان ذلك نقول: إن الاستحسان - عند الحنفية - يطلق على الدليل الذي

«١» يراجع في ذلك الجزء الرابع من المواقفات ص ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩

يعارض القياس الجلى ، سواء أكان هذا الدليل قياساً خفياً قوى أثره فترجح على القياس الجلى ، أم كان نصاً أو إجماعاً . غير أنه شاع عندهم إطلاق الاستحسان على القياس الخفى ، فهو الذى يراد به عند الإطلاق ، وإنما سمي استحساناً لاستحسانهم ترك القياس الجلى به ، فكان هذا مستحسناً .

أقسام الاستحسان عند الحنفية :

من تعريف الاستحسان الذى مر ذكره يمكن تقسيمه قسمين :

الأول : استحسان القياس ، وهو قياس خفى يعارض قياساً جلياً ترجح عليه بقوة أثره ، فهو لم يخرج عن كونه قياساً شرعياً راجحاً ، وذلك لأن الفرع قد يتجاذبه أصلاً ، يأخذ الشبه من كل واحد منهما ، فيجب إلحاقه بأحدهما دون الآخر لدلالة توجبه ، والاستحسان من هذا الطريق وعرفه دقيق المسلك ، لأنه يحتاج من المجتهد إلى استعمال الروية ، وإنعام النظر حتى يستطيع ترجيح إلحاقه بأحد الأصلين دون الآخر - ومن أمثله : سؤر سباع الطير ، فإن القياس الجلى يقتضى نجاسته قياساً على سؤر سباع البهائم ، لأن السؤر معتبر باللحم ، وكل منهما نجس اللحم - لكن بجانب هذا القياس الجلى قياس آخر خفى (هو الذى يسمى استحساناً) يقضى بطهارته ، وهو قياسه على سؤر الآدمى ، وذلك لأن نجاسة سؤر سباع البهائم لأنها تشرب بلسانها ، فيختلط لعابها النجس بالماء ، أما سباع الطير فتشرب بمنقارها ، وهو عظم طاهر لأنه جاف لا رطوبة فيه ، فلا ينجس الماء بملاقاته ، كما لا ينجس بملاقاة لعاب الآدمى للطهارة فى كل ، وقد ترجح القياس الخفى لحكم بطهارة سؤر سباع الطير ، لأن القياس الجلى قد ضعف مؤثره ، وهو مخالطة اللعاب النجس للماء ، فإن ذلك متحقق فى سباع البهائم دون سباع الطير ، لشربها بمنقارها .

الثانى : استحسان غير القياس ، وهو ثلاثة أنواع :-

(١) استحسان النص ، وقد مثل له الحنفية بأمثلة كثيرة ، منها : السلم ، فإنه

بيع معدوم ، والقياس يمنع منه ، لكنهم أجازوه - على خلاف القياس - بالآثر وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « من أسلم منكم فليسلم في كيل معلوم ، إلى أجل معلوم ، ومنها عدم فطر الصائم بالآكل ناسياً ، فإنه على خلاف الأصل ، إذا الآكل يقتضى الفطر لذهاب ركن الصوم ، وهو الإمساك ، لكن الحنفية تركوا ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم للأعرابي الذي أكل ناسياً : « أتمم صومك ، فإنما أطعمك الله وسقاك (١) » .

(ب) استحسان الإجماع - ومن أمثله : الاستصناع فيما جرى فيه تعامل الناس ، كأن تقول للصانع : اعمل لي خفا ، أو آتية ، مع بيان نوع العمل ، وقدره وصفته ، فالقاعدة تقضى بعدم جوازه ، لأنه بيع معدوم ، ولكنها تركت وحكم بجوازه استحساناً للإجماع على صحة الاستصناع .

(ج) استحسان الضرورة ، كطهارة الحياض والآبار إذا تنجست - بنزع بعض ماؤها على ما هو مبين في كتب الفروع ، فإن القاعدة تقضى بعدم طهارتها إذا تنجست فإنه لا يمكن صب الماء عليها ، ولا يمكن عصرها حتى يخرج منها النجاسة ، والذي ينبع من البئر ينجس بالملاقاة ، ولأن نزع بعض الماء لا يؤثر في طهارة ما بقي منه - ولكنهم استحسنا ترك العمل بالقاعدة العامة في التطهير - مراعاة للضرورة .

(١) لم يرتض ذلك العلامة ابن قيم الجوزية - متابعا في ذلك شيخه ابن تيمية ، فإنه ليس في الشريعة شيء على خلاف القياس ، وقد رد ردا شافيا في كل حكم وردت به النصوص ، وقبل فيه : إنه ثبت بالنس على خلاف القياس ، وبرهن على أن كل ما وردت به النصوص من الإجارة ، والسلم ، والمزارعة ، والمساواة ، والقرض ، وصحة صوم الآكل الناسي - جار على حكم القياس الصحيح ، فن ذلك قوله في السلم : الصواب أنه على وفق القياس ، فإنه بيع مضمون في الذمة موصوف مقدور على تسليمه غالبا ، وهو كالاقتناع بشئ مؤجل ، فأى فرق بين كون أحد العوضين مؤجلا في الذمة وبين الآخر ، وناس السلم على بيع الدين المدومة التي لا يدرى أيهمد البائع على تحصيلها أم لا ، والبائع والمشتري منها على غرر - من أفسد القياس صورة ومعنى ... إلى آخر ما قال « راجع تلك البحوث النفيسة في الجزء الأول من أعلام الموقعين ، وفي كتاب القياس في الفروع الإسلامي لابن تيمية » .

من هذا التقسيم يتجلى لك - أن الحنفية لم يقصدوا بالاستحسان إلا دليلاً من الأدلة المتفق عليها - في مقابلة القياس الجلي ، كما يتضح مما أسلفنا بيانه في هذا المبحث أن الخلاف بين المختلفين لفظي ، وأنه لو اتفق على معنى الاستحسان - ما كان هناك محل ولا وجه للخلاف بين الشافعية والحنفية - فإن الاستحسان بالمعنى الذي ذهب إليه الشافعي لا يمكن أن يقول به الحنفية أو غيرهم من المالكية والحنابلة ، وأن الاستحسان بالمعنى الذي ذهب إليه الحنفية لا يمكن أن ينكره الشافعي ، لأنه لم يخرج عن كونه دليلاً من الأدلة المعتمدة شرعاً ، حتى قال جماعة من المحققين : الحق أنه لا يتحقق استحسان مختلف فيه .

مراجع هذا البحث

- ١ — الجزء الرابع من الموافقات للشاطبي و الطبعة السلفية .
- ٢ — إرشاد الفحول للشوكاني .
- ٣ — المجلد الثاني عشر من مجلة الأزهر ص ٣١١ وما بعدها .
- ٤ — أصول الفقه للخضري .
- ٥ — تاريخ التشريع للخضري .
- ٦ — بداية المجتهد لابن رشد القرطبي .
- ٧ — بعض كتب الفقه في مذهب الحنفية .
- ٨ — القياس في الشرع الإسلامي .

الفصل السادس

المصالح المرسله^(١)

المصلحة المرسله هي التي لم يشهد باعتبارها ، ولا بإنفاؤها ، دليل معين من الشرع (٢) ، وترجع إلى حفظ مقصود شرعي يعلم كونه مقصوداً بالكتاب ، أو السنة ، أو الإجماع إلا أنه لا يشهد لها أصل معين بالاعتبار ، وإنما يعلم ذلك بجملة أدلة ، وقرائن أحوال وأمارات ، ولذلك سميت مرسله ، فالحكم المستند إليها لا يرجع ، ولا يتقيد بدليل معين ، كالذي عرفناه من نص ، أو قياس ، أو إجماع ، إنما هو في الغالب راجع إلى تحقيق مصلحة كبرى ، أو دفع مفسدة عظمى وضرر شديد ، أو المحافظة على أغراض الشرع ومقاصده ، أو تحقيق المصالح العامة ، أو مراعاة العدالة والقواعد الأساسية التي جاءت من أجلها الشرائع .

وقال الغزالي في تفسيرها : هي أن يوجد معنى يشعر بالحكم مناسب عقلاً ، ولا يوجد أصل متفق عليه ، وقال الخوارزمي : المراد بها المحافظة على مقصود الشرع بدفع المفاسد عن الخلق .

تنازع العلماء في المصالح المرسله :

اختلف العلماء في الاحتجاج بها ، واعتبارها أصلاً من الأصول الشرعية «١» سماها النزالي الاستصلاح ، وبعضهم سماها الاستدلال المرسل ، وأطلق إمام الحرمين وابن السعاني عليها اسم الاستدلال . «٢» فلا نزاع في عدم الاعتداد بالمصالح التي قام الدليل الشرعي على إنفاؤها ، لأن الشارع الحكيم لا يفتي بمصلحة إلا إذا عارضتها مصلحة أرجح منها ، أو ترتبت عليها مفسدة ضررها أشد

التي يرجع إليها في استنباط الأحكام - على أربعة أقوال (١) :
القول الأول : ماذهب إليه الجمهور من عدم اعتبارها حجة ، ومنع التمسك بها في جميع الأحوال .

الثاني : ماآه بعضهم من جواز بناء الأحكام عليها ، إن كانت ملائمة لأصل من أصول الشرع ، كلى أو جزئى ، فإن كانت غير ملائمة لم يجوز ذلك ، وقد نسب إمام الحرمين إلى الشافعى ، ومعظم أصحاب أبى حنيفة - أنهم لا يميزون بناء الأحكام عليها ، إلا إذا كانت ملائمة للصالح المعتبرة المشهود لها بالأصول .

الثالث : رأى الغزالى ومن تبعه ، وهو اعتبارها حجة إن توافرت فيها أوصاف ثلاثة ، وهي كونها ضرورية قطعية كلية ، فإن فقد أحد هذه الثلاثة لم تعتبر - والمراد بالضرورية أن تكون من الضروريات الخمس التي تدور الأحكام الشرعية عليها ، وذلك لأن الشارع يدور في تشريعه على حفظ أمور خمسة ؛ وهي : الدين ، والنفس ، والعقل ، والنسل ، والمال ، فلو تفصينا أوامر الشرع ونواهيه لوجدنا أنها لا تتعدى هذه الأمور - والمراد بالكلية أن نعم جميع المسلمين ، فلا تكون لبعض الناس دون بعض ، أو فى حال دون حال (٢) . وقد مثل الغزالى للمصلحة الجامعة للأوصاف الثلاثة بكفار تترسوا بمجاعة من أسرى المسلمين ، فلو كففنا عنهم لقاتلونا وغلبوا على دار الإسلام ، وقتلوا المسلمين ، ولو رمينا الترس لقتلنا مسلما معصوما الدم لم يقترب ذنبا ، فالمصلحة تقتضى القتال ، ولو قتل أسرى المسلمين ، لأن مقصود الشرع تقليل القتل ، أو حسمه عند الإمكان ، وفى مقاتلة الكفار تحقيق ذلك ، لأنه إذا كففنا قتلوا المسلمين ثم قتلوا الأسرى ، ولئن لم نقدر

«١» قال الأستاذ الحضرى فى تاريخ التصريح : ومحل النزاع فى العمل بها إذا صادمت دليلا آخر من نص أو قياس ، كماقال : ولاخلاف فى اتباعها إلا عند ما تعارضها مصلحة أخرى ، وعند ذلك يكون الخلاف فى ترجيح إحدى المصلحتين - ولم أر هذا التفصيل لغيره ، والظاهر أن ذلك استنتاج من العلامة الحضرى - ذهب إليه بعد اطلاعه على رأى الغزالى فى المصالح المرسلة الذى يسطه فى كتابه المستصق ، وعلى رأى غيره من الأصوليين .

«٢» وليس المراد بالقطعى ما لا يتصور خلافة ، بل استظهر الحضرى فى أصوله أن مراد الغزالى منه : ما يطلب على الظن بدليل ما أورده من الأمثلة .

على الجسم لقد قدرنا على التقليل ، فكان ذلك التفاتاً إلى مصلحة علم بالضرورة كونها مقصودة للشرع .

فإذا لم تكن المصلحة كلية لم تعتبر - كما إذا أشرف جماعة في سفينة على الغرق ، ولو ألقى بعضهم في اليم لنجوا - فلا يجوز إغراق بعضهم (١) ، لأن المصلحة ليست كلية ، فإن من سيهلك عدد محصور ، ولأنه لا يتعين أحد للإغراق ، إلا أن يتعين بالقرعة ، ولا أصل لها - كذلك إذا كانت المصلحة غير ضرورية ، أو غير قطعية ، كما لو ترس الكفار في قلعة بمسلم ، ولم يكن فتحها ضرورياً ، أو شككنا في تسلط الكفار عند عدم رمي الترس ، أو لم نقطع بظفرنا عند الرمي - فلا يحل في هذه الأحوال رمي المسلم الذي ترس به العدو في القلعة .

القول الرابع : جواز العمل بها والاعتداد عليها في التشريع « وإن لم تتحقق الأوصاف والقيود التي سلف ذكرها في القولين الثاني والثالث » . وهذا الرأي هو المروى عن مالك ، فقد كان يعتمد كثيراً في أحكامه الاجتهادية على ما تقتضيه به المصالح الراجحة ، أو دفع المضار والمفاسد الجائحة ، ومن أمثلة ذلك : الضرب بالتهمة للاستنطاق بالسرقة ، فقد قال بجوازه مالك ، وخالفه غيره ، لأن هذه مصلحة تعارضها أخرى ، وهي عدم إيذاء المضروب ، لأنه ربما يكون بريئاً ، ولعل مالكاً لا يقول بجواز تعذيبه إلا إذا كانت التهمة قوية بأن حفت بها قرائن ترجح ثبوتها ، فالإمام مالك في هذه الحالة قد رجّح مصلحة المحافظة على الأموال ، ودفع العدوان عن الناس ، وأمنهم على أموالهم - رجّح ذلك على مصلحة المضروب ، ومثله إجازته سجن المتهم . ومن ذلك أيضاً : زوجة المفقود إذا لم تعلم خيانه ولا موته ، وقد انتظرت سنين ، وتضررت بالعزوبة ، فقد أخذ مالك برأى عمر فيها ، فقال : يجوز لزوجة المفقود أن تتزوج بعد أربع سنين من انقطاع الخبر - مراعاة لمصلحتها ، وإبعاداً للعنت والفتنة والفساد عنها ، وقد رجّح ذلك على مصلحة الزوج الغائب (٢) .

«١» وقد يناقش هذا المثال فيقال: أليس إغراق بعضهم أيسر حالا من إغراق الجميع؟

«٢» تاريخ التشريع للخصري ص ٢٥٤ طبعة الاستقامة .

غير أن بعض العلماء كإمام الحرمين الجويني عاب على مالك إفراطه في القول بها ، حتى اضطر بعض المالكية - ومنهم القرطبي - إلى نفي القول بها عن مالك ، وليس كلا الرأيين بسديد : فإن مالكا اعتمد عليها ، ولم يكن اعتمادها عليها تحكما ، ولا قولاً في التشريع بلا حجة ، كما أنه لم ينفرد بالقول بها ، بل شاركه فيها كثير من الأئمة والفقهاء ، فقد كانوا يقولون أحياناً في استنباطهم عليها ، وإن كانوا يختلفون في ذلك قلة وكثرة - قال ابن دقيق العيد : « الذي لاشك فيه أن لمالك ترجيحاً على غيره من الفقهاء في هذا النوع ، ولبه أحمد بن حنبل ، ولا يكاد يخلو غيرهما عن اعتباره في الجملة ، ولكن لهما ترجيح في الاستعمال لهما على غيرهما . » وقال القرافي : « هي عند التحقيق في جميع المذاهب لأنهم يقيسون ويفرقون بالمناسبات (١) . وما بالناس نذهب بعيداً ، وقد كان الصحابة والتابعون إذا لم يجدوا في الحادثة نصاً معيناً في الكتاب ، أو السنة - يفرعون إلى الرأي ، وهو على ما يظهر من فتاويهم الحكم بناء على مقاصد الشرع ، والقواعد العامة للدين ، والعمل بما يروونه مصلحة ، وأقرب إلى روح التشريع الإسلامي (٢) . »

ومن أمثلة ذلك : قضاء الصحابة بتضمين الصناع إذا ادعوا ضياع ما دفع إليهم ، من نحو ثوب لحياطته ، أو صبغة ، ولم يقيموا البينة على تلفه بدون تعديهم ، فيقضى عليهم بالضمان أخذاً بقاعدة المصالح المرسلة ، حتى لا تضيع أموال الناس وهم في حاجة شديدة إلى الصناع (٣) ، ولهذا روى عن علي كرم الله وجهه قوله : « لا يصلح الناس إلا ذاك ، يقصد تضمين الصناع - كذلك استند بعض من رأى من العلماء قتل الجماعة بالواحد - إلى تلك القاعدة . »

وحسبك في هذا عمر بن الخطاب ، فإنه اعتبر هذه المصالح في كثير من أحكامه الاجتهادية فقد أسقط الحد عن السارق عام الجماعة ، كما أسقط سهم المؤلفة قلوبهم

« ١ » غير أن تحقيقها يحتاج إلى نظر سديد ودقة في فهم مقاصد الشرع حتى لا ينجف المستلطف عن طريقه ، كذلك المصالح المرسلة معتبرة مادامت لاتمود على نفس صريح محكم بالإبطال .

« ٢ » تاريخ التشريع ص ١٤١ ، ٢١١ .

« ٣ » الجزء الثالث ، من رسائل الإصلاح .

مع أن القرآن عديم من مستحق الزكاة معتمداً في ذلك على أن الله تعالى أعز الإسلام وأغنى عنهم ، وترك التغريب في الزنا بعد أن لحق أحد المغربين بالروم متنصراً ، وجعل الطلاق الثلاث بكلمة واحدة ثلاثاً بعد أن كان واحدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعهد أبي بكر ، وصدر من خلافته (١) .

من هذا البحث يتبين أن الأخذ بالمصالح المرسلة في التشريع يدل بأقوى دلالة على أن المجتهد الإسلامي واسع الأفق ، متشبع بروح التشريع ، فلا تضيقه أحيانا مخالفة حرفية النص مادام قد حافظ على روحه ومقصده - لتحقيق المصالح الراجحة ، ومراعاة الضرورات ، والمحافظة على مقاصد الشرع ، وتطبيق العدالة في أسنى صورها على ما يبدو له بعد المقابلة والترجيح (٢) .

وجملة القول أنك إذا نظرت إلى أصول الفقه الإسلامي التي بسطنا القول فيها من الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس ، والاستحسان ، والمصالح المرسلة ، وغيرها ، وقابلتها بأي تشريع آخر - اتضح لك أن الشريعة الإسلامية سمحة واسعة الأكثاف ، كفيلة بتحقيق العدالة ، وتوفير أسباب الأمن والطمأنينة ، والسعادة للناس ، كما يتضح لك أيضاً أن من أسباب خلودها وبقائها - جعل القياس والاجتهاد بالرأى ، والأخذ بالمصالح المرسلة أساساً للتشريع فيها ، فإن ذلك يجعلها متجددة على الدوام ، مراعية لمصالح الناس التي قد تختلف باختلاف العصور والأمم ، وهذا هو السبب في أنها لم تتعرض للحوادث الجزئية إلا قليلاً ، وفتحت باب الاجتهاد ، وفوضت الرأي فيها إلى المجتهدين ، يلاحظون فيها الأصول الشرعية والمصالح المرحية ، ويطبقون عليها مبادئ العدالة والإنصاف ، وذلك سر خلودها وبقائها على مر الأحقاب ، وتعاقب الأعوام ، تسير تطور الأمم ، واختلاف الزمن ، على الرغم من الجلود الذي أصابنا ، والعقم الذي انتابنا ، فأصولها ما برحت قوية مشرقة ، وصوتها لا يزال قويا يهيب بنا أن نؤبوا إلى تجرد المعين الصافي ، والمنهل السيخ ، فهل نحن مجيئون ١٩ .

«١» الأصول للخصري ص ٣٩١ الطبعة الرحمانية .

«٢» راجع في هذا البحث : تاريخ التشريع ، وأصول الفقه للخصري ، وإرشاد النحول للفوكاني ، والمستغنى للقرالي ، ورسائل الإصلاح .

الباب الثالث

أسباب اختلاف العلماء في الأحكام الشرعية

قد يظن الإنسان بادئ الرأي أنه لا مسوغ لوجود الخلاف ، والمذاهب المتقابلة في شريعة إلهية ، قد نص على أصولها ، وكثير من قواعدها وأحكامها في كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، فقيم إذن هذا الاختلاف ؟ ولم تلتفت هذه الأحكام المختلفة في كتب الفقه تروى ؟ ولم نجد آراء العلماء والمجتهدين وأدلتهم في كتب أحاديث الأحكام وآياتها تتناول وتبسط ؟ .

ولست تجد هذا التعدد في المذاهب ، وذلك الاختلاف في الرأي ، مقصوراً على أئمة الفقه الذين نشئوا بعد عصر الصحابة ومن يلونهم ، بل تجد الصحابة أنفسهم قد اختلفت آراؤهم في كثير من المسائل :

فن ذلك : ما رواه مسلم وأحمد ، عن ابن عباس قال : « كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وستين من خلافة عمر ، طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر : إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه عليهم . وخالفه في ذلك عليّ وأبو موسى .

وكان زيد بن ثابت يقاسم بين الجد والإخوة ، وكذلك عليّ ، وابن مسعود ، وإن اختلفت طرائقهم في المقاسمة ، أما أبو بكر فإنه رأى الجد كالأب يحجب الإخوة ، فلا إرث لهم معه .

وكان عمر بن الخطاب يرى أن عدة الحامل المتوفى عنها زوجها تنتهي بوضع حملها ، في حين أن علي بن أبي طالب يقول : إنها تعتد بأبعد الاجلين : من وضع الحمل ، ومضى أربعة أشهر وعشر - وكان علي يرى إخراج الزكاة عن أموال اليتامى

الذين هم في حجره ، وغيره يقول : ليس في مال اليتيم زكاة - إلى غير ذلك من الآراء والأحكام المروية عن الصحابة ، ثم اتسعت بعدهم دائرة الخلاف ، وكثرت الآراء والمذاهب التي انتضحت بها قرائح المجتهدين في القرنين الثاني والثالث - فما أسباب هذا الاختلاف ؟ وما علة هذا التعدد ؟ .

لقد حاول كثير من العلماء في مختلف العصور بحث هذه الأسباب ، وبيان موجبات هذا الاختلاف ، حتى أفردوا بعضهم بالتأليف ، ومن هؤلاء : أبو محمد عبد الله البطليوسي الأندلسي المتوفى سنة ٥٢١ هـ . فقد ألف كتاباً في هذا الباب ، اسمه الإنصاف في التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف ، ولكنه - مع فضله ونفعه وسبقه - لم يوف الموضوع حقه من دقيق البحث والتفصيل ، ولم يقصره على الخلاف الفقهي ، بل تجاوزه إلى الخلاف بين الفرق ، كما أنه لم يتناوله بروح الفقه والتشريع ، وإنما تناوله بروح اللغوى والنحوى والأدب ، حتى قال في مقدمته : « إن الطريقة الفقهية مفتقرة إلى علم الأدب ، مؤسسة على أصول كلام العرب ، وأن مثلها ومثله قول أبي الأسود الدؤلى :

فإن لا يكنها أو تكنه فإنه أخوها غذته أمه بلبانها (١)

ثم ذكر في صدر كتابه أن الخلاف عرض للسلبين من ثمانية أوجه ، كل ضرب من الخلاف متولد منها ، ومتفرع عنها :

الأول منها : اشتراك الألفاظ والمعاني .

الثاني : الحقيقة والمجاز .

الثالث : الإفراد والتركيب .

الرابع : الخصوص والعموم .

الخامس : الرواية والنقل .

السادس : الاجتهاد فيما لا نص فيه .

السابع : الناسخ والمنسوخ .

الثامن : الإباحة والتوسيع .

«١» جعل الزبيب أخاً للخمر لأن أصلهما الكرمة ، والبيت في وصف نبيذ الزبيب .

وهذه الأوجه التي عرض لها بالشرح والبيان هي موضوع ذلك الكتاب ، وفي الموضوع نفسه رسالة أخرى لشاه ولي الله الدهلوي ، اسمها الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف ، ولكنني عولت على نهج سبيل أخرى في استنباط هذه الأسباب وبيانها ، بعد أن رجعت إلى ما استيسر من كتب الفقه ، والأصول ، وأحكام القرآن ، وتاريخ التشريع ، وبعض كتب الحديث ، وكتاب الإنصاف المذكور ، فأقول :

لقد اختلفوا في الأحكام عامة ، سواء أكانت من الكتاب مستنبطة ، أم من السنة مستقاة ، أم إلى الرأي والقياس تعزى وتنسب ، وأسباب هذا الاختلاف كثيرة متشعبة ، وليس من اليسير استقراؤها وحصرها إلا بالتنقيح والبحث في كتب أصول الفقه وفروعه ، ولا يعنيننا حصرها ، والإتيان بها جميعها فيما نحن بصدد من هذه البحوث التشريعية ، إنما الذي يهمنا أن نأتي ببعضها ، كشاهد على ما لم يذكر منها ، وحسبنا إيراد بعض الأسباب والشواهد كدليل على حرية الرأي والاجتهاد لدى علماء التشريع الإسلامي الذين لم يتقيدوا إلا باتباع أصول شريعتهم ومبادئ العدالة في استنباطهم .

الفصل الأول

أسباب الاختلاف في أحكام القرآن

السبب الأول : اختلاف العلماء والمجتهدين في تفسير الألفاظ ، وفهم ما تدل عليه بسبب الاشتراك العارض فيها ، وهو نوعان :

(١) اشتراك يجمع معاني مختلفة متضادة ، كلقروء في قوله تعالى : « والمُطَلَّقاتُ يُتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » فذهب عثمان ، وعائشة ، وزيد بن ثابت - إلى أنها الأطهار ، وذهب عمرو ابن مسعود إلى أنها الحيض ، ولكل دليل وشاهد من الحديث واللغة (١) . فاختلف الفقهاء تبعاً لاختلاف الصحابة ، فأخذ العراقيون بقول ابن مسعود ، وأخذ الحجازيون برأى علماء الصحابة في المدينة .

ومثل ذلك : اختلافهم فيما يفرض مسح من الرأس في الرضوء ، من قوله تعالى : « وامسحوا برؤوسكم » . فالك يرى وجوب مسح الرأس كله ، والشافعي يوجب أقل ما يطلق عليه اسم المسح ، والحنفية قالوا : المفروض مسح بعض الرأس ، ولكن قدروه بالربع - وأصل الاختلاف في هذا الاشتراك الذي في الباء في كلام العرب (٢) ، وذلك أنها مرة تكون زائدة ، كما في قوله تعالى « تلبت بالدهن » ، على قراءة من قرأ (تَلَبَّيْتُ) بضم التاء وكسر الباء من أنبت ، ومرة تدل على التبعية ، كما في قول القائل : أخنت بثوبه وبعضه - فالك اشترط الاستيعاب

«١» راجع الإنصاف للبطلبوسى .

«٢» الجزء الأول من بداية المجتهد ص ١٠ طبعة سنة ١٣٣٩ هـ .

إما احتياطا ، وإما لأن الباء زائدة ، والشافعي اكتفى بأدنى ما يطلق عليه اسم المسح ، لأن الباء للتبويض ، والمسح في الآية مطلق لا يحمل فأخذ بالآقل المتيقن ، والخفية قال محققوهم : إن الباء للإلصاق ، وهو المعنى المجمع عليه لها بخلاف التبويض ، فإن المحققين من أئمة العربية ينفون كونه معنى مستقلا للباء ، بخلاف ما إذا جاء في ضمن الإلصاق ، كما في هذا الموطن ، فتكون الباء داخلة - تقديرا ومعنى - على آلة المسح وهي اليد ، وهي لا تستوعب الرأس ، وحينئذ يتعين الربع ، لأن اليد إنما تستوعب قدره غالبا فلم (١) .

وذهب جل علماء الحنفية إلى أن الآية مجملة في مقدار ما يمسح من الرأس ، فينبه ما روى من أنه عليه الصلاة والسلام توضأ ومسح على ناصيته ، وهي مقدرة بربع الرأس .

(ب) اشتراك يقع على معان مختلفة غير متضادة ، وذلك نحو قوله تعالى : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا . أَنْ يُقَتَّلُوا ، أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ ، وَأَرْجُلُهُمْ ، مِنْ خِلَافٍ ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ » فذهب الحسن البصري ، وعطاء ، ومالك ، إلى أن كلمة

(أ) في الآية للتخيير ، وعلى ذلك فالإمام عندهم مخير في هذه العقوبات ، يفعل ما شاء منها بقاطع الطريق ، وذهب آخرون إلى أن (أ) للإفراد والتفصيل ، فمن قتل ولم يأخذ المال ، يقتل ، ومن حارب وقتل وأخذ المال ، يصلب ، ومن أخذ المال ولم يقتل ، تقطع يده ورجله من خلاف ، ومن اقتصر على الإخافة ينفي من الأرض ، وهو قول أبي حنيفة والشافعي - كذلك اختلفوا في معنى النفي : فقال الحجازيون : ينفي من موضع إلى موضع ، وقال العراقيون : يسجن ويحبس (٢) .
الثاني : اختلافهم - بوجه عام - في فهم النصوص القرآنية ، وإن لم يكن ذلك بسبب الاشتراك - ومن أمثلته : اختلافهم في حكم الإيلاء (٣) ، إذا

« ١ » الجزء الأول من فتح القدير ص ١١ طبعة بولاق الأميرية .

« ٢ » الإنصاف للبطلبوس .

« ٣ » هو أن يحلف الرجل على ترك قربان زوجته أربعة أشهر فصاعداً . ٢٠٢

مضى على المولى أربعة أشهر بدون فيه (١) . فقيل : تطلق المرأة بمضى المدة من غير فيه ، وقيل : يطالب الزوج عند انتهائها : إما بالنفي ، وإما بالطلاق ، والنص الوارد في الإيلاء يحتمل هذين الرأيين ، وهو قوله تعالى : « الَّذِينَ يُؤْثِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثَرْبَئِصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

الثالث : ورود آيتين بحكمين مختلفين ، يظن أنهما متعارضتان في بعض مآتدلان عليه ، فتختلف المدارك في الاستنباط - ومن أمثلة ذلك : معتدة الوفاة ، فقد ورد فيها قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، وَوَرَدَ فِي الْحَامِلِ قَوْلُهُ جَلَّ شَأْنُهُ : « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » . فإذا كانت معتدة الوفاة حاملا - فبأي شيء تعتد ؟ : رأى على رضى الله عنه أن تعتد بأبعد الاجلين عملا بالآيتين ، ورأى عمر أن الآية الثانية مخصصة للأولى ، فقال : عدتها تنتهى بوضع الحمل .

الرابع : ماقرر من الارتباط والصلة بين القرآن والسنة إن ورد ما في الأول مطلقاً ، أو مجملاً ، أو عاماً ، ثم رويت في موضوعه أحاديث ، فيختلف العلماء في بيانها له ، وفي الجمع بينهما ، فيرى بعضهم تقييد المطلق ، وتخصيص العام ، ويرى بعضهم غير هذا الرأي .

ولنوضح ذلك بهذين المثالين :

(١) قال الله تعالى في حد الزنا من سورة النور : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » . وهذا النص عام يشمل المحصن (٢) وغير المحصن - فذهب الخوارج وبعض المعتزلة كالنظام وأصحابه - إلى أن الجلد في الزنا الجلد ليس غير ، وأنكروا الرجم لعدم ذكره في كتاب الله ، وقالوا : إن ماورد من أن الثيب الزاني يرجم خبر واحد ، وهو ليس بحجة عندهم ، فعملوا بعموم آية

«١» الفء : الرجوع في اليقين بالحنث .

«٢» المحصن : المتزوج بشروط مذكورة في كتب الفقه .

سورة النور ، ولم يخصصوها بغير المحصن - وذهب جمهور العلماء والفقهاء إلى أن عقوبة الزاني المحصن الرجم حتى يموت ، وقال بعضهم : يجلد ثم (١) يرمي - احتجوا بأن الرجم ثابت بالسنة ، فإنه عليه الصلاة والسلام رجم ماعزا وقد أحسن ، وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود : « لا يجلد دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » . وهو حديث مشهور ، وعلى ذلك خصوا الآية بغير المحصن ، لما ثبت في السنة من رجم المحصن .

وقد رد على الخوارج ابن المهام الحنفى - بأن رجم المحصن ثابت - أولاً - بإجماع الصحابة عليه ، وثانياً - بأن ثبوت الرجم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - متواتر المعنى كشجاعة على ، وجود حاتم ، وأخبار الآحاد إنما هي في تفصيل صوره ، أما أصل الرجم ومعناه فثابت بالتواتر ، والخوارج يوجبون العمل بالتواتر معنى ، أو لفظاً ، كسائر المسلمين ، إلا أن انحرافهم عن الاختلاط بالصحابة والمسلمين ، وعدم ترددهم على علماء المسلمين ، ورواة الحديث أوقعهم في الجبل (٢) ، وقال أبو بكر الرازي في أحكام القرآن : قد أنكرت طائفة شاذة الرجم وهم الخوارج ، مع أن الرجم قد ثبت عن الرسول بفعله ، ونقل الكافة (٣) ، والخبر الشائع المستفيض ، الذى لا مساغ للشك فيه ، وأجمعت الأمة عليه .

(ب) قال الله تعالى في حد السرقة : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا ، نكالا من الله » . والآية مطلقة ، أو بحملة ، لم تبين المقدار المسروق الذى يحد فيه ، فنشأ من ذلك اختلاف العلماء :

فذهب بعض قليل منهم إلى إجراء الآية على إطلاقها وعمومها ، فقال بالقطع

١٠٠ عملاً بالقرآن والسنة .

٢٠٠ ج ٤ فتح القدير ص ١٢١، ١٢٢ ، وانظر نيل الأوطار للشوكاني .

٣٠٠ المشهور عند أكثر علماء الفقه أن (كافة) لا تدخل عليها أل ، ولا تضاف .

في كل ماله قيمة ، وإن قلّ ، وهو رأى الخوارج ، ودلود الظاهري ، والحسن البصري في إحدى الروايات الثلاث عنه - عملاً بظاهر الآية .

وغير هؤلاء من فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار - على أنه لا قطع إلا بمال مقدر ، وأن الآية مجملة من جهة التقدير ، تحتاج إلى بيان ، فلا يصح من أجل ذلك اعتبار إطلاقها وعمومها في إيجاب القطع في كل مقدار .

استدلوا على إجمالها ، وامتناع إرادة عمومها بما رواه عامر بن سعد ، عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يُقطعُ يدُ السارقِ إلا في ثمنِ المِجْنِ » ، كما روى عن عائشة أن النبي صلوات الله وسلامه عليه قال : « لا يُقطعُ يدُ السارقِ إلا فيما بلغ ثمنَ المِجْنِ فأفوقه » . وروى « أدنى ما يُقطعُ فيه السارقُ ثمنُ المِجْنِ » .

ولكنهم اختلفوا في تقدير أقل المال الذي يقطع فيه ، وفي تقويم المِجْنِ الذي قطع فيه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي دلت الروايات السابقة على أنه لا قطع فيما هو أقل من قيمته :

فذهب الحنفية ، ومعهم جماعة من التابعين - إلى أنه عشرة دراهم ، لما رواه الترمذي في جامعه عن ابن مسعود : « لا قطع إلا في دينار ، أو عشرة دراهم » . كما رواه أن المِجْنِ الذي قطع فيه النبي صلى الله عليه وسلم - قوم بعشرة دراهم ، وقال عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وعمر بن عبد العزيز ، والليث ، والشافعي : لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار ، أو فيما قيمته ذلك - لقوله عليه السلام : « لا يُقطعُ يدُ السارقِ إلا في رُبْعِ دينار فصاعداً » - وذهب مالك وأحمد إلى أنه ربع دينار ، أو ثلاثة دراهم ، لحديث ابن عمر : أن رسول الله قطع سارقاً في مِجْنِ قيمته ثلاثة دراهم ، وكانت قيمة الدينار على عهد الرسول - كما قال الشافعي - اثني عشر درهماً ، فتكون الثلاثة ربعها .

فهنا اختلافان : الأول : أفي القليل والكثير يقطع ، أم لا بد من تقدير حد معين لا يقطع في أقل منه ؟ - ومنشأ هذا الاختلاف أن بعض العلماء أخذ بعموم

الآية وإطلاقها ولم يثبت عنده ماورد من اشتراط قدر معين من المال ، والجمهور قيدوا إطلاق الآية ، وخصصوا عمومها بما صح عندهم من الآثار ، وبما نقل من إجماع الصحابة على ذلك - (على ما ذكره صاحب الفتح) ..

والاختلاف الثاني : اختلافهم في تقدير النصاب الذى تقطع فيه اليد على الرأى القائل باشتراطه ، ومنشؤه اختلاف الروايات من جهة ، واختلاف الصحابة في تقويم ثمن المجن الذى قطع فيه الرسول من جهة أخرى : أثلاثة هو ، أم عشرة ، أم غير ذلك ؟ فأخذ مالك بالأقل ، لأنه المتيقن ، وأخذ الحنفية بالأكثر ، اتباعاً لقاعدة : ادرموا الحدود ما استطعتم - وهذا لأن في الأقل شبهة عدم الجنائية ، وهى دائرة للحد .

والذى تطمئن إليه النفس بعد الاطلاع على مختلف الروايات والآراء في هذه المسألة التى روى فيها القرطبي سبعة أقوال - أنه يوجد مايقرب من الاتفاق بين العلماء على أن اليد لا تقطع فى الشيء الثافه ، وأنه لابد لتحقق السرقة المترتب عليها القطع من تعيين حد أدنى لقيمة المال الذى يقطع فيه ، أما تعيين هذا الحد بثلاثة أو خمسة ، أو عشرة ، أو درهم واحد ، فلم يوجد فيه ما تطمئن النفس إليه ، فليكن ذلك متروكا لأهل الذكر والاجتهاد فى كل عصر ، يراعون فيه مقتضى الاحوال ، وما يزدجر به الناس (١) .

الخامس : أن يرد نص قرآنى بحكم فى حادثة موصوفة بوصف معين ، ونص ثان بحكم آخر فى مثل تلك الحادثة موصوفة بغير ذلك الوصف - فبعض العلماء يقتصر فى كل من الحادثتين على حكمها الذى نص عليه من غير زيادة ، وبعضهم يوجد ارتباطاً بينهما من طريق القياس ونحوه ، وقد يروى من يقول بذلك حديثاً يؤيد به وجهة نظره ، فيرى الآخر تأويله أو عدم ثبوته عنده ، يوضح ذلك أن آيات القتل العمد أوجبت القصاص ، ولم تذكر وجوب الكفارة - كما فى قوله

١٥ راجع أحكام القرآن للرازى ، وفتح القدير ج ٤ مبحث السرقة ، وتفسير

تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقصاصُ فِي الْقَتْلِ ، . وآية القتل خطأ أوجبت مع
الدية الكفارة : « وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمَنَةٍ ، وَدِيَةٌ
مُسَلَّمةٌ إِلَى أَهْلِهِ ، إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ، .

فرأى بعض الفقهاء ومنهم الشافعي - أن على القاتل عمداً الكفارة ، لأنه لما
وجبت في القتل الخطأ - فهي في العمد أوجب ، لأنه أغلظ ، كما استدلوا بحديث
ضمرة « أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صاحب لنا قد أوجب - يخنى النار
بالقتل - فقال : أعتقوا عنه . . . إلى آخره ، . ورأى بعضهم ، ومنهم الحنفية : أنه
لا كفارة في القتل العمد ، لأن كل نوع من القتلين مذكور بعينه ، منصوص على
حكمه ، فلا يجوز لنا أن تتعدى مائص الله تعالى عليه ، وقياس المنصوصات بعضها
على بعض غير جائز ، كما أن الكفارات كالحدود لا يجوز إثباتها قياساً ، لأن
طريقها التوقيف ، أو الاتفاق ، والحديث المذكور لم يعملوا به ، لأنه - في رأيهم -
قد روى من طريق آخر أصح وأثبت ، ولم يذكر فيه : « أنه أوجب النار
بالقتل (١) .



الفصل الثاني

أسباب الاختلاف في أحكام السنة

إذا كان الاختلاف في أحكام القرآن ممكناً ، وقد حدث على النحو الذي أسلفنا - فهو في السنة أكثر وقوعاً ، وأقرب تصوراً ، لأنه لم يشرع في تدوينها إلا في العصر الأموي ، وكانت موزعة على روايتها من الصحابة ، ومن تلقى عنهم من التابعين ، ولم يستقل أحد بعلمها ولا بحفظها ، بل كان عند كل واحد منهم ما ليس عند الآخرين ؛ وبعضهم مقل ، وبعضهم مكتر - هذا إلى أن الصحابة تفرقوا في الأقطار الإسلامية ، ثم تفرق المسلمون وانقسموا أحزاباً ، ودخل في الإسلام من ليس مخلصاً له - فطرق الوضع إلى السنة ، فليس بدعا بعد هذا كله أن يحصل اختلاف في الأحكام المأخوذة منها - ولنوضح ذلك بذكر هذه الأسباب :

الأول : أن ما روى عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه - قد يكون متواتراً (١) ، وهذا في السنة القولية قليل ، أو لا يكاد يوجد ، وقد يكون غير متواتر ، وهو منازل ودرجات تختلف في القوة والضعف ، والصحة والحسن وغيرها ، أما الأول : فإن ثبت تواتره مع قلته ، فلا اختلاف في الأخذ به ، والرجوع إليه ، وأما غير المتواتر فقد يقع في بعض أنواعه الاختلاف بين العلماء ، فبعضهم ثبت لديه صحته ، فيأخذ بما جاء فيه ، وبعضهم لا يثبت عنده ذلك ، فيترك العمل به ، وقد يسمعه بعض الصحابة ، فيقضى به ، ولا يسمعه الآخر ، فيجتهد

«١» هو ما رواه جمع يمتنع تواطؤهم على الكذب من حيث كثرتهم .

ويقتضى بما يخالفه . كما وقع لعبد الله بن عمرو ، فإنه حكم - بناء على اجتهاده - بنقض الشعر للنساء عند الغسل ، فلما بلغ ذلك عائشة أنكرته ، وقالت : لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد ، وما أزيد على أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات (١) .

الثاني : اختلافهم في علة الحكم ، كقيام الرسول عليه الصلاة والسلام لجنازة مرت به ، فقيل : إن سبب ذلك أنها كانت جنازة يهودي ، فكره أن تعلق على رأسه ، فقام ، وعلى ذلك فالقيام للجنازة غير مطلوب ، ولا مستحب ، وليس هو بحكم عام - وقيل : كان ذلك لإجلال الأمر الموت ، ولأن بيده الموت ، وهو الله سبحانه وتعالى ، أو لتعظيم الملائكة ، وعلى ذلك فالقيام حكم عام (٢) ، وهو مستحب ، وإن كان القعود جائزاً - ومن العلماء من قال : إن القيام كان مشروعاً بالسنة ، ثم نسخ بالسنة أيضاً (راجع نيل الأوطار) .

الثالث : اختلاف الأحاديث الواردة في الموضوع ، فيأخذ كل مجتهد بما يقف عليه منها ، أو يصح عنده بعضها دون بعض . قال عبد الوارث بن سعيد : قدمت مكة ، فألقيت بها أبا حنيفة ، فقلت : ما تقول في رجل باع يبعاً ، وشرط شرطاً ؟ فقال : البيع باطل ، والشرط باطل . فأنتيت ابن أبي ليلى ، فسألته عن ذلك ، فقال : البيع جائز ، والشرط باطل . فأنتيت ابن شبرمة ، فسألته عن ذلك ، فقال : البيع جائز ، والشرط جائز - فقلت في نفسي : سبحان الله !! ثلاثة من فقهاء العراق لا يتفقون على مسألة ، فعمدت إلى أبي حنيفة ، فأخبرته بما قال صاحبه ، فقال : ما أدري ما قال لك - حدثني عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع وشرط . فعدت إلى ابن أبي ليلى ، فأخبرته بما قال صاحبه ، فقال : ما أدري ما قال لك - حدثني هشام بن عروة ، عن أبيه ،

(١) أسرار الشريعة الإسلامية لإبراهيم علي . ونيل الأوطار ج١ ص ٢١٧ طبعة سنة ١٣٤٧هـ .
(٢) يشمل المسلم وغيره .

عن عائشة قالت : أمرني رسول الله أن أشتري بريرة فأعتقها ، فاشتراط أهلها الولاء لأنفسهم ، فقال رسول الله « خذوها واشترطوا لهم الولاء ، فإنما الولاء لمن أعتق ، ثم قال : ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل . » فالبيع جائز ، والشرط باطل . قال : فعدت إلى ابن شبرمة ؛ فأخبرته بما قال أصحابه ، فقال : ما أدري ما قال لك - حدثني مسعر بن كدام ، عن محارب بن دثار ، عن جابر قال : بعث للنبي بعيرا ، وشرط لي حملاته (١) إلى المدينة ، البيع جائز ، والشرط جائز (٢) .

ومن ذلك اختلاف الرواة في الحادثة الواحدة - وأوضح مثل لذلك اختلاف الرواة في الذي أحرم به النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : أهو الحج فقط ؟ فيكون مفرداً ، أم العمرة ثم الحج ؟ فيكون متمتعاً ، أم الحج والعمرة ؟ فيكون قارناً ، ولهذا اختلف الفقهاء في الأفضل : الإفراد ، أم القران ، أم التمتع ؟ الرابع : قد يرد من الحديث ما يصح عند قوم ، ولا يصح عند آخرين ، أو يشترط قوم لصحة الحديث ، والعمل به شروطاً كثيرة ، فإذا لم تتحقق فضلوا عليه القياس ، ولا يشترط قوم هذه الشروط ، ويفضلون الحديث على القياس ، فيترتب على ذلك اختلاف في الأحكام .

الخامس : قد يعرض الخلاف من قبل الإباحة والتوسيع على العباد - كالذي ورد من مختلف الروايات في صيغة الأذان والإقامة ، وفي تكبيرات العيدين والجنائز ، فاختلف الفقهاء تبعاً لذلك في صفتها وعددها وطريقة أدائها (٣) .

«١» المراد : الحمل عليه ، وفي لفظ لأحمد والبخاري : وشرطت ظهره إلى المدينة .

ج . من نيل الأوطار .

«٢» راجع الإنصاف في التنبيه على أسباب الاختلاف للبطليوسي ص ٧٠ طبعة الموسوعات

وهامش ص ٧١ .

«٣» المصدر السابق ص ١٣٠ .

الفصل الثالث

أسباب الاختلاف المشتركة بين أحكام القرآن والسنة

هنالك أسباب للاختلاف مشتركة بين أحكام القرآن والسنة ، منها :

أولاً: اختلاف نظر العلماء في مدى تأثير النهي على العقود إن كان النهي لمعنى في غير العقد ، ولم يتعلق بمعنى في نفسه ، وقد يكون الاختلاف لأن بعضهم يراعى مع النص الخاص الذى يدل على المنع نصاً عاماً مبيحاً ، فيجمع بينهما ، والآخر لم يراع إلا النص المانع ، فيقف عندما يقتضيه - ومن أمثلة ذلك النهي عن البيع وقت النداء للصلاة الجمعة ، والأمر بتركه في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ، وَذَرُوا الْبَيْعَ » . فالحنفية والشافعية ذهبوا إلى أن البيع يقع مع النهي ، واستند الحنفية في ذلك إلى عموم قوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ » . فيها يصح البيع ، وينتج حكمه ، ويترتب عليه أثره من الملكية ، كما أخذوا بالآية الأولى ، فقالوا بكراهة البيع التحريمية وقت النداء ، واستدلوا أيضاً على رأيهم بأن النهي عن البيع وقت النداء ليس لمعنى في نفس العقد (بفقد ركن من أركانه ، أو لعدم المحلية) بل لمعنى في غيره ، وهو الاشتغال عن الصلاة ، وذلك لا يمنع وقوعه وصحته ، كالبيع في آخر وقت صلاة يخاف فوتها إن اشتغل به ، وهو منهي عنه ولا يمنع ذلك صحته ، والمشهور عن مالك القول بفسخ البيع ، وعدم صحته وقت النداء عملاً بالنهي في

الآية الأولى الذي يقتضى فساد المنهى عنه ، وإن كان لمعنى خارج عن العقد ، وهو رأى أهل الظاهر (١) .

ثانيا : التعارض (٢) في النصوص ، فبعض العلماء يرى الجمع بينها ، والعمل بها جميعها إن أمكن ، وبعضهم يتجه إلى التأويل ، والتوفيق بينها بالرأى والاجتهاد ، فإن لم يستطع ذلك ، رجح القول بالنسخ ، فيعمل بالناسخ دون المنسوخ - ومن أمثلة ذلك :

(١) الزانى المحصن : فقد ورد في حده حديث عبادة بن الصامت ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : «خُذُوا عَنِّي ، خُذُوا عَنِّي ، قد جعل اللهُ لهنَّ سبيلا : الْبَكْرُ بِالْبَكْرِ جَلْدُ مائَةٍ ، وَنَفْيُ سَنَةٍ ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مائَةٍ وَالرَّجْمُ » .

هذا الحديث يشير إلى عقوبة الزنا في أول الإسلام : فقد كان حد المرأة الحبس والأذى (٣) بالتعير ، وكان حد الرجل الأذى (٤) دون الحبس - عملا

«١» راجع الجزء الثالث من أحكام القرآن للرازي ، وبداية المجتهد لابن رشد .
«٢» يقرب من هذا السبب الذي سميناه التعارض في النصوص - ما ذكره البطلاني في كتابه الإنصاف ص ٦٨، ٦٧، ٦٦ - أن من أسباب الاختلاف الأفراد والتركيب ، قال : وهو باب قد تولدت منه بين الناس أنواع كثيرة من الخلاف ، وهو يحتاج إلى تأمل شديد ، وحذق بوجوده القياس ، ومعرفة تركيب الألفاظ ، وبناء بعضها على بعض ، فربما أخذ بعض الفقهاء بمفرد الآية ، أو بمفرد الحديث ، وينتج بعضهم الآخر إلى الجمع بين الآيات المقترفة ، وبين الأحاديث المتفارقة ، وبناء بعضها على بعض ، فبأخذ بمجموع آيات ، أو بمجموع أحاديث ، ومن هنا نفى بهما الحال إلى الاختلاف في الأحكام . انتهى بئىء من التصرف والتلخيص .
«٣» فسر الأذى بالتوبيخ والتعير ، وقيل : هو السب والجلاء دون تعير ، وقيل : هو النبيل باللسان ، والضرب بالنعال .

«٤» لأن الرجل يحتاج إلى السعى والاكتساب . وهذا الرأى الذى ذكر في الأصل هو أحد الوجوه التى ذكرها العلماء فى تأويل آيتى سورة النساء ، وعلاقتهما بآية سورة النور - راجع كتب التفسير .

بقوله تعالى في سورة النساء : « وَاللّٰقِي يٰٓأَيُّهَا النَّسَاءُ : » واللاقى يأتين الفاحشة من نسائك فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفأهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلاً ، واللذان يأتياها منكم فآذوهما ، فإن تابا وأصلحا ، فأعرضوا عنهما ، إن الله كان تواباً رحيماً . ثم صارت عقوبة غير المحصن الجلد ، لقوله تعالى في سورة النور : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » وعقوبة المحصن الرجم ، لحديث عبادة المذكور الذي جاء بعد حكم الحبس والأذى المذكورين في سورة النساء ، للتنبية على أن ما ذكره من العقوبات هو بيان للسبيل الذي جعله الله لهن (١) .

هذا الحديث رتب على زنا الثيب الجلد والرجم معا ، في حين روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه لم يجمع في ماعز والغامدية بين الجلد والرجم ، بل أمر بالرجم لحسب ، فاختلف العلماء لذلك : فذهب بعضهم إلى أن حديث عبادة منسوخ ، وأن حد الزاني المحصن الرجم فقط ، وذهب الظاهرية وأحمد في رواية عنه إلى الجمع بين الجلد والرجم ، لأنهم لم يروا نسخ هذا الحديث ، ولما روى أن علياً جلد شراجة ثم رجمها ، وقال : جلدها بكتاب الله ، ورجمها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(ب) البكر إذا زنى : فقد وردت في عقوبته هذه الآية : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » . وورده حديث عبادة الذي مضى ذكره « البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة » . فالآية اقتضت على الجلد ، ولم تذكر النفي ، والحديث جمع بينهما - فذهب الشافعي ، وأحمد ، والثوري ، والأوزاعي ، إلى أنه في البكر يجمع بين الجلد والنفي - والحنفية قالوا : يجلد ولا ينفي ، عملاً بالآية ،

« ١ » وعلى هذا يكون الحكم الذي ذكر في سورة النساء محدوداً بنافذة ، هي أن يجعل الله لهن سبيلاً ، وبيان ذلك السبيل في آية النور ، وفي حديث الرجم يكون ذلك الحكم قد انتهى ، ولذلك قال القرطبي : إطلاق المتقدمين النسخ على مثل هذا تجوز - كما قال بعض العلماء إن الأذى والتعير باق مع الجلد لأنهما لا يمارضان ، وأما الحبس فممنوع بإجماع « راجع آراء العلماء والمفسرين - في الجزء الخامس من تفسير القرطبي » .

إلا إذا رأى الإمام نفيه ، فإذا رأى ذلك كان نفيه تعزيراً وليس بحمد ، وذلك لأن الآية في رأيهم نسخت حديث عبادة الذي جمع بين الجلد والنفي (١) .

ثالثاً : اختلافهم في عموم النصوص وخصوصها ، فقد ترد في القرآن أو الحديث نصوص يتفق الجميع على عمومها ، أو على خصوصها ، وقد ترد نصوص أخرى محتملة ، فيقع فيها الخلاف - قال البطليوسي : ومن هذا الباب قوله تعالى : ولا إكراه في الدين ، قال قوم : هي خاصة بأهل الكتاب ، لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية ، وقال قوم : هي عامة ، وإن زعموا نسخها بقوله عز وجل في سورة التوبة : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغْلُظْ عَلَيْهِمْ » ، وأوضح من ذلك وأصح - التمثيل بما سبق ذكره في أسباب الاختلاف في أحكام القرآن ، وهو قوله تعالى في عدة المتوفى عنها زوجها « والذين يُتَوَقَّؤْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِنَّ أَرْبَعَةً أَشْهُرٍ وَعَشْراً » ، فقد رأى بعضهم بقاءها على عمومها ، فتشمل الحامل وغيرها ، ولذلك قال : إن الحامل المتوفى عنها زوجها تعتمد بأبعد الأجلين ، فإذا وضعت قبل مضي المدة المنصوص عليها في الآية وجب أن تترخص حتى تمضي ، وذهب بعضهم إلى أنها لم تبق على عمومها ، وأنها مخصوصة بغير الحامل لقوله تعالى « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » ، فرأى انقضاء عدة الحامل المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل ، وإن لم يمس عليها أربعة أشهر وعشرة أيام .

رابعاً : اختلافهم العارض من قبل النسخ ، فإن من العلماء من ينكره ، ومنهم من يثبت ، كذلك اختلف المثبتون له في أمور ، منها : اختلافهم في نسخ السنة للقرآن : أيجوز أم لا ؟ ومنها اختلافهم في نصوص من القرآن والحديث ، فيذهب بعضهم إلى القول بنسخها ، ويرى بعضهم عدم نسخها ، وكل ذلك مما يترتب عليه اختلاف الأحكام (٢) .

«١» راجع الهداية ، وفتح القدير ، ونيل الأوطار ، وأحكام القرآن للرازي .

«٢» الإنصاف للبطليوسي ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

وأمثلة ذلك معروفة مشهورة ، قد سبقت الإشارة إلى بعضها .

خامساً : اختلافهم في حمل الكلام على الحقيقة أو المجاز ، ومن ذلك : لفظ " كاح الذي اختلف فيه ، فقيل : إنه مشترك اشتراكاً لفظياً بين الوطء والعقد ، وقيل : موضوع للضم الصادق بالعقد والوطء ، فهو مشترك معنوي ، وقيل : إنه حقيقة في العقد ، مجاز في الوطء ، ونسبه الأصوليون إلى الشافعي ، وقيل : إنه حقيقة في الوطء ، مجاز في العقد ، وبه صرح علماء الحنفية ، كما نسب إليهم أيضاً القول الثاني ، ولذلك جاء في كتب الحنفية أن لفظ النكاح حيث ورد في الكتاب أو السنة مجرداً عن الفرائض يحمل على الوطء (١) ، كما في قوله تعالى : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء » . حتى أثبتوا به حرمة من زنى بها الأب على فروعه كالابن وإن سفل ، فتكون حرمتها عليهم ثابتة بالنص عندهم (٢) ، وفي المسألة خلاف بعض الأئمة ، ومنهم الشافعي ، وهم الذين فرقوا بين الزنا والوطء الحلال ، فرتبوا على الثاني المحرمات بسبب المصاهرة دون الأول (٣) .

سادساً : النزاع في أكبر مسألة يدور عليها التكليف ، وبعبارة أخرى : اختلافهم فيما تدل عليه صيغة الأمر والنهي ، أفعل ، لا تفعل ، يوضح ذلك أن صيغة الأمر تستعمل بمعونة القرائن في معان كثيرة بلغت خمسة عشر ، أو ستة وعشرين ، منها : الإيجاب ، كقوله : « أقيموا الصلاة » ، والندب نحو : « فكا تبوم إن علمتم فيهم خيراً » ، ويقرب منه التأديب كقوله عليه الصلاة والسلام لابن عباس : « كلُّ ما يَلِيك » ، والإرشاد نحو : « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم بناتكم بدّين إلى أجلٍ مُّسمًّى فاكثبوه » ، والإباحة كما في قوله تعالى : « وإذا حللتم فاصطادوا » ، وقوله : « فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانثشروا في الأرضِ » ، وابتغوا من فضل الله ، والتهديد نحو : « اعملوا ما شئتم » .

« ١ » الجزء الثاني من رد المحتار ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، وفتح القدير ج ٢ ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .

« ٢ » وللحنفية أدلة أخرى على هذا الحكم وإن كانت كلها غير مقنعة .

« ٣ » ورأيهم أقوى وأرجح ، ولهم عليه أدلة واضحة .

أما إذا جردت من القرائن فقد اختلف أهل العلم في المعنى الحقيقي لها اختلافاً كثيراً ، ف قيل : إنها حقيقة في النذب ، وقيل : إنها مشتركة بين الوجوب ، والنذب ، والإباحة ، اشتراكاً لفظياً ، وقيل : إنها مشتركة فقط بين الوجوب والنذب ، وقيل : إنها مشتركة اشتراكاً معنوياً بين الإيجاب والنذب والإباحة ، والمعنى المشترك بين هذه الثلاثة هو الإذن ، كما قيل : إنها مشتركة اشتراكاً معنوياً بين الإيجاب والنذب ، والمعنى الجامع بينهما هو الطلب ، أى ترجيح الفعل على الترك ، وذهب جماعة إلى الوقف ، فهى لا تدل على أحد معانيها التى استعملت فيها إلا بالقرينة - أما الجمهور فقد ذهب إلى أنها حقيقة في الوجوب إلا إذا دلّ الدليل على أن المراد منها غيره ، وأدلة كل منهم مبسطة في كتب الأصول .

كذلك اختلفوا في معنى النهى الحقيقي : التحريم هو ، أم للكرهية ، أم للقدور المشترك بينهما ، وهو أن الفعل غير مطلوب حصوله ؟ والجمهور على أن معناه الحقيقي التحريم ، ويرد فيها عداها مجازاً بمعونة الأدلة والقرائن ، كالكرهية ، والدعاء ، والإرشاد ، والتهديد .

من ذلك نشأ اختلاف العلماء والمجتهدين في استنباط الأحكام من أوامر الشرع ونواهيها ، فتارة يبقونها على الوجوب ، والتحريم ، وتارة يخرجونها عن ذلك إلى النذب ، أو الكراهية ، أو الإرشاد ، أو يقولون : إن الأمر للإباحة ، وذلك بالاستدلال والرأى ، أو بنوع من القرائن ، يتفقون على ذلك أحياناً ، وقد يختلفون - وليبيان ذلك نسوق هذين المثالين :

(١) قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ » .

أمرت الآية بكتابة الدين ، فرأى بعض العلماء أن الأمر هنا على حقيقته وهو الوجوب ، فقال : إنَّ كُتِبَ الديون واجب على أربابها بهذه الآية ، بيعاً كان أو قرضاً ، لتلايقع فيه نسيان أو جحود - واختار ذلك الطبرى ، وقال ابن جريج : من ادَّانَ فَلْيَكْتُبْ ، ومن باع فَلْيُشْهِدْ - وإلى الوجوب ذهب أهل الظاهر ، فقالوا : إن كتابة الدين واجبة كسائر الواجبات المأمور بها .

ورأى الجمهور أن الأمر هنا ليس حتماً ، وإنما هو للإرشاد ، ولذلك قالوا :
الأمر بالكتبِ نذب إلى حفظ الأموال ، وإزالة الريب ، فإن الغريم إن كان
تقياً فما يضره الكتاب ، وإن كان غير ذلك فالكتاب ثقاف في دينه ، وحاجة
صاحب الحق - أخذوا ذلك من قوله تعالى في ختام الآية « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ
بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ (١) » .

(ب) وقال جل شأنه : « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ
أَوْ فَأَرِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ » .

الآية أمرت بالإشهاد ، فاختلف العلماء في المراد من هذا الأمر : فنقل عن
عطاء ، وعن الشافعي في القديم أن الإشهاد على الرجعة واجب ، فإن لم يشهد المطلق
على الرجعة ، لم تصح ، لأن الأمر في الآية للوجوب ، وذكر ابن حزم في كتابه
المحلى ، وهو المعبر عن رأى أهل الظاهر - أن الطلاق ، والرجعة لا يصحان بدون
إشهاد شاهدي عدل (٢) ، ورأى جمهور العلماء أن الأمر في الآية للنذب خشية
التجاحد ، ونفياً للتهمة ، إذا علم الطلاق ، ولم يُعلم الرجعة ، ولذلك قالوا : إن
الإشهاد على الرجعة مستحب لا واجب (٣) .
وعلى هذا القياس أوامر السنة ونواهيها .

« ١ » تفسير القرطبي ، وتاريخ الترمذ .

« ٢ » تاريخ الترمذ ص ٢٨٣ .

« ٣ » فتح القدير وأحكام القرآن للرازي .

الفصل الرابع

أسباب الاختلاف في الأحكام المستنبطة بالرأى والقياس

إذا حدث الاختلاف بين الفقهاء في الأحكام الشرعية ، المستقاة من الكتاب والسنة - فهم بلا ريب أشد اختلافاً فيما لانص فيه ، بما يرجعون فيه إلى الاجتهاد بالرأى والقياس بتطبيق وجوه العدالة والمصالح ، أو استنباط العلل عند استعمال القياس ، ونحن نجمل ذلك في هذه الأسباب :

الأول : اختلاف العلماء في القياس ، وتفاوتهم في استعماله قلة وكثرة ، فقد رأيت في مبحث القياس أن بعضهم ينكره ، وبعضهم يثبته ، وأن المثبتين فيهم المقل وفيهم المكثر ، ومنهم من سلك طريقاً وسطاً ، وكل هذا ما يترتب عليه اختلاف الأحكام .

الثاني : اختلاف مقدرتهم على القياس والاستنباط .

الثالث : تأثر كل مجتهد بما يحيط به من الأحوال الاجتماعية ، أو الطبيعية ، أو السياسية ، كالذي روى عن الشافعي من مذهبه العراقي القديم ، ثم تغيير كثير من آرائه في مذهبه المصري الجديد ، حينما رحل إلى مصر ، واتخذها مقراً له ومقاماً .

الرابع : وهو أهم ما يرجع إليه اختلافهم بسبب الرأي - اختلاف نظرهم في استنباط العلة والاستدلال على اعتبارها ، فقد يقوم الدليل عند قوم على إعتبار علة ، ويقوم الدليل عند آخرين على اعتبار علة أخرى - ومن أمثلة ذلك : ورود

النص بأن القاتل لا يرث ، فذهب بعض العلماء إلى أن العلة في حرمانه من الإرث أنه اقترف فعلاً لغرض محرم يستعجل به الشيء قبل أوانه ، فيعاقب بحرمانه ، وبناء على هذا - قالوا : إن من أبان زوجته في مرض موته يعتبر فاراد بالشروط المعروفة في كتب الفروع ، وترثه ، ورأى بعضهم أن علة الحرمان كونه قاتلاً ، فلم يعدوا الحكم إلى مسألة الطلاق المذكورة ، واعتبروا الطلاق البائن مانعاً من الميراث ، ولو كان في مرض الموت . كذلك ورد النص بتحريم ربا الفضل في الأصناف الستة المذكورة في الحديث الذي رواه (١) عبادة بن الصامت عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه : «الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مثلاً بمثل ، سواء بسواء ، يداً بيد ، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم ، إذا كان يداً بيد ، ولكن العلماء اختلفوا : فذهب أهل الظاهر إلى أن النص غير معلل ، فاقصروا في التحريم على الأصناف المذكورة في الحديث ، ولم يعدوا الحكم إلى غيرها ، لأنهم من نفاة القياس ، وجمهور العلماء على تعليل ماورد في الحديث ، ولكنهم اختلفوا في علة التحريم ، فرأى الحنفية أن علة التحريم القدر (كون الشيء مكيفاً أو موزوناً) واتحاد الجنس ، وبهذا يحرم ربا الفضل والنساء ، فإذا وجد أحدهما بأن تحقق اتحاد الجنس دون القدر ، أو وجد القدر ، واختلف الجنس لم يحرم الفضل ، وإنما يحرم فيه ربا النسئنة ، وهو البيع بزيادة لأجل - ورأى الشافعية والمالكية أن العلة في الذهب والفضة الثنية مع اتحاد الجنس ، وفي غيرها قال الشافعية : العلة اتحاد الجنس وكونه مطعوماً ، وقال المالكية : العلة في تحريم ربا النسئنة مجرد المطعومية على غير وجه التداوى ، سواء أكان صالحاً للدخار والاحتياجات أم لا ، وذلك كأصناف الخضر والفاكهة الرطبة ، فهذه يدخلها ربا النسئنة ولا يدخلها ربا الفضل ، وأما العلة عندهم في تحريم ربا الفضل فهي اتحاد الجنس وتجوذاً أمرين : أحدهما أن يكون الطعام بما يقتات به الإنسان ، وثانيهما : أن يكون صالحاً للدخار (٢)

١٥ مضي ذكره في مبحث القياس .

٢٥ كتاب الفقه على المذاهب الأربعة قسم المعاملات ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩

طبعة سنة ١٩٣٣ م ، وبداية المجتهد في مبحث الربا .

وبناء على اختلافهم في علة التحريم - على ما بينا - اختلفوا في الأحكام ، فمن ذلك أن الحنفية قاسوا الحديد والنحاس على الذهب والفضة ، فحرموا فيهما عند اتحاد الجنس ربا الفضل لأنهما يباعان بالوزن ، وخالفهم المالكية والشافعية ، لأنهما ليسا بمطعومين ، وعند الحنفية يجوز بيع البيضة ببيضتين ، والبطيخة باثنتين مع التقابض لعدم وجود أحد جزأى العلة وهو القدر - وعند المالكية لا يدخل ربا الفضل في القواكه الرطبة ، كالنفاخ ، والموز ، والخوخ ، لأنها غير صالحة للادخار ، فيصح بيع كل جنس منها ببعضه ، وبجنس آخر متماثلة ومتفاضلة بشرط التقابض ، وخالفهم الحنفية ، فقالوا : جميع القواكه والخضر التي تباع بالوزن يدخلها الربا - تبعاً لما قالوه في علة التحريم (١) ، وهكذا .

أما بعد ، فلا يروعنك هذا الاختلاف ، ولا يهولنك تعدد الآراء ، فما كان لشرعية أراد الله بقاءها ، وجعلها خاتمة الشرائع ، أن تصب أحكامها في قالب واحد ، ولا أن تدون في مواد وأحكام لا تختلف ، وإلا قلب لها الدهر ظهر المجن ، وتشكرت لها الأمم ، ولكنه جعل الاجتهاد أساسها ، ورعاية مصالح الناس غايتها ، ونص على الأحكام التي لا تختلف باختلاف الزمن ، ولا يتغير وجه المصلحة فيها باختلاف الأمم ، وترك ما وراء ذلك لمجتهدى هذه الأمة ، يسايرون به الزمن ، ويراعون تطور الأمم .

الفصل الخامس

حرية الإجتهد في القرون الثلاثة أسبابها وأثرها

هذه الحرية التي ألفينا كثيراً من مظاهرها في الفصول السابقة ، والتي عُرف بها أكثر علماء الفقه الإسلامى في ثلاثة القرون الأولى من عصور الإسلام - ما كانوا مقيدين فيها إلا بأصول الإسلام ، وقواعده ، وروح العدالة العامة ، وما يعتقده المجتهد بعد بذل الجهد بأن ما وصل إليه حق - هذه الحرية التي كان من آثارها تعدد الآراء ، واختلاف المذاهب يمكن رجوعها إلى ثلاثة أسباب :

الأول :- أن أصول الشريعة الإسلامية مبنية على العقل ، وأحكامها معللة ومستندة إلى الحكمة والمصلحة ، والدين الإسلامى نفسه يدعو إلى استعمال العقل السليم ، والتفكير الصحيح .

الثانى :- الروح العلمية العامة التي شاعت في الأمة الإسلامية في عصورها الأولى ، والتي تغلغلت في كل شيء ، وفي كل ضرب من ضروب المعرفة ، فإن هذا الروح مما حدا علماء التشريع على العكوف على البحث ، وسما بهمتهم في الاجتهاد والاستنباط .

الثالث :- ظهور علماء في القرون الثلاثة « الأولى والثانى والثالث » ، عُرفوا بالإخلاص لله والعلم ، وكانوا على أعظم جانب من الذكاء والمهارة ، والنبوغ واللقانة ، عرفوا روح الإسلام ، وتعلقوا بأحكام شريعته ، ووهبوا أنفسهم للعلم

والبحث ، فكان لهم من أجل ذلك أعظم الفضل في وضع الأحكام للحوادث والوقائع ، وفي تقرير مختلف المذاهب ، حتى كثر الاختلاف ، وتعددت الآراء ، وكان ذلك فضلاً وعملاً محموداً من العلماء المجتهدين ، لأنه يزيد ثروة الإسلام القانونية ، ويترك لأبنائه وغيرهم أنفس الذخائر التشريعية ، وبذلك يتسنى لكل أمة أن تختار منها أفضل القوانين ، وأنفع الآراء ، وأنسبها لمختلف الأمم والعصور ، ولكن الخلفاء والأئمة في الأمة الإسلامية لم يشاءوا جمع الناس على قانون واحد يختارونه من تلك الآراء والمذاهب ، ويكون قابلاً للتغيير والتطعيم بما يجد من آراء المجتهدين الذين لا ينبغي أن يخلو منهم عصر من العصور ، بل قد تركوا الأمر للقضاة ، يحكمون في الخصومات والأقضية باجتهادهم ، أو باتباع إمام معين ، فنجم من ذلك أن اختلفت الأحكام في البلد الواحد وتناقضت ، وكان من ذلك مثار الشكوى من العقلاء - ولهذا حدثنا التاريخ أن ابن المقفع في صدر الدولة العباسية لحظ هذه الحال ؛ فرأى أن يظل باب الاجتهاد مفتوحاً ، ولكن يجب على ولي الأمر أن يختار من آراء المجتهدين ما يراه صواباً ، وينتخذ من ذلك قانوناً يلزم به القضاة على أن يعدل في كل عصر وبينة بما تقتضيه المصلحة وتدعو إليه الحاجة ، وتنطبق عليه أصول التشريع الإسلامي - وهذا ما جاء في رسالته التي وجهها إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور :

« إن القضاء فوضى لا يرجع فيه إلى قانون معروف ، وإنما هو متروك لرأى القضاة واجتهادهم ، وتبع ذلك صدور الأحكام المتناقضة حتى في البلدة الواحدة ، فتستحل دماء وفروج ، وأموال في ناحية من نواحي الكوفة ، وتحرم في ناحية أخرى تبعاً لحكم القاضي ، وكل ذلك نافذ على المسلمين ، وأرى أن ترفع إلى أمير المؤمنين الأقضية ، والمسائل المختلف في أحكامها ، ويرفع مع كل رأى دليله ، ويعمد أمير المؤمنين إلى هذه الآراء وأدلتها ويختار ما يراه صواباً ، ثم يدون ذلك في كتاب ، ويعمل منه نسخاً ترسل إلى الأمصار ، ويلزم القضاة أن يحكموا به ، فإذا حدثت حوادث سير فيها على هذا النحو ، ووجب على كل إمام يأتي بعد

أن يدخل على هذا القانون ما يجد ، وما تدعو إليه الحاجة آخر الدهر (١) .
ولكن أبا جعفر المنصور - لا مرام - لم يحقق رأى ابن المقفع ، وترك أمر
التشريع الفردى فوضى ، حتى ادعى الاجتهاد من ليس أهلاً له ، وتشعبت الآراء ،
واختلفت الأحكام فيما بعد اختلافاً كثيراً تعذر معه على الحكومات الإسلامية
فى ذلك الوقت أن ترجع إليها ، أو تقف عند شيء معين منها ، واستمرت الحال
على ذلك حتى جاء القرن الرابع الهجرى ، فسرى (٢) روح التقليد سرياناً عاماً
اشترك فيه العلماء وغيرهم من الجمهور ، وما فتئت الرغبة فى التقليد - على مرّ
الزمان - تنمو شيئاً فشيئاً ، حتى استمكن سلطانه من النفوس والعقول ، فتقاصرت
الهمم عن الاجتهاد ، وسد بابه ، ووقفت حركة التجديد والاجتهاد فى التشريع
الإسلامى التى تجعله على الدوام مسيراً لتطورات الزمن والأحوال .
وفى رأى أن الأمم الإسلامية لا تصلح حالتها الاجتماعية والخلفية ، ولا يكمل
فيها خلق العزة والاعتداد بالنفس ، إلا برجعها إلى الإسلام وتشريعه ، ولهذا
يجب عليها أن تعد العدة ، وتأخذ الأهبة ، لتكوين طائفة ممتازة من علماء المسلمين
يتوافر فيها شروط الاجتهاد ، ثم تُضم إليها طائفة أخرى من أعلام القانون لتتألف
من الطائفتين لجنة فقهية قانونية دائمة ، يكون الغرض منها تحقيق هذين الأمرين :
الأول :- تنظيم الفقه الإسلامى ، وتجميعه ، وتبويبه ، بحيث يسهل الرجوع إليه .
الأمر الثانى :- إعداد ما تحتاج إليه الأمة من تشريعات وقوانين ، استجابة
لمصالحها وحاجاتها المتجددة ، يوفق فيها بين تطور الأمم واختلاف العصور وبين
المحافظة على أصول الإسلام ، وروح التشريع فيه ، وسيأتى لذلك مزيد إيضاح
فى مبحث الاجتهاد .

« ١ » وكانت فكرة وضع قانون عام للدولة تحول بعض الرءوس فى صدر الدولة العباسية ،
حتى من الخلفاء أنفسهم ، فقد روى أن أبا جعفر المنصور عرض على مالك أن يجعل من كتابه الموطأ
قانوناً ، كما روى أن الرشيد لما زار المدينة وأراد الرجوع إلى العراق ، قال للمالك : ينبغى أن تخرج
معنا ، فإنى عزمته على أن أحمل الناس على الموطأ ، كما حمل فئان الناس على القرآن ، فقال له : إن حمل الناس
على الموطأ ليس إليه سبيل ، لأن أصحاب رسول الله افترقوا بعده فى الأمصار ، فحدثوا ، فعند
أهل كل مصر علم ... إلى آخر ما قال . « الإجابة وضحي الإسلام »

« ٢ » تاريخ التشريع طبعة الاستقامة ص ٣٣٧ ، ٣٧٩ - وقد عرض لذكر أسباب التقليد .

مراجع هذا الباب :

- ١ - الإنصاف في التنبيه على أسباب الاختلاف للبطلينوسي .
- ٢ - الهداية وفتح القدير .
- ٣ - أحكام القرآن للرازي .
- ٤ - تفسير القرطبي - طبع دار الكتب المصرية .
- ٥ - أسرار الشريعة الإسلامية لإبراهيم علي .
- ٦ - التشريع الإسلامي للمؤلف .
- ٧ - نيل الأوطار للشوكاني .
- ٨ - بداية المجتهد لابن رشد .
- ٩ - إرشاد الفحول .
- ١٠ - تاريخ التشريع للخضري .
- ١١ - أصول الفقه للخضري .
- ١٢ - تفسير البيضاوي .
- ١٣ - ضحى الإسلام لأحمد أمين .
- ١٤ - كتاب الفقه على المذاهب الأربعة قسم المعاملات للبغفور له الشيخ عبد الرحمن الجزيري .
- ١٥ - بعض معجمات اللغة .

الباب الرابع

القواعد الفقهية في التشريع الإسلامي

راعى علماء الفقه الإسلامى فى اجتهادهم قواعد (١) كلية لا تقل فى روعتها ، وجيل خطرهما ، وسمو غايتها ، عن مبادئ القانون فى العصر الحديث ، وإن اختلفت الأسماء والمصطلحات ، وهى ترجع فى جملتها إلى المحافظة على روح الإسلام فى التشريع ، وتحقيق مثله العليا فى الحق ، والعدل ، والمساواة ، وحفظ المصالح ودرء المفاسد ، ومراعاة حال الضرورات ، ودوران المعاملات على اكتساب الفضائل واجتناب الرذائل .

ولاهمية هذه القواعد ، وعظيم نفعها ، وبالنظر أثرها فى الإرشاد إلى أحكام الفروع ، والاهتمام بها كلما أعوزت المشرع الحجة ، واحتاج الفقيه إلى الدليل ، واستنباط الحكمة - عنى بعض الفقهاء من المذاهب المختلفة بذكرها - حتى أفردوا لها المؤلفات ، لينحوها ما تستحقه من بسطة البحث ، وسعة الإبانة والشرح ، تخلفوا لنا بذلك ذخيرة هى صفوة الشريعة وحقيقتها ، لأنها دلت على كرم جوهرها ، وطيب عنصرها - ولذلك نوهوا بشأنها ، وحثوا طلاب الشريعة على النهل منها .

قال ابن نجيم المصرى الحنفى فى كتابه الأشباه والنظائر : إن هذه القواعد هى أصول الفقه فى الحقيقة ، وبها يرتقى الفقيه إلى درجة الاجتهاد (٢) ، وكان تدوينها

١٠ القاعدة لفة الأساس ، واصطلاحاً حكم كل ما يطبق على كثير من الجزئيات وبه تعرف أحكامها .

٢٠ ذكر ابن نجيم منها خساً وعشرين قاعدة كلية غير ما يضرع عنها .

مصدر نفي للفقهاء ، حتى قال ابن نجيم : « إن أصحابنا (يريد علماء الحنفية) رحمهم الله - لم خصوصية السبق في هذا الشأن ، والناس لهم أتباع ، وهم في الفقه عيال على أبي حنيفة .. »

كذلك القرافي المالكي في كتابه القيم (١) المشهور (بالفروق) جمع نحو ثمان وأربعين وخمسمائة قاعدة ، وأوضح كل قاعدة منها بما يناسبها من الفروع ، وهو كتاب - لعمرو الحق - لو هذب ورتب لأبرز الشريعة الإسلامية في مكانتها التي لا تطاول. قال القرافي في مقدمة هذا الكتاب :

إن الشريعة المعظمة المحمدية اشتملت على أصول وفروع - وأصولها قسمان ، أحدهما : المسمى بأصول الفقه ... والقسم الثاني : قواعد كلية فقهية جليلة ، كثيرة العدد ، عظيمة المدد ، مشتملة على أسرار الشرع وحكمه ، لكل قاعدة من الفروع في الشريعة ما لا يحصى ... ثم قال : وهذه القواعد مهمة في الفقه ، عظيمة النفع ، وبقدر الإحاطة بها يعظم قدر الفقيه ويشرف ، ويظهر رونق الفقه ويعرف ، وتتضح مناهج الفتاوى وتكشف - فيها تنافس العلماء ، وتفاضل الفضلاء ، وبرز القارح على الجذع ... الخ ، وقديما قال العلماء : من راعى الأصول كان حقيقا بالوصول ، ومن راعى القواعد كان خليقا بإدراك المقاصد .

لذلك عولنا على ذكر كثير من هذه القواعد الجامعة ، ليتجلى لك جلال الشريعة ، وسمو مبادئها ، وشرف غايتها ، وليسبقين لك جهد علمائها ومجتهديها ، وسمو تفكيرهم ، وسعة أفقهم ، وسناء مقصدهم - فنقول :

القاعدة الأولى

الحكم يتبع المصلحة الراجحة : يوضح ذلك أن كثيراً من الأمور كالعبادات ، والجهاد ، وإنفاق الأموال - قد تكون فيها مضرة ، لكن لما كانت

(١) اسمه كتاب أنوار البروق في أنواء الفروق ، أو الأنوار والقواعد السنية في الأسرار الفقهية - توفي القرافي سنة ٦٨٤ هـ

مصلحتها راجحة على مفسدتها - أمر بها الشارع ، والفعل قد تكون فيه مفسدة راجحة على مصلحته ، فيحرم : فالخر ، والميسر ، والفواحش ، والظلم ، قد يحصل للمرء بها منافع ومقاصد ، لكن لما كانت مفسدها راجحة على مصلحتها - نهى الله ورسوله عنها ، فهذا أصل يجب اعتباره في الأحكام (١) .

القاعدة الثانية

الضرر يزال - أو : لا ضرر ولا ضرار :

الأصل في تقرير هذه القاعدة حديث مروي بلفظ : « لا ضرر (٢) ولا ضرار ، وروى بلفظ : « لا ضرر ولا ضرار في الإسلام » ، وهي قاعدة يرجع إليها كثير من أبواب الفقه ، ويتجلى في فروعها حرص الشريعة الإسلامية على منع الضرر عن الأفراد والجماعات ، تحقيقاً للمدالة ، ودفعاً للظلم ، حتى يطمئن الناس على حقوقهم . واستلبت منها أحكام كثيرة ، منها : عدم صحة الوقف على البنين دون البنات في مذهب بعض الأئمة ، وحرمة الوقف إذا قصد به إضرار الدائنين ، وجواز نقضه على رأى بعض العلماء في هذه الحالة ، ومن فروعها تقرير حق الشفعة للشريك وللجار عند من يقول به ، ورد المبيع بالعيب ، وتقرير الحجر عند تحقق

«١» راجع التوسل والوسيلة لابن تيمية ص ٧٥ من طبعة المنار الثانية .
 «٢» فسر في المغرب بأن الرجل لا يضر أخاه ابتداء ولا جزاء ، فالضرر مجازاة من يضره ، فيكون في الحديث تحبيب في العفو ، أو المعنى لا يجازى من يضره بزيادة على مثل فعله ، لقوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وقيل : الضرر فعل الواحد والضرار فعل الاثنين ، وقيل : هما بمعنى واحد . وذكر صاحب النهاية عدة أوجه في تأويل هذا الحديث يرجع أكثرها إلى التفسير السابق - قال : معنى قوله : لا ضرر ، أى لا يضر الرجل أخاه فينقصه شيئاً من حقه ، والضرار فعال من الضر ، أى لا يجازيه على إضراره بإدخال الضرر عليه ، والضرر فعل الواحد ، والضرار فعل الاثنين ، والضرر ابتداء الفعل ، والضرار الجزاء عليه ، وقيل : الضرر ما ضر به صاحبك وتنفع به أنت ، والضرار أن تضره من غير أن تنفع به ، وقيل : هما بمعنى واحد ، وتكرارهما للتأكيد « الجزء الثالث من النهاية في غريب الحديث طبعة سنة ١٣١١ هـ » .

أسبابه ، ومشروعية التقصاص ، والحدود ، والكفارات ، وضمان المتلفات - وما أعدل ما جاء في بعض كتب الفقه من أن الانسان إذا باع أغصان فرصاد ، والمشتري إذا ارتقى لقطعها يطلع على عورات الجيران - فإنه يؤمر بأن يعلمهم وقت الارتقاء مرة أو مرتين ليستتروا ، فإن لم يفعل رفع الأمر إلى الحاكم ، لينعمه من الارتقاء (١) .

القاعدة الثالثة

الضرورات تبيح المحظورات : ولذا جاز للمرء إذا غص باللقمة إساغتها

بالخر إذا لم يجد غيرها ، وجاز أكل الميتة عند الخمصة ، والتلفظ بكلمة الكفر عند الإكراه ، وكذا إتلاف المال عند الضرورة ، كما إذا خيف غرق السفينة لكثرة حملها ، فإنه يباح إتلاف المال . ولا كذلك إذا أكره الإنسان على قتل غيره (بقتله إذا لم يقتله) - فإنه لا يرخص له ، لأن مفسدة قتل نفسه أخف من مفسدة قتل غيره - والاصل في تقرير تلك القاعدة قوله تعالى : « إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَالْحَمَّ الْخَنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . وقد أخذ علماء الشريعة بهذا الأصل وطبقوه في كثير من الأحكام والقضايا ، روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى بامرأة زنت ، فأقرت ، فأمر برجمها ، فقال على رضي الله عنه : لعل بها عذرا ، ثم قال لها : ما حملك على الزنا ؟ قالت : كان لي خليط ، وفي إبله ماء ولبن ، ولم يكن في إبله ماء ولا لبن ، فظلمت ، فاستسقيته ، فأبى أن يسقيني ، حتى أعطيه نفسي ، فأبيت عليه ثلاثا - فلما ظلمت ، وظننت أن نفسي ستخرج ، أعطيته الذي أراد ، فسقاني - فقال عليّ : الله أكبر . « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم » (٢) .

«١» الأشباه والنظائر ص ١١٨ طبع سنة ١٢٩٠ هـ .

«٢» الطرق الحكيمة لابن القيم ص ٥٣ طبع سنة ١٣١٧ هـ .

القاعدة الرابعة

ما أبيع للضرورة يقدر بقدرها : فلا يجوز للمضطر الأكل من الميتة إلا بقدر ما يسد الرمق ، وقالوا : إن دم الشهيد طاهر في حق نفسه ، نجس في حق غيره لعدم الضرورة - كذلك الطبيب لا يجوز له النظر إلى العورة إلا بقدر الحاجة .

القاعدة الخامسة

الضرر لا يزال بالضرر : ومن فروعها أن المضطر لا يأكل طعام مضطر آخر .

القاعدة السادسة .

يتحمل الضرر الخاص لأجل دفع الضرر العام : وهي قاعدة جلية ، صريحة في أن الشريعة الإسلامية تؤثر مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد إذا تعارضت المصلحتان . ولتلك القاعدة فروع كثيرة ، منها جواز رمي الكفار إذا تترسوا بأسارى المسلمين ، ومشروعية الحجر على البالغ العاقل الحر إذا كان طيباً جاهلاً ، أو مفتياً ماجناً ، أو مكاريافلساً ، حتى خالف الإمام أبو حنيفة في هؤلاء الثلاثة أصله المشهور : وهو أن كل من تصرف في خالص ملكه لا يمنع منه في الحكم ، وإن لحق بغيره الضرر ، وإنما خالفه دفعاً للضرر العام الذي يلحق الجماعة من تصرفاتهم ، ومن فروعها مشروعية الحجر على السفهية عند القاتلين به من الأئمة ، وبيع مال المدين لقضاء دينه دفعاً للضرر عن الغرماء . ويدخل في القاعدة جواز التسمير للحاكم إذا ترتب على تركه الإضرار بالناس ، فقد قالوا : لا ينبغي للسلطان أن يسعر إلا إذا تعدى أرباب الطعام تعدياً فاحشاً في القيمة ، كما يدخل فيها جواز بيع طعام المحتكر جبراً عليه عند الحاجة إذا امتنع من بيعه دفعاً للضرر العام .

ويقرب من هذه القاعدة قولهم : إذا اجتمع ضرران ، وكان أحدهما أعظم

ضرراً من الآخر - فإن الأشد يزال بالأخف ، ، وهي قاعدة ، اختيار أخف الضررين ، ومن فروعها أنه يصح للوصي أن يصالح المدين على بعض ما عليه من الدين ، إذا كان للبيت أو الصغير دين ، والغريم منكر ولا بينة عليه - اختياراً لأخف الضررين ، فإنه إذا لم تصح المصالحة على بعض الدين ، ضاع كله على الصغير ، ولا كذلك الحكم إذا كان المدين مقراً ، أو كان على الدين بينة ، فإنه ليس للوصي أن يصالح على أقل منه .

القاعدة السابعة

إذا تعارضت مفسدتان ، ارتكب أخفهما وُعدِلَ عن أعظمهما ضرراً :

ومن فروعها رجل يريد أن يصلي وبه جرح ولو سجد لسال جرحه ، وإن لم يسجد لم يسأل - قالت الحنفية : يصلي قاعداً يومئذ بالركوع والسجود ، لأن ترك السجود أهون من الصلاة مع الحدث .

ومن ذلك : إباحتهم الكذب إذا ترتب على الصدق مفسدة عظيمة ، وقد فصل الحموي (١) على الأشباه الكلام في ذلك ، فقال ما خلاصته : إن الكذب يجوز في ثلاثة مواضع : في الإصلاح بين الناس ، وفي الحرب ، وعلى الزوجة لإصلاحها ، ويراد بذلك استعمال المعارض لا الكذب الصريح ، ونقل أن الكذب يباح لإحياء حق ، أو لدفع ظلم ، بل إذا علم الإنسان أنه لا يتخلص من الظلم إلا بالكذب جاز له الكذب الصريح ، وقد يجب عليه في بعض الصور ، كما إذا ترتب عليه نجات المسلمين من عدوهم ، وكذا لو طلب ظالم ودبعة لإنسان ليأخذها غصباً ، فإنه يجب الإنكار والكذب في أنه لا يعلم موضعها ، أ . هـ .

القاعدة الثامنة

درء المفاسد مقدم على جلب المصالح : فإذا تعارضت مفسدة ومصلحة - قدم

دفع المفسدة غالباً . وعلى هذه القاعدة جاء تحريم الخمر والميسر : ففي كل منهما

(١) ص ١٢٦ من المجلد الأول طبعة سنة ١٢٩٠ هـ .

منافع ومصالح الناس ، ولكن إثمهما ومفسدتهما أكبر ، يسألونك عن الحرج والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ، وبمقتضى تلك القاعدة كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يرى منع تعدد الزوجات إذا كان التعدد ماثراً لمقاسد لا تحصى في الأزواج ، والأولاد ، وعشائر الزوجين (١) .

ومن فروعها : أن المبالغة في المضمضة والاستنشاق مسنونة ، ولكنها للصائم مكروهة (٢) .

القاعدة التاسعة

اليسر ورفع الحرج ، وقولهم « المشقة تجلب التيسير » - والأصل في تقريرها قوله تعالى : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » ، وقوله « وما جعل عليكم في الدين من حرج » ، وكذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث جابر بن عبد الله ، ومن حديث أبي أمامة : « أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة » . وبذلك القاعدة شرعت أحكام كثيرة روعيت فيها طبيعة الإنسان وقوة احتماله : فلم تجب الزكاة إلا إذا بلغ المال نصاباً ، ولم يجب إلا جزء يسير منه كربع العشر - وكره أو حرم الطلاق والمرأة حائض ، حتى لا تطول عليها العدة ، ووجب على الحائض قضاء الصوم دون الصلاة رفماً للحرج ، وفرض الحج في العمر مرة - نقل العلامة أبو السعود عند تفسير قوله تعالى : « يأبى الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » ، أن علياً رضي الله تعالى عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « إن الله تعالى كتب عليكم الحج » فقام رجل من بني أسد ، يقال له : عكاشة بن محصن ، وقيل : هو سراقبة بن مالك ، فقال : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فأعرض

(١) نداء للجنس الطيف للسيد رشيد رضا ص ٣٩ .

(٢) راجع الأشباه ص ١٢٥، ١٢٦ من المجلد الأول طبعة سنة ١٢٩٠ هـ .

عنه ، حتى أعاد مسأله ثلاث مرات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
وَيَحْكُ ، وما يؤمنك أن أقولَ نعم ، والله لو قلتُ : نعم ، لوجبتُ ، ولو
وجبتُ ما استطعتم . . . فأتروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم
بكثرةِ سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم ،
وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه . .

وعلى هذه القاعدة انبثت جميع رخص الشرع وتخفيفاته . والكثرة الكثيرة
المتفرعة عليها من جزئيات الفقه ومسأله ، قيل : إنه يرجع إليها غالب أبواب الفقه .
وقد ذكر العلماء للتخفيف أسباباً منها :

١ - المرض :- وما يتعلق به جواز التيمم عند الخوف على النفس ،
والعود في صلاة الفرض ، والفطر في رمضان ، والإجابة في الحج بشروطها ،
وإباحة محظورات الإحرام مع الفدية ، والتداوى بالنجاسات وبالحجر - على أحد
القولين ، وإباحة النظر إلى العورة للطبيب .

٢ - السفر :- وما يتعلق به قصر الصلاة الرباعية ، والفطر في رمضان ،
وترك الجمعة ، والعيدن .

٣ - الإكراه .

٤ - النسيان :- فإنه يعتبر عذراً في حقوق الله تعالى من حيث سقوط
الإثم ، وكذلك يسقط الحكم إن لم يوجد مذكر ، وقد وجد الداعي ، كأكل الصائم
ناسياً ، وكالتسمية عند الذبح ، فإن نسي مع المذكر ، وعدم وجود الداعي -
لم يسقط الحكم كأكل المصلي - أما حقوق العباد - فلا يعتبر النسيان فيها عذراً ،
ولهذا لو أتلف مال إنسان ناسياً ، فإنه يجب عليه الضمان - وكذا اتفقوا على أن
النسيان لا يعفى عنه في مسائل : منها : نسيان المحدث غسل بعض الأعضاء ، ومنها :
حكم الحاكم بالقياس ناسياً النص « وتماه في المحوى ص ١٠٦ » .

٥ - العسر وعموم البلوى :- كصحة الصلاة مع النجاسة المعفوعة عنها ، وعدم
وجوب قضاء الصلاة على الحائض لتكررها ، بخلاف الصوم ، ووجوب الصوم

شهرًا في السنة ، والحج في العمر مرة ، ووجوب ربع العشر في الزكاة تيسيراً (على ماسبق ذكره) ، وأكل الولي والوصي من مال اليتيم بقدر أجره عمله ، وإباحة النظر للشاهد والطبيب ، وكذا إباحته عند الخطبة . ومن ذلك : إباحة أربع نسوة في الزواج (عند تحقق شرطه) فلم يحتم الاختصار على واحدة تيسيراً على الرجل ، ومراعاة لمصلحة الأمة في تكاثر النسل إذا دعته الأحوال إلى ذلك ، وتيسيراً على النساء أيضاً لكثرتهم ، ولم يزد على أربع لما فيه من المشقة على الرجل في القسم وغيره .

ومنه : مشروعية الطلاق ، لما في البقاء على الزوجية من المشقة عند تنافر الأخلاق ، وتعللر المعاشرة بالمعروف ، ومشروعية الوصية ليتدارك الإنسان ما فاتته من البر في حال حياته ، ونفذت في الثلث دون ما زاد عليه دفعاً لضرر الورثة ، حتى إذا لم يكن هناك وارث ، نفذت ولو بكل المال . ومنه : التخير في كفارة اليمين بين إطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، لتكررها دون سائر الكفارات لندرة وقوعها ، ومن التيسير في عموم البلوى إسقاط إثم الخطأ عن المجتهدين ، والاكتفاء منهم بالظن ، إذ لو كلفوا الأخذ باليقين لشق عليهم الوصول إليه .

٦ - النقص : - وهو نوع من المشقة ، لأن النفس مجبولة على حب الكمال ، فتناسب التخفيف في التكليف ، وبما يبنى على ذلك عدم تكليف المجنون والصبي ، وعدم تكليف المرأة بعض ما يجب على الرجل ، كالجهاد إذا لم يكن التغير عاماً ، إذ لو كان الأمر كذلك فإنه يجب على المرأة أن تخرج ولو بنير إذن زوجها (١) .

وفي معنى القاعدة المتقدمة قول الشافعي : « إن الأمر إذا ضاق اتسع » فالمراد بالضيق المشقة ، وبالاتساع الترخص عن الأقيسة ، وطرد القواعد ، ومن قواعد أئمة الحنفية : التسهيل في مواضع الضرورة والبلوى العامة (٢) .

١ « وتام الكلام في الأشباه وشرحه ص ١١٧ ج ١ .
٢ « الجزء الأول من رد المختار ص ١٣٢ طبعة سنة ١٣١٨ هـ .

القاعدة العاشرة

العادة مُحْكَمَةٌ :- وفي معناها : « المعروف عرفاً كالمشروط شرعاً » ،
أو المعروف كالمشروط . والأصل في تقريرها قوله عليه الصلاة والسلام : « ما رآه
المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » . قال العلائي : لم أجده مرفوعاً ، وإنما هو
من قول عبد الله بن مسعود ، فقد روى عنه الإمام أحمد وغيره : « إن الله نظر
في قلوب العباد ، فرأى قلب محمد خير قلوب العباد ، فاختره لرسالته ، ثم نظر
في قلوب العباد بعده ، فرأى قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فاخترهم لصحبته ،
فما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المؤمنون قبيحاً فهو عند الله
قبيح (١) » . وقد كثر العمل بهذه القاعدة ، وجرت على ألسنة العلماء والفقهاء
الإسلاميين ، فقالوا : « المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً » ، وفي المبسوط : « الثابت
بالعرف كالثابت بالنص » ، وللعلامة الشيخ محمد أمين الفقيه الحنفى المشهور
بابن عابدين رسالة سماها : نشر العرف في بناء بعض الأحكام على العرف ، وقد
جاء في أرجوزة له في رسم المفتي (٢) :

والعرف في الشرع له اعتبار لذا عليه الحكم قد يدار

وفي الجزء الخامس من رد المختار لابن عابدين في مبحث تحديد سن البلوغ
للغلام والجارية : « العادة إحدى الحجج الشرعية فيما لا نص فيه » . وما يعزى
لشهاب الدين القرافي قوله : « إن الأحكام تجري مع العرف والعادة ، وينتقل
الفقيه بانتقالها ، ومن جهل المفتي جموده على المنصوص في الكتب غير ملتفت إلى
تغير العرف » .

ولنما تعتبر العادة والعرف مرجعاً تبني عليه الأحكام بثلاثة شروط :

الاول :- ألا يخالف العرف نصاً صريحاً .

الثاني :- إذا اطردت العادة وغلبت

الثالث :- أن يكون العرف عاماً ، فالحكم العام لا يثبت بالعرف الخاص ،

(١) « الأشباه » ١٢٦ والطرق الحكيمة ص ٩١

(٢) « راجع الجزء الثاني من رد المختار ص ٣٧٠ طبعة سنة ١٣١٨ هـ . ٢٣٤

كتمارف أهل بلد واحد ، أو تمارف خواص أهل جهة دون عامتها - فإن التمارف لا يثبت بهذا القدر ، وقيل : يثبت به ، ولكن المعول عليه عدم اعتبار العرف الخاص ، وإن أفتى بعضهم باعتباره (١) .

ونحن نسوق لك بعض الأحكام المبنية على العرف ، وإن كنا لا نستطيع حصرها لكثرتها :

- ١ - ألفاظ الواقفين تبتنى على عرفهم ، وكذا لفظ الناذر والخالف .
- ٢ - لا يجوز للقاضي قبول الهدية إلا بمن له عادة بالإهداء له قبل توليته ، بشرط ألا يزيد على العادة ، فإن زاد عليها رد الزائد .
- ٣ - قالوا في حد الماء الجاري : الأصح أنه ما يعمده الناس جاريا .
- ٤ - وقالوا أيضا في الحيض والنفاس : إذا زاد الدم على أكثر مدة الحيض ، أو النفاس - يرد إلى أيام عادتها .
- ٥ - ومصححوا استئجار الظئر (٢) بطعامها وكسوتها على المستأجر ، وإن كان مجهولا للعرف :
- ٦ - وبما تفرع على أن المعروف كالمشروط أن الأب إذا جهز ابنته جهازا ودفعه لها ، ثم ادعى أنه عارية ولا بينة ، فقيل : إن كان الأب من كرام الناس وأشرفهم ، لم يقبل قوله ، وإن كان من أوساط الناس كان القول قوله - ولكن المفتى به أنه إن كان العرف قاضيا بأن الأب يدفع ذلك الجهاز ملكا لاعارية - لم يقبل قوله ، وإن كان العرف مشتركا فالقول للأب .
- ٧ - ومن ذلك : الاستصناع ، وهو أن يقول شخص لصانع : اصنع لي الشيء الفلاني بثلث قدره كذا ، ويصف له الشيء المصنوع - فقد أجازته الحنفية للجريان العرف به ، مع ورود النص بالنهي عن بيع ما ليس عند الإنسان .

(١) راجع تفصيل الكلام في العرف العام والخاص في الأشباه وشرحه ص ١٣٤ ، ١٣٥ من المجلد الأول - المطبعة العامة سنة ١٢٩٠ هـ .
(٢) الموضع .

٨ - ومن ذلك أيضاً : ما ذهب إليه أهل المدينة في الدعاوى - فقد جعلوها على ثلاث مراتب :

الأولى : دعوى يشهد لها العرف بأنها تشبه أن تكون حقاً ، وهذه تسمع من مدعيها ، وله إقامة البينة أو استحلاف المدعى عليه .

الثانية : ما يشهد العرف بأنها لا تشبه ذلك إلا أنه لا يقضى بكذبها ، كما إذا ادعى شخص على رجل لا معرفة بينه وبينه البتة ، أنه أقرضه أو باعه شيئاً بضمن في ذمته إلى أجل - فهذه الدعوى تسمع ، ولمدعيها أن يقيم البينة ، ولكنهم قالوا : إنه لا يملك استحلاف المدعى عليه على نفسها إلا بإثبات خلطة بينه وبينه .

المرتبة الثالثة : دعوى يقضى العرف بكذبها ، فلا تسمع - ولهذا أمثلة كثيرة ، منها : أن تأتي المرأة بعد سنين متطاولة تدعى على زوجها أنه لم يكسها في شتاء ولا صيف ، ولا أنفق عليها شيئاً ، فهذه الدعوى لا تسمع ، لتكذيب العرف والعادة لها ، ولا سيما إذا كانت المرأة فقيرة وكان الزوج موسراً (١) .

ومنها : أن يرى الرجل حائزاً لمنزل متصرفاً فيه السنين الكثيرة ، بالتأجير ، والعمارة ، والبناء ، والهدم ، مع إضافته إلى نفسه ، ثم يجيء رجل آخر قد شاهد تصرف الرجل الأول في المنزل طوال هذه المدة ، وهو مع ذلك لا يعارضه ، ولا يذكر أن له فيه حقاً ، ولا يمنعه مانع من المطالبة ، وليس بينه وبين المتصرف قرابة ولا شركة في ميراث أو نحوه ، يجيء فيدعى ذلك المنزل لنفسه ، ويريد أن يقيم على ذلك بينة - فدعواه أيضاً غير مسموعة فضلاً عن بينته .

ومن ذلك : ما إذا ادعى رجل معروف بالفجور ، ولإيذاء الناس على رجل مشهور بالديانة والصلاح - أنه نقب بيته وسرق متاعه ، أو ادعى على رجل مشهور بالخير ، والاعتصام بالدين - أنه تعرض لزوجته أو ولده بكلام بذيء ، أو فعل قبيح - فأمثال هذه الدعاوى لا تسمع ، بل يعزر مدعيها ، وهو ما تقتضيه الشريعة التي مبناها على الصدق والعدل (٢) .

(١) الطرق الحسكية ص ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩

(٢) المصدر نفسه ص ٩٢ .

٩- قالوا : يقبل قول الوصى فيما ينفقه على اليتيم إذا ادعى ما يقتضيه العرف ، فإذا ادعى أكثر من ذلك لم يقبل قوله (١) .

١٠- تحديد سن البلوغ للغلام والمجارية بخمس عشرة سنة عند عدم ظهور أمارات البلوغ ، وذلك عند الصاحبين ، وهو رواية عن أبي حنيفة ، وبه قالت الأئمة الثلاثة ، وعللوا ذلك بأنه العادة الغالبة على أهل زمانهم (٢) .

ذلك ، وإنك لتدهش حقا حينما تطلع على كثرة المسائل الفقهية ، والأحكام التشريعية التي بناها الفقهاء الإسلاميون على العرف والعادة إذ اعتبروها أساسا من أسس التشريع - بالشروط التي أسلفناها - ولكن لا يلبث دهشك أن يزول إذا علمت أن القانون الصالح هو الذي تراعى فيه أحوال الأمة الاجتماعية والاقتصادية ، وعاداتها ، ورغباتها ، على ألا يكون في ذلك إقرار مفسدة ، أو تعطيل مصلحة ، أو مخالفة نص محكم صريح - ومن جهة أخرى فإن النزاع من العادة الظاهرة ، وإقصاء الناس عن العرف العام في غير حاجة ولا ضرورة - فيه حرج لهم ، ولا شك أن أصلح الشرائع وأجدرها بالبقاء ماروعى فيها اليسر ، واتقى منها الحرج والعسر ، وذلك ما تحقق في شريعة الإسلام .

القاعدة الحادية عشرة

قاعدة سد الذرائع ، أو حسم مادة وسائل الفساد :

معناها : أن الفعل السالم عن المفسدة متى كان وسيلة للمفسدة ، منع منه ، فالذريعة مآثره الإباحة ولكنه يفضى إلى فعل المحذور - وقد ترتب على القاعدة كثير من الأحكام ، منها : النهى عن خلو المرأة بالرجل ، وسفرها بدون محرم قطعاً لدابر الفساد والإغواء ، وسد أبواب التجنى على العرض والأخلاق ، وقد اشتهر عن المالكية أن سد الذرائع من خصائص مذهبهم ، وليس ذلك بصحيح على إطلاقه ، فإن الذرائع ثلاثة أقسام :

«١» المصدر السابق ص ٢١ .

«٢» الجزء الخامس من رد المحتار ص ١٠٠ طبعة سنة ١٣١٨ هـ .

١ - قسم أجمعت الأمة على سده ، ومنعه ، وحسمه ، كحفر الآبار في طريق المسلمين ، فإنه وسيلة إلى هلاكهم فيها - ومثل سب الأصنام عند من يعلم من حاله أنه يسب الله تعالى عند سبها .

٢ - وقسم أجمعت الأمة على عدم منعه ، وأنه ذريعة لاتسد ، ووسيلة لاتحسم كالمنع من زراعة العنب خشية الحر ، فإنه لم يقل به أحد ، كالمنع من المجاورة في البيوت خشية الزنا .

٣ - وقسم اختلف العلماء فيه - كبيعوع الآجال عند المالكية ، كن باع سلعة بعشرة نسيئة ، ثم اشتراها بسبعة نقداً : فالك يقول إنه أخرج من يده سبعة حالة ليأخذ عشرة عند حلول الاجل ، فهذه وسيلة لإقراض سبعة بعشرة ، وإن توسل إليها بإظهارها في صورة البيع - والشافعي ينظر إلى صورة البيع ، ويحمل الأمر على ظاهره ، فيجيز ذلك - ومنه : اختلاف العلماء في قضاء القاضي بعله : أيحرم لأنه وسيلة للقضاء بالباطل من قضاء السوء أم لا يحرم (١) ؟ وكذلك تضمين حملة الطعام ، لثلاثتهم أيديهم إليه . فليس سد الذرائع خاصاً بمالك ، لأن أصل سدها يجمع عليه ، وإنما قال بها مالك أكثر من غيره .

قال القرطبي : «سد الذرائع ذهب إليه مالك وأصحابه ، وخالفه أكثر الناس في القول به كأصل من الأصول ، وإن كانوا قد عملوا به في أكثر فروعهم تفصيلاً ، ثم قال : إن ما يفضى إلى الوقوع في المحظور قطعاً ليس من هذا الباب ، بل من باب ما لا خلاص من الحرام إلا باجتنابه ، ففعله حرام - كما أن ما لا يتم الواجب إلا به يعتبر واجباً - فإن كان لا يفضى إليه قطعاً ، فإما أن يفضى إليه غالباً ، أو ينفك عنه غالباً ، أو يتساوى الأمران ، وهو المسمى بالذرائع عند المالكية ، فالأول لابد من مراعاته ، والثاني والثالث موطن للخلاف بين الأصحاب (٢) :

«١» راجع بمبحث حكم القاضي بعله وآراء الأئمة فيه في الطرق الحسكية من ص ١٧٤ إلى ص ١٨٠ ، وانظر أيضاً نيل الأوطار .
«٢» لإرشاد الفحول ص ٢١٧ طبعة صبيح (بقى من التصرف)

وقد يستدل لاعتبار هذه القاعدة بقوله صلى الله عليه وسلم : « الحلالُ بَيِّنٌ والحرامُ بَيِّنٌ ، وبينهما أمورٌ مشتهاتٌ ، والمؤمنون وقَّافون عند الشبهاتِ » ، وقوله : « ألا وإن حَسَىَ اللهُ معاصيه ، فمن حَامَ حَوْلَ الحَسَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ » ، وقوله « دَعُ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ » .

وليست كل ذريعة يجب سدها ، بل قد يجب فتحها ، وقد تكره ، أو تندب ، أو تباح ، وكما أن الوسيلة إلى أقبح المقاصد أقبح الوسائل ، فالوسيلة إلى أفضل المقاصد أفضل الوسائل ، وقد تكون وسيلة المحرم غير محرمة إذا أفضت إلى مصلحة راجحة .

وقد تفرع من هذه القاعدة قاعدة أخرى وهي : « كلما سقط اعتبار المقصد سقط اعتبار الوسيلة غالباً » ، فإنها تبع له في الحكم (١) .

ولقد أحسن ابن القيم وأنعم ، وأحاط بتلك القاعدة إحاطة العالم المحقق ، ولنفاضة بحثه فيها آثرنا أن نذكره هنا ملخصاً ، حرصاً على تمام النفع والإفادة : عرف ابن القيم الذريعة بأنها ما كانت وسيلة وطريقاً إلى الشيء ، وقال ما خلاصته :

لما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تفضي إليها ، كانت طرقها وأسبابها تابعة لها معتبرة بها ، فوسائل المحرمات والمعاصي في كراهتها والمنع منها إنما هو بحسب إفضائها إليها ، وارتباطها بها ، كذلك وسائل الطاعات والقربات في محبتها والإذن فيها - بحسب إفضائها إلى غايتها ، فوسيلة المقصود تابعة للمقصود ، وكلاهما مقصود ، لكنه هو مقصود قصد الغايات ، وهي مقصودة قصد الوسائل ، فلا مناص إذا حرم الشارع شيئاً - أن يحرم الوسائل والطرق المفضية إليه - تحقيقاً لتحريمه ، وثبتيّاً له ، ومنعاً أن يقرب حماءه ، ولو أنه أباح الوسائل والذرائع المفضية إليه لكان ذلك نقضاً للتحريم ، وإغراءً للنفس به ، وحكمته تعالى وعلمه بإعلان ذلك كل الإباء .

«١» الفروق للقرافي ج ٢ ص ٣٩، ٤٠، ٤١ من الطبعة التونسية سنة ١٣٠٢ هـ .

ثم قسم الوسائل أربعة أقسام :

الأول :- وسيلة موضوعة للإفضاء إلى المفسدة - كشرب المسكر المفضى إلى مفسدة السكر ، وكالقفذ المفضى إلى مفسدة القرية ، والزنا المفضى إلى اختلاط الماء ، وفساد القراش ، ونحو ذلك - فهذه أقوال وأفعال وضعت مفضية لهذه المفاسد ، وليس لها ظاهر غيرها ، ولهذا جاءت الشريعة بالمنع من هذه الوسيلة تحريماً ، أو كراهة بحسب درجتها في المفسدة .

الثاني :- وسيلة مباحة في ذاتها ، قصد بها التوصل إلى المحرم أو المفسدة - كمن يعقد النكاح قاصداً به التحليل ، أو يعقد البيع قاصداً به الربا .

الثالث :- وسيلة مباحة في ذاتها ، أو مستحبة لم يقصد بها التوصل إلى المفسدة ، لكنها مفضية إليه غالباً ، ومفسدتها أرجح من مصلحتها - كمن يصلي تطوعاً بغير سبب في الأوقات التي نهى عن الصلاة فيها (١) ، أو يسب آلهة المشركين بين أظهرهم ، أو يصلي بين يدي القبر لله ، وكثير من المتوفى عنها زوجها في زمن عدتها .

في هذين القسمين رأى ابن القيم المنع ، واستدل عليه بتسعة وتسعين وجهاً - مما دلّ على قدرته وتمكنه ورسوخه في العلم - منها :

(١) قوله تعالى : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » ، فحرم الله تعالى سب آلهة المشركين ، مع كون السب حجة لله وإهانة لآلهتهم ، لكونه ذريعة إلى سبهم الله تعالى ، ومصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم .

(٢) قوله تعالى : « وَلَا يَضْرِبَنَّ بِالْأَرْجُلِ » ، وإن كان جائزاً في نفسه ، لتلا يكون سبباً إلى سماع الرجال صوت الخلخال ، فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إلىهن .

(٣) نهى الله تعالى عن البيع وقت نداء الجمعة لئلا يتخذ ذريعة إلى التشاغل بالتجارة عن حضور الصلاة .

(٤) نهى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عند طلوع الشمس ، وعند غروبها ، وكان من حكمة ذلك أنهما وقتان لسجود بعض المشركين للشمس ، فنهى عن الصلاة لله في هذين الوقتين - سدًا لذريعة المشابهة الظاهرة التي قد تكون ذريعة إلى المشابهة في القصد ، مع بعد هذه الذريعة ، فكيف بالذرائع القريبة ؟ .

(٥) منع النبي صلى الله عليه وسلم المقرض من قبول الهدية حتى يحسبها من دينه ، لئلا يتخذ ذلك ذريعة إلى تأخير الدين لأجل الهدية ، فيكون ربا في المعنى .

(٦) منع الولي والقاضي من قبول الهدية ، لأن قبولها ممن لم تجر عاداته بإهدائه ، ذريعة إلى قضاء حاجته ، وإن لم يكن صاحب حق .

(٧) نهى المرأة عن السفر بغير محرم ، لأن سفرها بغيره قد يكون ذريعة إلى الطمع فيها .

(٨) جمع عثمان المصحف على حرف واحد من الأحرف السبعة حتى لا يكون عدم الجمع ذريعة إلى اختلافهم في القرآن ، ووافقه على ذلك الصحابة .

القسم الرابع :- وسيلة موضوعة للبإباح ، وقد تفضى إلى المفسدة ، ولكن مصلحتها أرجح من مفسدتها ، كالنظر إلى الخطوبة ، والمشهود عليها ، وفعل ذوات الأسباب (من الصلوات) في الأوقات المنهى عنها على رأى من سوغه من العلماء ، والتكلم بكلمة الحق عند سلطان جائر - هذا القسم 'جاءت الشريعة - كما يقول ابن قيم الجوزية - بإباحته ، أو استحبابه ، أو إيجابه ، بحسب درجته في المصلحة . وهذا المبحث النفيس تجده مبسوطا في الجزء الثالث من إعلام الموقعين لابن القيم ، وفي التوسل (١) والوسيلة لابن تيمية .

«١» طبعة المار الثانية بمصر ص ١٦ .

القاعدة الثانية عشرة

« من سعى في نقض ماتم من جهته فسعيه مردود عليه ، ولهذه فروع وأمثلة كثيرة في مبحث المعاملات والدعاوى . »

الثالثة عشرة

« من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه ، وقريب منها قولهم : « من فعل فعلاً بقصد محرم - عوقب بنقيض قصده ، ، وهي قاعدة مشهورة يتبعها فروع كثيرة ، منها : إذا طلق الرجل امرأته في مرض موته بائناً بلا رضاها قاصداً حرمانها من الإرث ، فإنها ترثه ، وكذلك حرمان من قتل مورثه بغير حق - من الإرث . »

وقد ذكر في الأشباه ثمان مسائل استثنيت من حكم هذه القاعدة ، منها : ما إذا قتل الدائن مدينه ، فإنه يحل دينه ، ومنها : ما إذا شربت المرأة دواء لتحريض الحاضة ، فإنها لا تقضى الصلاة ، كذلك إذا قتلت أم الولد سيدها فإنها تعتق ولا تحرم العتق ... الخ .

الرابعة عشرة

اليقين لا يزول بالشك : - ودليلها ما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن زيد ، قال : « شكى إلى النبي صلى الله عليه وسلم الرجل يخيل إليه أنه يجد الشيء في الصلاة قال : « لا ينصرف حتى يسمع صوتاً ، أو يجد ريحاً ، ، وقد لهج الفقهاء بذكر هذه القاعدة كثيراً ، حتى قيل : إنها تدخل في جميع أبواب الفقه ، وإن المسائل المخرجة عليها تبلغ ثلاثة أرباع الفقه وأكثر (١) - وفي معنى هذه القاعدة

قول القرافى فى الفروق : « كل مشكوك فيه يجعل كالمعدوم الذى يحزم بعده ، ،
أو كل مشكوك فيه ملغى فى الشريعة - وقد استثنى منها مسائل ذكرها صاحب
الاشباه والنظائر .

تلك القاعدة تندرج فيها قواعد ، تذكر لك أهمها :

(ا) الأصل بقاء ما كان على ما كان حتى يظن زواله أو يتيقن - وهو
أصل تفرعت عليه مسائل كثيرة ، منها : أن من أيقن بالطهارة ، وشك فى
الحدث فهو على طهارته ، ومن تيقن الحدث ، وشك فى الطهارة ، فهو محدث .
ومنها : أنهم أفتوا بطهاره طين الطرقات - وقالوا : إن اللقيط يعتبر حرا فى جميع
أحكامه ، لأن الحرية هى الأصل ، والرق عارض . ومن فروعه : ما لو كان لمحمد
على إبراهيم ألف جنيه ، فبرهن إبراهيم على الأداء أو الإبراء ، ثم برهن محمد على
أن له عليه ألفا ، لم تقبل بينته حتى يبرهن أنها حادثة بعد الأداء أو الإبراء ، لأن
البينة الأولى أبرأت ذمة المدين ، فلا تشغل بالاحتمال .

(ب) الأصل براءة الذمة ، ولهذا كانت البينة على المدعى لدعواه خلاف
الأصل ، والقول قول المدعى عليه لموافقة الأصل ، وإذا اختلف المدعى والمدعى
عليه فى قيمة المغصوب ، أو الشيء المتلف فالقول قول الغارم ، لأن الأصل
البراءة عما زاد .

(ج) الأصل إضافة الحادث إلى أقرب أوقاته - ولهذا فروع كثيرة ، منها :
ما إذا ادعت المرأة أن زوجها أبانها فى المرض ، وأنه بذلك صار فارا فترته ، وقالت
الورثة : أبانها فى صحته ، فلا ترث ، كان القول قولها فترث ، وكذا لو أقر لوarith
ثم مات ، فقال المقر له : أقر فى الصحة ، وقالت الورثة : أقر فى مرضه - فالقول
قول الورثة ، والبينة بينة المقر له ، وإن لم يقم بينة وأراد استحلافهم فله ذلك ،
ومنها : ما لو رأى فى ثوبه نجاسة وقد صلى فيه ، ولا يدرى متى أصابته ؟ فإنه يعيدها
من آخر حدث أحدثه .

(د) الاستصحاب (١) :- فسر في الاشياء تبعاً للتحرير - بأنه الحكم ببقاء أمر محقق لم يظن عدمه - وأوضح منه قول بعضهم : هو الحكم بثبوت أمر في وقت بناء على ثبوته في وقت آخر - وهو على نوعين :
أحدهما : أن يقال : إنه كان ثابتاً في الماضي ، فيكون ثابتاً في الحال كحياة المفقود .

والثاني : أن يقال : هو ثابت في الحال فيحكم بثبوته في الماضي - كما إذا مات نصراني ، لجأت امرأته مسلمة ، وقالت : أسلت بعد موته ، وقالت الورثة : أسلت قبل موته - فالقول للورثة ، ولا تصدق هي إلا ببينة ، لأن سبب الحرمان ثابت في الحال فيثبت فيما مضى تحكماً للحال .

وقد اختلف العلماء في اعتباره حجة ، فقيل : إنه حجة مطلقاً (أى في الدفع والإثبات) ، وقيل : إنه ليس بحجة أصلاً ، واختاره ابن نجيم . وقيل : إنه حجة للدفع لا للاستحقاق ، فهو يصلح لدفع ما ليس بثابت ، ولكنه لا يثبت استحقاقاً لا يقوم عليه دليل ، ولا يكون حجة لإلزام الخصم ، وهو اختيار الفحول الثلاثة : أبي زيد ، وشمس الأئمة ، ونظر الإسلام ، وهو الرأي الذي تقرر في أصول الفقه عند الحنفية ، ومن ثم ترى في كتبهم كثيراً تلك القاعدة المشهورة : « الاستصحاب حجة تصلح للدفع لا للاستحقاق ،

ومن فروعها ما إذا بيع شقص من دار مشتركة ، وطلب الشريك الشفعة . فأنكر المشتري ملك الطالب لما في يده ، فإن القول قوله ، ولا شفعة لطالبها إلا ببينة ، لأن الاستصحاب ليس بحجة لإلزام الخصم ، وكذلك المفقود فإنه لا يرث عند الحنفية ، ولا يورث ماله قبل الحكم بوفاته (٢) .

«١» مضي القول مستوفى في الاستصحاب عند الكلام في أصول التبريع المختلف فيها ، وذكرناه هنا موجزاً كقاعدة فقهية يرجع إليها بعض الفروع .
«٢» راجع الفصل الرابع من الباب الثاني من هذا الكتاب .

الخامسة عشرة

الأصل في الأشياء الإباحة حتى يدل الدليل على عدم الإباحة :- وهذا مذهب

الشافعي وبعض علماء الحنفية ، ومنهم الكرخي - ودليل هذا الأصل قوله تعالى :
« خلق لكم ما في الأرض جميعا » . أخبر بأنه خلقه لنا على وجه المنة علينا ، وأبلغ
وجوه المنة إطلاق الانتفاع ، فتثبت الإباحة - وقال بعض أصحاب الحديث :
الأصل فيها الحظر . ونسب الشافعي إلى أبي حنيفة أن الأصل التحريم حتى يدل
الدليل على الإباحة - وقال بعض العلماء : الأصل فيها التوقف ، ومعناه : أنه لا بد
لها من حكم ، لكننا لم نقف عليه بالعقل . « وتام الكلام في الأشباه وشرحه
للحموي (١) » .

القاعدة السادسة عشرة

الخراج بالضمان : ويقرب منها : الغنم بالنرم .

الخراج : كل ما خرج من شيء ، فخراج الشجرة ثمرها ، وخراج الحيوان دره
ونسله ، وبالجملة : خراج الشيء منافعها ، وهو يطيب لمن يكون الأصل في ضمانه
(والمراد به ضمان الملك) - ومن فروعها : ما ذكره فقهاء الحنفية في باب خيار
العيب : من أن الزيادة المنفصلة غير المتولدة من الأصل كالكسب والغلة ، لا تمنع
الرد بالعيب ، وتسلم للمشتري ، ولا يضر حصولها له بالجنان ، لأنها لم تكن جزءاً
من المبيع فلم يملكها بالثمن ، وإنما ملكها بالضمان ، ألا ترى أن المبيع إذا هلك
في يد المشتري قبل رده بالعيب فإنه يهلك من ماله .

وهذه القاعدة هي لفظ حديث مروي ، وفي بعض طرقه ذكر سببه : وهو
أن رجلاً ابتاع عبداً ، فأقام عنده مدة ، ثم وجد به عيباً ، فخاصم بائه إلى النبي
صلى الله عليه وسلم ، فردّه عليه ، فقال الرجل : يا رسول الله قد استعمل غلامى ،
فقال : « الخراج بالضمان » .

«١» وانظر أيضاً إرشاد الفحول ص ٢٥١ طبعة سنة ١٣٤٩ هـ .

القاعدة السابعة عشرة

الأمور بمقاصدها : ولهذا قد يتصف الشيء الواحد بالحل والحرم باعتبار ما قصد منه ، ومن أمثلته : هجر المسلم أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام ، فإنه دائر مع القصد ، فإن قصد هجره من غير موجب شرعي للهجر - حرم ، وإن كان موجب شرعي لا يحرم - ومثل ذلك : اللقطة ، إن أخذها بنية تعريفها والبحث عن صاحبها ليردها إليه حل ، وإن أخذها لنفسه ، كان غاصبا آثما .

الثامنة عشرة

« سبيل الكسب الخبيث التصديق به إذا تعذر الرد على صاحب الحق » :
ومن فروع الفقهاء على هذه القاعدة : أن الرجل إذا مات عن مال جمعه من ظلم أو رشوة ، يتورع الورثة ، ولا يأخذون منه شيئا ، وحرمة عليهم ديانة لاحكاما ، فإن علموا أربابه ردُّوه عليهم ، وإلا تصدقوا به (١) .

التاسعة عشرة

« ما اجتمع محرم ومبيح إلا غلب المحرم (٢) » : ومن فروع هذه القاعدة :
ما إذا تعارض دليلان أحدهما يقتضي التحريم ، والآخر الإباحة ، فإنه يقدم المحرم ، ومن أمثلة ذلك - على ما ذكره بعض العلماء - حديث « لك من الخائض ما فوق الإزار » وحديث « اصنعوا كل شيء إلا النكاح » ، فالأول يفيد تحريم ما بين السرة والركبة ، والثاني يفيد إباحة ما عدا القربان ، فيرجع التحريم احتياطاً ، وهو رأى أبي حنيفة ، وأبي يوسف ، والشافعي ، ومالك - كذلك من فروعها عدم حل الصيد إذا شارك الكلب المعلم غير المعلم .

« ١ » راجع الجزء الخامس من رد المحتار ص ٢٥٥ .

« ٢ » إلا في مسائل مستتناة - راجعها في الأشياء إن شئت ص ١٤٦ ، ١٤٧ من المجلد

الأول طبعة سنة ١٢٩٠ هـ .

القاعدة العشرون

« إذا تعارض المانع والمقتضى - قدم المانع (١) ، ومن فروعها : أنه إذا

ضاق الوقت والماء عن سنن الطهارة فإنه يحرم فعلها ، كذلك منع الراهن والمؤجر من التصرف في المرهون والعين المستأجرة لحق المرتهن والمستأجر ، مع أن الملكية تقتضى مشروعية التصرف فيهما .

الحادية والعشرون

« كل ما تتكرر مصلحته بتكرر فعله فهو مشروع على الأعيان تكريراً

للمصلحة بتكرر ذلك الفعل ، وما لا تتكرر مصلحته بتكرر فعله ، يكون مشروعاً على الكفاية » :

ومن أمثلة الشطر الأول من القاعدة : الصلوات الخمس ، فإنها شرعت لتعظيم الله تعالى ومناجاته ، والمثول بين يديه ، والتأدب بأدابه ، وغير ذلك ، وهذه الحكم والمصالح تتكرر كلما كررت الصلاة - وهذا أساس قاعدة فرض العين ، أو ما يطلب عينياً ، وإن كان مندوباً كالصدقات .

ومن أمثلة الشطر الثانى منها : إنقاذ الغريق ، فإنه إذا انتشله إنسان ، تحقق المقصود ، وكان النازل بعد ذلك فى البحر لا يحصل شيئاً من المصلحة ، فجعله الشرع على الكفاية لذلك ، ومثله : كسوة العريان ، وإطعام الجائع ، ويتصور فى السنن والمندوبيات كالآذان .

الثانية والعشرون

« يقدم فى كل ولاية مَنْ هو أقدر على القيام بحقوقها ومصالحها » :

فى الولاية العامة يقدم من هو أعرف بسياسة الأمة ، ومقاصد الشريعة ، وولاية

« ١ » إلا فى مسائل ذكرت فى الأشباه ص ١٥٢ من المجلد الأول طبعة سنة ١٢٩٠ هـ .

الأكفاء، وعزل الضعفاء، ومكافحة الأعداء، وتصريف الأموال، وأخذها من مظانها، وصرفها في وجوها - وفي ولاية الحروب يقدم من هو أعرف بمكايدها، وبسياسة الجيوش، والصولة على الأعداء - وفي القضاء يقدم من هو أعرف بالأحكام الشرعية (١)، وأشد تفتنا لحجاج الخصوم وخدمهم.

ومراعاة لتلك القاعدة قدم الرجال على النساء في الإمامة والحروب، وغيرهما من المناصب، لأن الرجال أقوم بمصالح تلك الولايات منهن - وقدمت النساء على الرجال في باب الحضانة، لأنهن أصبر على أخلاق الصبية، وأشد شفقة، وأعظم رافة، وأقل أنفة بما يكره من الأطفال (٢).

الثالثة والعشرون

« تصرف الإمام في شئون الرعية منوط بالمصلحة (٣)، وأصلها ما روى

أن عمر رضي الله عنه قال: «إني أنزلت نفسي من مال الله تعالى بمنزلة ولي اليتيم: إن احتجت أخذت منه، فإذا أسرت رددته، فإن استغثت استعفت»، وفي رواية أخرى قال لولائه: «إني أنزلت نفسي ولياًكم من هذا المال بمنزلة ولي اليتيم، والله تبارك وتعالى يقول: «ومن كان غنياً فليستعفف»، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف»، وقد عمل فقهاء الإسلام بهذه القاعدة في مواطن كثيرة، فمن ذلك قولهم: إن السلطان لا يصح له وقف أرض بيت المال إلا لمصلحة عامة (٤)، وقولهم: إن السلطان لا يصح عفو عن قاتل من لا ولي له، وإنما له القصاص، أو الدية، لأن الحق للعامة، والإمام نائب عنهم فيما هو أنظر لهم، وليس من النظر إسقاط حقهم بالمجان.

«١» الفروق للرافي.

«٢» المصدر السابق.

«٣» الأشباه.

«٤» الجوى.

والزيلي كليات في واجب الإمام نحو بيت مال المسلمين ، فيها أبلغ درس ،
وأفنع عظة - قال بعد أن ذكر أن أموال بيت المال أربعة أنواع :

« وعلى الإمام أن يجعل لكل نوع من هذه الأنواع بيتاً يخصه ، ولا يخلط
بعضه ببعض ، لأن لكل نوع حكماً يختص به ... » ثم قال : « ويجب على الإمام
أن يتقى الله تعالى ، ويصرف إلى كل مستحق قدر حاجته من غير زيادة ، فإن
قصر في ذلك كان الله عليه حسيباً » . قال في الأشباه : « وإذا كان فعل الإمام مبنيًا
على المصلحة فيما يتعلق بالأمور العامة لم ينفذ أمره شرعاً إلا إذا وافقه ، فإن
خالفه لم ينفذ (١) . »

وفي معنى تلك القاعدة قول الإمام القرافي في الفروق (٢) :

« إن كل من ولي الخلافة فما دونها إلى الوصية ، لا يحل له أن يتصرف إلا
بجلب مصلحة ، أو درء مفسدة ، لقوله تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي
أحسن » ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ وَلِيَ مِنْ أُمُورِ أُمَّتِي شَيْئًا ،
ثُمَّ لَمْ يَجْتَهِدْ لَهَا ، وَلَمْ يَنْصَحْ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ » . »

الرابعة والعشرون

« إذا تعارضت الحقوق - قدم منها المضيق على الموسع ، والفورى على

المتراخي ، وفرض العين على الكفاية ، ومن فروعها تقديم حكاية قول المؤذن على

قراءة القرآن ، لأن تلاوته لا تفوت ، وحكاية قول المؤذن تفوت بالقراغ من
الأذان ، ويقدم إنقاذ الغريق والحريق ونحوهما على الصلاة ، إذا كان المرء في
الصلاة ، أو خارجاً عنها ، وخشى فوات وقتها ، فيفوتها ويصون ما تعين صوته
من ذلك (٣) . »

«١» الأشباه من ١٥٢ ، ١٥٨ ج ١ طبع سنة ١٢٩٠ هـ .

«٢» الجزء الرابع من الطبعة التولسية .

«٣» الفروق .

القاعدة الخامسة والعشرون

والاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد (١) ، وذلك لأن الاجتهاد الثاني ليس بأقوى من الأول ، ولأنه لو نقض الاجتهاد بالاجتهاد لأفنى ذلك إلى ألا يستقر حكم ، وفيه مشقة شديدة .

ومن فروعها - كما في الأشباه - إذا تغير اجتهاد المصلي في القبلة عمل باجتهاده الثاني ، مع وقوع اجتهاده الأول صحيحاً ، حتى لو صلى أربع ركعات إلى أربع جهات بالاجتهاد فلا قضاء - ولو حكم الحاكم بشيء ، ثم تغير اجتهاده - لا ينقض حكمه الأول ، غير أنه في المستقبل يحكم بما رآه باجتهاده الثاني .

استدلوا على تقرير هذه القاعدة بأن أبا بكر رضى الله عنه حكم في مسائل ، ثم خالفه فيها عمر رضى الله عنه ، ولكنه لم ينقض حكمه ، وصح عن عمر أنه لما كثرت عليه أمور الدولة قلد القضاء أبا الدرداء ، فاختصم إليه رجلان ، وبعد أن قضى لأحدهما أتى المقضى عليه عمر ، فسأله عن حاله ، فقال : قضى على ، فقال : لو كنت أنا مكانه لقضيت لك ، فقال له : ما يمنعك عن القضاء ؟ فقال له : ليس هناك نص ، والرأى مشترك ، بل إن عمر نفسه في أول عام من خلافته قضى بعدم إعطاء الأخ الشقيق شيئاً في مسألة الميراث المعروفة بالحجرية أو المشتركة (٢) ، فلما نزلت ثانياً عام أراد القضاء بمثل ذلك ، فاحتج عليه الشقيق بأن الإخوة لأم إنما ورثوا الثلث بأمرهم وهي أمى ، هب أن أبانا كان حماراً ، أو حجراً ملقى في

١٠ قال الحموى ص ١٤١ من المجلد الأول : الاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد إلا إذا اشتمل النقض على مصلحة عامة .

٢٠ هي التي توفيت فيها امرأة من زوج ، وأم ، وإخوة لأم ، وأخ شقيق ، أو إخوة أشقاء ، سواء أكانوا ذكورا فقط ، أم وجد معهم أخت شقيقة أو أكثر : فلزوج النصف ، وللأم السدس ، وللأخوة لأم الثلث ، ولا شيء للأشقاء لاستغناء الفروض القرينة ، وهذا على رأى بعض العلماء ، ولكن الرأى الراجح وهو الممدول به الآن والمحكم المرعية هو إشراك الأشقاء مع الإخوة لأم في الثلث .

الم ، أليست الأم تجمعنا ؟ فأشرك بينهم ، فقل له : إنك قضيت في أول عام بخلاف هذا ؟ فقال : تلك على ما قضينا ، وهذه على ما نقضى ، ولم ينقض أحد الاجتهادين بالآخر .

السادسة والعشرون

د لا اجتهاد عند ظهور النص ، : فيحرم الإفتاء والحكم في دين الله بما يخالف نصوص الكتاب ، أو السنة الثابتة ، وقد نقل ابن القيم لإجماع العلماء على ذلك ، واستدل بقوله تعالى : د وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولهُ أمراً أن يكون لهمُ الخيرةُ من أمرهم ، وَمَنْ يَعصِ اللهَ ورسوله فقد ضلّ ضلّالاً مبيناً ، وقوله تعالى : د وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكافرون ، د وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظالمون ، د وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفاسقون ، فأكد هذا التأكيد ، وكرر هذا التقرير في موضع واحد لعظم مفسدة الحكم بغير ما أنزله ، وعموم مضرته ، وبلية الأمة به .

روى أن رجلاً من ثقيف أتى عمر بن الخطاب ، فسأله عن امرأة حاضت ، وقد زارت البيت يوم النحر ، ألها أن تنفر ؟ فقال عمر : لا ، فقال له الثقيفي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفتانى في مثل هذه المرأة بغير ما أفتيت به ، فقام إليه عمر يضربه بالدرة ، ويقول : لم تستفتينى في شيء قد أفتى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ كما روى عن عمر بن عبد العزيز قوله : د لا رأى لأحد مع سنة سنّها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال الشافعي : أجمع الناس على أن من استبانته له سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس ، كما تواتر عنه أنه قال : إذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط (١) .

١٥ الجزء الثاني من إعلام الموقعين من ص ٢٠٨ إلى ص ٢١٥ الطبعة المنيرية .

السابعة والعشرون

حكم الحاكم في مسائل الاجتهاد يرفع الخلاف (١) .

الثامنة والعشرون

يغتفر في التوابع ما لا يغتفر في غيرها . ويقرب منها قولهم : يغتفر في الشيء
ضمننا ما لا يغتفر قصداً (٢) .

التاسعة والعشرون

التابع لا يفرد بالحكم ، والتابع يسقط بسقوط المتبوع ، ويسقط الفرع إذا
سقط الأصل - ومن أمثلة ذلك : أن إبراء الأصل وهو المدين يترتب عليه براءة
الكفيل ، وهي قواعد أغلبية قد تتخلف في بعض الفروع لاعتبارات أخرى (٣) .

الفاعدة الثلاثون

كلام صاحب الشرع إذا كان محتملاً احتمالين على السواء صار مجملاً ، وليس
حملة على أحدهما بأولى من حملة على الآخر (٤) .

الحادية والثلاثون

الاحتمال المرجوح لا يقدح في دلالة اللفظ ، وإلا سقطت دلالة العمومات
كلها لتطرق احتمال التخصيص إليها (٥) .

الثانية والثلاثون

« إعمال الكلام أولى من إهماله متى أمكن ، فإن لم يمكن أهمل » - ولذلك
قال علماء الأصول : إذا تعذرت الحقيقة يصار إلى المجاز ، فإن تعذرت الحقيقة

« ٣٤٢ » راجع الأشباه .

« ١ » راجع الفروق .

« ٥٤٤ » راجع الفروق .

والمجاز أهمل الكلام لعدم إمكان إعماله - ومن فروع هذه القاعدة : صحة الإقرار للحمل إذا لم يبين المقر سبباً على رأى بعض العلماء ، ويحمل على ما إذا بين سبباً صالحاً كالإرث والوصية - إعمالاً للكلام إذ هو أولى من إعماله - ومنها : إذا حلف لا يأكل من هذا الدقيق فإنه يحث بأكل ما يتخذ منه وهو الخبز مثلاً (١) .

ومن هذا الباب قولهم : « التأسيس خير من التأكيد » يريدون به أنه قد يذكر الكلام ، أو اللفظ ، فيحتمل أن يكون مؤكداً لغيره ، ويحتمل أن يكون دالاً على معنى جديد غير مستفاد من غيره - فإذا دار اللفظ بينهما ، ولم يوجد مرجح قوى في أحد الجانبين - كان حمله على التأسيس أولى .

الثالثة والثلاثون

« الانتقال من الحرمة إلى الإباحة يشترط فيه أعلى الرتب ، والانتقال من

الإباحة إلى الحرمة يكفي فيه أيسر الأسباب :

في الشريعة أحكام كثيرة تؤيد هاتين القاعدتين ، فمن ذلك أن المسلم محرم الدم ، ولا تذهب حرمة دمه إلا بقتل نفس عمداً عدواناً ، أو زنى بعد إحصان ، أو ردة ، وهى أسباب عظيمة ، فإذا أبيح دمه بالقصاص حرم بالغزو ، وإذا أبيح بالردة حرم بالتوبة ، أما حرمة دمه بالتوبة فى الزنا فهى محل خلاف بين العلماء ، والجمهور على رجه وإن تاب ، واتفقوا على سقوط الحد عن المحارب إذا تاب من قبل أن يقدر عليه (٢) .

كذلك الأجنبية لاتزول حرمة قربانها إلا بعقد متوقف على إذنها ، وحضور شهود ، والتزام صداق - فإذا أبيحت بعد العقد يكفي فى ارتفاع الإباحة الطلاق الذى يستقل الزوج به - وهناك مسائل تخرج أحكامها عن مقتضى هاتين القاعدتين ، ولكنها قليلة .

«١» المجلد الأول من الأشباه والنظائر .

«٢» راجع الفروق للرافى والقياس فى المبرع الإسلامى لابن القيم وابن تيمية .

الرابعة والثلاثون

« أسباب الإرث ثلاثة: زوجية ، وقرباءة ، وولاء . - ضابط ذلك أن

السبب إما أن يمكن إبطاله أو لا ، فإن أمكن فهو الزوجية لأنها تطل بالطلاق - وإن لم يمكن إبطاله فإما أن يقتضى التوارث من الجانبين غالباً أو لا ، فإن اقتضى التوارث من الجانبين غالباً فهو القرباءة ، وإن لم يقتضه إلا من أحد الجانبين فهو الولاء (١) .

القاعدة الخامسة والثلاثون

« من الحقوق ما ينتقل إلى الوارث ، ومنها ما لا ينتقل ، :

قال القرافي : الضابط لما ينتقل إلى الوارث من الحقوق ما كان متعلقاً بالمال ، أو يدفع ضرراً عن الوارث في عرضه بتخفيف ألمه - أما ما كان متعلقاً بنفس المورث ، وعقله ، وآرائه ، وصفاته ، فإنه لا ينتقل منه إلى وارثه ، وذلك لأن الورثة إنما يرثون المال ، فيرثون ما يتعلق به تبعاً له ، ولا يرثون عقله ، ولا نفسه ، فلا يرثون ما يتصل بذلك . وعلى هذا فلا يورث ما فوض إلى المورث من الولايات ، والمناصب ، كالإمامة ، والخطابة ، والوكالة ، كما لا يورث حقه في النية إذا آلى من زوجته ، ومثل ذلك : آراؤه ، وأفعاله الدينية .

لكن هذا الضابط مع التسليم به والاعتراف بصحته ، لم يمنع الأئمة من الاختلاف عند تطبيقه في بعض الفروع ، وذلك لاختلافهم في مدركها ، فأبو حنيفة ، وأحمد بن حنبل يريان عدم انتقال خيار الشرط إلى الوارث ، والشافعي ، ومالك يقولان باتقاله - كذلك يمنع أبو حنيفة انتقال حق الشفعة إلى الورثة ، ولكن بعض العلماء يرون انتقاله ، كمالك ، والشافعي - وسبب هذا الخلاف أن القائل بالانتقال يرى الخيار صفة للعقد ، فينتقل معه ، لأن آثار العقد انتقلت

« ١ » إذ المولى الأعلى هو الذى يرث الأسفل دون العكس .

للوارث ، ويرى أبو حنيفة أن الخيار في الفرعين المذكورين صفة للعاقدة ، لأنها مشيئة واختياره ، فتبطل بموته ، كما تبطل سائر صفاته (١) .

السادسة والثلاثون

(١) قاعدة ما يجوز التوكيل فيه : إذا كان المقصود من الفعل يحصل من الوكيل كما يحصل من الموكل ، وهو ما يجوز الإقدام عليه - جازت الوكالة فيه ، كمعد النكاح ، فإن مقصوده تحقيق سبب الإباحة ، وهو يتحقق من الوكيل ، ولا معصية في مباشرته ، فتجوز الوكالة فيه ، ومثل ذلك : سائر العقود الشرعية ، والتوكيل بالخصومة ، وقبض الديون .

(ب) قاعدة ما لا يجوز التوكيل فيه : كل فعل لا تحصل مصلحته إلا للباشر ، أو كان المقصود منه لا يحصل من الوكيل كما يحصل من الموكل - لا يجوز التوكيل فيه لقوات المصلحة بالتوكيل ، كالصلاة ، فإن المقصود منها إظهار العبودية وكمال الخضوع ، وخضوع الوكيل لا يلزم منه خضوع الموكل ، فتفوت الحكمة والمصلحة ، ومثلها : الإيمان ، فإن الغرض منها إظهار صدق الحالف فيما يدعى ، ولا شك أن حلف شخص ليس دليلا على صدق شخص آخر ، كذلك الشهادة لا تقبل توكيلا - إلا عند الضرورة ، وفي حالات معينة عند بعض الأئمة ، لأنها مبنية على الوثوق بمدالة الشاهد عند تحمله الشهادة ، وذلك المعنى لا يتحقق بأداء غيره - ويأحق بما ذكر : المعاصي ، فإن التوكيل فيها غير مشروع ، لأن غرض الشارع عدم حصولها ، ومشروعية التوكيل فيها فرع تقريرها شرعا ، وهو خلاف المفروض (٢) .

السابعة والثلاثون

« ما يحرم أخذه يحرم إعطاؤه ، ومن أمثلة ذلك : الربا ، وأجر البغي ، وما يعطى للمنجم ، وأجرة النائحة ، والرشوة - قال في الأشباه : خرجت عن هذه »
 «١» راجع الفروق .
 «٢» المصدر السابق .

القاعدة مسائل ، منها : الرشوة إذا خاف على نفسه ، أو ماله ، وهذا في جانب الدافع ، أما في جانب المدفوع له فهي حرام ، ومنها : ما إذا استولى غاصب على مال صبي ، وتعذر أخذه منه ، فللوصي أن يعطيه شيئاً ، لإنقاذ مال الصغير .

الثامنة والثلاثون

« لاعتبرة بالظن البين خطؤه » : وهي قاعدة أغلبية غير مطردة . ومن فروعها :

أن المكلف إذا ظن الماء نجساً فتوضأ به ، ثم تبين أنه طاهر ، فإن وضوءه جائز ، ومنها : ما لو ظن من وجبت عليه الزكاة أن المدفوع إليه لا يستحق الزكاة فدفع له ، ثم تبين أنه مصرف - فإنه يحجزه ، وتبرأ ذمته - ولعدم اطراد هذه القاعدة خرج عن حكمها مسائل اعتبر فيها ظن المكلف ، منها : ما لو ظن من تجب عليه الزكاة أن المدفوع إليه مصرف ، يستحق الزكاة فدفع له ، ثم تبين أنه غني ، أو أن من أخذها ابنه ، فإن ذلك الدفع يحجزه ، وتبرأ به ذمته عند أبي حنيفة ومحمد ، لما روى عن معن بن يزيد قال : « كان أبي يزيد أخرج زكاته يتصدق بها ، فوضعها عند رجل في المسجد ، فجئت فأخذتها فأيتته ، فقال : والله ما ليأك أردت ، فخاصمته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « لك مانويت يا يزيد ، ولك ما أخذت يامعن (١) » . وذهب أبو يوسف إلى أنه لا يبرأ بذلك الدفع ، لأن خطأه قد ظهر بيقين ، فصار كما إذا توضأ بماء ، أو صلى في ثوب ، ثم تبين أنه كان نجساً ، أو قضى القاضى باجتهاد ، ثم ظهر له نص يخالفه .

التاسعة والثلاثون

« إذا اجتمع المباشر والمتسبب ، أضيف الحكم إلى المباشر (٢) » :

هذه القاعدة مشهورة في كتب الحنفية ، تجدها في كتب أصول الفقه ، وفروعه وقد رتبوا عليها فروعاً كثيرة ، منها : عدم وجوب الضمان على حافر البئر متعدياً

« ١ » انظر الحموى على الأشباه ج ١ ص ١٩٣ من الطبعة العامة سنة ١٢٩٠ هـ .

« ٢ » المباشر هو من يحصل التلف بفعله من غير أن يتخلل بين فعله والتلف فعل مختار

والتسبب ما يحصل التلف بفعله ولكن فصل بين فعله والتلف فعل مختار .

إذا أُلِف فيها شيء بإلقاء غيره ، وعدم ضمان من دلة سارقاً على مال شخص فسرقه ، وأسرفوا في تطبيقها مع إطلاقها حتى قالوا : لو منع شخص رجلاً من دخول داره حتى تلف ما في الدار - لم يضمن شيئاً (١) ، ولم يحرموا القاتل بتسبب من الإرث مع أنه قد يكون قاصداً قتل مورثه - ونحن نرى أن إقرار هذه القاعدة على إطلاقها من غير تقييد لإقرار للظلم ، وتسهيل لارتكابه ، كما نرى أن القول بإضافة الحكم إلى المباشر وحده يجب أن يكون مقصوراً على ما إذا كان المتسبب غير قاصد ولا متعمد الإضرار ، وإلا وجب أن يضاف إليه الحكم ، كما يضاف إلى المباشر ليحمل كل منهما نصيبه على قدر ما أحدث من الضرر ، وأضاع من الحقوق ، ولهذا نجد الحنفية أنفسهم يهولهم تطبيق هذه القاعدة في بعض الحوادث ، فيعمدون إلى استثنائها ، ووضع أحكام أخرى لها ، فن ذلك قولهم : إن المودع يضمن الوديعة إذا دل السارق عليها ، وإن عللوا ضمانه بترك الحفظ ، ومنها : إفتاء متأخريهم بتضمين من سعى بإنسان - بغير حق - إلى سلطان ظالم فخرمه ، فإن الساعي يضمن في هذه الحالة ما أخذه الظالم (٢) .

القاعدة الأربعون

قاعدة ما يوجب الضمان : قال القرافي المالكي : لا ضمان إلا بواحد من أسباب ثلاثة :-

- الاول : تفويت الشيء مباشرة ، كأكل طعام ، وقتل حيوان ، وإحراق ثوب .
- الثاني : وضع اليد غير المؤتمنة ، كيد الغاصب ونحوه ، ولا كذلك يد المودع .
- الثالث : التسبب في الإلتلاف ، كإيقاد النار على مقربة من الزرع ، أو وضع السموم في الأطعمة ، وحفر البئر ، أو وضع الأذى عدواناً في موضع لم يؤذن

١٥٠ الحموى ج ١ ص ١٩٦ طبعة سنة ١٢٩٠ هـ .

٢٥٠ راجع الحموى ص ١٩٧ من المجلد الأول المطبعة العامرة سنة ١٢٩٠ هـ .

فيه - والتسبب ما يحصل التلف أو الهلاك عنده بعلة أخرى إذا كان السبب هو المقتضى لوقوع الفعل بتلك العلة ، كحفر البئر إذا تردت فيها بهيمة أو غيرها ، فإذا أرداها غير الحافر فالضمان عليه دون الحافر تقديماً للبشر على المتسبب .

وبما يترتب على هذه القاعدة تضمين فاتح القفص بغير إذن ربه فيطير مافيه ، ولا يقدر صاحبه على إعادته ، ومن يحل دابة من رباطها فتند ، لأن كلا منهما متسبب في إضاعة المال على صاحبه ، ومذهب مالك يقضى بالضمان مطلقاً ، سواء أكان الطيران والمهرب عقب الفتح والحل أم لا - والشافعي يفصل : فهو يقول بالضمان إن طار الحيوان عقب الفتح ، وإلا فلا ضمان ، لأن الحيوان طار بإرادته لا بالفتح . ورأى مالك أقوى لأن هذه الأمور سبب الإتلاف عادة ، فتوجب الضمان ، ولا يمكن الجزم بأن الطائر كان مختاراً للطيران ، فلعله كان مختاراً الإقامة خوف الجوارح الكواسر ، أو ترقباً للأكل ، وإنما طار خوفاً من الفاتح ، ومضى كان هذا محتملاً ، وكان السبب معلوماً فإن الضمان يضاف إليه - على أن فتح القفص ليس سبباً محضاً ، بل هو في معنى المباشرة لما في طبع الطائر من النفور من الآدمي ، وقصد الطائر ليس في قوة قصد الآدمي بل هو ضعيف ، فلا يتعلق به حكم مع وجود السبب من الآدمي : ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « جرح العجماء جبار (١) » .

الحادية والأربعون

« الحدود تدرأ بالشبهات » : هذه القاعدة مستفيضة ، وفروعها في كتب الفقه كثيرة ، وبخاصة عند علماء الحنفية ، حتى قال صاحب فتح القدير (٢) : إن هذا الحكم - يعني درء الحد بالشبهة - يجمع عليه ، والشبهة ما يشبه الثابت ، وليس بثابت . وقد قسم الحنفية الشبهة في حد الزنا ثلاثة أقسام :

١ - شبهة في الفعل ، وتسمى شبهة الاشتباه . وهي تتحقق في حق من اشتبه

« ١ » جبار : هدر وباطل .

« ٢ » شرح على كتاب الهداية في مذهب الحنفية .

عليه الحل والحرمه ، فظن غير الدليل دليلا ، كظنه حلّ قربان المطلقة ثلاثا في العدة ، وجارية زوجته ، أو أصله ، فلا حد إذا قال : ظننت أنها تحل لي ، ولو قال : علمت أنها حرام علىّ وجب الحد .

٢ - وشبهة في المحل ، وهي في ستة مواضع ، منها : المطلقة طلاقاً بائناً بالكنايات ، وجارية فرعه ، وفيها لا يجب الحد ، وإن قال : علمت أنها علىّ حرام ، لأن المانع هو الشبهة في نفس الحكم .

٣ - وشبهة في العقد ، فلا حد إذا واقع محرمة بعد العقد عليها ، وإن كان عالماً بالحرمه عند أبي حنيفة - وقال الصحابيان : يحد إذا قال : علمت أنها حرام ، والفتوى على قولهما . ومن أمثلة شبهة العقد : قربان امرأة اختلف في صحة نكاحها . ومن فروع هذه القاعدة التي ذكرت في كتب الحنفية : عدم قبول الشهادة بحد متقادم إلا في القذف ، وذلك إذا لم يكن هناك عذر ، كبعدم عن مكان القضاء - كذلك لا يستحلف في الحدود ، لأن الاستحلاف لرجاء النكول ، وفيه شبهة وهي دائرة للحد ، حتى إذا أنكر القاذف ما قذف به ، ولا بينة عليه ، ترك من غير يمين . ومنها : رجوع المقر بالزنا عن إقراره ، فإنه يقبل ويحلى سبيله ، وكذا إذا امتنع الشهود عن البده برجم من شهدوا عليه ، فإن في ذلك شبهة تسقط الحد ، كذلك قالوا : لا قطع في السرقة إذا سرق الإنسان مال أصله وإن علا ، أو فرعه وإن سفل ، أو سرق أحد الزوجين مال الآخر . ثم أسرفوا في التطبيق ، فقالوا : لا قطع إذا سرق مالا من بيت مأذون له في دخوله ، أو ادعى السارق ملكية المسروق وإن لم يثبت الملكية بعد ما ثبتت السرقة عليه بالبينة ، أو الإقرار ، لأن الشبهة دائرة للحد ، فتستحق بمجرد الدعوى بدليل صحة الرجوع بعد الإقرار . ولا شك أن بعض هذه الفروع التي قررها علماء الحنفية لا يسلم من النقد والاعتراض ، ولكنها في مجلتها تدل على مدى احتياط الفقهاء الإسلاميين في تنفيذ الحدود ، ومباغتتهم في درئها ، حتى أتوا في ذلك بأحكام ناشرة على العقل . ومن ثم نرى الشافعية لا يكتفون بمطلق الشبهة في درء الحدود ، بل يشترطون فيها أن تكون قوية .

والأصل في تقرير هذه القاعدة ما رواه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعا ، وعن عائشة رضی الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادرموا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن كان له مخرج (١) نخلوا سبيله ، فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة ، وقد روى موقوفا ، والوقف أصح ، وعن عمر : « لأن أخطئ في الحدود بالشبهات أحب إلى من أن أقيمها بالشبهات (٢) » .

هذا والتعزير يخالف الحدود ، فإنه يثبت مع الشبهة ، ولذا قالوا : يثبت بما يثبت به المال ، ويمر في الحلف ، ويقضى فيه بالنكول (٣) .

الثانية والأربعون

الأصل في العقد أن يكون لازماً ، لأنه إنما شرع لنحصيل المقصود من المعقود به ، أو المعقود عليه ، ولدفع الحاجات ، والذي يناسب ذلك اللزوم دفعا للحاجة ، وتحصيلا للمقصود - غير أن العقود - مع هذا الأصل - انقسمت قسمين : - أحدهما : لازم ، كالنكاح ، والبيع ، والإجارة ، والآخر : لا يتحقق منه مصلحته ، ولا يستلزمها مع اللزوم ، فشرع جوازه مع عدم اللزوم . وقد ذكر صاحب الفروق أن عقود القسم الثاني خمسة (٤) ، منها : الوكالة ، ومنها : التحكيم قبل الحكم ، وذلك لما يترتب على اللزوم فيها من فرط الضرر ، ومع الضرر قد يتعذر حصول المقصود منها ، ففي الوكالة قد يطلع فيما وكل فيه على تعذر أو ضرر ، فجعلت على الجواز ، وتحكيم الحاكم خطر على المحكوم عليه لما فيه من اللزوم إذا حكم ، وقد يطلع الخصمان على سوء العاقبة في ذلك ، فلا يشرع اللزوم في حقهما نفياً للضرر عنهما ، وجميع العقود

«١» لعل الضمير راجع (للمسلم) المفهوم من السياق ، بدليل ما ذكر في رواية أخرى « فإن وجدتم المسلم غزوا نخلوا سبيله » راجع المجلد الأول من الأشباه .

«٢» راجع نيل الأوطار .

«٣» الأشباه .

«٤» هي : الجلالة ، والفراش ، والمفارقة ، والوكالة ، وتحكيم الحاكم قبل المروع في الحكومة - وقد عرض في الفروق لبيان حكمه عدم اللزوم في كل عقد من هذه العقود .

غير اللازمة اشتركت - بوجه عام - في معنى واحد ، هو عدم انضباط العقد بحصول مقصوده ، فشرعت على الجواز مع عدم لزوم لذلك (١) .

الثالثة والأربعون

الأصل اعتبار الغالب وتقديمه على النادر - وهو شأن الشريعة في أكثر فروعها وأحكامها : فرخصت بقصر الصلاة الرباعية ، والفطر في السفر ، بناء على غالب الحال وهو المشقة ، وحكمت بعدم قبول شهادة الخصوم ، والأعداء ، لأن الغالب منهم الخيف ، ومثل ذلك كثير في الشريعة .

وقد يلغى الشارع الغالب رحمة بالعباد ، معتبراً النادر ، ومن ذلك : ما إذا تزوجت المرأة : فجاءت بولد لسته أشهر من وقت العقد ، فإن الغالب أن يكون من قربان قبل العقد ، والنادر أن يكون من ملامسة بعده ، فإن غالب الأجنة لا توضع إلا لتسعة أشهر ؛ ولكن الشارع ألغى حكم الغالب ، وأثبت حكم النادر ، فحكم بثبوت نسب الولد في الصورة السابقة ، رحمة بالعباد ولطفاً بهم ، ورغبة في صون أعراسهم ، والستر عليهم (٢) .

القاعدة الرابعة والأربعون

الأصل أنه لا تجوز الشهادة بشيء إلا إذا علم بوجه من الوجوه الموجبة للعلم ، ومدارك العلم أربعة : العقل ، وإحدى الحواس الخمس ، والنقل المتواتر ، والاستدلال . ومن الشهادة بالنظر والاستدلال شهادة أبي هريرة : أن رجلاً قام نحرّاً ، فقال له عمر : تشهد أنه شربها ؟ قال : أشهد أنه قامها ، فقال عمر رضي الله عنه : ما هذا التعمق ؟ فلا وربك ما قامها حتى شربها .

والأصل في الشهادة : العلم ، واليقين ؛ وقد تجوز بالظن والسماع في مواطن

«١» الفرق التاسع بعد المائتين في الجزء الرابع من كتاب الفروق ص ١٦٠، ١٦١ من الطبعة التولسية .

«٢» الفروق .

الضرورة - والمالكية توسعوا في قبول الشهادة بالتسامح حتى قبلوها في نحو خمسة وعشرين موضعاً ، ذكرها القرافي ، منها : الأحباس ، والمالك المتقدم ، والنسب ، والموت ، والولاية ، والعزل ، والحمل ، والولادة ، والرضاع ، والنكاح ، والطلاق ، والوصية ، ومن الأشياء ما لا يثبت بالحس ، بل بقرائن الأحوال ، كالإعسار ، فيدرك بالخبرة الباطنة بوساطة القرائن ، ويكتفي في الشهادة به الظن القريب من اليقين (١) .

القاعدة الخامسة والأربعون

« ثبتت تقيض حكم الأصل في الفرع لثبوت ضد علته فيه ، وهو من قياس العكس الجلي ، يوضحه ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وفي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ » ، قالوا : يا رسول الله : يأتي أحدنا شهوته ، ويكون له فيها أجر ؟ قال : « أرأيتم لو وضعها في حرام أكان يكون عليه وزرٌ ؟ » قالوا : نعم ، قال : فكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ يَكُونُ لَهُ أَجْرٌ (٢) . »

السادسة والأربعون

المثبت للحكم يحتاج إلى إقامة الدليل عليه اتفاقاً ، وأما الثاني له فقليل : يحتاج أيضاً إلى إقامة الدليل على النفي - قال الماوردي : إنه مذهب الشافعي وجمهور الفقهاء والمتكلمين لقوله تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ، ودفع هذا بأن الثاني غير مدع ، بل هو متمسك بالبراءة الأصلية ، واقف حتى يأتيه الدليل وتضطره الحجة إلى العمل ، وقيل : إنه يحتاج إلى إقامة الدليل في النفي العقلي دون الشرعي ، وقيل : لا يلزمه الدليل إن نفي العلم عن نفسه ، فقال : لا أعلم ثبوت هذا الحكم ، وإن نفاء مطلقاً احتاج إلى الدليل ، لأن نفي الحكم حكم ، كما أن الإثبات حكم . وهناك قول رابع رجحه الإمام الشوكاني في إرشاد الفحول ، وهو أنه لا يحتاج إلى إقامة دليل ، لأن الأصل في الأشياء النفي والعدم ، فمن نفي الحكم له

« ١ » الفروق .

« ٢ » الجزء الأول من إعلام الموقعين ص ١٧٣ من الطبعة المنيرية .

أن يكتفى بالاستصحاب ، ويتمسك بالبراهة الأصلية ، فلا يجب عليه دليل ، وإلى هذا القول ذهب أهل الظاهر إلا ابن حزم فإنه رجح المذهب الأول (١) .

القاعدة السابعة والأربعون

قول علماء الحنفية ومن تابعهم : لا يجوز إثبات الحدود من طريق القياس ، وإنما طريق إثباتها التوقيف (٢) .

القاعدة الثامنة والأربعون

« الأصل في النصوص التعليل » ، وهذا يشير إلى أن معقول المعنى أفضل من التعبدى ، وإن خالف في ذلك بعض العلماء ، وفي الحلية عند الكلام على فرائض الوضوء : اختلف العلماء في الأمور التعبدية ، هل شرعت لحكمة عند الله تعالى وخفيت علينا أو لا ؟ والأكثر على الأول ، وهو المتجه لدلالة الاستقراء على أن الله تعالى رتب شريعته على جلب المصالح للعباد ، ودرء المفاسد عنهم ، فما شرعه إن ظهرت حكمته لنا قلنا : إنه معقول المعنى ، وإلا قلنا : إنه تعبدى ، والله سبحانه العليم الحكيم (٣) .

ذلك ، وقد ورد على لسان صاحب الشريعة ، صلوات الله وسلامه عليه ، كلمات جامعة تعتبر قواعد كلية للتشريع ، كقوله : « كلُّ مُسْكِرٍ حرامٌ » ، « وكلُّ عَمَلٍ ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ » ، « وكلُّ قَرْضٍ جَرٍّ نَفْعاً فهو رِبَاٌ » ، « وكلُّ شَرْطٍ ليس في كتابِ الله فهو باطلٌ » ، « وكلُّ المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » ، « وكلُّ أحدٍ أحقُّ بماله من ولده ، ووالده ، والناس أجمعين » ، « وكلُّ مُحَدَّثَةٍ بدعة ، وكل بدعة ضلالة (٤) » ، « لا طاعة

« ١ » راجع لإرشاد القحول .

« ٢ » سبق بيان ذلك مع ذكر رأى المخالفين في مبحث القياس من هذا الكتاب .

« ٣ » الجزء الأول من رد المحتار ص ٣١٤ .

« ٤ » الجزء الأول من إعلام الموقعين ص ٢٩٠ .

المخلوق في معصية الخالق (١) . كما جاء مثل ذلك في القرآن الكريم ، كقوله تعالى : « يسألونك ماذا أحل لهم ، قل : أحل لكم الطيبات » ، وقوله : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » ، وقوله : « الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص » ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، حتى دخل فيه ما لا تحصى أفراد من الجنايات وعقوباتها ، وقوله : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » ، فدخل فيه جميع الحقوق التي للمرأة وعليها ، وبين أن مرد ذلك إلى ما يتعارفه الناس بينهم ، ويجعلونه معروفاً لا منكر (٢) .

تلك أهم قواعد الفقه الإسلامي ، وهي جوامع التشريع وضوابطه : ما من فرع من الفروع ، ولا حكم من الأحكام إلا يستطيع رده إلى قاعدة منها ، فيلزم يدل فقهاء الغرب ، وعلما القانون بفضلهم ١٤ ولماذا يولع أفراد منا بالأخذ من هذه القوانين ، ويرمون القانون الإسلامي بالتأخر والجمود ؟ وما الجمود إلا فينا ، والتفريط راجع إلينا ، لأننا أغلقنا باب الاجتهاد بأيدينا ، أما الشريعة فبليغة ، وأما قواعدها فن العقل نجمت ، وعلى العدل والإحكام أسست ، وأحكام الفروع ، ومسائل الاجتهاد - إن روعيت قواعد الشريعة وأصولها - قابلة للتطور ومسايرة أحوال الأمم في مختلف العصور - كما أشرنا إلى ذلك غير مرة « إن في ذلك كذاً كثيراً لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » .

«١» انظر التوسل والوسيلة لابن تيمية ص ١٠٥ طبعة المنار الثانية بمصر .

«٢» الجزء الأول من إعلام الموقعين .

مصادر هذا الباب :

- ١ - الفروق للقرافي ، الطبعة التونسية سنة ١٣٠٢ هـ .
- ٢ - الأشباه والنظائر لزين العابدين إبراهيم الشهير بابن نجيم المصري الحنفى ، المطبعة العامة سنة ١٢٩٠ هـ .
- ٣ - غرر عيون البصائر شرح الأشباه والنظائر لأحمد بن محمد الحنفى الحموى ، المطبعة العامة سنة ١٢٩٠ هـ .
- ٤ - إعلام الموقعين .
- ٥ - رد المحتار على الدر المختار ، المطبعة الميمنية سنة ١٣١٨ هـ .
- ٦ - نيل الأوطار ، طبعة الحلبي سنة ١٣٤٧ هـ .
- ٧ - فتح القدير على الهداية .
- ٨ - الطرق الحكيمة فى السياسة الشرعية .
- ٩ - النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير .
- ١٠ - نداء الجنس اللطيف .
- ١١ - قاعدة جلية فى التوسل والوسيلة لابن تيمية .
- ١٢ - إرشاد الفحول .

الباب الخامس محاسن الشريعة الإسلامية ومزاياها

للتشريع الإسلامي مزايا ومحاسن - جعلت شريعته أغنى الشرائع ، وأوفاهما
بم حاجات الأفراد ، والجماعات ، وأكفلها بتحقيق طمأنينة الأمم وسعادتها ، وقوتها
وعزتها ، بل هي إذا اتبعت مع آداب الإسلام ، ووصاياه الأخرى كفيلة
بتكوين أمة مثالية ، تجتمع فيها عناصر القوة العادلة ، والمنعة والحياة الصالحة
والمدينة الفاضلة ، وتتهيأ لها أسباب التقدم والنهوض ، إلى أرفع المراتب ، وأسمى
الدرجات ، وبذلك تستحق خلافة الله في الأرض لتملاها عدلا وأمنا ، وإحساناً
ورحمة .

وليس في قدرتنا أن نخصي هذه المزايا لتنوعها وكثرتها ، وحسبنا أن نذكر
هنا ما تيسر لنا من وجوه مميزاتها ، وضروب محاسنها ، ليكون مثالا وشاهدا ،
يكشف عما فيها من قوة الحياة ، ونصوع العدالة ، وسمو المبادئ ، وببل المقصد
وشرف الغاية ، فنقول (١) :

الوجه الأول

يسرها وبعدها عن العسر والحرج :

من أبين خصائص التشريع الإسلامي ، وأبرز محاسنه ومزاياه - يسر أحكامه ،

«١» يلاحظ أن بعض ما ذكره هنا من مزايا التشريع الإسلامي ومحاسنه ، سبق
ذكره في الأصل الأول من أصول التفرع وهو كتاب الله تعالى (راجع أساس التفرع
القرآني ومزاياه) كما سبق بيان بعضه في القواعد العامة للفقهاء ، ولا ضير في ذلك ، لأن
مناسبات البحث المختلفة تهمي هذا التكرار ، وإن اختلف الكلام إجمالا وتفصيلا .

وسهولة تكاليفه ، وبعده عن الحرج ، والعسر ، والإعنات ، حتى قيل :
« ما ضاق شيء إلا السع » ، ومسايرة أوامره ونواهيه للطبيعة البشرية ، والفترة
الإنسانية التي لم يمسسها دنس ولا رجس ، ليس في ذلك شيء يعتتها ، ولا حكم
يشق عليها - ولا غرو فهي شريعة الرحمن الرحيم ، وتنزيل من الخبير العليم ،
ووحى وهداية من العزيز الحكيم ، وتفصيل وبيان من رسوله الصادق الأمين ،
الذي هو بالمؤمنين رموف رحيم .

والآيات القرآنية في ذلك المعنى مستفيضة ، قال الله تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » ، وقال : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ، وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ،
وَلَا يَضُرُّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ - التيمم عند عدم وجود الماء أشار إلى حكمة ذلك
التيسير والتخفيف في قوله في سورة المائدة : « وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَى ، أَوْ عَلَى سَفَرٍ
أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمِ مِنَ الْغَائِطِ ، أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ، فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً - فَتَيَمَّمُوا
صَعِيدًا طَيِّبًا ، فامسحوا بوجوهكم ، وأيديكم منه ، ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ
مِنْ حَرَجٍ ، وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ، وَلِيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ،
كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ - جل شأنه - في سورة الحج : « وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ،
هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » .

ومثل ذلك : الأحاديث ، فإنها جمة متضافرة على هذا المعنى ، فمن ذلك : ما رواه
الإمام أحمد في مسنده : « أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْخَنْفِيَّةُ السَّمْحَةُ » ، وفي شئامه
صلى الله عليه وسلم : « مَا يُخَيَّرُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا » ،
وروى (١) أن أعرابياً دخل المسجد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ،
فصلى ، ثم قال : اللهم ارحمني ومحمداً ، ولا ترحم معنا أحداً ، فقال النبي صلى الله
عليه وسلم : « لَقَدْ تَحَجَّجْتَ (٢) وَاسْعَا » ثم لم يلبث أن بال في ناحية المسجد
فأسرع الناس إليه ، ففهم الرسول ، وقال : « إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُبَسِّرِينَ ، وَلَمْ

«١» الحديث ذكر في كتاب مفتاح السنة للمرحوم الشيخ عبد العزيز الحنولي ، نقله عن

«٢» ضيقت ماوسه الله .

سنن أبي داود .

تُبْعَثُوا مُعَسَّرِينَ ، مُصْبُوا عَلَيْهِ نَحْلًا (١) من ماء ، أو قال : ذَنْبًا (٢) مِنْ مَاءٍ .

وقد عد الفقهاء ذلك أصلاً من الأصول التي اعتبرها الشارع ، ورتبوا عليه كثيراً من الأحكام ، وقد بسطنا القول في ذلك ، في القاعدة التاسعة من القواعد الفقهية للتشريع الإسلامي .

الثاني

موافقة أحكامها لمقتضى العقل والقياس الصحيح ، وبجيتها وفق النظرة السليمة التي فطر الله الناس عليها قيل أن تفسدها الأهواء ، وتطغى عليها الشهوات : فما نُص عليه من الأحكام في الكتاب والسنة معقول المعنى ، له حكم جليلة ، وأسرار شريعية سامية ، حتى العبادات لها في جملتها من الحكم ، والمنافع التهذيبية ، والخلقية ، والنفسية ، والاجتماعية ، ما لا يمكن أن يخفى على ذوى العقول السليمة ، وقد بيناها في التشريع القرآني ، ولا يصيرها أنها في بعض تفصيلاتها قد يخفى علينا وجه الحكمة فيها ، فإن خضاعها لا ينفي وجودها ، وقد تكون حكمته في العبادات اختبار قوة الإيمان في العبد وإظهار مدى طاعته وامتناله لربه - وما لم ينص عليه وهي الأحكام الاجتهادية المبنية على الرأي والقياس ، ومراعاة المصالح ، ودرء المفاسد ، مصدره العقل ، وحرية الرأي ، التي لا تقيد إلا بمراعاة العدالة ، وإقرار الحقوق ، وما ينبني أن يراعى من أصول الاجتهاد الشرعي وقواعده .

فشريعة الإسلام شريعة العقل والفطرة ، وليس فيها شيء يخالف القياس الصحيح ، ولذا جاءت رحمة وحكمة ، ومصلحة ونعمة - قال ابن القيم الجوزية في

(١) السجل : اللو الملائى ماء .

(٢) الذنوب : اللو أو فيها ماء ، وقيل : لا تسمى ذنوباً حتى تكون مملوءة ماء ، تذكر وتؤنث .

كتابه الطرق الحكيمة (١) : ما أثبت الله ورسوله قط حكماً من الأحكام يقطع ببطلان سنته حساً ، أو عقلاً ، فإشاً أحكامه سبحانه من ذلك ، فإنه لا أحسن حكماً منه سبحانه ، ولا أعدل ، ولا يحكم حكماً يقول العقل : ليته حكم بخلافه ، بل أحكامه كلها بما شهد العقل والنظر بحسنها ووقوعها على أتم الوجوه وأحسنها ، وأنه لا يصلح في موضعها سواها . .

وقال شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية في كتاب القياس في الشرع الإسلامي :

« ليس من شرط القياس الصحيح المعتدل أن يعلم صحته كل أحد ، فمن رأى شيئاً من الشريعة مخالفاً للقياس ، فإنما هو مخالف للقياس الذي انعقد في نفسه ، ليس مخالفاً للقياس الصحيح الثابت في نفس الأمر ، وحيث علمنا أن النص جاء بخلاف قياس علمنا قطعاً أنه قياس فاسد . . . فليس في الشريعة ما يخالف قياساً صحيحاً لكن فيها ما يخالف القياس الفاسد ، وإن كان من الناس من لا يعلم فساداه . »

الثالث

كون الغاية منها تحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد ، ودفع الضرر والمفاسد عنهم ، وتحقيق العدالة المطلقة ، فما من حكم منصوح عليه ، أو حكم اجتهدى إلا روعى فيه تحقيق هذه الغاية . قال ابن قيم الجوزية في كتابه المذكور (٢) : « ومن له ذوق في الشريعة وإطلاع على كالاتها ، وأنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد ، وبجيتها بغاية العدل الذي يفصل بين الخلائق ، وأنه لا عدل فوق عدلها ، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح - عرف (٣) أن السياسة العادلة جزء من أجزائها ، وفرع من فروعها ، وأن من له معرفة بمقاصدها ، ووضعها مواضعها وحسن فهمها فيها - لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة . »

(١) ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ طبعة سنة ١٣١٧ هـ .

(٢) ص ٤٤ ، ٥٠ .

(٣) في الأصل وعرف .

وقال فيها أحد كبار الباحثين في هذا العصر (١):
 « الأمور الشرعية التي دونها الفقهاء المسلمون قبل نحو أحد عشر قرناً ههنا في
 عدالة أصولها ، وسمو مستواها واتفاقها مع الحق الطبيعي جميع القوانين الوضعية
 حتى التي سنت في القرن العشرين . ثم قال : إن من يتأمل في التشريع الذي
 استنبطه علماء المسلمين في الرق والأرقاء ، وفي المرأة وما يتعلق بها من حقوق
 طبيعية وروحية ، وفي الأيتام والفقراء ، وفي حقوق المحاربين ، والمعاهدين
 والأجانب ، والذميين ، وفي الشئون المدنية ، والجنائية ، وفي العقوبات والتعزير -
 من يتأمل في هذا كله يجد تفوقاً ظاهراً في التشريع الإسلامي على التشريع
 الأوروبي في القرن العشرين » .

ولا شك أن ذلك هو الجدير بشريعة جاءت مكتملة لما كان في الشرائع قبلها
 من قصور ، أو نقص ، بعد أن استعدت أمم البشر لتلقى هذا السكال ، ونضجت
 لتقبل أسس المبادئ ، وأشرف الغايات والمقاصد ، وهو فن بشريعة عامة جاءت
 لإصلاح البشر كافة ، بعد أن كانت كل شريعة قبلها خاصة بأمة معينة ، ومقصورة
 على زمن محدود .

روى عن رسولنا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - أنه قال : « مثل ومثل
 الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها إلا موضع لبنة ، فكان من دخلها
 فنظر إليها ، فأعجب بها قال : ما أحسن هذه الدار إلا موضع هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ،
 بي ختم الله الأنبياء والمرسلين (٢) » .

الرابع

انقسام تكليفها إلى عزائم ورخص - وكان ابن عمر يرجح جانب العزائم ،
 وابن عباس يرجح جانب الرخص ، والناس في ذلك درجات من حيث التشمير

« ١ » من مقال لعمر في مجلة الأزهر .

« ٢ » هذا الحديث روى ببارات مختلفة ، ومعناها واحد في جميعها .

والاعتدال والتقصير (١) . قال الله تعالى : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَنُفِضَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ » .

الخامس

إباحتها الطيبات والزينة بدون إسراف ولا مَخِيلَة ، فنعت الغلو في الدين ، وأبطلت جعله تعذيباً للنفس . قال الله تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا ، وَاشْرَبُوا ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ، قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ : هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢) » .

السادس

توفيتها بمطالب الجسد والروح معا في حدود الاعتدال ، فهي وسط جامع لحقوق الجسد والروح ، ومصالح الدنيا والآخرة : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكنوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » . فالإسلام بتعاليمه ووصاياه وتشريعه جعل المسلمين وسطاً بين الذين تغلب عليهم الحظوظ الجسدية والمنافع المادية ، وبين الذين تغلب عليهم التعاليم الروحية ، وتعذيب الجسد ، وإذلال النفس (٣) . وقد تجلّى لك ذلك بما أسلفنا ذكره وبيانه ، في المحاسن السابقة .

السابع

من محاسن التشريع الإسلامي : المساواة في التكاليف والأحكام ، والقضاء

«١» الوحي المحمدي . «٢» المصدر السابق . «٣» المصدر نفسه .
٢٧١

والتنفيذ ، فأحكام الشريعة الإسلامية وتكليفها مبنية على مبدأ المساواة ؛ كلف بها الأفراد والجماعات بلا تمييز ، فأحكامه وعقوباته وحدوده لا يستثنى منها شئ واسع الثراء ، ولا أمير عريض الجاه ، ولا خليفة تدين له الخلائق بالطاعة والامثال ، فالمسلمون كلهم متساوون في الحقوق والواجبات ، وفي التكليف ، والقوانين ، والأحكام ، لا فرق بين عربي وعجمي ، ولا بين أبيض وأسود ، ولا بين حاكم ومحكوم ، تقرر هذا المبدأ من يوم أن برزت شمس الإسلام ، وسطع النور المحمدي ، منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ونصف .

وهنا تغلبنا الدلائل والشواهد كثيرة ، ولذلك نجتزئ بذكر بعضها فنقول :
١- من أصول التشريع الإسلامي - وهو من مميزات ذلك - اعتبار النصوص الشرعية موجهة إلى الأمة كلها ، ما لم يدل دليل على الخصوصية ؛ ومن قواعد أصول الفقه عدم الخصوصية في الأحكام التكليفية .

٢ - صاحب الشريعة - صلوات الله وسلامه عليه - وضع هذا الأصل ، وأقره عملاً وقولاً ، ودعا أمته إلى حيافته وعدم التهاون ؛ فقد روى أنه عليه الصلاة والسلام دعا الأعرابي الذي خدشه غير متعمد ، فقال له : « اقتص مني ، فقال الأعرابي : قد أحلتك ، بأبي أنت وأمي ، ما كنت لأفعل ذلك أبداً ، ولو أتيت على نفسي ، فدعا له بخير .

وفي خطبته في حجة الوداع عرض لبعض ما كان يقترب في الجاهلية ، لحكم بأنه موضوع بالنسبة لجميع المسلمين ، وخص بالذكر ذوى القربى لادخالهم في الحكم الذي تؤخذ به الجميع ، حتى لا يتوهم متوهم أن لهم منية على من سواهم ، فقال صلى الله عليه وسلم :

« وإن ربا الجاهلية موضوع^(١) ، وإن أول ربا أبداً به ربا عمتي العباس ابن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أبداً به دم عامر ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب » .

« ١ » من وضع الجنابة عنه : أسقطها .

وخرج مرة في مرض موته ، فكان مما كلم به الناس قوله : د أيها الناس : مَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْرًا فهذا ظَهْرِي فَلَيْسَتْ قَدِ مَنِي ، وَمَنْ كُنْتُ شَتَمْتُ لَهُ عِرْضًا فهذا عِرْضِي فَلَيْسَتْ قَدِ مَنِي ، وَمَنْ أَخَذْتُ لَهُ مَالًا فهذا مَالِي فَلْيَأْخُذْ مِنْهُ ، وَلَا يَخْشَ الشُّحْنَاءَ فَهِيَ لَيْسَتْ مِنْ شَأْنِي (١) .

ومن ذلك : ما روى عن أنس أن الربيع (٢) بنت النضر كسرت ثنية جارية ، فطلب أهل الجانية إلى المجنّى عليها العفو ، فأبى أهلها ، فعرضوا الأرض (٣) فأبوا ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبوا إلا القصاص ، فأمر رسول الله به ، فقال أنس بن النضر : يا رسول الله ، أتكسر ثنية الربيع ، لا والذي بعثك بالحق لا تُكسّرُ ثنيّتها ، فقال رسول الله : د يا أنس ، كتاب الله القصاص ، فرضى القوم ، فعفوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : د إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّةَ (٤) .

كذلك نسوق إليك قضية هي أروع ما يذكر في هذا الباب : قضية المرأة المخزومية التي سرقت حلياً في زمن رسول الله ، وكانت من بيت بجادة وشرف ، فلما أراد الرسول إقامة الحد عليها - عظم ذلك على المهاجرين ، وقالوا : مَنْ يَشْفَعُ لَهَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ؟ فقالوا : مَنْ يَشْفَعُ إِلَّا أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حَبَّ رَسُولِ اللَّهِ ، فتكلم أسامة مع الرسول ، فغضب ، وقال له : د أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ؟ ثم قال : إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا .

«١» حياة محمد عليه الصلاة والسلام .

«٢» بتشديد الباء .

«٣» دية مادون النفس .

«٤» رواه البخاري والخمسة إلا الترمذي كاجاء في الجزء السابع من كتاب نيل الأوطار

للموكان ص ٢٠ - طبعة الحلبي سنة ١٣٤٧ هـ .

٣- حدثنا التاريخ أن محمد بن عمرو بن العاص - زمن ولاية أبيه على مصر - كان يجرى الخيل ، فنازعه أحد المصريين سبق ، فغضب ووثب على المصرى يضربه بالسوط ، ويقول له : خذها وأنا ابن الأكرمين ، فقدم المصرى إلى الخليفة عمر يشكو - قال أنس بن مالك راوى القصة : فوالله ما زاد عمر على أن قال له : اجلس ... ومضت فترة ، إذابه في خلالها قد استقدم عمرا وابنه من مصر ، فقدموا ومثلا في مجلس القصاص ، فنأدى عمر : أين المصرى ؟ دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين ، فضربه حتى أنخذه ، ونحن نشتهي أن يضربه ، فلم ينزع حتى أجبنا أن ينزع من كثرة ماضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ١١ . ثم قال : أجلس على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه ... قال عمرو فزعا : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشفيت ، وقال المصرى معتذرا : يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربى ... فقال عمر : أما والله لو ضربته ما حللنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه ، والتفت إلى عمرو مغضبا ، وقال له تلك الكلمة الخالدة : « يا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً »

٤ - كذلك حدثنا أن جبلة بن الأيهم آخر ملوك غسان حج بعد إسلامه ، فبينما هو يطوف بالبيت يجر ثوبه - وطئ رجل من فزارة ثوبه ، فلطمه جبلة فهشم أنفه ، وكسر ثنياه ، فاستعدى الفزارى عليه عمر بن الخطاب ، فقال له عمر : إما أن يعفو عنك الفزارى ، وإما أن يقتص منك ، فقال جبلة : أقتص منى وأنا ملك وهو سوقة ؟ قال عمر : قد شملك وإياه الإسلام ، فافتضله إلا بالعافية والتقوى ، قال جبلة : ما كنت أظن إلا أن أكون فى الإسلام أعز منى فى الجاهلية ، قال عمر : دع عنك هذا ، فلما رأى جبلة حرص عمر على القصاص ، قال : أنظر فى أمرى الليلة . ورحل بليل بخيله ورواحله ، ولحق بالشام ، ثم بالقسطنطينية فتصير ، وبقي عند قيصر ، وما يعزى إليه قوله فى ذلك سادما :

تنصرت الأشراف من أجل لكمة وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفتى فيها لجلاج ونخوة وبعث لها العين الصحيحة بالعمور
فبالت أوى لم تلدنى ولينتى رجعت إلى القول الذى قاله عمر

هذا هو الأصل في الأحكام ، وهو جريان المساواة فيها . ولا يخل بهذا الأصل تخلفه في بعض حالات قليلة محصورة ، وذلك لوجود مانع جبلي أو شرعي والحكم ومصالح تقتضي إلغاء المساواة ، وذلك مبين في موضعه من كتب الفروع ، كعدم مساواة المرأة للرجل في استحقاق النفقة عليها ، وعدم مساواته لها في حضنة الصغار من الأولاد ، وعدم مساواة المرأة للرجل في تعدد الأزواج ، وفي مقدار مايورث ، ولا يخفى أن ذلك راجع لعوامل جبلية ، وأخرى شرعية ، وحكم قد عرضنا لبيان كثير منها في أضعاف هذا الكتاب .

بهذا المبدأ العظيم عزت نفوس المسلمين في صدر الإسلام ، وسمت همهم ، وعظمت أخلاقهم ، وبرزت فيهم قوة الشخصية والمواهب ، ونجم فيهم رجال قادوا الأمة الإسلامية إلى أوج المجد والرفعة ، وساسوا العالم كله بالقسط والمعدلة ، والرفق والرحمة ، وتلك هي روح الإسلام التي بها دخل الناس في دين الله أفواجا ، وكانوا له حماة وأنصاراً : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » .

الثامن من محاسن التشريع الإسلامي

جعله العرف أساساً من أسس التشريع إذا لم يخالف نصاً صريحاً (١) ، وقد بسطنا القول في العرف والعادة ، وبيننا أثرهما في التشريع - في القاعدة العاشرة من قواعد التشريع الإسلامي .

التاسع

أن مدار العبادات في الظاهر على اتباع ما جاء به الكتاب والسنة ، فليس لأحد

«١» ومع تحقق ما سبق ذكره من الشروط الأخرى .

فيها رأى شخصي ولا رياسة ، ومدارها في الباطن على صحة النية ، والإخلاص لله تعالى (١) .

العاشر

تتبعها بواعث العمل ونية العامل : فالتشريع الإسلامي لا يقتصر في أحكامه على أعمال الإنسان الظاهرة ، وارتباطها بغيره ، ولا يكتفي بأثر التشريع الديني ولا بالحكم المنصوص عليه في القانون الواجب التطبيق في الظاهر - كما هو الشأن في القوانين الوضعية عامة - بل يتتبع بواعث العمل ونية العامل ، فيحكم عليه حكماً أخروياً يناسب النيات والبواعث الباطنية من مثوبة ، أو عقوبة أخروية - وهذا شأن التشريع الكامل الذي يقصد إلى الإصلاح الحقيقي المؤدى إلى إصلاح القلوب ، وتهذيب النفوس ، فتجري المعاملات بين الناس على أساس صالح من مراعاة العدل والحق .

إنه بذلك يجعل الإنسان - في كل ما يصدر منه - تحت رقابتين : الحشية من الله والضمير ، ثم الحشية من أحكام القانون ، ولتوضيح ذلك نذكر - على سبيل المثال - أن عقد الزواج له حكمان إذا وقع مستوفياً أركانه وشروطه :

أحدهما : أثره المترتب عليه ، وهي تلك الحقوق والواجبات التي تثبت لكل من الزوجين على الآخر .

وثانيهما : وصفه الشرعي الذي يرجع إلى نية العاقد ، والباعث له على الزواج ، فقد يكون هذا الزواج حراماً ، يعاقب المتزوج عليه في الآخرة إذا ثبت ظله لزوجه ، أو نوى بزواجه الإساءة إليها ، أو لذوي قرباها ، لأن الزواج إنما شرع لتحسين النفس ، وبقاء النسل ، وتحصيل الثواب ، وهو بالجور يرتكب المحرمات ، فتفوت المصلحة التي من أجلها شرع الزواج ، لرجحان المفسد الناجمة من الجور عليها . وقد يكون فرضاً : يثاب فاعله ، ويعاقب تاركة ، إذا كان الزوج مع قدرته

على واجبات الزوجية يتيقن الوقوع في الزنا إذا لم يتزوج . ويكون سنة مؤكدة حال الاعتدال ، فيأثم بتركه ، ويثاب إن نوى تحصيناً وولدا (١) .

الحادى عشر

من خصائص الشريعة الإسلامية التي امتازت بها على الشرائع الوضعية كلها أنها قامت على الأخلاق المرضية ، والفضائل المرعية ، وخشية الله ، ومحاسبة الوجدان والضمير في كل ما يصدر عن الإنسان - ألا ترى إلى قوله تعالى : « ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » ، وقال - صلوات الله وسلامه عليه - في الحديث المتفق عليه (٢) : إنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن (٣) بحجته من بعض ، فأقضى بنحوي مما أسمع ، فَنَ قَضَيْتُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ فَلَا يَأْخُذْهُ ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ ، ويجهتد عمر رضى الله عنه في إبعاد الناس عما يفرس الاحقاد والإلحَن في النفوس ، فيقول : « ردوا الخصوم حتى يصطلحوا ، فإن فصل القضاء يورث بينهم الضغائن ، ويشدد الرسول صلى الله عليه وسلم في النكير على من يخادع المسلمين وريثهم ، فيقول : « مَنْ غَشَّانَا فَلَيْسَ مِنَّا » ، ويقول صلوات الله عليه : « ثلاثة لا ينظرُ الله إليهم يوم القيامة ولا يُزَكِّيهم ، ولهم عذابٌ أليمٌ : رجلٌ كان له فضلٌ ماءٍ بالطريق فنعه من ابنِ السبيل ، ورجلٌ بايع إمامه ؛ لا يبايعه إلا لدنيا : فإن أعطاه منها رَضِيَ ، وإن لم يُعْطِهِ منها سَخِطَ ، ورجلٌ أقام سَلَمَتَهُ بعد العصر ، فقال : والله الذى لا إلهَ غيره ، لقد أُعْطِيتُ بها كذا وكذا ، فصدقه رجلٌ - ثم قرأ : « إن الذين يشترون بعدي

«١» راجع فتح القدير ، ورد المختار في فقه الحنفية .

«٢» الطرق الحسكية ص ١٠٠ مطبعة الآداب والمؤيد .

«٣» أراد أن بعضكم قد يكون أعرف بالحجة ، وأقطن لها من غيره ، وأشد تأميرا في

الإدلاء بها .

اللهِ وإيمانهم تمناً قليلاً أولئك لا خلاقَ لهم في الآخرةِ ، ولا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ ، ولا يَنْظُرُ إليهم يومَ القيامةِ ، ولا يُزَكِّيهم ، ولهم عذابٌ أليمٌ (١) .

وليسَت قوانين أفلاطون ، ولا الشرائع الرومانية ، ولا القوانين الغربية الحديثة - بمِستطِعة أن تجارى الشريعة الإسلامية في هذا السمو الخلقى الذى بنت عليه جميع التصرفات والمعاملات ، وما يصدر عن الإنسان من قول أو عمل .

الثانى عشر

اتساع باب العقوبات والتعزير فى التشريع الإسلامى : فإن العقوبات إن كانت مقدرة من الشارع على الجرائم المجترحة سميت حدوداً ، وهى التى بينها فى التشريع القرآنى ، وتشريع السنة ، كما فى حد الزنا ، والقذف ، والشرب ، والسرقة ، وقطع الطريق - أما إذا كانت غير مقدرة فهى التى تسمى تعزيراً ، فهو تأديب بعقوبة غير مقدرة من الشرع ، ويجب بارتكاب معصية من المعاصى التى لا حد لها ، كشهادة الزور ، وإيذاء مسلم ، أو ذمى بقول ، أو فعل ، ومنه : سب المحسن بغير الزنا ، والنظر إلى الأجنبية ، والخلوة بها ، وسرقة ما لا قطع فيه .

وتقدير العقوبات على المعاصى والمحرمات ، أو ترك الواجبات التى لم يرد فى النصوص الشرعية عقوبة معينة لها - يرجع إلى اجتهاد الأئمة ، وأولى الأمر فى كل زمان ومكان ، وتختلف باختلاف أحوال الأجرام ، وكبرها وصغرها ، وبحسب حال المذنب نفسه - ولذلك كان التعزير من أوسع الأبواب فى الشريعة الإسلامية واختلف المجتهدون فيه وفى تحديد عقوباته اختلافاً كثيراً ، وذلك من أبين الدلائل ، وأقوى الحجج ، وأسطع البراهين ، على أن الشريعة الإسلامية سمحة موطأة الاكفاف ، خصبة ، قد أقرت حرية الرأى والاجتهاد - ماروعيت أصوله ، وتحققت دعائمه وشروطه - وأنها وضعت لكل حال ما يناسبها من التشريع .

والتعزير منه ما يكون بالتوبيخ والجزر بالكلام ، ومنه ما يكون بالحبس ،

ومنه ما يكون بالنقي عن الوطن ، ومنه ما يكون بالضرب ، وقد يكون بالقتل إذا لم تندفع المفسدة إلا به ، مثل قتل المفرق لجماعة المسلمين ، والداعي إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ، كما يجوز قتل الجاسوس المسلم إذا اقتضت المصلحة قتله على رأى مالك ، وبعض أصحاب أحمد ، واختاره ابن عقيل .

ومثل ذلك التعزير بالعقوبات المالية : فإنه مشروع في مواطن مخصوصة في مذهب مالك ، وأحمد ، وأحد قول الشافعي . وقد جاءت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه بذلك في مواضع ، منها : أخذه شطر مال مانع الزكاة عزمة من عزمات الرب تبارك وتعالى ، ، وإضعاف الغرم على سارق مالا قطع فيه ، ومثل تحريق عمر وعلى المكان الذي تباع فيه الخمر ، وتحريق عمر قصر سعد بن أبي وقاص لما احتجب فيه عن الرعية - قال ابن رشد في كتاب البيان : لصاحب الحسبة الحكم على من غش في أسواق المسلمين في خبز ، أو عسل ، أو غير ذلك من السلع بما ذكره أهل العلم في ذلك ، فقد قال مالك في المدونة : إن عمر بن الخطاب كان يطرح اللبن المفسوش في الأرض تأديباً لصاحبه ، وقد روى عن مالك أن المستحسن عنده أن يتصدق به إذ في ذلك عقوبة الغاش بإتلافه عليه ، ونفع الفقراء بإعطائهم إياه ولا يهراق .

ولأن التعزير راجع إلى اجتهاد الفقهاء والعلماء - اختلفوا فيه على أربعة أقوال : أحدها : - أنه لا يزداد في التعزير على عشرة أسواط ، وهو أحد الأقوال في مذهب أحمد وغيره .

الثاني : أنه لا يبلغ بالتعزير أدنى الحدود : إما أربعين ، وإما ثمانين ، وهذا قول بعض أصحاب الشافعي ، وأبي حنيفة ، وأحمد .

الثالث : - أنه لا يبلغ بالتعزير في معصية قدر الحد فيها ، فلا يبلغ بالتعزير على النظر ، والمباشرة حد الزنا ، ولا على السرقة من غير حرز حد القطع ، ولا على الشتم بدون القذف حد القذف ، وهو قول طائفة من أصحاب أحمد والشافعي .

الرابع : أنه بحسب المصلحة ، وعلى قدر الجريمة ، فيجتهد فيه ولي الأمر ، ويبدو لنا أنه أعدل الأقوال ، وأولاها بالقبول .

ومع سعة التشريع الإسلامى ومرونته ، وترك تقدير العقوبات على الجرائم للاجتهاد بحسب المصلحة ، واختلاف الأزمته والأحوال ، فيها عدا الحدود ، - تجرأ بعض الولاة والحكام ، وكثير من الحكومات الإسلامية فى عصور مختلفة وفى عصرنا هذا على وضع القوانين مقتبسة ومأخوذة من القوانين الأوروبية - متوهمين أن الشرع ناقص ، لا يقوم بمصالح الناس ، ولا بسياسة الأمة ، فتعدوا حدود الله ، وغالطوه فى كثير من أحكامه وأوامره ، وهو خطأ - لعمرو الحق - عظيم ، فإن الله تعالى أوجب على الحكام القيام بالقسط مع مراعاة ما بينه من كليات الشريعة ومبادئها وأصولها ، فحكمه دائر مع الحق ، والحق دائر مع حكمه أين كان ، ومع من كان ، وبأى دليل صحيح كان . كما قال ابن قيم الجوزية (١) : فليتدبر هذا أولو الأمر من الحكومات والعلماء ، وليعلموا أن الشريعة الإسلامية تسع كل ما يقر العدالة ، وينشر ظلها على الناس - ولذلك يجب على الأمم الإسلامية أن تحمل حكوماتها ، وأولى الأمر فيها أن يجعلوا الشريعة الإسلامية الدعامة الأولى ، والأساس الأول فى تشريع القوانين ، مدنية كانت ، أو جنائية ، من غير أن نحظر فى الأحكام الاجتهادية الاقتباس من القوانين الحديثة ، بما يناسب أحوالنا وأخلاقنا ، ولا يخالف أصول شريعتنا .

الثالث عشر

ترك التشريع الإسلامى الأحكام السياسية ، والعسكرية ، والقضائية ، للاجتهاد أولى الأمر والحكام من الخلفاء ، والأمراء ، وقواد الجيوش - على أن يراعوا فيها مبادئ الشرع وأصوله ، لأنها من المصالح العامة ، التى تختلف باختلاف الزمان ، والمكان ، والأحوال ، وهو مذهب الإمام مالك - قال العلامة السيد محمد رشيد رضا : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطى أمراء الجيوش والسرايا حق الحكم بما يرون فيه المصلحة ، بقوله للواحد منهم : « وإذا حاصرت أهل حصن

٢٤٥ ، ٢٤٤ ، ١٠٦ ، ١٠٥ م . راجع فى مبحث التنزيل والعقوبات الطرق الحسكية م ٢٤٥ ، ٢٤٤ ، ١٠٦ ، ١٠٥ .
طبعة سنة ١٣١٧ هـ .

فأرادوك على أن 'تُنزِلهم على حُكمِ الله ، فلا تزلهم على حُكمِ الله ، ولكن أنزلهم على حُكمِكَ ، فإنك لا تدري : أنصيبُ فيهم حُكمِ الله أم لا ؟ . وقد شرع رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - اجتهد الرأي للحكام بقوله : « إذا حَكَمَ الحاكمُ فاجتهد ثم أصابَ فله أجران ، وإذا حَكَمَ فاجتهد ثم أخطأ فله أجرٌ واحد (١) » .

الرابع عشر

اقتصار تشريعها التفصيلي على الأمور الثابتة التي لا تختلف باختلاف الأمم والعصور - أما الحوادث الجزئية ، والأحكام الفرعية ، التي تختلف باختلاف الأحوال والأمم فإنه لم يتناولها إلا بقواعد كلية ، ومقاصد عامة ، ليترك الباب مفتوحاً لأهل الاجتهاد من كل أمة ، وفي أي عصر ، ليستنبطوا من الأحكام ما يحقق مصالح العباد ، ويتفق مع حاجاتهم .

لذلك كان من خصائص هذه الشريعة التي امتازت بها على سائر الشرائع أنها قائمة على دعامة الاجتهاد من لدن أول مجتهد في الإسلام ، وأعظم مشرع ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلى مجتهدى الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من العلماء المجتهدين في كل عصر . وهذا الاجتهاد - فيما لا نص فيه - هو الذي يكفل تجديدهما على مدى الأيام والدهور ، ومسايرتها لتطورات الأمم والشعوب ، ويضمن قدرتها على وضع الأحكام لما يجد من الأحداث والوقائع ، وضروب المعاملات ، وسيأتي لذلك مزيد إيضاح في مبحث . الاجتهاد .

الخامس عشر

تعدد طرق الحكم والقضاء ، واتساع طرق إثبات الحقوق في الشريعة ، وتعدد

« ١ » الوحي المحمدي ص ٢٢٠-٢٢٦ - الطبعة الثانية.

وسائل الفصل والقضاء التي يستعين بها القضاء والحكام على إقرار العدالة والأمن والطمأنينة ، والمحافظة على دماء الناس وأعراضهم وأموالهم ، وإثبات الحقوق لأربابها من الأفراد والجماعات ، وهي ميزة - لعمر الحق - تدل عند النظر الدقيق على كمال هذه الشريعة ، وصلاحيه تطبيقها في كل جيل ، وعند كل قبيل ، فإنها تعددها واتساعها لكل ما يوصل إلى العدالة ، ويثبت الحقوق - تستطيع كل أمة أن تأخذ منها ما يناسب نفوس أبنائها ، ويتفق مع طبائعهم ، كما يستطيع القضاء والحكام أن يراعوا كل قضية بما يناسب أحوالها ، وكل حادثة بما حفت به من الأمارات الواضحة والشواهد البينة ، وأن يلاحظوا الخصوم وأحوالهم ، وما يناسبها من ضروب البينة التي أرشدت إليها هذه الشريعة ، فإنها لا ترد حقا ، ولا تكذب دليلا ثابتا ، ولا تبطل أماره صحيحة . وليست البينة التي تثبت بها الحقوق وتفض بها الخصومات في لسان الشرع إلا ما يبين الحق (١) ويظهره ، سواء أكانت شهادة شهود أم غيرها من سائر البينات ، كما أن الدليل الشرعي ليس إلا ما يدل على الحق ويظهره من إقرار وشهادة ، ونكول عن الحلف ، وقرينة قاطعة وغيرها .

والبينة التي هي الحجة الشرعية في إثبات الحقوق ، والفصل في القضايا ، تارة تكون أربعة شهود كما في الزنا ، وتارة تكون شاهدين عدلين ذكرين ، وتكون رجلين ، أو رجلا وامرأتين ، وتارة تكون ثلاثة شهود عند طائفة من العلماء ، وذلك في دعوى إفلاس من علم له مال سابق ، فقد ورد في حديث قبيصة بن عمار أنه قال : تحملتُ حمالة فأنزلت النبي صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال : « أقيم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ، ثم قال : يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجلٌ تحمّلَ حمالة (٢) ، خلّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسه ، ورجلٌ أصابته جائحة اجتاحت ماله خلّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش ، ورجلٌ أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجا من قومه يقولون : لقد أصابت فلاناً فاقة » ، خلّت له المسألة حتى يصيب

«١» الطرق الحكمية ص ٢٤

«٢» الحالة بالفنح ما يعمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة .

قِرَافاً مِنْ عَيْشٍ . فَا سَوَاهَنْ مِنْ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةَ سُبْحَتِ بِأَكْلِهَا صَاحِبَهَا
 مُسْتَعْتَباً (١) . . وتارة تكون الحجة شاهداً ويمين المدعى ، وهو رأى طائفة كبيرة
 من العلماء ، منهم الشافعى وأحمد ، وقد تكون شاهداً واحداً إذا عُلم صدقه من
 غير يمين المدعى ، وهو رأى طائفة من قضاة السلف العادلين ، منهم شريح ، ووزارة
 ابن أبي أوفى ، وإن رأى القاضى تقويته باليمين فعل (٢) . وقد تكون امرأة واحدة
 وهو رأى أبى حنيفة وأصحابه فيما لا يطلع عليه الرجال ، كالولادة ، والبكارة ،
 وعيوب النساء ، وتارة تكون رجلاً واحداً عند الضرورة ، فتقبل شهادة الطبيب
 العدل فى الموضحة (٣) إذا لم يقدر على طبيبين ، وكذلك البيطار فى داء الدابة إذا
 لم يوجد غيره (٤) ، وتارة تكون خمسين يميناً ، كما فى القسامة ، وأربعة أيمان كما فى
 اللعان (٥) ، وقد تكون الحجة نكول المدعى عليه عن اليمين ، وقد تكون برد
 اليمين على المدعى ، وقد تكون علم القاضى ، وإن اختلف فيه العلماء ، فبعضهم أجاز
 الحكم به ، وبعضهم منعه (٦) .

وتارة تكون الحجة قرائن قاطعة ، وأمارات بينة ، وعلامات واضحة ، وفراصة
 من القاضى صاهدة - فالشرع لم يبلغ القرائن ، والآمارات ، ودلائل الأحوال ،
 بل فيه ما يشهد لها بالاعتبار ، وترتب الأحكام عليها . وقد مدح الله سبحانه
 الفراسة وأهلها ، فقال : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَكِّلِينَ » ، وقال : « وَلَوْ
 نَشَاءُ لَارْتَيْنَا كَهُمْ » فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيَاهُمْ ، ، وفى جامع الترمذى : « اتقوا

١٥ « قال ابن القيم : هذا الحديث صريح فى أنه لا يقبل فى بينة الإحصار أقل من ثلاثة ، وهو
 الصواب الذى يتبين القول به ، وهو اختيار بعض أصحابنا وبعض الشافعية - انظر الطرق الحكيمة
 ص ٩٥ ، ٩٦ وتفسير القرطبي ج ٨ ص ١٨٤

٢٥ « المصدر السابق ص ٧٥

٣٥ « نوع من الجروح .

٤ « الطرق الحكيمة فى السياسة الشرعية ص ٨٤

٥ « انظر القسامة واللعان فى كتب الفقه .

٦ « فى قضاء القاضى بعلمه تفصيل واختلاف بين العلماء ، ولكل حجة - راجع ذلك فى نيل
 الأوطار والقروى والطرق الحكيمة .

فراصة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ « إن في ذلك لآيات للتوسمين ، وكان شيخ المتوسمين من الصحابة عمر بن الخطاب الذي لم تكن تخطئ له فراصة . وتاريخ التشريع والقضاء حافل بالوقائع والأحكام التي استعان فيها الحكام ، والولاة ، والقضاة بالفراصة والقرائن والامارات ، حتى استبان لهم الحق ، وظهر وجه العدالة ، وكانوا إذا ظهرت وثبتت لهم الحقوق بالقرائن والامارات لم يقدموا عليها لإقرارا ، ولا شهادة بخالفها . وصرح الفقهاء بأن الحاكم إذا ارتاب بالشهود فرقمهم وسألهم : كيف تحملوا الشهادة ، وأين تحملوها ؟ وذلك واجب عليه ، متى عدل عنه أئتمَّ وجار في الحكم ، كما يجب عليه أن يبحث عن القرائن والأحوال التي تنير له طريق الفصل والقضاء . والحاكم أو القاضي إذا لم يكن فقيه النفس في الامارات ، ودلائل الحال ، والقرائن أضاع حقوقا كثيرة على أصحابها ، وحكم بما يعلم الناس بطلانه - ولذلك ينبغي - كما قال ابن القيم - أن يتحقق فيه نوعان من الفقه ، أحدهما : فقه في أحكام الحوادث التي ترفع إليه ، والآخر : فقه في نفس الواقع ، وأحوال الناس ، يميز به الصادق من الكاذب ، والمحق من المبطل . ومن ثم قال إياس بن معاوية ، للرجل الذي قال له : علّمني القضاء : « القضاء لا يُعلَّم ، إنما القضاء فهم ، ولكن قل : علّني العلم » .

ومن أمثلة الحكم بالفراصة والقرائن : حكم نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام في قضية المرأتين اللتين ادعتا الولد ، وكان داود عليه السلام قد حكم به للكبرى ، فإن سليمان قال : اتفوني بالسكين أشقه بينهما ، فرضيت الكبرى بذلك ، وقالت الصغرى : لا تفعل - رحلك الله - هو ابنها ؛ فقضى به للصغرى ، اعتبارا بهذه القرينة الظاهرة . وقد حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والصحابة معه برفع المرأة التي ظهر بها حمل ، ولا زوج لها ولا سيد ، وذهب إليه مالك وأحمد في أصح الروايتين عنه لتلك القرينة الواضحة (١) .

ومن هذا الباب قول الفقهاء : يقبل قول الوصي فيما ينفقه على اليتيم إذا ادعى .

ما يقتضيه العرف ، فإذا ادعى أكثر من ذلك لم يقبل قوله - كذلك ما روى أن عمر ابن الخطاب قدم إليه امرأة ، قد تعلقت بشاب من الأنصار ، وكانت تهواه ، فلما لم يساعدها احتالت عليه ، فأخذت بيضة فألقت صفرتها ، وصبت الياض على ثوبها وبين ثغديها ، ثم جاءت إلى عمر رضى الله عنه صارخة ، فقالت : هذا الرجل غلبني على نفسى ، وفضحنى فى أهلى ، وهذا أثر فعالة ، فسأل عمر النساء ، فقلن له : إن ببدنها وثوبها أثر المني ، فهم بعقوبة الشاب ، فجعل يستغيث ، ويقول : يا أمير المؤمنين ثبت فى أمرى ، فوالله ما أتيت فاحشة ، وما هممت بها ، فلقد راودتنى عن نفسى فاعتصمت ، فقال عمر : يا أبا الحسن ما ترى فى أمرهما ؟ فنظر على إلى ما على الثوب ، ثم دعا بماء حار شديد الغليان ، فصب على الثوب ، فحمد ذلك الياض ، ثم أخذه واشتمه وذاقه ، فعرف طعم البيض ، وزجر المرأة فاعترفت (١) . ومثل هذا لا يبعد فى جوهره وغايته ، ولا يختلف فى حقيقته عما هو متبع الآن فى التحقيق الجنائى والقضائى ، وفى العلب الشرعى الحديث .

وتقدم إلى إياس بن معاوية أربع نسوة ، فقال إياس : أما إحداهن لحامل ، والأخرى مرضع ، والثالثة ثيب ، والرابعة بكر - فنظروا فوجدوا الأمر كما قال . قالوا : كيف عرفت ؟ فقال : أما الحامل فكانت تكلمنى وترفع ثوبها عن بطنها ، فعلبت أنها حامل ، وأما المرضع فكانت تضرب ثديها فعلمت أنها مرضع ، وأما الثيب فكانت تكلمنى وعينها فى عيني فعلمت أنها ثيب ، وأما البكر فكانت تكلمنى وعينها فى الأرض فعلمت أنها بكر (٢) .

وحسبك دليلا على اتساع طرق الإثبات فى الشريعة أن عالما محققا واسع العلم كابن القيم ألف كتابا خاصا بها هو (الطرق الحكيمية فى السياسة الشرعية) لم يترك فيه وسيلة من وسائل إثبات الحقوق إلا ذكرها ووضحها ، وأقام الحجج عليها من الدين ، ومن عمل السلف من الخلفاء والقضاة والحكام . وتلك حسنة من حسنات تلك الشريعة يستطيع المشرعون فى عصرنا أن يلتفتوا بها فى تشريعهم

(١) المصدر السابق ص ٤٧

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥

كما ينتفع بها القضاة والحكام في أحكامهم ، ولهم أن يمتثلوا إعجاباً بتلك الشريعة الحرة التي لا تتقيد إلا بتحقيق العدالة - أما طريق الوصول إليها فلا تقيد فيه ولا جهود ، فلم أن يأخذوا في كل حال بما يناسبها ، وفي كل واقعة بما يلائمها من طرق الإثبات .

ومن ذلك : ما يعرف بالسياسة الشرعية ، وهي كل فعل أو طريق يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح ، وأبعد عن الفساد ، وإن لم يكن منصوحاً عليه في كتاب الله وسنة رسوله ، فإن الله سبحانه - كما قال ابن قيم الجوزية - أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات ، فإذا ظهرت أمارات العدل ، وأسفر وجهه بأي طريق كان - فثم شرع الله ودينه . ولا يقال للسياسة العادلة إنها مخالفة لما نطق به الشرع ، لأنها موافقة لما جاء به ، بل هي جزء من أجزائه ، وتطبيق لنص من نصوصه ، وداخله في مقصد من مقاصده .

السادس عشر

من أظهر محاسنها ومزاياها خصها ، وتقبلها الحرية الرأي ، وانتقال قرائح المجتهدين فيما يصح فيه الاجتهاد ، وهي لا تحدهم إلا بحد واحد ، هو الوقوف عند ما يعتقدون أنه المحقق للعدل ، الدافع للظلم ، الجالب لليسر ، الرافع للشقة والحرج .

ونحن إذا أردنا الاستدلال على ذلك غلبتنا الدلائل والشواهد كثرة ، وما عليك إلا أن ترجع إلى كتب الفقه والفروع ليستولى عليك الدهش ، ويستحوذ عليك العجب من تعدد الآراء ، واختلاف المذاهب في قوة ودقة تفكير ، ومن قرع الحجة بالحجة في حسن منطق ، وروعة محاجة وحوار .

ودونك بعض الدلائل تقيس عليها الأشباه والنظائر ، من مثل يصعب استقصاؤها :

١ - اختلافهم في الحكم بالنكول ورد اليمين

إذا عجز المدعى عن إقامة البينة ، وإثبات دعواه - فله توجيه اليمين إلى المدعى عليه ليحلف على نفي دعواه ، فإذا نكل وامتنع عن اليمين فهل يحكم عليه بمقتضى نكوله ؟ .

اختلف فقهاء المسلمين على أربعة أقوال :

القول الأول : - أن النكول عن اليمين من طرق الحكم ، فيحكم على المدعى عليه إذا نكل عن اليمين ، وهو قول عثمان بن عفان ، واختاره أصحاب أحمد ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه .

استدل الحنفية ومن تابعهم بعدة أدلة ، منها : ما رواه مالك أن عبد الله بن عمر باع غلاماً له بثمانمائة درهم ، وباعه بالبراءة من كل عيب ، فقال الذي ابتاعه لعبد الله بن عمر : بالغلام دام لم يسمه ، فقال ابن عمر : إني بعتك بالبراءة ، فقتضى عثمان بن عفان على ابن عمر باليمين أن يحلف له : لقد باعه الغلام وما به داء يعلبه ، فأبى عبد الله أن يحلف له ، فحكم عليه عثمان بنكوله ، ورد عليه العبد ، فلم ينكر ذلك ابن عمر من حكمه - قال ابن القيم : « فهل يوجد إمامان أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبمعنى حديثه منهما ؟ » .

القول الثاني : - أنه لا يقضى بالنكول ، بل ترد اليمين على المدعى ، فإن حلف قضى له ، وإن نكل لا يقضى له بشيء ، وهذا مروى عن عمر ، وعلى ، والمقداد ابن الأسود ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، والأوزاعي ، وشريح ، وابن سيرين ، والنخعي (١) ، وهو مذهب مالك والشافعي ، وصوبه الإمام أحمد .

استدلوا بعدة أدلة ، منها :

(١) أن اليمين إنما وجبت على المدعى عليه ابتداء لكون الظاهر يشهد له ،

(١) الطرق الحكيمة ص ١١٥ وما بعدها .

فإذا نكل كان الظاهر شاهداً للدعى ، فيحلف لأنه صار من هذه الجهة منكراً . وقد رد أصحاب القول الأول هذا الدليل بأنهم لا يسلمون بأن المدعى صار منكراً ، إذ يلزم منه عدم تعيين المدعى والمنكر ، وعدم لزوم اليمين على معين ، ويلزم التسلسل في رد اليمين ، وكل ذلك باطل ، فكذا ما يؤدى إليه « تكملة الفتح » .

(ب) النكول يحتمل أن يكون لأجل اشتباه الحال على المدعى عليه ، أو لأجل التورع عن اليمين الكاذبة ، أو لأجل الترفع عن اليمين الصادقة ، فلا يكون النكول حجة مع هذا الاحتمال ، فلا يقضى به . ونوقش هذا من أصحاب الرأى الأول أيضاً بأن اليمين واجبة على المدعى عليه لقوله عليه الصلاة والسلام : « واليمين على من أنكر » ، وبها يدفع الضرر عن نفسه ، والعاقل المتبع لدينه لا يترك الواجب عليه ، ولا يترك دفع الضرر عن نفسه بشيء من تلك الوجوه التى يحتملها النكول .

(ج) مارواه الدارقطنى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد اليمين على طالب الحق . ومثله ما رواه الشعبي أن المقداد استقرض من عثمان سبعة آلاف درهم ، فلما تقاضاه قال : إنما هى أربعة آلاف ، فخاصمه إلى عمر ، فقال المقداد : احلف أنها سبعة آلاف ، فقال عمر : أنصفك ، فأبى أن يحلف ، فقال عمر : خذ ما أعطاك . فهذا عمر قد حكم برد اليمين ، ورأى المقداد ذلك ولم ينكره عثمان ، ولكن الخنفية أجابوا عن هذا بأن المقداد كان يدعى الإيفاء وعثمان ينكره ، فاليمين إنما وجهت إلى المنكر لا إلى المدعى ، وهو تأويل بعيد .

(د) الشارع شرع اليمين مع الشاهد الواحد ، فلم يكف فى جانب المدعى بالشاهد وحده حتى يأبى باليمين تقوية لشاهده ، ونكول المدعى عليه أضعف من شاهد المدعى ، فهو أولى أن يقوى بيمين الطالب ، فإذا حلف المدعى قوى جانبه لاجتماع النكول من المدعى عليه ، واليمين من المدعى ، فقاما مقام الشاهدين أو الشاهد واليمين . وهذا الوجه لا يلزم الخنفية ، لأنهم لا يقولون بالشاهد واليمين .

القول الثالث : أنه لا يقضى عليه بنكول ولا برد يمين ، بل يجبر المدعى عليه على اليمين ، شاء أم أبى بالضرب والحبس ، وهو قول ابن حزم ومن وافقه من أهل الظاهر - محتجين بأنه لم يأت قرآن ، ولا سنة ، ولا إجماع على القضاء بالنكول ولا باليمين المردودة - وهو ضعيف لما تقدم من الأدلة ، ولأنه لو ترك ونكوله لأفضى إلى ضياع حقوق الناس بالصبر على الحبس ، فإذا نكل عن اليمين ضعف جانب البراءة الأصلية فيه ، وقوى جانب المدعى ، فإما أن يحكم على المدعى عليه بالنكول كالرأى الأول ، وإما أن ترد اليمين على المدعى كالرأى الثانى .

القول الرابع : قول شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهو توفيق بين القولين الأول والثانى ، ودفع للتعارض بين النصوص التى استدلت بها كل من الفريقين - قال رحمه الله : « ليس المنقول عن الصحابة رضى الله عنهم فى النكول ورد اليمين بمختلف ، بل هذا له موضع ، وهذا له موضع : فكل موضع أمكن المدعى معرفة المدعى والعلم به ، فرد المدعى عليه اليمين ، فإنه إن حلف استحق ، وإن لم يحلف لم يحكم له بنكول المدعى عليه ، وهذا كحكومة عثمان والمقداد ، فإن المقداد قال لعثمان : احلف أن الذى دفعته إلىّ كان سبعة آلاف وخمها - فالمدعى هنا يمكنه معرفة ذلك والعلم به ، كيف وقد ادعى به ، فإذا لم يحلف لم يحكم له إلا ببينة أو إقرار . وفى كل موضع لا يعلم المدعى جلية الأمر فيما يدعى به ، بل المدعى عليه هو المنفرد بمعرفته - فإنه إذا نكل عن اليمين حكم عليه بالنكول ، ولم ترد اليمين على المدعى ، كحكومة عبد الله بن عمر وغريمه فى الغلام ، فإن عثمان قضى عليه أن يحلف أنه باع الغلام وما به داء يعلبه ، وهذا يمكن أن يعلبه البائع ، فإنه إنما استحلّفه على نفي العلم - فلما امتنع عن هذه اليمين قضى عليه بنكوله (١) . وهو رأى حسن ، وتفصيل دقيق .

« ١ » الطرق الحكيمة ص ٨٦ بتصرف يسير .

٢ - اختلافهم في أقصى مدة الحمل

قال الكوفيون - وهم أبو حنيفة وأصحابه - أكثر مدة الحمل سنتان ، وعند الليث بن سعد القهفي : ثلاث ، وعند مالك : خمس ، وقال بعض أصحابه : سبع ، وبه قال الزهري ، وعند الشافعي : أربع سنين . وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم المصري : أقصى مدة الحمل سنة (١) ، وقال داود : تسعة أشهر (٢) :

والواقع : أنه ليس في أقصى مدة الحمل كتاب ولا سنة ، ورأى الفقهاء في تحديد المدة مبنى على أخبار بعض النساء بأن الحمل مكث كذا سنين ، ماعدا الحنفية ، فإنهم بنوا رأيهم على أثر ورد عن السيدة عائشة ، وهو قولها : « لا يبقى الولد في رحم أمه أكثر من سنتين ولو بفلكة مغزل » . وما يشهد لعلباء التشريع الإسلامي بدقة البحث ، وصدق النظر أن رأي ابن عبد الحكم المصري ، وهو من فقهاء القرن الثالث الهجري ، قد أيده ما ذهب إليه الطبيب الشرعي من أنه يرى عند التشريع اعتبار أقصى مدة الحمل ٣٦٥ يوما حتى يشمل جميع الأحوال النادرة ، وعلى هذا الأساس وضعت المادة ١٥ من القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ - الخاص ببعض أحكام الأحوال الشخصية (٣) .

٣ - اختلافهم فيما يثبت به الرضاع

روى عن عمر ، وعلى ، والمغيرة بن شعبة ، وابن عباس ، أنهم لم يفرقوا بين الزوجين بشهادة امرأة واحدة في الرضاع (٤) . ومن ذلك : ما روى عن عمر

١٥ هذا ماورد في كتاب بداية المجتهد ، غير أنه لم يذكر أقرية هي أم شمسية ؟ والظاهر أنها قرية .

٢٥ في بداية المجتهد لابن رشد ستة أشهر ، والظاهر أنها محرّفة لأنها لا تتفق مع تعليله بأنها أقرب إلى المعتاد .

٣٥ راجع الجزء الثاني من بداية المجتهد ، والسراجية ، والمذكرة الإيضاحية للقانون المذكور

٤٥ الطرق الحكيمة ص ٨٢ ، ١٣٨ .

ابن الخطاب أنه أتى بامرأة شهدت على رجل وامرأته أنها قد أرضعتها ، فقال : لا ، حتى يشهد رجلان ، أو رجل وامرأتان ، كما روى عنه أنه قال : لو فتحنا هذا الباب لم تشأ امرأة أن تفرق بين رجل وامرأته إلا فعلت . وهذا هو رأى الحنفية ، فإنه لا يقبل عندهم في الرضاع شهادة النساء منفردات ، لأن الحرمة بالرضاع متى ثبتت ترتب عليها زوال النكاح ، وإبطال الملك لا يثبت إلا بشهادة الرجال ، ولأنه مما يمكن اطلاع الرجال عليه . وقال الأوزاعي (١) : أقضى بشهادة امرأة واحدة قبل النكاح ، وأمنع من النكاح ، ولكن لا أفرق بشهادتها بعد النكاح . وعند الشافعي : لا يقبل أقل من أربع نسوة ، أو رجل وامرأتين . وعند مالك : يقبل فيه شهادة امرأتين ، لأن الرضاعة لا تكون إلا بظهور الثدي والنحر ، وهذه من محاسن النساء التي قد فرض الله سترها على الرجال الأجانب . وعن أحمد روايتان : رواية كمالك ، والثانية - وهي أشهر - أنه يثبت بشهادة امرأة واحدة ، فقد سئل : هل تجوز شهادة المرأة ؟ فقال : « شهادة المرأة في الرضاع ، والولادة ، فيما لا يطلع عليه الرجال - قال : وأجوز شهادة امرأة واحدة إذا كانت ثقة ، فإن كان أكثر فهو أحب إلى » (٢) .

٤ — اختلافهم في قتل الجماعة بالواحد

رأى مالك ، والشافعي ، وأبو حنيفة ، أن الجماعة تقتل بالواحد إذا قتلوه عمدا أو تعاونوا على قتله بالحراقة (٣) . وعن أحمد ، وجماعة من الصحابة والتابعين أن عليهم الدية . وعن الزهري وجماعة : أنه يقتل منهم واحد (٤) ، وعلى الباقي

«١» المصدر السابق ص ١٣٨

«٢» المصدر نفسه ص ١٤٣، ٨٠ ، وانظر أيضا دليل أحمد في ص ٧٨

«٣» وقال داود وأهل الظاهر : لا تقتل الجماعة بالواحد - بداية المجتهد .

«٤» هو الذي من قَتْلِهِ يُظَنُّ لُتْلَفَ النَّفْسِ غَالِباً - بداية المجتهد .

حصصهم من الدية، لأن كل واحد مكافئ له، فلا يستوى أبدال في مبدل منه واحد، كما لا تجب ديات، ولقوله تعالى: «الْحَرْ بِالْحَرْ»، وقوله: «وكتبنا عليهم فيها أن النفسَ بالنفس»، ولأن تفاوت الأوصاف يمنع كالحَرْ والعبد، فالعدد أولى بالمنع.

أما الفريق الأول الذي يرى قتل الجماعة بالواحد، فقد استدل بعده وجوه:

١ - إجماع الصحابة على قتل عمر سبعة من أهل صنعاء برجل واحد، وقال: لو تمألاً عليه أهل صنعاء لقتلتهم به. وقتل على ثلاثة.

٢ - ولأنها عقوبة كحد القذف.

٣ - وقالوا: إن القصاص يفارق الدية، لأنها تتبع بعض دون القصاص.

٤ - كما قالوا: إن الشركة لو أسقطت القصاص لكان ذلك ذريعة إلى القتل، بأن يتعمد الناس قتل الواحد بالجماعة (١).

هـ - اختلافهم في قتل المسلم بالذمي

قال الأئمة: مالك والشافعي وأحمد: لا يُقتل مسلم بذمي - مستدلين بما روى في البخاري: «لا يُقتلُ مُسلم بكافر».

وذكر في بداية المجتهد أن مالكا والليث قالا: لا يُقتلُ مسلم بذمي إلا أن يقتله غيلة. وقالت الحنفية: يقتل به، مستدلين بوجوه، منها قوله تعالى: «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوَلِيِّهِ سُلْطَانًا. وهذا قد قتل مظلوماً، فيكون لوليهِ سلطان. ومنها قوله جل شأنه: «وكتبنا عليهم فيها أن النفسَ بالنفس»، وكذا سائر العمومات. وقد أجاب أصحاب الرأي الأول عن أدلة الحنفية بأنها عامة، وما استدلوها به خاص، والخاص يقدم على العام - على ما تقرر في أصول الفقه (٢).

«١» الجزء الرابع من الفروق للفرافى ص ١٨٢ من الطبعة التولية.

«٢» المصدر السابق ص ١٨٤ من الجزء الرابع.

٦ - هل يقتل المسك ؟

رأى الشافعي ، وأبو حنيفة ، أن المسك لا يقتل ، ويقتل القاتل وحده . وقال مالك يقتل المسك - استدل المالكية بالنصوص العامة التي تقدم ذكر بعضها ويقول عمر السابق : « لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم به » ، وقاسوه أيضا على المسك للصيد المحرم ، فإن عليه الجزاء (١) .

وكان على رضى الله عنه يرى حبس المسك حتى يموت ، وهو ما ذهب إليه الإمام أحمد ، فقد جاء في الطرق الحكيمة ص ٥٠ : « وقضى على رجل فر من رجل يريد قتله ، فأمسكه له آخر حتى أدركه فقتله ، وبقر به رجل ينظر إليهما ، وهو يقدر على تخليصه ، فوقف ينظر إليه حتى قتله - فقضى أن يقتل القاتل ، ويحبس المسك حتى يموت ، وتفقا عين الناظر الذي وقف ينظر ، ولم ينكر ، فذهب الإمام أحمد وغيره من أهل العلم إلى القول بذلك إلا في فقء العين ، ولعل عليا رأى تعزيره بذلك - مصلحة للأمة » .

٧ - اختلافهم في إرث المرأة إذا طلقها زوجها في مرض موته

إذا طلق المريض زوجته طلاقاً بائناً ، ومات من مرضه الذي طلق فيه - فقد ذهب الشافعي وجماعة إلى أنها لا ترثه ، لأن الطلاق قد وقع ، فيجب أن يقع بجميع أحكامه ، بدليل أنه لا يرثها إذا ماتت ، ويعسر أن يقال : إن في الشرع نوعاً من الطلاق توجد له بعض أحكام الطلاق ، وبعض أحكام الزوجية . وهذه الطائفة لا تقول بسد الذرائع ، وإنما لحظت وجوب الطلاق ووقوعه ، ولذلك لم توجب للمطلقة طلاقاً بائناً ميراثاً وإن وقع الطلاق في مرض الموت .

ولكن أكثر العلماء قالوا : إنها ترثه ، لأنهم يرون وجوب العمل بسد الذرائع ،

«١» المصدر نفسه ج ٤ ص ١٨٤

إذ المريض مرض الموت إذا طلق زوجته بائنا يكون متهما بأنه إنما طلقها ليقطع حظها من الميراث - غير أن القائلين بإرثها ثلاث طوائف :

الأولى :- قالت : لها الميراث مادامت في العدة ، ومن قال بهذا أبو حنيفة وأصحابه والثوري ، وذلك لأن العدة من بعض أحكام الزوجية ، فكأنهم شبهوها بالمطلقة طلاقاً رجعيًا ، وروى هذا القول عن عمر وعائشة .

الثانية :- قالت : لها الميراث ما لم تزوج ، ومن قال بهذا : أحمد ، وابن أبي ليلى .

الطائفة الثالثة :- ذهبت إلى أنها ترث مطلقاً ، سواء أكانت في العدة ، أم لم تكن ، تزوجت أم لم تزوج ، وهو مذهب مالك والليث .

وزعمت المالكية إجماع الصحابة على إرثها ، ودعوى الإجماع غير مسلم بها ، لأن الخلاف فيه عن ابن الزبير مشهور (١) .

٨ - اختلافهم في حد الخمر

القرآن الكريم حرم الخمر تحريماً صريحاً ، وأكد تحريمها في سورة المائدة ، وأمر باجتنابها ، ولكنه لم يرد فيه ذكر لفرض عقوبة معينة على شاربيها كالذي ورد في حد الزنا ، والقذف ، والسرقة . وإنما ورد في السنة والآثر ما كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون يحكمون به من العقوبة على شاربي الخمر ، فقد جاء في بعض ما يروى أن النبي صلوات الله وسلامه عليه لم يسن في الخمر شيئاً أو لم يفرض في الخمر حداً (٢) . وروى عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم جلد

(١) راجع اختلاف العلماء في هذه المسألة وأدلتهم - في الجزء الثاني من بداية المجتهد لابن رشد ص ٧٢ طبعة الحلبي سنة ١٣٣٩ هـ .

(٢) نيل الأوطار ج ٧ ص ١١٩ ، وفتح الباري ج ١٢ ص ٥٨ طبعة سنة ١٣٤٨ هـ .

في الخمر بالجريد والنعال ، وجلد أبو بكر أربعين (١) ، كما روى أن النبي أتى برجل شرب الخمر فضربه بجريدتين نحو أربعين ، ثم صنع أبو بكر مثل ذلك ، فلما كان عمر استشار الناس ، فقال له عبد الرحمن بن عوف أخف الحدود ثمانون ، ففعله عمر (٢) . وقيل في سبب زيادة عمر رضى الله عنه : أن خالد بن الوليد كتب إليه في خلافته : إن الناس قد انهمكوا في الشرب ، وتحاقروا العقوبة ، فجعلها ثمانين بعد استشارة الصحابة .

كذلك ورد أن الشارب إذا عاد في الرابعة أو الخامسة يقتل ، وقيل : إنما كان القتل في أول الأمر ثم نسخ بعد .

ومن أجل ذلك اختلف فقهاء المسلمين وجهتدهم في عقوبة شرب الخمر على ستة أقوال (٣) :

الأول : أن الخمر لاحد فيها ، وإنما فيها التعزير (٤) ، وهو قول طائفة من أهل العلم رأوا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجعل فيها حدا معلوما ، بل كان يقتصر في ضرب الشارب على ما يليق به ، وقد روى عن الزهري أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفرض في الخمر حدا ، وإنما كان يأمر من حضره أن يضربوه بأيديهم ونعالهم حتى يقول لهم : ارفعوا . ولما كثر الشارب في عهد عمر استشار الصحابة ، ولو كان عندهم عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء محدود ما تجاوزوه ، كما لم يتجاوزوا حد القذف ، ولو كثر القاذفون ، وبالغوا في الفحش . وأجيب بأنه قد انعقد إجماع الصحابة على جلد الشارب ، واختلافهم في العدد إنما هو بعد الاتفاق على ثبوت مطلق الجلد .

«١» نيل الأوطار ج ٧ ص ١١٦ ، وفتح الباري ج ١٢ ص ٢٠٠

«٢» راجع فتح الباري ج ١٢ ص ٢٠٠

«٣» فتح الباري ج ١٢ ص ٦١، ٦٢ ، وراجع نيل الأوطار ج ٧ ص ١١٩ ، ١٢٠

«٤» مضى بيان الفرق بين الحد والتعزير في الثاني عشر من محاسن التشريع الإسلامي .

الثاني: أن الحد فيها أربعون ، وهو مذهب أحمد ، وداود ، والشافعي في المشهور عنه ، لأنها هي التي كانت في زمن الرسول ، وزمن أبي بكر ، ورجع إليها على في زمن عثمان .

الثالث : مثل الرأي الثاني ، لكن للإمام أن يبلغ به ثمانين .

الرابع : مذهب إليه مالك ، والليث ، وأبو حنيفة ، وأصحابه ، والشافعي في قول له من أن حد السكران ثمانون ، وقد استدلوا بأن عمر جلد ثمانين بعد ما استشار الصحابة - كما سلف .

الخامس : مثل الرأي الرابع ، غير أنه تجوز الزيادة على الثمانين تعزيراً .

وعلى الأقوال كلها : هل يتعين الجلد بالسوط ، أو يتعين بما عداه كالجرید والنعال ، وأطراف الثياب ، أو يجوز بكل من ذلك ؟ أقوال (١) .

السادس : إن شرب لجلد ثلاث مرات فعاد في الرابعة وجب قتله ، وقيل : إن شرب أربعاً فعاد في الخامسة وجب قتله ، وهو رأي بعض أهل الظاهر ، ونصره ابن حزم ، ودفع دعوى الإجماع على عدم القتل .

وذهب الجمهور إلى أنه لا يقتل الشارب ، وأن القتل منسوخ ، وذكر الشافعي أنه لا خلاف في ذلك بين أهل العلم (٢) .

٩ - اختلافهم في زكاة الحلي

كذلك اختلف العلماء في الحلي : هل يجب فيه زكاة ؟ فذهب مالك وأصحابه وأحمد ، وإسحق ، وأبو ثور ، وأبو عبيد ، إلى أن لا زكاة فيه ، وهو قول الشافعي بالعراق ، ووقف فيه بعد ذلك بمصر وقال : أستخير الله فيه . وذهب

(١) راجع فتح الباري .

(٢) راجع نيل الأوطار ج ٧ ص ١٢٤

أبو حنيفة ، وأصحابه ، والثوري ، والأوزاعي ، إلى وجوب الزكاة فيه . وفرق
الليث بن سعد فأوجب الزكاة فيما صُنع حلياً ليقرب به من الزكاة ، وأسقطها فيما
كان منه يُلبس ويعار .

احتج مالك ، ومن وافقه فقالوا : قصد النماء يوجب الزكاة في العروض ،
كذلك قطع النماء في الذهب والفضة باتخاذهما حلياً للقنية يسقط الزكاة . واحتج
أبو حنيفة بعموم الالفاظ في إيجاب الزكاة في التقدين ، ولم يفرق بين حلي
وغيره (١) .

فانظر - رعاك الله - إلى تعدد الآراء في المسألة الواحدة ، وإلى قوة الحاجة
والمحاجة - تجد أن فقهاء المسلمين قد بلغوا الغاية في حرية الاجتهاد ، وما كان
يفنبى لهم ذلك إذا كانت الشريعة الإسلامية جامدة ، أو محدودة الأفق - معاذ الله
والحقيقة - فإنها الشريعة التي حررت العقل ، وأطلقت من إساره .

السابع عشر

الإصلاح الشامل الذي جاءت به الشريعة الإسلامية في شئون المرأة ، وكل
ما يتصل بها ، فوضع عنها ما كانت ترزح تحته من أعباء الظلم ، وأوزار الجور
والاستبداد والجهل ، ثم شرع لها من الحقوق والواجبات ما رفع شأنها ، وأعلى
درجتها ، وجعلها عضواً عاملاً في جسم الأمة ، ودعامة قوية في بناء المجتمع .

وليس هذا المبحث : «مزايا الشريعة الإسلامية ومحاسنها» موطن استيفاء ،
ولا استقصاء لإصلاح الإسلام شئون المرأة ، وإعطائها من الحقوق ما لم يسبق في
قانون ولا شريعة أخرى ، فإن لذلك كتباً خاصة انفردت ببحثه (٢) - ولذلك

«١» الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ٨ ص ١٢٦ طبع دار الكتب المصرية ، هذا بجل
المذاهب في زكاة الحلي ، وفيها تفصيل يائنه في كتب الفروع .

«٢» مثل نداه للجنس اللطيف للسيد محمد رشيد رضا ، والدين الإسلامي الذي وضعه مؤلف
هذا الكتاب لتلاميذه .

سنقتصر على ما لا بد منه لتجلية هذه المزية من مزايا التشريع الإسلامى :

حال المرأة قبل الإسلام :

يقص علينا التاريخ الصادق أن المرأة قبل الإسلام - عند أم الأرض جميعا - كانت تعاني أهوالا من الظلم والاستعباد تنافى إنسانيتها ، ولا تتفق مع مكانتها في المجتمع : فقد كانت تباع (١) وتشتري كالبهيمة والمتاع ، وتورث ولا ترث ، وتكره على الزواج ، وعلى البغاء ، وتملك ، ولا تملك ، فإذا أباحت أمة لها الملكية حجروا عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل ، وكانوا يرون للزوج الحق في التصرف بما لها من دونها ، وكانت أعظم الشرائع تبيح للوالد بيع ابنته ، كما كان بعض العرب يرون أن للأب الحق في قتل ابنته ، وفي وأدها (٢) . وكان منهم من يرى أنه لا قصاص على الرجل ، ولا دية ، في قتله المرأة . وقرر أحد المجامع في رومية أنها حيوان نجس لا روح له ولا خلود ، وأنه تجب عليها الخدمة ، وأن يكفها ، كالبعير ، والكلب العقور ، لمنعها من الضحك والكلام ، لأنها أحيولة الشيطان .

فأبطل الإسلام كل ما كان عليه العرب والعجم من ضروب البغى والعدوان ، والجبل والاستعباد ، وأعطى الله النساء بكتابه ، وبسنة رسوله جميع الحقوق التي أعطاهما الرجال إلا ما يقتضيه اختلاف طبيعة المرأة ، ووظائفها النسوية من الأحكام ، مع مراعاة تكريمها ، والرفق بها .

ما اكتسبته المرأة من الحقوق بفضل الإسلام ووصاياہ :

١ - كان بعض البشر من الإفرنج وغيرهم يعدون المرأة من الحيوان الأعجم أو من الشياطين ، لامن نوع الإنسان - فجاء القرآن مبينا أن الرجل والمرأة من جنس واحد لا قوام للإنسانية إلا بهما : « يأتينا الناس إنا خلقناكم من ذكر

وأنتي ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ،
 « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا
 وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، ، وفي الحديث « إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَاتُ الرِّجَالِ ،

٢ - وكان بعض البشر في أوربة وغيرها يرون أن المرأة لا يصح أن يكون
 لها دين ، حتى كانوا يهرمون عليها قراءة الكتب المقدسة ، وكان بعضهم يزعم أن
 المرأة ليست لها روح محالدة حتى تستحق أن تكون مع الرجال المؤمنين في الجنة ،
 جاء الإسلام يخاطب الرجال والنساء معا بالتكاليف الدينية ، ويبين أن الجزاء
 واحد لكل من الفريقين . قال الله جل شأنه : « مَنْ سَمِعَ صَاحِلًا مِنْ ذَكَرٍ
 أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلْيُخْبِرْهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ
 بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، ، وقال : « وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ،
 وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذلك هو الفوز العظيم ، ، وقال : ليس بَأَمَانِكُمْ
 وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ
 مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا . »

٣ - سوى الله تعالى بين المرأة والرجل في التكاليف الشرعية كالعبادات -
 إلا ما تقتضيه طبيعتها اللسوية من الأحكام ، وحرم عليها ما حرم على الرجل من
 المنكرات ، ووهبت الثواب ، وتوعدت بالعقاب كالرجل ، لأنهما متساويان
 في الإنسانية ، فلا تفاضل بينهما إلا بالأخلاق والأعمال - قال تعالى : « فاستجاب
 لهم ربهم أَنِ لَا أَعْصِيحُ سَمْعًا عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، بَعْضُكُمْ مِنْ
 بَعْضٍ ، ، وقال : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْقَاتِنِينَ
 وَالْقَاتِنَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ
 ٢٩٩

والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات - أعد الله لهم مغفرةً وأجرًا عظيماً .

ومن ذلك : مشاركة النساء الرجال في الشعائر الدينية ، وفي العبادات الاجتماعية ، كصلاة الجماعة ، والجمعة ، والعيد ، فشرعت لهن ، ولكن لا تجب عليهن تخفيفاً ، كما فرضت عليهن عبادة الحج الاجتماعية كالرجال .

٤ - شرع الإسلام لهن كثيراً من الأمور الاجتماعية والسياسية ، فأثبت لهن الولاية المطلقة مع المؤمنين ، ومن ذلك : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والتعاون المالى والاجتماعى ، وولاية النصرة الحربية والسياسية (١) - غير أن الشرع أسقط عنهم وجوب القتال « إلا إذا دهم البلاد عدو » فاقصر عملهم في الحروب على سقى الماء ، وتجهيز الطعام ، ومداواة الجرحى - اقرأ قوله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرُونَ بالمعروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ » ، إن الله عزيرٌ حكيمٌ ، ويدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نقد الحكام من الخلفاء والملوك والأمراء فمن دونهم ، روى أن عمر بن الخطاب رأى غلو النساء في المهور ، غفاف عاقبة ذلك ، فنهاهن أن يزيدوا فيها على أربع مائة درهم ، فاعتضت له امرأة من قريش ، فقالت : أما سمعت ما أنزل الله يقول : « وآتيتن إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » فقال : اللهم غفراً ، كل الناس أفتة من عمر . وفي رواية أنه قال : امرأة أصابت ، وأخطأ عمر ، ورجع عن رأيه .

٥ - تقرير حقهن في التعلم والتأديب ، فقد اشتركت النساء مع الرجال في

اقتباس العلم بهداية الإسلام ، حتى كان منهم راويات الأحاديث النبوية والآثار ، والأدبيات والشاعرات . ونبغ كثير من المسلمات في العلوم والمعارف ، وصرن قدوة كثير من الرجال والنساء في العمل بالأحكام ، وفي فنون الأدب والشعر . وفي الحديث : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وهو يشمل المسلمات (١) باتفاق علماء الإسلام ، وإن لم يرد فيه لفظ « ومسلمة » . وكان الغرض الأول من تعدد أزواج النبي - صلوات الله وسلامه عليه - أن يكن معلمات للنساء ومفتيات لهن ، بل كان الرجال يرجعون إليهن فيما يشكل عليهم من بعض الأحكام الشرعية ، ولا سيما السيدة عائشة رضي الله عنها . وقد بلغ من عناية الرسول بتعليم النساء وتربيتهن أن حث على تعليم الوليدة وتأديبها ، كما حث على عتقها ، فقال : أيما رجل كان عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران .

٦ - تقريره حق المرأة في قبول من ترضاه من الأزواج ، ورد من لا ترضاه ، ومنع الأولياء من الاستبداد في تزويج مولاتهم بغير رضاهن ، كما منع المرأة من الزواج بغير كف يرضاه أولياؤها ، حتى لا يكون تزوجها به سبباً لوقوع العداوة والشقاق . وليس للأولياء ، ولا للوالد نفسه أن يمتنع من زواجها بأي كف يرضاه .

والأصل في ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تنكح الأيم (٢) حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن ، قالوا : يا رسول الله ، وكيف إذن ؟ قال : أن تسكت » ، وقوله : « الثيب أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن في نفسها ، وإذنها صماتها (٣) » .

«١» المصدر السابق .

«٢» الأيم : من لازوج لها بكرا كانت أو ثيباً .

«٣» أي سكوتهما يكتفي به لحياتهما .

فإن أكرهت على التزوج وخذعت فيه كان لها أن تفصم عقدة زواجها ، فقد روى عن خنساء بنت خذّام الأنصارية أن أباهما زوجها وهى ثيب ، فكرهت ذلك ، فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرد نكاحها - كما روى أن فتاة جاءت إلى رسول الله ، فقالت : إن أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته ، فجعل صلى الله عليه وسلم الأمر إليها ، فقالت : قد أجزت ما صنع أبى ، ولكنى أردت أن أعلم النساء أنه ليس إلى الآباء من شيء (١) .

ذلك وقد جعل الله - جلّت حكمته - الزواج من أعظم آياته ، وأجل نعمه على عباده ، وأشار إلى حكمه ومنافعه ، فقال : « ومن آياته أَنْ يَخْلُقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

٧ - لإثباته حقن في الميراث ، وإبطاله ظلمن بحرمانهن من الإرث - قال الله تعالى : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا » . وقد بيّنا في مبحث التشريع القرآنى حكمة جعل نصيب المرأة نصف نصيب الرجل .

٨ - حقوق المرأة المالية :

للرأة الرشيدة - بمقتضى أحكام الدين الإسلامى - حق الملك بأنواعه ، وجميع التصرفات المشروعة فى أموالها ، بما فى ذلك مهرها - بدون إذن زوجها ، أو غيره من والديها وأقاربها - لها ما للرجل فى المعاملات من الحقوق ، وعليها ما عليه من الواجبات والتعهدات ، فهى بذلك قد وضعها الإسلام منذ نيف وثلاثة عشر قرناً ونصف فى منزلة لم تصل إليها المرأة فى أمة ، أو شريعة أخرى ، فدولة الولايات المتحدة الأمريكية لم تمنح النساء حق التملك والتصرف إلا من عهد قريب فى عصرنا هذا ، والمرأة الفرنسية لا تزال مقيدة بإرادة زوجها فى التصرفات المالية ، والعقود القضائية .

« ١ » أى ليس لهم إكراههم على التزوج بمن لا يرضينه .

٩ - تقريره المساواة بين الزوجين في الحقوق والواجبات إلا أنه جعل للرجال على النساء درجة هي درجة الرياسة - قال الله تعالى : وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وللرجال عليهنّ درجة . وهذا القول أصل عام ، وقاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق ، (إلا في هذه الدرجة) ، ولا يراد بالمساواة المائلة في قدر الحقوق أو أعيانها ، بل يكفي لتحقيق معنى المساواة بينهما أن يكون لكل منهما من الحقوق كفاء ما عليه من الواجبات ، وأن تكون الحقوق متبادلة ، وأن يقف كل منهما عند الحدود الشرعية التي سنّها الشرع لكل منهما بلا تحكم ولا استبداد ولا سيطرة ، وأن يكون كل منهما مساوياً للآخر في حسن المعاملة والمعاشرة بالمعروف - أما المساواة في أعيان الحقوق والواجبات كأن يقال : يجب على المرأة الإنفاق على زوجها وأولادها ، كما يجب عليه ، أو أن تسوى به في الميراث ، أو أن يكون للزوج حق الحضنة كما للمرأة ، أو يباح لها تعدد الأزواج ، كما يباح له تعدد الزوجات - فذلك ما لا سبيل إليه ، ولا تقره مصلحة ولا عدالة ، وذلك لتفاوتهما في الفطرة والاستعداد الذي اقتضى التفاوت بينهما في بعض التكاليف والأحكام ، ومثل ذلك لا يكسب الرجل ميزة على المرأة ، كما أنه لا ينقص المرأة ، ولا يفض من قدرها .

وأما الدرجة التي جعلها الله للرجال على النساء فتلك هي رياسة الأسرة ، لأن الحياة الزوجية حياة اجتماع ، وكل اجتماع لابد له من رئيس يحفظه ويحميه ، ويرجع إليه في منازعاته والمهم من شئونه - والرجل أحق بالرياسة ، لأنه أعلم بوجوه المصلحة ، وأقدر على التنفيذ بما منحه الله من قوة التفكير ، ونفاذ البصيرة ، وقوة الإرادة (١) والاحتمال ، وبما يبذله من المال في المهر والنفقة - قال جل شأنه : «الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ» .

«١» سبق بيان ذلك أيضاً في التمرير القرآني .

١٠ - جعله المرأة راعية في بيت زوجها ، فلها حقوق الراعي ، وعليها واجباته ، وتلك منزلة فيها كل معاني التكريم والتقدير والثقة . قال عبد الله بن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلُّكم راعٍ ، وكلُّكم مسئولٌ عن رعيته : الإمام راعٍ ومسئولٌ عن رعيته ، والرجل راعٍ في أهله وهو مسئولٌ عن رعيته ، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها ومسئولةٌ عن رعيتها ، والخادم راعٍ في مال سيده ومسئولٌ عن رعيته - قال : وحسبت أن قد قال : والرجل راعٍ في مال أبيه وهو مسئولٌ عن رعيته ، وكلُّكم راعٍ ومسئولٌ عن رعيته (١) » .

١١ - الوصايا التي وردت في الدين بشأن المرأة - فإنها أوصت ببرها ، والإحسان إليها ، والعطف عليها ، وحذرت من ظلمها والإساءة إليها :

فالوصايا بالأمهات في كتاب الله وأحاديث رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، أكثر من أن تحصى ، وهي معروفة مشهورة ، وكذا الوصية بالبنات والأخوات (٢) . أما الوصايا بالزوجة فهي كثيرة أيضا - منها قوله تعالى : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » ، وقوله : « فإذا يَلْتَقِنَ أَجْلُهُنَّ فامسكوهن بمعروفٍ أو فارقوهن بمعروفٍ » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « استوصوا بالنساء خيرا ، فإن المرأة خلقت من ضلعٍ ، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج » (٣) ، وقال : « خيرٌكم خيرٌكم لأهله ، وأنا خيرٌكم لأهلي » ، وقال : « ما أكرم النساء إلا كريمٌ ، ولا أهانهن إلا لئيمٌ » ،

١٥ « الأدب النبوي للأستاذ محمد عبد العزيز الحولي .

٢٥ « راجع انداء للجنس اللطيف من ١١٨ ، ١١٩ طبعة سنة ١٣٥١ هـ ،

٣٥ « المصدر السابق ص ٢٤

وقال صلوات الله عليه لعمر حين سأله عن آية الوعيد عن كيز الذهب والفضة :
« إلا أخيرك بخير ما يُكَنزُ ؟ المرأةُ الصالحةُ : إذا نظر إليها سرته ،
وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته » .

وروى الترمذى وغيره عن ثوبان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
قالوا : قد ذم الله سبحانه الذهب والفضة ، فلو علينا أى المال خير حتى نكسبه ،
فقال عمر : أنا أسأل لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله ، فقال : « لسانُ
ذاكرٍ ، وقلبُ شاكرٍ ، وزوجةٌ تعينُ المرءَ على دينه (١) » ، وقد ورد : « أكلُ
المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، والطفُ بهم بأهله » .

وقد بين رسول الله ما للنساء وما عليهن من حقوق ، فقال من خطبته في حجة
الوداع : « أيها الناس إن للنساء عليكم حقاً ، ولكم عليهن حقٌ : لكم عليهن
ألا يُوطئنَ فرشكم غيركم ، ولا يُدْخِلنَ أحداً تَكَرُّهُنَّ بيوتكم إلا
بِإِذْنِكُمْ ، ولا يأتينَ بفاحشةٍ ، فإن فعلنَ فإن الله قد أذنَ لكم أن تعَضِلُوهُنَّ
وتَهْجُرُوهُنَّ في المضاجع ، وتَضْرِبُوهُنَّ ضرباً غير مبرح ، فإن اتَّهَنِينَ
وأَطَعْنَكُمْ فعليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف ، فاتقوا الله في النساءِ ،
واستَوْصُوا بهنَّ خيراً ، ألا هلْ بَلَّغْتُ ؟ اللهم اشهد » .

فهل توجد شريعة سماوية أو وضعية في العصور القديمة ، أو الحديثة بلغت
عنايتها بالمرأة مبلغ عناية شريعة الإسلام التي سنت لها حقوقها وواجباتها على أسس
من العدل والمساواة والنصفة ، والبر والإحسان والرحمة ؟ اللهم لا .

أما ما يقال من أن الإسلام أباح تعدد الزوجات ، وجعل الطلاق بيد الرجل ،

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ٨ ص ١٢٦ و ١٢٧ طبع دار الكتب المصرية .

وفي ذلك مضارة للمرأة وأذى لها - فهو إما صادر عن تعصب وهوى ، وإما صادر عن جهل بما قرره الإسلام بشأن التعدد والطلاق ، وبما حاط به كلا منهما من القيود والنظم التي تكفل منع الظلم والعدوان ، وتحقيق مصلحة الفرد والجماعة ، وقد فصلنا القول في ذلك وأوضحناه عند الكلام في أحكام القرآن .

الثامن عشر ١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢ - ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨١ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠

إبطال الشرع الإسلامي منذ نيف وثلاثة عشر قرناً ونصف ، ولأول مرة في التاريخ ظلم الرقيق وإرهاقه ، وإعلانه أنه أخ لسيدته ومالك رقبته ، ووجوب معاملته معاملة إنسانية ، سداها العدل والنصف ، ولحقتها خفض الجناح والرفق والمرحمة ، ثم وضعه الأحكام لإبطال الرق بالتدريج .

كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين ، والبابليين ، والفرس ، والهنود ، واليونان ، والروم ، والعرب ، وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه في أشق الأعمال ، وتعامله بمنتهى القسوة والظلم . ولم يكن للاسترقاق نظام ولا قواعد ، وكانت وسائله وأسبابه كثيرة متعددة ، أغلبها بغى وعدوان من أسر واختطاف ، وتغلب قوى على ضعيف ، وفاقة واحتياج (١) .

وقد أقرت الديانتان : اليهودية والنصرانية الرق ؛ وظل مشروعا عند الإفرنج إلى أن حررت الولايات المتحدة الأمريكية رقيقها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وتلتها إنجلترا باتخاذ الوسائل لمنعه من العالم كله في أواخر القرن التاسع عشر (٢) .

ولكن الشريعة الإسلامية قررت منذ ظهور الإسلام في أوائل القرن السابع

١٥٠ كان الفقير في بعض البلاد كالصين يضطر لبيع نفسه أو لبيع أولاده .

٢٠ الوحي الحمدي .

الميلادى ثلاثة أمور عظيمة هي غاية ما يطلب من الإصلاح في شأن الأرقاء (١) .

الأمر الأول : إبطالها كل أسباب الرق التي كانت مستفيضة في أمم الأرض جميعها ، ما عدا سيباً واحداً ، هو الأمر في حرب شرعية مع قوم صارحوا المسلمين بالعداوة والأذى ، تلك الحرب التي يقصد منها منع الاعتداء والظلم ، ودفع المفسد ، وتقرير المصالح ، والتي يراد بها حماية الدعوة الإسلامية لتكون كلمة الله هي العليا ، والدفاع عن المسلمين حتى لا تكون في الأرض فتنة - على أن الاسترقاق بهذا السبب ليس أمراً محتوماً على إمام المسلمين ، بل له أن يمن على الأسرى ، أو يأخذ منهم الفداء إذا رأى مصلحة الأمة في ذلك .

بهذا منع الإسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الأقوياء للضعفاء بكل وسيلة من وسائل البغى والعدوان ، وحرّم استرقاق الأحرار من غير أسرى الحرب الشرعية العادلة ، وجعل ذلك من أعظم الآثام - فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنتُ خصمهُ خصمتهُ : رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجلٌ باعُ حرّاً ثم أكل ثمنه ، ورجلٌ استأجر أجيرأ فاستوفى منه ولم يُعطه أجره ، » وفي حديث الثلاثة الذين لا يقبل الله منهم صلاة « ورجلٌ اعتبَدَ حرّاً » ، (٢) .

ولنما أبقى الإسلام هذا السبب للاسترقاق - وكان من الممكن إبطال الرق في جميع حالاته - لأن الإسلام جاء والرق شائع في كل أمة ، منتشر في كل مكان ، فلم يكن من الحكمة في ذلك الوقت إبطاله دفعة واحدة لعدة أسباب ، أهمها رافة الله بعباده ، وعدم مفاجأتهم بمحو عادة تأصلت في العالم ، وتمسك بها الناس أحقاباً وقروناً ، ولأنه كان أمراً عالمياً دولياً يقع به التعامل بين الأعداء في الحرب ، فكان من أكبر المفسد ، وأعظم الضرر أن يسترقوا أسرانا ، ونطلق أسراهم -

« ١ » من أراد الإحاطة بهذا البحث فليرجع إلى كتاب الرق في الإسلام لأحمد شقيق باشا

« ٢ » الوحي المهدى .

فآثر الإسلام حصره في أضيق دائرة ، ووضع من الأحكام ما يكفل إبطاله والقضاء عليه بالتدريج .

الثاني : قضاؤها على كل ضروب البنى التي كان يعامل بها الأرقاء ، فأمرت بالإحسان إليهم والرفق بهم ، ورفعتهم من الخضيض إلى مرتبة الإنسانية ؛ روى المعرور بن سويد قال : رأيت أبا ذر الغفاري رضي الله عنه ، وعليه حلة ، وعلى غلامه حلة ، فسأله عن ذلك ، فقال : إني سأيت رجلا ، فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي : أغيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ، ثم قال :

« إن إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوه ما يغلبهم ، فإن كلفتموهما يغلبهم فاعينوهما (١) » .

فانظر إلى هذا الإرشاد الذي يكاد يوحى بالمساواة التامة بين الخادم والمخدوم ، والمالك والمملوك ، فهل تجد تشريعا أعدل أو أبر من هذا التشريع ١١٩٩ . كذلك نهى النبي صلوات الله وسلامه عليه - عن قول السيد : « عبدي وأمتي » ، وأمره أن يقول : « فتى وفتاة وغلالي » ، ووصى الله ورسوله بالأرقاء ، ومن ذلك : تخفيف الواجبات عليهم ، وجعل حد المملوك في العقوبات نصف حد الحر ، وقرن الله الوصية بهم ، بالوصية بالوالدين والأقربين ، فقال جل شأنه : « واعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذي القربى ، واليتامى والمساكين ، والجار ذي القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا » .

ومن أعظم ضروب البر بالرقيق أن جعلت الشريعة تعذيبه ، أو التمثيل به

سببا من أسباب عتقه ، كما جعلت إيداءه بما دون التمثيل والتعذيب الشديد حراما وذنبا كفرته تحريره وعتقه .

روى أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم صارخا ، فقال له : « مالك ؟ » قال : « سيدى رآنى أقبل جارية له ، لُجِبَ منها كبرى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « على بالرجل » ، فطلب ، فلم يقدر عليه ، فقال الرسول للغلام : « اذهب فأنت حر » ، كما روى عنه عليه الصلاة والسلام قوله : « من مثَّلَ بعد عتق عليه ، وعن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ لَطَمَ مملوكه ، أو ضربه فكفارته أن يعتقه (١) » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : جاء رجل فقعد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن لى مملوكين يكذبونى ويخونونى ويعصونى وأشتهم وأضربهم ، فكيف أنا منهم ؟ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كافا لالك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لم منك الفضل » . فتنحى الرجل وجعل يهتف ويبكى ، فقال له رسول الله : « أما قرأ قول الله : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلَا تُظْلَمُ نفسٌ شيئا ، وإن كان مثقالَ حبةٍ من خردلٍ أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ؟ » فقال الرجل : يا رسول الله ، ما أجدر لى ولؤلؤا خيرا من مفارقتهم ، أشهدك أنهم كلهم أحرار (٢) .

من أجل ذلك كان المسلمون فى الصدر الأول يبالغون فى تكريم الأرقاء ، ويحسنون رعايتهم ، وظفر الرقيق فى حكم الإسلام الأول بمعاملة كلها عدل ورفق ورحمة .

« ١ » الوحي المصدى .

« ٢ » رواه أحمد والترمذى - راجع العدد الثالث من مجلة لواء الإسلام ص ٢٠ .

الأمر الثالث : أنها وضعت نظاماً تدريجياً إذا اتبع فيه هدى الإسلام قضى على الرق ، وكان كفيلاً بإلغائه - فن ذلك :-

١ - ترغيب الشريعة في إعتاق الأرقاء - وكان أول من بدأ بذلك صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم : فقد أعتق زيد بن حارثة ، وتبعه في ذلك أصحابه ، فمنهم من خرج عن عبيده وإمائه يؤثر طاعة الله ورضاه على نعيم دنياه ، ومنهم من كان يشتري من الأغنياء عبيدهم وإماءهم ليحرر رقابهم ابتغاء وجه الله . وقد جعله الله ورسوله من أعظم العبادات وأصول البر . قال الله تعالى : « لبس البرّ أن تُوثّقوا وجوهكم قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ، ولكنّ البرّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخرِ ، والملائكةِ والكتابِ والنبينِ ، وآتى المالَ على حُبِّهِ ذوى القُرْبى ، واليتامى ، والمساكين ، وابنَ السبيل ، والسائلين ، وفى الرقابِ ، وأقامَ الصلاةَ ، وآتى الزكاةَ ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأسِ والضراءِ وحينَ البأسِ - أولئك الذين صدّقوا ، وأولئك همُ المتقون ، وقال جل شأنه : « فلا اقتحمَّ العقبةَ ، وما أدراك ما العقبةُ : فكُ رقبةٍ ، أو إطعامٌ فى يومٍ ذى مسغبةٍ يتيمًا ذا مقربةٍ ، أو مسكينًا ذا متربةٍ . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبرِ ، وتواصوا بالمرحمةِ ، أولئك أصحابُ الميمنةِ . »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيُّما رجلٍ أعتقَ امرأً مُسلياً - استنقذَ الله بكلِّ عضوٍ منه عضواً من النارِ ، ، وقال : أيُّما رجلٍ كانت له جارية ، أدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، وأعتقها ونزَّ وجَّها فله أجران (١) ، ،

ب - شرع الله للمملوك أن يشتري نفسه من مالكة بما له يدفعه ، ويسمى هذا في الشرع الكتاب والمكاتبة ، بل أمر المالك بها إن علم في المملوك خيراً ، وأنه قادر على الكسب والوفاء ، كما أمر المالك وغيره بإعانة المكاتب على أداء بدل الكتابة حتى تفك رقبته ، وذلك هو قوله تعالى : « والذين يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ، وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ » .

ج - جعل الرسول - صلوات الله عليه - تعذيب المملوك ، أو التمثيل به سبباً من أسباب العتق ، وقد سبق بيانه .

د - عتق أمهات الأولاد وذلك أن الجارية التي تلد لسيدها ولدا تصير حرة من رأس ماله بعد موته ؛ فلا تدخل في ملك الورثة ، ولا يجوز له بيعها في حياته ، عند جمهور العلماء ، كما يدل على ذلك حديث عمر عند الإمام مالك : « أيما وليدة ولدت من سيدها ، فإنه لا يبيعها ، ولا يهبها ، ولا يورثها ، وهو يستمتع منها ، فإذا مات فهي حرة (١) » .

هـ - ملك ذى الرحم المحرم يفضى إلى عتقه ، وذلك لما رواه سمرة بن جندب مرفوعاً : « من ملك ذا رحمٍ محرمٍ فهو حرٌّ » .

و - جعلت الشريعة الإسلامية تحرير الرقاب من القربات التي تمحو الذنوب ، لجعلته كفارة لذنوب كثيرة - منها قتل النفس خطأ ، والظهار (٢) ، والحنث في اليمين ، وإفساد الصوم عمداً بشروطه المعروفة في كتب الفقه ، قال تعالى في كفارة القتل : « وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ... الخ » . وقال في كفارة الظهار : « والذين يُظَاهِرُونَ

«١» المصدر نفسه .

«٢» تشبيه الرجل زوجته بأمه ، وكان طلاقاً في الجاهلية .

من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يماسا ، ذلك
 متوعدون به ، والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من
 قبل أن يماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله
 ورسوله ، وتلك حدود الله ، والكافرين عذاب أليم . . وقال في كفارة اليمين
 « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم
 الأيمان ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ،
 أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة
 أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم
 تشكرون . »

ز - جعلت الشريعة للعتق والإعانة على شراء المملوك نفسه (الكتابة)
 سهما من مصارف الزكاة الشرعية . وتلك أعظم منة للإسلام على الأرقاء ، بل
 هو ابتكار في تشريع البر والإحسان - قلنا يأتي بمثله غير التشريع الإلهي الذي
 أرشد إليه العليم الحكيم . ولو نفذ حكم الإسلام في الزكاة لكان كفيلا بتحرير
 الأرقاء في بلاد المسلمين - تأمل قوله جل شأنه :

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي
 الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله
 عليم حكيم . »

التاسع عشر

كفاته لأهل الذمة

من محاسن التشريع الإسلامي : كفاته لأهل الذمة (١) ، ورحمته بهم ، ورعايته

« ١ » هم الذين أقاموا بين المسلمين ورضوا بحكمهم مع بقائهم على دينهم ودفنهم الجزية .

لهم ، ودفع الظلم والأذى عنهم ، وذلك من مزايا الشريعة الإسلامية ، ومظاهر برها ، وشواهد فضلها ، ودلائل إنعامها وخيرها ، ومن آى تساعدها - فإنهم متى أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم ، وتوفير الحرية لهم في دينهم بالشروط التى تعقد بها الجزية ، ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين ، ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون كالمسلمين . ويسمون أهل الذمة ، لأن هذه الحقوق ثبتت لهم بمقتضى ذمة الله ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم (١) أما الجزية التى تفرض عليهم فليس فيها مشقة ولا عنت ، كما أنها لم تجب عليهم اعتسافا وتحكما ، فهى قدر يسير من المال ، لا يفرض إلا على الرجل الحر القادر على الكسب (٢) فلا جزية على صبي ، ولا على امرأة ، ولا على فقير غير معتمل ، كما أنها لا تجب على أهل الصوامع .

وهى عند الحنفية ، ثمانية وأربعون درهما على الفنى كل سنة ، وأربعة وعشرون على المتوسط ، واثنا عشر على الفقير - وعند الشافعى : أقلها م حدود وهو دينار ، وأكثرها غير محدود ، وذلك بحسب ما يصالحون عليه . وقال قوم : ليس فيها قدر معين ، وإنما هو متروك لاجتهاد الإمام (٣) . واختلف العلماء فى سبب أخذها منهم (٤) ، وأقرب الآراء وأولاهها

(١) الوحى المحمدى ص ٢٦٠، ٢٦١ من الطبعة الثانية .

(٢) يشترط فى وجوبها الذكورة والحرية والبلوغ بالفاق - راجع بداية المجتهد .

(٣) بداية المجتهد لابن رشد .

(٤) اختلف العلماء فيما وجبت الجزية عنه ، فقال الشافعى : وجبت بدلا عن الدم وسكنى النار ، وقال علماء المالكية : وجبت بدلا عن القتل بسبب الكفر ، وفائدة الخلاف أن القمى إذا أسلم سقط عنه الجزية لا مضى ، ولو أسلم قبل تمام الحول يوم أو بعده عند مالك ، وعند القاضى هو دين مستقر فى الذمة ، فلا يسقطه الإسلام كأجرة النار . أما الحنفية فقد قال بعضهم بقول مالك ، وقال بعضهم : إنما وجبت بدلا عن النصر والجهاد - راجع الجامع لأحكام القرآن لقرطبى ج ٨ ص ١١٣، ١١٤ طبع دار الكتب المصرية .

بالترجيع ما رآه العالم المحقق السيد محمد رشيد رضا من أنها وجبت للدفاع عنهم ، وحمايتهم (١) من الاعتداء عليهم ، كما يعلم من سيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة ، وأعداهم في تنفيذها . فمن ذلك : ما كتبه خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا حينما دخل الفرات : « هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه : إني عاهدتكم على الجزية والمنعة ، فلکم الذمة والمنعة ، وما منعناكم فلنا الجزية ، وإلا فلا ، وذكر البلاذري في فتوح البلدان ، والأزدی في فتوح الشام ، أن الصحابة - رضوان الله عليهم - ردوا ما أخذوه من أهل حصص من الجزية حين اضطروا إلى تركهم لحضور وقعة اليرموك ، لعجزهم عن الدفاع عنهم في ذلك الوقت ، فعجب أهل حصص نصارهم ويهودهم أشد العجب من رد الفاتحين أموالهم إليهم .

ذلك - وقد أوصى الإسلام بأهل الذمة خيراً : أوصى ببرهم والإحسان إليهم ، وحرّم ظلمهم ، أو أخذ شيء منهم بغير حق ، كما أنه لم ينه المسلمين عن معاملة مخالفهم في الدين بالقسط والبر ، وإن لم يكونوا أهل ذمة إذا لم يقع منهم عدوان ولا بنى - قال الله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَأَخْرَجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ ، وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ ، أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

وروى أبو داود ، عن صفوان بن سليم ، عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آبائهم أن رسول الله قال : « مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ اتَّقَصَصَهُ أَوْ كَلَفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ ، أَوْ أَخَذَ شَيْئًا مِنْهُ بِغَيْرِ طَيْبِ نَفْسٍ ، فَأَنَا حَاجُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٢) » .

«١» وإلى هذا المعنى أشار القرطبي إذ يقول : الجزية وزنها فعلة ، من جرى يجرى إذا كانا عما أسدى إليه ، فكأنهم أعطوها جزاء ما منعوا من الأمن - الجزء الثامن من تفسير القرطبي ص ١١٤ طبع دار الكتب المصرية .

«٢» الجزء الثامن من تفسير القرطبي ص ١١٥ - طبع دار الكتب المصرية .

وروى في الجزء السابع من نيل الأوطار قوله عليه الصلاة والسلام : « ألا مَنْ قَتَلَ نَفْساً مُعَاهِدَةً لَهَا ذِمَّةُ اللَّهِ ، وَذِمَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ أَخْفَرَ ذِمَّةَ اللَّهِ (١) ، ولم يرح (٢) رَاحَةَ الْجَنَّةِ ، . وفي رواية لأبي داود « مَنْ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ لَمْ يَجِدْ رِيحَ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ عَامًا (٣) ، . »

وجاء في كتاب لعمر بن الخطاب أرسله لعمر بن العاص عامله على مصر : « وإن معك أهل ذمة وعهد ، وقد وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم ، وأوصى بالقبط ، فقال : « استوصوا بالقبط خيرا ، فإن لهم ذمة ورحما ، ورحمهم أن أم إسماعيل منهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ فَأَنَا خَصْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . فاحذروا أن يكون رسول الله لك خصما ، فإنه من خاصمه فالله خصمه » . »

وجاء في كتاب آخر أرسله عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح قوله في شأن أهل الذمة : « وامنح المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم ، وأكل أموالهم إلا بحقها ، ووف لهم بشرطهم الذي شرطت لهم في جميع ما أعطيتهم (٤) . »

وجاء في كتابه لسعد بن أبي وقاص ومن معه من الأجناد قوله : « وأقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة ، حتى تكون لهم راحة ، يحيون فيها أنفسهم ، ويموتون

« ١ » أخفر ذمة الله : أى نقض عهده وغدر .

« ٢ » لم يرحها أى لم يجد ريحها - قال في المصباح : راح فلان الريح يراحها روحا من باب خاف اشتبها ، وراحها ريحا من باب سار وأراحها بالالف كذلك ، وفي الحديث لم يرح راحة الجنة مروى باللفظ الثلاث .

« ٣ » الجزء السابع من تفسير القرطبي ص ١٣٤ .

« ٤ » السياسة الشرعية .

أسلحتهم وأمتعتهم، ونَحَّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً، فإن لم حرمه وذمة ابتليت بالوفاء بها، كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فوالوهم خيراً، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح... إلى آخره (١).

أدرك المسلمون الأولون من هذه النصوص وغيرها مدى رحمة الإسلام وعطفه على مخالفيه من أهل الذمة والكتاب، فلم يعرف عنهم اضطهاد لهم في دينهم، ولا حرمان لهم من حقوقهم، واستخدمهم الخلفاء الأمويون والعباسيون في ترتيب دواوين الخراج، وترجمة علوم اليونان، وقربوا التابعين منهم، واعتمدوا عليهم في شفاء عليلهم، بل عدهم المسلمون عضواً في هيئتهم الاجتماعية، يحافظون عليه، كما يحافظون على أنفسهم، وساسوهم بالعدل والرفق، وأشركوهم معهم في مرافق الدولة، وكان شعارهم - حيال أهل الذمة :- «لهم مالنا وعليهم ما علينا»، وهي سياسة عادلة رحيمة، جعلت المؤرخ الاجتماعي جوستاف لوبون يقول: والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب (٢).

المميز العشرون

الدعوة إلى الخير

من أعظم مزايا الشريعة الإسلامية، وأبرز محاسنها - إرشادها إلى أعظم وسيلة لإصلاح المجتمع، وتنقيته من أدران الشر والفساد، وخير أداة لإصلاح الأفراد والجماعات، وتحقيق معنى التضافر والتعاون الاجتماعي، تلك هي الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو من فروض الكفاية :

«١» مجلة الأزهر مجلد ١٧ ص ٤٦٣

«٢» مقتبس من ترجمة كتابه حضارة العرب.

إذا قام به بعض الأمة سقط عن الباقي ، وإذا لم يقم به أحد أثموا جميعا ، ووقعوا في حوب كبير . ولم يكن فرض عين ، فلم يجب عليهم أجمعين - لما ينفي عنه قوله عز وجل : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » ، فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون . . ولأنه من عظام الأمور وعزائمها التي لا يضطلع بها ولا يتولاها إلا من هو أهل لها ، والأهلية تتحقق بشروط - منها : العلم بالأحكام ، ومراتب الاحتساب ، وطرق إقامة هذا الواجب ، ومعرفة الأحوال المختلفة ، وما يناسب كل حالة - فإن من لا يعلم ذلك قد يأمر بمنكر ، وينهى عن معروف ، ويغلظ في مقام اللين ، ويلين في موضع الغلظة ، وينكر على من لا يزيد الإنكار إلا تماديا وإصرارا والأمر بالمعروف يكون واجبا ومندوبا على حسب المأمور به ، أما النهي عن المنكر فهو واجب في كل حال ، لأن جميع ما أنكره الشرع حرام .

ولو وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروط مقرر ، منها الاستطاعة والقدرة على أداء هذا الواجب ، وأن يكون المنكر مجعلا على تحريمه ، وألا يؤدي النهي عنه إلى مفسدة أشد وأعظم ، وأن يكون المنكر ظاهرا في الخارج لاستترا به فاعله ، فلا يتجسس المرء على الناس ، ولا يبحث عما خفي من أعمالهم .

ولأنما طلب إلينا الشرع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن صلاح الأمة في أمر دينها ودنياها ، ونفي الفساد عن الأرض ، وتقليل الشرور والآثام ، لا يكون إلا بأداء هذا الواجب ، فإن الظالمين والمفسدين ، وبجرحى السيئات ، ومقترفي الآثام إذا تركوا وشأنهم من غير نكير - استشرى دأؤهم ، وتفاقم شرهم ، وكثر سوادهم ، فتقع الأمة في بلاء عظيم ، وسوء لامر دله ، وتبوء بسخط من الله وعذاب ، وذلك هو الحشران المبين .

والأصل في ذلك : ما ورد في الكتاب والسنة من تلك النصوص التي جمعت بين القوة والكثرة في الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال الله تعالى : « وَلِتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

ولما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات وأبعدها أثرا في إصلاح المجتمع - مدح الله به المؤمنين كما مدح به المؤمنين ، وجعله من صفات الرجال والنساء معا ، وقرنه بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وبطاعة الله ورسوله فقال : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

وجعل الله - جلّت حكمته - قيام الأمة بهذا الواجب دليلا على تمكن الخير من نفسها ، ورسوخ خلق الإصلاح فيها . فقال : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » . وأنبأنا - جل شأنه - أن من أسباب استحقاق بعض الأمم اللعنة أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه : « لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلَاهُمْ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » . ولذلك حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نكون كبنی اسرائیل فی ترکهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى لا نكون مثلهم في سوء العاقبة واستحقاق غضب الله ولعنته ، لما في ترك هذا الواجب والسكوت على المنكر من إضاعة الحقوق ، وانتهاك الحرمات ، وتمكن الظلم والفساد في الأرض - روى (١) أبو داود والترمذي عن ابن مسعود رضي الله

عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلتقي الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله ، وشريبه ، وقعيدة ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « كلا والله ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ثم لتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه (١) على الحق أطراً ، ولتنصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ، ثم يلعنكم كما لعنهم » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .
وسئل صلى الله عليه وسلم عن خير الناس ، فقال : « أمروهم بالمعروف ونهواهم عن المنكر ، وأقامهم لله ، وأوصلهم للرحم » . بل روى عنه أنه جعل الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر خليفة الله ورسوله في الأرض ، فقال : « من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، فهو خليفة الله في أرضه ، وخليفة رسوله ، وخليفة كتابه » .

وورد في الحديث ما يدل على أن سنة الله في الأمة التي فرطت في هذا الواجب أن يسومها سوء العذاب ، وألا يتقبل دعاء خيارها إذا سكتوا عن منكراتها ، فقد روى أبو داود عن أبي بكر الصديق قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه

١ أطره على الحق : عطفه عليه ، من بابي ضرب ونصر .

وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يُوشك أن يعمَّهُم اللهُ بعذابٍ من عنده » .

وروى عنه صلوات الله وسلامه عليه قوله : « لتأمرُن بالمعروفِ ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكنَّ الله أن يبعثَ عليكم عذاباً من عنده ، ثم لتدعُنَّه فلا يُستجاب لكم (١) ، وقال على رضي الله عنه : « أفضل الجهاد الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومن شأنا الفاسقين وغضب الله غضب الله له (٢) » .

ولتفريطنا في أداء هذا الواجب - ظهر فينا الفساد الذي جنى على كثير من آدابنا الاجتماعية وعاداتنا المرضية ، وأخلاقنا الإسلامية - فتي ثوب إلى رشدنا ، وننفذ أحكام شريعتنا ١٤ . ومتى ينجم فينا رجال أشداء على الباطل والظلم ، ليحيوا ما اندثر من السنن القويم ، ويجددوا مآثر من حبل الدين المتين ١٥ .

الحادى والعشرون

مشروعية الجهاد

وذلك أنها سنت للحق ما يحفظه ويحميه من عبث المبطلين وغشمية (٣) الظالمين ، وعنت المكابرين ، وشرعت لتحقيق عزة المؤمنين ما يجعلها بنجوة من إذلال المسيطرين وقهر المتجبرين ، وهدت المسلمين إلى سبيل منعتهم وعزتهم - فشرعت الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى ، والدفاع عن الأنفس والأعراض ؛

« ١ » روى الحديث ببارات أخرى، ولكنها متعده أو متقاربة فالمنى - منها قوله : « لتأمرن بالمعروف، وتنهون عن المنكر، أو لیسطن الله علیکم شرارکم، ثم یدمو خيارکم، فلا یستجاب لهم »

« ٢ » راجع تفسیری : أبی السعود والبیضاوی - وشناء : أبغضه - کتب وسع .

« ٣ » الفشرية : الظلم .

والأوطان والأموال ، ولحماية الدعوة الإسلامية - وفيها التور والهداية والضياء -
من أهل الفتنة والضلال .

ولم تكن شريعة سماوية ، ولا قانون وضعى فى الزمن القديم أو الحديث عناية
الإسلام بالجهاد المشروع ، والدفاع المحمود ، حتى كان عدة الإسلام ، وشعار
المسلمين فى عصرهم الأول ، وبه عز جانبهم ، وقويت شكيمتهم ، وجعلوا كلمة الله
هى العليا ، وبه حطموا الأصنام ، وقضوا على عبادة الأوثان ، وثبتوا كلمة التوحيد ،
ونشروا نور الهداية فى الأرجاء ، ونصروا الله فنصرهم نصراً عزيزاً ،

والجهاد فرض كفاية ابتداء على الرجال القادرين الأحرار الأصحاء ، لا المرضى
ولا الزمنى ، وفرض عين على كل واحد من المسلمين إن هجم العدو ، ولم يتبهاً دفعه
إلا بقتلهم جميعاً ، فيخرج العبد بلا إذن مولاه ، والمرأة بغير إذن زوجها - قال
صاحب نيل الأوطار (١) :

الجهاد بعد النبي صلى الله عليه وسلم فرض كفاية على المشهور إلا أن تدعو
الحاجة ، كأن يدم العدو (أى فيكون فرض عين) ويتعين على من عينه الإمام ،
وعن ابن المسيب أنه فرض عين . قال الله تعالى (٢) : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ
وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا
شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » ، وقال جل شأنه فى سورة
التوبة (٣) : « انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ، وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

١٥ ج ٧ ص ١٧٤ ، ١٧٨
٢٥ الآية ٢١٦ من - سورة البقرة .
٣٥ الآية ٤٢

وقد أوضح القرطبي هذا المعنى في تفسيره (١) ، فقال :

« وقد تكون حالة يجب فيها تغير الشكل ، وذلك إذا تعين الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار ، أو بحلوله بالعقر (٢) ، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافا وثقالا ، شبابا وشيوخا ، كل على قدر طاقته ، من كان له أب بغير إذنه ، ومن لا أب له ، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج من مقاتل أو مكثر . فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعودهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب مالزم أهل تلك البلدة ، حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعهم ، وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم ، وعلم أنه يدركهم ويمكنه غيائهم لزمه أيضا الخروج إليهم ، فالمسلمون كلهم يد على من سواهم ، حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التي نزل العدو عليها ، واحتل بها سقط الفرض عن الآخرين . ولو قارب العدو دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضا الخروج إليه ، حتى يظهر دين الله ، وتحمي البيضة ، وتحفظ الحوزة ، ويخزي العدو » .

ولا يقصد بمشروعية الجهاد والقتال إلا تأمين الحفيدة وحماية الدعوة الإسلامية من أهل الفتنة والأذى ، ودفع الاعتداء عن المسلمين وبلادهم ، ولم يشرع الإسلام قط حرب الظلم والعدوان ، ولا القتال للإكراه في الدين ، بل نهى عن قتال الاعتداء والبغى . اقرأ قوله تعالى في سورة الحج (٣) :

« أُوْذِنَ الَّذِينَ يَفِئْتُونَ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتِ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصُلَاتٌ »

« ١ » الجامع لأحكام القرآن ج ٨ ص ١٥١ طبع دار الكتب المصرية

« ٢ » في المصباح المنير: عقر الدار : أصلها فلاة الحجاز ، وتضم العين وتفتح عندم . وعقرها :

مظلمها في لغة غيرهم ، وتضم لا غير .

« ٣ » الآيتان ٣٩ ، ٤٠

ومساجد يُذَكِّرُ فيها اسمَ اللهِ كثيراً، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. وتأمل قوله جل شأنه (١) :

« وَاقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. وقوله : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ. »

فإذا وجدت موجبات الجهاد، وتحققت أسبابه الشرعية كان فرض كفاية في حال، وفرض عين في حال أخرى « على ما أسلفنا بيانه. »

وهنا تظهر منزلة التشريع الإسلامي، فإنه لا يوجد قانون سماوى ولا وضعى حث على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله - عند تحقق أسبابه وموجباته الشرعية، كما حث عليه الإسلام، فهو دين العزة والمنعة والقوة التى تحمى الحق في غير عنف ولا جبروت، ودين الحياة الصحيحة الكريمة، والإسلام والمذلة لا يجتمعان، لأنه - وإن جنح للسلم، وآثرها على الحرب - لا يرضى للمسلمين المذلة والهوان، بل فرض عليهم دفع الاعتداء، وإعداد ما استطاعوا من أسباب العزة والقوة، حتى لا يطمع فيهم الأعداء، فينالوا من أنفسهم وبلادهم، أو يقفوا في سبيل دعوة الله، ودينه الحق. قال الله تعالى (٢) : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، » وقال في شأن أعداء المسلمين الذين نقضوا عهدهم غير مرة (٢) :

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ، فَإِذَا تَثَبَّقْنَهُمْ (٤) فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدُوا بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ، وَإِنَّمَا تَخَافُنَ مِنْ قَوْمٍ

« ١ » الآيات ١١٠، ١١٣ من سورة البقرة.

« ٢ » في الآية ٨ من سورة المائدة.

« ٣ » الآيات ٦٥ وما بعدها من سورة الأنفال.

« ٤ » تصادفهم وتظفرن بهم.

خيانةً فانبذوا (١) إليهم على سواء (٢) ، إن الله لا يحب الخائنين ، ولا يحسن الذين كفروا سبقوا ، إنهم لا يُغْزَوْنَ ، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ، وإن جرحوا للسلام فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم .

وقال جل شأنه في سورة التوبة (٣) مبينا ما أعدده للمؤمن المجاهد في سبيل الله من المقام الكريم ، والنعيم المقيم ، والأجر العظيم :

« أجمعتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كنتم آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهدوا في سبيل الله ، لا يستأثرون عند الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين ، الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون ، يُبدشروهم ربهم برحمة منه ورضوان وجات لهم فيها نعيم مقيم خالد فيها أبداً ، إن الله عنده أجر عظيم . »

وقد رفع الإسلام ذكر الجهاد في سبيل الله وأعلى شأنه ، حتى جعل درجته أرفع الدرجات ، ومنزلته في الدين أسمى المنازل بعد الإيمان بالله ورسوله ، وأوجب على المسلم أن يؤثر محبته لله ورسوله ، والجهاد في سبيله على محبة الأهل والآباء والبنين ، وما يحرص عليه من التجارة والمال والنسب ، وبذلك سما بالمسلم المخلص والمؤمن الصادق إلى درجة التضحية والفداء ، وإنكار الذات ، وكل ما يُحْبَبُ في هذه الحياة في سبيل المثل العليا . وتوعد الله - سبحانه - من يستحب الحياة الدنيا وزهرتها على الآخرة ، ويؤثر المال والبنين ، والأهل والعشيرة على الجهاد

«١» ا طرح إليهم مهادم .

«٢» عدل وطريق قصد في العداوة .

«٣» الآيات ٢٣، ٢٢، ٢١، ٢٠

لإعلاء كلمته ، بالوعيد الشديد ، والعذاب الأليم ، فقال في الآية الخامسة والعشرين من سورة التوبة :

« قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ، فَتَرْجِعُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

وقال في السورة نفسها (١) موبخاً على ترك الجهاد ، معاتباً على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج (٢) ، وقد عاب على المتخلفين لإشارتهم الدنيا على الآخرة :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ، أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ، فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ (٣) ، وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وحسبك من الدين ترغيباً في القتال وتخصيئاً على الجهاد ، إذا وجد ما يوجهه وتحققت دواعيه وبواعثه - أنه رفع مرتبة الشهداء إلى أعلى الدرجات وأسمى المنازل متى كان القتال في سبيل الله ، وكانت الغاية منه أن تكون كلمة الله هي العليا، قال الله جل شأنه (٤) :

« وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا

«١» في الآيتين ٤٠، ٣٩

«٢» وكان ذلك في غزوة تبوك حينما استولى على بعض الناس الكسل فتقاعدوا وثاقفوا

«٣» وهذا تهديد شديد ووعيد مؤكد في ترك النفير .

«٤» في الآيات ١٦٩، ١٧٠، ١٧١ من سورة آل عمران .

بهم من تخلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين .

وقال عزت كلمته في الآية ١١٢ من سورة التوبة :
 « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة :
 يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة
 والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي
 بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم . »

وفي السنة من ذلك كثير :

منها : قوله عليه الصلاة والسلام : « لغدوة أو روضة في سبيل الله خير
 من الدنيا وما فيها » ، وقوله : « من اغبرت قدماه في سبيل الله حرَّمه الله على
 النار » ، وقوله : « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف » ، وقوله : « غدوة
 أو روضة في سبيل الله خير مما طلعت عليه الشمس وغربت » ، كما روى عنه
 صلوات الله وسلامه عليه : « من قاتل في سبيل الله فواق (١) ناقة وجبت
 له الجنة » .

وعن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « عينا
 لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله »
 وعن أبي موسى قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل
 شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، فأى ذلك في سبيل الله ؟ فقال : « من قاتل
 لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

وجاء رجل إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه فقال له : أرأيت رجلا غزا
 يلتمسُ الأجر والذكْرَ ماله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا شيء »

« ١ » فواق ناقة : قدر ما بين الحلبتين من الاستراحة .

له ، فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله : « لا شئ له » ، ثم قال : « إن الله لا يقبلُ من العملِ إلا ما كان له خالصا ، وابتغى به وجهه (١) » .

وفي الحديث الصحيح (٢) : « إن الشيطانَ قعد لابن آدم ثلاثةَ مقاعد : قعد له في طريق الإسلام ، فقال : لمَ تَدْرُ دينَكَ ودينَ آبائك ؟ نخالفه وأسلم ، وقعد له في طريق الهجرة ، فقال له : أتَدْرُ مالك وأهلك ، نخالفه وهاجر ، ثم قعد له في طريق الجهاد ، فقال له : تُجاهِدُ فتُقْتَلُ فيُنْكَحُ أهلُكَ ، ويُقسَمُ مالك ، نخالفه وجاهد ، كَفَى على الله أن يُدْخِلَهُ الجنةَ » .

وقيل لرسول الله : ما يعدل الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « لا تستطيعونه » ، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا ، كل ذلك يقول : « لا تستطيعونه » ، ثم قال : « مثلُ المجاهدِ في سبيلِ الله كمثلِ الصائمِ القائمِ القانتِ بآياتِ الله لا يفتُر من صلاة ولا صيام حتى يرجعَ المجاهدُ في سبيلِ الله » .

أذنَ (٣) الرعيل الأول من المسلمين لتلك الوصايا في آيات الله وأحاديث رسوله . وعرفوا حكم الإسلام وهدية في الجهاد ، وهم الذين زخرت نفوسهم بالإيمان الراسخ ، وعمرت صدورهم بالعقيدة الصحيحة ، وأشرقت وجوههم بنور اليقين ، وأشربوا حب الله وحب دينه ، وأسلموا وجوههم لله ، وتأدبوا بأدب القرآن وأدب الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن نفخ فيهم من روحه ، وأفاض عليهم من سنا هديه ، ونور محبته ، وضرب لهم أروع الأمثال في الشجاعة والإقدام ، وقد شاهدوا الوحي والتنزيل ، وأخلصوا لله الدين - فكانوا كلما دعوا إلى القتال في سبيل الله والحق لبوا مسارعين ، ونفروا خفافا وثقالا غير وائين ولا مفرطين ،

«١» راجع تلك الأحاديث في الجزء السابع من نيل الأوطار - طبعة الحلبي

«٢» الجزء الثامن من تفسير القرطبي ص ٩٦ طبع دار الكتب المصرية .

«٣» أذن له : استمع له واتقاد

يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، لا يهلكون ولا يولون الأدبار ، حتى يفوزوا بإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة . قد وضعوا نصب أعينهم قول الله تعالى (١) :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُؤْثِرُوهُمُ الْإِدْبَارَ ، وَمَنْ يُؤْثِرْهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

كان من صفتهم المجاهدة في سبيل الله ، وأنهم صلاب في دينهم ، إذا شرعوا في أمر من أمور الدين : إنكار منكر ، أو أمر بمعروف ، أو جهاد في سبيل الله ، مضوا فيه كالمساير المحجة لا يُرعبهم قول قاتل ، ولا لومة لائم ، ولا تصدقهم عنه قوة مبطل جائر ، حتى صدق فيهم قوله عز وجل (٢) :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ (٣) يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَخَافُونَ كَوْمَةَ لَأِئْمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » .

وما كانوا يبالون الموت في سبيل الله ، بل كان أحب إليهم من السلامة ، كما قيل في حقهم :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا
لا يقطع الطعن إلا في نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل

«١» في الآيتين ١٦، ١٥ من سورة الأنازل .

«٢» في الآيتين ٨٤، ٥٧ من سورة المائدة .

«٣» ذكر صاحب الكشف عدة آراء في المراد من القوم قليل : هم ألفان من النفع ، وخسة آلاف من كندة وعيلة ، وثلاثة آلاف من أفتاء الناس جاهدوا يوم القادسية ، وقيل : هم الأنصار وقيل غير ذلك - راجع كتب التفسير .

من ذلك : ما رُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استشار أصحابه قبل بدء القتال في غزوة بدر الكبرى حينما جاءه الخبر أن قريشاً قد خرجوا ليمنعوا عيرهم ، فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد (١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . وسكت الناس ، فقال الرسول : أشيروا علي أيها الناس - يريد الانصار - فقال سعد بن معاذ : لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : أجل ، قال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ، وموآثقتنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر نخضته ، لخصناه معك ، ماتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا . إنا لصُبرٌ في الحرب ، صدُقٌ في اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

وفي تلك الغزوة خرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يثب في الدرع ويقول : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » ، ثم حرض أصحابه وقال : « والذي نفس محمد بيده لا يُقاتِلُهُمُ اليومَ رجلٌ فيُقْتَلَ صابراً مُحْتَسِباً ، مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ » ، فقال عمير أخو بني سُلَيمَة ، وفي يده تمرات يأكلهن : بئج ! فإيبنى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قُتل وهو يقول :

رَكضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد إن التقى من أعظم السداد (٢)

(١) برك الغماد : موضع باليمن ، أو أقصى معمور الأرض

(٢) ص ٦٠٦ مجلد ١٨ من مجلة الأزهر

ومن مواقفهم الخالدة الرائعة موقفهم في غزوة مؤتة وعددهم لا يجاوز ثلاثة آلاف ، وقد لقيهم الأعداء بنحو مائتي (١) ألف ، فقال المسلمون نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا ، فيما أن يمدنا بالرجال ، ولما أن يأمرنا بأمره فنمضي له ، فقام عبد الله بن رواحة يشجع الناس ويقول : يا قوم والله إن التي تكمهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هي إحدى الحسينين : إما ظهور ، وإما شهادة . فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة ، ومضوا يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويُقتلون . وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جعل إمرة هذا الجيش لزيد بن حارثة ، فإن أصيب جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، فلما ابتدأ القتال قاتل زيد بن حارثة براية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قتل ، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب بيمينه فقطعت ، فأخذها بشماله فقطعت ، فاحتضنها بمضديه ، وما زال يقاتل حتى قُتل ، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة ، فقاتل فأصيب لإصبعه ، فارتجز وأنشد :

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت
يا نفس إلا تقتلى تموتى هذى حياض الموت قد صليت
وما تمنيت فقد لقيت إن تفعل فعلهما هُديت

وما زال كذلك حتى استشهد (٢) .

وقد بلغ حبهم لله وللجهاد في سبيله كل غاية ، حتى إن بعض أصحاب الأعداء منهم نسوا أعضائهم ، فاشتدت عزيمتهم ، وما صبرت قلوبهم عن الجهاد ، وإن كان الحق سبحانه قد عذّرهم ، فقد روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « لقد كان الرجل يُؤثّق به يُهادى (٣) بين الرجلين حتى يقام في الصف ، وخرج ابن أم مكتوم إلى

«١» وفي رواية أخرى كان عددهم مائة ألف .

«٢» كتاب حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ، ومجلة لواء الإسلام العدد ١١ من السنة الثالثة .

«٣» يعنى معتددا عليهما من صفته وتمايله .

أُخذ ، وطلب أن يعطى اللواء ، فأخذه مصعب بن عمير ، فجاء رجل من الكفار ف ضرب يده التي فيها اللواء فقطعها ، فأمسكه باليد الأخرى ، ف ضرب يده فأمسكه ب صدره وقرأ « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » ، وهذا عمرو بن الجحوح من نقيب الانصار خرج في أول الجيـش وهو أعرج ، فقال له الرسول : « إن الله قد عنذك ، فقال : والله لأحفرن بعرجتي هذه في الجنة (١) » ، ومثل هذا أكثر وأجل من أن يحصى .

كان محمد رسول الله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم - في مثل هذه المواقف - أشداء على أعداء الله ، وإن كانوا رحماء بينهم ، فبذلوا أموالهم وأنفسهم في نصره الله والحق ، لم تخفهم كثرة العدد في الجيش المجر (٢) ، ولم ترهبهم قوة العدو من حديد ونار في الكتائب الشهب ، ولم تتطير نفوسهم شجاعاً حين البأس ، بل كانوا يهدون للعدو وإن فاقهم عدداً وعدة ، ومتى هموا وصدوا ألقوا بين أعينهم عزمهم ، وحرصوا على الموت ، فوهبت لهم الحياة والعزة ، ونصروا الله فنصرهم ، وثبت أقدامهم ، وأعزم وأعلى كلمتهم « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » وكأنما كان كل مجاهد منهم يردد بلسان حاله :

ولستُ أبالي حين أقتلُ مسلماً على أى جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يُبارك على أوصالٍ شلّو بمع

وهذا أبو بكر رضى الله عنه يقول في خطبة قالها عقب إتمام بيئته :
« لا يدع أحد منكم الجهاد ، فإنه لا يدعه قومٌ إلا ضربهم الله بالذل » .
ويكتب لخالد بن الوليد ، وقد أرسله لقتال المرتدين : « واعلم أن عليك عُيوناً من الله ترعاك وتراك ، فإذا لقيت العدو فاحرص على الموت مُوهباً لك الحياة ، ولا تفصل الشهداء من دماهم ، فإن دم الشهيد يكون له نورا يوم القيامة » .

« ١ » الجزء الثامن من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي طبع دار الكتب المصرية ص ٢٢٦

« ٢ » المجر : الجيش العظيم .

ويقول خالد بن الوليد حين حضرته الوفاة ، وكان سيفاً من سيوف الله سله الله على المشركين : « لقد حضرت كذا زحفاً ، وما في جسدي شبرٌ إلا وفيه ضربة بسيف ، أو رمية بسهم ، أو طعنة برمح ، وهأنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء . ولقد طلبت القتل في مظانه ، فلم يقدّر لي إلا أن أموت على فراشي ، وما من عمل أرجى عندي بعد لا إله إلا الله ، من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين ، بثّها وأنا متترّس ، والسماء تنهلّ على وأنا أنتظر الصبح حتى أغير على الكفار ، فعليكم بالجهاد (١) » .

وكان للنساء في صدر الإسلام غزو يناسبهنّ ، فكانّ يخرجن مع الجيش لسق الماء ، وصنع الطعام ، ومداواة الجرحى ، وقد يقاثلن عند الضرورة .

وبما لاشك فيه أنهن أبلين في الجهاد بلاءً حسناً ، فكان مجاهدات ، ومحرضات ، وممرضات ، ومواسيات ، وكن يشددن عزائم الرجال ، ويواسينهم بأنفسهن في ساحات القتال . قالت الربيع بنت مَعُود : كنّا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : نسقى القوم ، ونخدمهم ، ونزُدُ القتلى والجرحى إلى المدينة . وعن أم عطية . الأنصارية قالت : « غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات : أخلفهم في رحالهم ، وأصنع لهم الطعام ، وأداوى الجرحى ، وأقوم على الزمى » . وعن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بأمرٍ سليم ونسوة معها من الأنصار : يسقين الماء ، ويداوين الجرحى . ومن عملن المحمود في معالجة الجرحى أن كانت لرُقَيْدَة خيمةٌ في المسجد تُداوى فيها الجرحى من الصحابة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوم سعد بن معاذ حين أصابه السهم بالحنديق : « اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب » . وقد روى ما يدل على مباشرة بعضهن للقتال وحسن استعدادهن للجهاد بأموالهن وأنفسهن . ففي صحيح مسلم عن أنس أن أم سليم اتخفت خنجرأ يوم حنين ، وقالت : اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرتُ بطنه . وعن أم سعد قالت : دخلت على

أم عمارة ، فقلت لها : يا عالة ، أخبريني خبرك ، فقالت : خرجت أول النهار يوم أحد لأنظر ما يصنع الناس ، ومعى سقاء فيه ماء أسقى به الجرحى ، فانهيت إلى رسول الله وهو في أصحابه ، والنصر للمسلمين ، فلما انهزموا انحزت إلى رسول الله ، فقممت أباشر القتال ، وأدافع عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح إلى ، قالت أم سعد : فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور ، فقلت لها : من أصابك بهذا ؟ قالت : ابن قنّة ، لما ولى الناس عن رسول الله أقبل يقول : دُلوني على محمد ، فلا نجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ، فضربني هذه الضربة ، فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان فنجا .

ومع مشروعية الجهاد في الإسلام عند تحقق مسوغاته وتوافر بواعثه العادلة قد وفي الإسلام الضعفاء والمسلمين عذاب الحرب وويلاتها ، وقصرها على المقاتلين ومن يعاونهم ، وحصرها في أضيق دائرة حتى لا يراق فيها دم برى ، ولا يقاتل فيها إلا من يقاتل ، ولا ينتشر فيها فساد ولا تخريب لا تدعو إليه حاجة ولا ضرورة ، ولا يسود فيها روح انتقام . فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغلول والغدر والمثلة ، وعن قتل النساء والصبيان والشيوخ الغاني ، فمن أنس أن رسول الله صلوات الله عليه قال : « انطلقوا باسم الله وبالله ، وعلى ملة رسول الله ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً صغيراً ، ولا امرأة » ، ولا تملّوا وُضئوا غنائمكم ، وأصلحوا ، وأحسنوا ، إن الله يحب المحسنين . . وعن ابن عباس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال : اخرجوا باسم الله تعالى ، تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ، ولا تملّوا ، ولا تملّوا ، ولا تقتلوا الولدان ، ولا أصحاب الصوامع . . وقد سار على نهج هذا الأدب النبوى الكريم الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، فقد كان يشيع جيوشه بمثل تلك الوصايا الحكيمة والآداب العالية ، روى أنه بعث جيوشاً إلى الشام ، فخرج يمشى مع يزيد بن أبي سفيان ، وكان يزيد أمير ربيع من تلك الأرباع ، فقال : « إنى موصيك بعشر خلال : لا تقتل امرأة ، ولا صبياً ،

ولا كبيراً هرماً ، ولا تقطع شجراً مثمراً ، ولا تخرب عامراً ، ولا تعقرن شاةً
ولا بغيراً إلا لما كُله ، ولا تعقرن نخلاً ولا تمرقة ، ولا تغفل (١) .

هذا هو الجهاد في الإسلام ، وتلك غايته ، يراد به عزة الإسلام والمسلمين ،
ودفع الاعتداء عنهم ، وعن دعوتهم لدين الله حتى تكون كلمة الله هي
العليا ، ولذلك صار المسلمون إلى الضعف والذلة والخنوع حينما تركوا هذا
الواجب ، فأخلدوا إلى الأرض ، وركنوا إلى الدعة والتواكل ، وآثروا العافية
والسلامة على الجهاد والكرامة ، ولم يتبعوا ما أودعه الله شريعته من المحاسن
والمزايا والوسائل والأسباب التي تحقق لهم المنعة والعزة ، وفي صدرها إعداد
العدة والجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وهل يستوى القاعدون والمجاهدون ؟
« لا يستوى (١) القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ، والمجاهدون في
سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على
القاعدين درجةً ، وكلاً وعد الله الحسنى ، وفضّل الله المجاهدين على القاعدين
أجراً عظيماً : درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمةً » ، وكان الله غفوراً رحيماً .

من هنا تبين أن الجهاد في الإسلام منزية من مزايا تشريعه ، وحسنة من
حسناته ، لأن به عزة الإسلام ، والمحافظة على حرية المسلمين وعزتهم ، كما أن به
حيطة دعوة الحق ، والذود عن العقيدة الصحيحة ، ونصرة الضعيف ، ونشر
أسمى المبادئ ، وتطبيق قواعد العدل والحرية ، والمساواة في الأمم والناس كافة ،
لا فرق بين الحاكمين والمحكومين ، ولا بين العرب وغيرهم .
ذلك ، وفي الجهاد الذي شرعه الإسلام - عند توفر أسبابه وتحقق دواعيه -
مزيتان :

الاولى : أنه فرض عين يخاطب به كل فرد في الأمة حتى الشيخ والمرأة متى
هجم العدو ، ولم يتهاً دفعه إلا بمقاتلة الجميع .

«١» الجزء السابع من نيل الأوطار ص ٢٠٨، ٢٠٦ طبع الحلب سنة ١٣٤٧ هـ

«٢» الآيات ٩٤ ، ٩٥ من سورة النساء .

الثانية : أنه فرض عام ، لم تخصص به طبقة في الأمة الإسلامية دون أخرى ، فهو يشمل كل قادر فيها من أصغر فرد في الرعية إلى أعظم رجل فيها ، لا فرق بين الأمير والسوقة ، ولا بين الجاهل والمتعلم ، ولا بين الغنى والفقر . وتلك - لعمر و الله - هي المساواة الشاملة التي تشعر كل فرد في الجماعة بتبعاته نحو مجتمعه وأمته ، وتقرس فيه الفضيلة والعزة ، وعلو الهمة ، والثقة بالنفس ، والخلق العظيم .

فأين نحن الآن من هذا الواجب ؟ ومتى تتحرك فينا الهمة لتحقيق ما تدعو إليه الشريعة من العزة ونصرة الحق ، وإزهاق الباطل ، ومحاربة الفساد في الأرض ؟ ذلك واجب ، ولكن لا يضطلع به إلا خير الأمم . وأى أمة أجدر بهذا اللقب من أمة الإسلام .

الثاني والعشرون

وضعها قاعدتين أساسيتين للحكم والولاية في الإسلام :

الأولى : أن الأمة هي صاحبة السلطان والشأن في التولية والعزل ، حتى لقد صرح كبار النظار من علماء الأصول بأن السلطة في الإسلام للأمة يتولاها أهل الحل والعقد الذين ينصبون عليها الخلفاء والأئمة بمن هم أهل لذلك ، ويمزلونهم إذا جنفوا ، وحادوا عن الصراط السوى ، واقتضت المصلحة عزلهم ، ووضعت بذلك مبدأ مسئولية الحكام والولاية أمام الأمة - اقرأ قول أبي بكر رضى الله عنه في أول خطبة خطبها عقب مبايعته :

« أما بعد فقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإذا استتمت فأعينوني ، وإذا زغت فقوموني . » ثم تأمل قول الخليفة عمر رضى الله عنه :

« من رأى منكم فى أعوجاجا فليقومه » ، فقال له أعرابي : لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناه بسيفنا ، فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم أعوج عمر بسيفه .

الثانية : إقامة الحكم على أساس الشورى - أيا كان شكل الحكم ، وفى أى صورة له رضيتها الأمة - قال الله تعالى لرسوله : « وشاورهم فى الأمر » ، ولذلك كان صلوات الله وسلامه عليه يشاور أصحابه فى المصالح العامة من حربية ، وسياسية ، ومالية ، مما لم ينص عليه كتاب الله تعالى ليكون قدوة لمن بعده ، وإذا أوجب الله المشاورة على رسوله فغيره أولى . وقال - جل شأنه - فى صفات المؤمنين والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، وعما رزقناهم يُنفقون . .

وقد اتبع سنته ، وجرى على نهجه الخلفاء الراشدون ، فكانوا يجمعون أهل العلم والرأى من الصحابة ، ويستشيرونهم فيما ليس فيه نص فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله .

والحكمة فى الأمر بالشورى واضحة ، فإن بها تمحيص الآراء ، وإيضاح ما استنبه من الأمر ، خصوصا فى جلائل الأعمال ومشكلات الحوادث ، وبها تألف القلوب ، والابتعاد عن الزلل ، والسلامة من الندم ، والوصول إلى أنفع الآراء وأسدها .

بذلك يكون الإسلام قد أتى بأعظم إصلاح سياسى للبشر فى وقت كانت فيه جميع الأمم ممثلة بمرهقة بحكومات استبدادية ، استبدتها فى أمور دينها ودنياها ، فقرر أساسين عظيمين من أسس الحكم الصالح :

أحدهما : أن سلطة الولاية مرجعها إلى الأمة ، وأن الولاية والحكام مسئولون أمامها ، والآخر بناء الحكم على الشورى (١) .

الثالث والعشرون

أنها جعلت ولاية الخليفة ، أو الإمام ، أو الحاكم منوطة بالمصلحة ، فلا يحل له أن يتصرف فى أمر الأمة إلا بجلب مصلحة ، أو درء مفسدة . فهو يلى

«١» راجع فى ذلك الوحى المحمدى من ص ٢٢١ إلى ص ٢٢٤

أمورها بالمعروف، وينفذ حدود الله وأحكامه، فإن حاد عن ذلك وبني وأفسد، فناهض مصالحها، واستحل مالها، وأضاع حقوقها - استحق العزل، وكان غيره ممن توافرت فيه صفات الولاية أحق بها وأهلها (١).

وبما يتم هذه المزية أن الإسلام لم يجعل للخليفة أو الوالي امتيازاً على رعيته - فيما عدا ما يجب له من طاعة في حدود الشرع والمعروف - فهو فيما عدا هذه الطاعة المقيدة بقيدها - كأحد أفراد الرعية، بل هو خادم لها، وحارس لحقوقها، وأمين على مصالحها، ومنفذ لأحكام الله وشريعته فيها.

ويكفي لإثبات ذلك أن ترجع إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهديه في قومه وصحبه، وإلى حكم قوله، وجوامع كله، لتعرف عدالة أحكامه، ورققه بأمره، ورحمته بالمؤمنين - قال الله تعالى: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنيتم، حريص عليكم، بالمؤمنين موقفٌ رحيمٌ»، وقال: «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر».

كذلك تعرف من سيرة خلفائه الراشدين المهتدين بهديه، ومن أقوالهم، أن روح الإسلام ووصاياه، قد جعلت منهم إخوة صادقين، وهداة مرشدين، وحكاماً عادلين، وولاة منصفين، لا يعرفون علواً في الأرض ولا استكباراً، ولا يرون لأحد منهم منزلة خاصة يستأثر بها، ولا مغنا يختص به نفسه.

روى أن أبا بكر رضى الله عنه شيع جيش أسامة بن زيد ماشياً، وأسامة قائد الجيش راكب، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، لتركين، أو لأنزل، فقال أبو بكر: «والله لا تنزل، ولا أركب، وما على أن أغبر قدي في سبيل الله ساعة».

وهو الذي وضع في خطبته حين تولى الخلافة أسماً أصول ومبادئ

١٥٠ تقدم بيان ذلك في القاعدة الثالثة والمعين من القواعد الفقهية.

و الديمقراطية ، العادلة ، وآساس (١) الحكومة الصالحة التي تستمد سلطانها من الأمة ، وتوفيقها من الله ، وقوانينها من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتجعل غايتها تحقيق مصالح العباد ، ودفع الظلم والعدوان عنهم . انظر إلى قوله في خطبته (٢) التي سبقت الإشارة إليها : « أيها الناس ، إني وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، تجده يعلن (٣) الأمة أنه واحد من أبنائها ، لا يمتاز عليهم بشرف موروث ، ولا مجد مزعوم ، ولا هو يفاخر بأنه منحدر من سلالة الأمراء والملوك ، كما يفعل الأمراء والحكام في جميع الأزمنة والعصور ، وإنما هو أمينها وراعيا ، يستمد منها السلطان ، وينفذ أحكام الله : إن أحسن ترقب منهم العون على الإحسان ، وإن أساء طلب إليهم تقويم المعوج - فهو بهذا رضى الله عنه - قد وضع أرقى المبادئ التي تنشذ لتنظيم العلاقة بين الحاكمين والمحكومين .

كذلك عمر رضى الله عنه ، فإنه سلك نهج سلفه في سيرته العادلة ، فهو القائل : « من رأى منكم في أعوجاجا فليقومه » ، وكان ينصح لولاته جاهدا أن يكونوا كسائر أفراد الرعية ، يشاركونهم في الحقوق والواجبات ، ولا يختصون أنفسهم من دونهم بمنفعة أو مغم . فن ذلك قوله لأبي موسى الأشعري في كتاب (١) له : « وعد مرضى المسلمين ، واشهد جنازهم ، وافتح بابك ، وياشر أمرهم بنفسك ، فإنما أنت امرؤ منهم ، غير أن الله جعلك أثقلهم حملا . وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ، ليس للمسلمين مثلاً . فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصب ،

١١» جمع آسس .

٢» رويت هذه الخطبة وفي بعض النسخ اختلاف ، ولكنها متحدة أو متقاربة في المعنى ، فن ذلك ما روى : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسدت فقوموني .

٣» حاله : أعلن إليه الأمر .

٤» القاروق عمر بن الخطاب للأستاذ محمد رضا .

فلم يكن لها همة إلا السمن ، وإنما حثفها في السمن . واعلم أن للعامل مردأ إلى الله فإذا زاغ العامل زاغت رعيته ، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته . ويقول لبعض عماله : إن الله ليس بينه وبين أحد نسب ، فالتناس شريفهم ووضعهم في ذات الله سواء . وقد أخذ نفسه بالتعفف عن أموال المسلمين وبالمحافظة عليها حتى قال : « إني أنزلت نفسي من مال الله تعالى بمنزلة ولى اليتيم : إن احتجت أخذت منه ، فإذا أيسرت رددته ، فإذا استغنيت استعفت (١) » .

وقد ورد منهجه في ذلك واضحاً في إحدى خطبه إذ يقول : « إني لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث : أن يؤخذ بالحق ، ويعطى في الحق ، ويمنع من الباطل . وإنما أنا ومالككم كولى اليتيم : إن استغنيت استعفت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف . ولست أدع أحداً يظلم أحداً ، أو يعتدى عليه ، حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق » .

وكتب على كرم الله وجهه إلى واليه : ليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة . ومن طلب الخراج بنير عمارة أخرج البلاد ، وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلاً .

وهكذا كانت سيرة أئمة العدل وطريقة حكمهم في الرعية ، لا يراعون إلا مصالحها ، ولا يبتغون إلا توفير أسباب الخير والسعادة لها .

الرابع والعشرون

أنها قيدت الطاعة الواجبة للإمام ، أو الأمير ، أو والى على الأمة - بطاعة الله ورسوله ، فالحكومة الإسلامية - في نظر الإسلام - ذات دستور مقرر ، هو القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، فإن خالفت هذا الدستور ، وأمرت بمعصية فلا سمع ولا طاعة - ثبت ذلك بكتاب الله ، وسنة رسوله . أما الكتاب فقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ،

وأولى الأمر منكم (١)، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا ، فإن المؤمنين إذا أطاعوا أولى الأمر فيما فيه معصية لله ورسوله لم يكونوا مطيعين الله ورسوله ، مع أنهم أمروا في صدر الآية بطاعتها .

وأما السنة فذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره » ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة (٢) ، وفي رواية أخرى : « على المرء المسلم السمع والطاعة » ، في عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، ما لم يؤمر بمعصية الله ، فإذا أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة » ، وقال : « لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق (٣) » ، كما روى عنه صلوات الله وسلامه عليه : « لا طاعة في معصية الله ، إنما الطاعة في المعروف (٤) » .

وهذا أبو بكر الصديق يقول في خطبته التي ذكرنا صدرها في المعيز الثالث والعشرين : « أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » ، فأحل بذلك للرعية أن تنقض بيعته ، وتخرج من عهده ، وتبرأ من ذمته إذا ساسها بما فيه معصية الله ورسوله .

الخامس والعشرون

وضعها مبدأ محاسبة الوالي أو الحاكم إن جمع مالا لنفسه في أيام ولايته وحكمه ، وهو ما يبين فضل هذه الشريعة وأثرها في سعادة الناس ، ويدل على سمو مبادئها

«١» ثم أمراء المسلمين وولايتهم ، وقيل : علماء الشرع .

«٢» الأدب النبوي .

«٣» هذا الحديث والرواية الثانية للحديث الذي قبله قد وردا في كتاب التوسل والوسيلة

لابن تيمية ص ١٠٥ طبعة المنار الثانية .

«٤» الجزء السابع من نيل الأوطار طبعة الحلبي .

وشرف غايتها - روى أبو حميد السعدي قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن التثنية على صدقات بني سليم ، فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحاسبه - قال : هذا الذي لكم ، وهذه هدية أهديت لي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فهلاًّ جلست في بيت أهلك ، وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً » ثم قام رسول الله ، فخطب الناس ، وحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعدُ فإني استعمل رجلاً منكم على أمور مما ولاني الله ، فيأتي أحدكم فيقول : هذا لكم ، وهذه هدية أهديت لي ، فهلاًّ جلس في بيت أبيه ، وبيت أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً . فوالله لا يأخذ أحدكم منها شيئاً بغير حقّ إلا جاء الله بحملته يوم القيامة ، فلا عرف أحداً منكم لقي الله يحمل بغير له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر (١) ، ثم رفع يديه حتى رأى بياض إبطيه : ألا هل بلغت ؟ » .

وقد استعمل عمر بن الخطاب عتبة بن أبي سفيان على كنانة ، فقدم معه بمال ، فقال عمر : ما هذا يا عتبة ؟ قال : مال خرجت به معي وتجرت فيه . قال : وما لك تخرج المال معك في هذا الوجه ؟ فصوره في بيت المال .

وروى عن عمر أيضاً أنه صادر بعض عماله ، فأخذ شطر أموالهم التي اكتسبوها بجاه العمل ، فجعلها بينهم وبين المسلمين شطرين (٢) . هذا هدى الإسلام ، وتلك عدالته التي لا تفرق بين حاكم ومحكوم ، والتي تكف الحاكمين عن استغلال جاههم وسلطانهم وتزعهم عن تعدى الحدود .

وبترك المسلمين أصول الحكم الصالح ، وببذم ما ذكرناه في مزايا الشريعة الإسلامية ومحاسنها (٣) - دبّ فيهم الوهن ، واستبد بعضهم ببعض - فتظالموا وتخاذلوا ، وصار بعضهم حرباً على بعض ، فذهبت ريحهم ، وطمع فيهم الأجنبي ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها - كما قال الإمام مالك : فليتبعوا أصول دينهم ، وأحكام شريعتهم ، ليفوزوا بالعزة ، والحياة الطيبة ، والسعادة في الدنيا والآخرة ، وذلك هو الفوز العظيم .

«١» الرغاء : صوت البعير ، والحوار : صوت البقرة أو الثور ، واليعار : صوت الغاة .

«٢» الطرق الحكيمة ص ١٦ مطبعة الآداب والمؤيد .

«٣» وبخاصة مزايا الجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأسس الحكم في الإسلام

مراجع هذا الباب :

- ١ - إعلام الموقعين .
- ٢ - الطرق الحكيمة .
- ٣ - قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة .
- ٤ - الوحي المحمدي .
- ٥ - نداء للجنس الطيف .
- ٦ - الأدب النبوي .
- ٧ - الدين الإسلامي للثؤلف .
- ٨ - التشريع الإسلامي للثؤلف .
- ٩ - بداية المجتهد .
- ١٠ - نيل الأوطار .
- ١١ - الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) .
- ١٢ - تفسير أبي السعود .
- ١٣ - تفسير البيضاوي .
- ١٤ - النهاية في غريب الحديث والأثر .
- ١٥ - الرق في الإسلام لأحمد شفيق باشا ، وتعريب أحمد زكي باشا .
- ١٦ - مفتاح السنة للشيخ الخولي .
- ١٧ - شرح السراجية في فرائض الحنفية .
- ١٨ - ترجمة كتاب حضارة العرب للأستاذ محمد عادل زعيتر .
- ١٩ - القياس في الشرع الإسلامي لابن تيمية ، وابن القيم .
- ٢٠ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر طبعة سنة ١٣٤٨ هـ .
- ٢١ - قصص القرآن لمحمد جاد المولى بك وآخرين .
- ٢٢ - حياة محمد لميكل باشا .
- ٢٣ - بعض معجمات اللغة .

الباب السادس التشريع الإسلامي وحرية الاجتهاد

ليس للتشريع الإسلامي - فيما نعلم - نظير في الشرائع السابقة واللاحقة - سماوية كانت أو وضعية - من حيث تقريره حرية الاجتهاد ، والعمل بالرأى والقياس والمصالح العامة ، وما تقتضيه العدالة إذا اتبعت أصوله التي أسلفنا القول فيها ، وذلك فيما ليس فيه نص محكم واضح الدلالة ، ولا نص قطعي في كتاب الله تعالى ، ولا فيما صح من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحرية الاجتهاد هذه هي التي جعلت ، وتجعل الشريعة الإسلامية تتمتع بحياة قوية على الدوام ، صالحة لكل زمان ومكان ، حياة حافلة بالنصب المتع ، ملأى بشمرات القرائح من كل قول محكم سديد ، ورأى عصف متين ، ونحن معشر العلماء والفقهاء الإسلاميين ، يا جافتنا (١) باب الاجتهاد حذراً وتنبهاً ظلمنا هذه الحياة القوية ، وشوهنا جمالها ، وغفرتنا عاسنها . ولو أننا أخذنا أنفسنا بحرية الاجتهاد ، وعمل به كل من تحققت فيه أهليته - كأصل من أصول التشريع الإسلامي - ما استطاع مكابر أن يقف في وجه هذه الشريعة ، فيمنع تطبيقها في المسائل المدنية والتجارية والجنائية ، لأن حرية الاجتهاد هذه تستلزم وجود مجمع فقهي إسلامي دائم للتشريع الإسلامي من شأنه أن يجتبي أحكام الفقهاء السابقين الصالحة للتطبيق في عصرنا هذا ، ثم يضيف إليها أحكام المعاملات والحوادث التي يقتضيها تطور الأحوال وتغير الزمان واختلاف البيئات ، فيكون لنا من ذلك قانون إسلامي منظم نرضى به وجه الله ورسوله ، ونقر به عين العدالة والحق المبين ، ونحيي به مجد الإسلام والمسلمين .

ولسنا بهذه الدعوة القوية الخارجية من أعماق قلوبنا نفطر رأياً ، أو نقول بدعاً ، وإنما لسوق مع الدعوى دليلاً ، ونتبس القضية برهانها ، فنذكر كلمات في الاجتهاد وأدوات الفتيان وشروطها ، وحكم الاجتهاد والتقليد ، وفي اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته في عصره ، واجتهاد العلماء من بعدهم لنكون على بينة من الأمر والحق ، فنقول :

« ١ » إغلاطنا .

الفصل الأول

في الاجتهاد

١ - معنى الاجتهاد في الشرع الإسلامي

الاجتهاد: هو بذل الفقيه وسعه في طلب العلم بالأحكام الشرعية ، وعرفه الآمدي باستفراغ الوسع في طلب الظن بشيء من الأحكام الشرعية - على وجه يُحس من النفس المعجز عن المزيد عليه .

٢ - محل الاجتهاد

المجتهد فيه هو كل حكم شرعي ليس فيه دليل قطعي ، فلا اجتهاد فيما انفقت عليه الأمة ، أو دل عليه الدليل القطعي من جليات الشرع ، كوجوب الصلوات الخمس ، والزكاة ، وما يشبه ذلك .

٣ - شروط الاجتهاد ، وأدوات الفتيا

يشترط في المجتهد تحقق أمرين (١) :

الأول :- أن يكون عدلا - غير أن العدالة شرط لجواز الاعتماد على فتواه ، أما أخذه لنفسه باجتهاده فلا يشترط ذلك له .

«١» الأصول للخنسرى .

الثاني :- أن يكون محيطاً بمدارك الشرع ، متمكناً من استنباط الأحكام منها ، له ملكة يقتدر بها على استخراج الأحكام من مأخذها (١) .

ومدارك الأحكام : الكتاب والسنة والإجماع والقياس - فالكتاب لا بد أن يعرف ما جاء فيه متعلقاً بالأحكام التي تصدى فيها للحكم والفتوى . ولا يلزم لصحة الاجتهاد معرفته كله ، بل يكفي معرفة ما يتعلق بالأحكام منه ، كما لا يشترط حفظ ذلك عن ظهر قلب ، فيمكن أن يكون عالماً بموضعها بحيث يقف على الآية المطلوبة عند الحاجة .

كذلك السنة لا بد من معرفة أحاديث الأحكام فيها ، ولا يشترط أن يكون حافظاً لها عن ظهر قلب ، بل يكفي أن يكون لديه أصل صحيح لجميع أحاديث الأحكام ، وأن يعرف مواقع كل باب ليرجع إليه وقت الحاجة إلى الفتوى .

وأما الإجماع فإنه ينبغي أن تتميز عنده مواقع الإجماع في المسائل التي يفتى فيها ، حتى لا يفتى بما يخالفه ، ولا يشترط أن يحفظ جميع مواقع الإجماع والخلاف ، إنما ينبغي في كل مسألة يفتى فيها أن يعلم أن فتواه ليست مخالفة للإجماع (٢) - قال صاحب إرشاد الفحول : يشترط في المجتهد أن يكون عارفاً بمسائل الإجماع ، حتى لا يفتى بخلاف ما وقع الإجماع عليه إن كان عن يقول بحجية الإجماع ويرى أنه دليل شرعي ، وقل أن يلتبس على من بلغ رتبة الاجتهاد ما وقع عليه الإجماع من المسائل (٣) .

كذلك في القياس ينبغي أن يكون قادراً على استنباط علل الأحكام من النصوص ، ولهذا ينبغي أن يعرف الأصول والقواعد العامة التي بنيت عليها الشريعة الإسلامية ، ليهتدى بنورها إلى ما يستنبطه من العلل في الحوادث الجزئية .

«١» إرشاد الفحول .

«٢» الأصول للخصري .

«٣» إرشاد الفحول ص ٢٢١ طبعة صبيح .

وأما ما يمكنه من استنباط الأحكام منها ، فهي معرفة الفقه وعلومها (١) على وجه يتيسر به فهم خطاب العرب ، وعاداتهم في الاستعمال ، كذلك معرفة الناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة - غير أنه يكفي المجتهد إذا أراد أن يفتي في واقعة بآية أو حديث - أن يعلم أنهما محكان .

كذلك ينبغي معرفة الرواية ، وتمييز صحيح السنة من فاسدها ، ومقبولها من مردودها ، ويكفيه في ذلك الاعتماد على ماقرره الثقات والأئمة من رجال الحديث . وقد جمع الشاطبي في الموافقات ما ينبغي أن يتصف به المجتهد ، فقال : إنما تحصل درجة الاجتهاد لمن اتصف بوصفين ، أحدهما : فهم مقاصد الشريعة على كمالها . والثاني : التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها (٢) .

قال الإمام أحمد في رواية ابنه صالح عنه : ينبغي للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالماً بوجوه القرآن ، عالماً بالأسانيد الصحيحة ، عالماً بالسنن .

وقال الشافعي : لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله ، بناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، وتأويله وتنزيله ، ومكيه ومدنيه ، ويكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله ، وبالناسخ والمنسوخ . . . ويكون بصيراً باللغة ، بصيراً بالشعر ، وما يحتاج إليه للسنة والقرآن ، ويستعمل هذا مع الإنصاف ، ويكون بعد هذا مشرفاً على اختلاف أهل الأمصار . وتكون له قريحة بعد هذا ، فإذا كان هكذا فله أن يتكلم ويفتي في الحلال والحرام ، وإذا لم يكن هكذا فليس له أن يفتي (٣) .

وقيل لابن المبارك : متى يفتي الرجل ؟ قال : إذا كان عالماً بالآثر ، بصيراً بالرأى - يريد بالرأى القياس الصحيح ، والمعاني والعلل الصحيحة ، التي علق الشارع بها الأحكام ، وجعلها مؤثرة فيها .

«١» حتى قال عبد الله البطليوسي في كتابه الإنصاف : إن الطريقة الفقهية مفتقرة إلى علم الأدب ، مؤسسة على أصول كلام العرب .

«٢» راجع تفصيل ذلك في الجزء الرابع من الموافقات ص ٥٦ وما بعدها من طبعة سنة ١٣٤١ هـ .

«٣» الجزء الأول من إعلام الموقعين ص ٣٨ الطبعة المنيرية .

٤ - تجزئة الاجتهاد

ذهب بعض علماء الأصول إلى جواز تجزئة الاجتهاد ، فلا يشترط في المجتهد عندهم أن يكون عالماً بجميع أحكام المسائل ، بل يجوز للفقهاء أن يتفرغ لبعض البحوث الفقهية حتى يحيط بها علماً ، ويصبح من أهل الاجتهاد فيها - قال الغزالي : وإنما يشترط اجتماع هذه العلوم في المجتهد المطلق الذي يفتى في جميع الشرع . وليس الاجتهاد عندي منصباً لا يتجزأ ، بل يجوز أن يقال للعالم بمنصب الاجتهاد في بعض الأحكام دون بعض ... إلى أن قال : وليس من شرط المفتي أن يجيب عن كل مسألة ، فقد سئل مالك رحمه الله عن أربعين مسألة ، فقال في ست وثلاثين منها : لا أدري ، وكم توقفت الشافعي رحمه الله ، بل الصحابة في المسائل ، فإذا لا يشترط في المجتهد إلا أن يكون على بصيرة فيما يفتى (١) . وقد يؤيد ذلك ما روى عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه شهد لزيد بن ثابت بأنه أعلم الصحابة بالفرائض ، ولعاذ بن جبل بأنه أعلمهم بالحلال والحرام (٢) ، وكذا ما جاء في خطبة لأبي بكر رضي الله عنه ، قال : « أيها الناس من أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ، فإن الله جعلني له قاسماً وخازناً » .

ومن صرحوا بقبول الاجتهاد التجزؤ والانقسام ابن قيم الجوزية - وبناء على ذلك يجوز أن يكون الرجل مجتهداً في نوع من العلم مقلداً في غيره ، أو مجتهداً في باب من أبوابه كمن بذل وسعه في باب الجهاد ، أو الحج ، أو في العلم بالمواريث ، والفرائض ، فعرف أدلتها ، وطرق استنباطها من الكتاب والسنة دون غيرها من المباحث الفقهية . وحكم هذا أنه لا يجوز له أن يفتي فيما لم يجتهد فيه - أما فتواه في النوع الذي اجتهد فيه - ففيها ثلاثة آراء :

١٥ راجع أصول الفقه للخضري ص ٤٥٦ ، ٤٥٧

٢٥ من حديث سيأتي نصه في مبحث الشريعة الإسلامية وواجب الجامعة الأزهرية .

أحدهما : المنع - ووجهه أن أبواب الشرع وأحكامه يرتبط بعضها ببعض ، فالجهل ببعضها مظنة للتقصير في الباب أو النوع الذي عرفه .

ثانيها : الجواز في الفرائض دون غيرها ، ووجهه أن أحكام الموارث ، ومعرفة الفروض ومستحقها ، وقسمة الموارث تكاد تكون مستقلة ومنقطعة عن سائر بحوث الفقه الأخرى من البيوع والإيجارات والرهن وغيرها - كما أن غالب أحكام الموارث قطعية قد نص عليها في الكتاب والسنة .

الرأى الثالث : الجواز ، وهو أصح الآراء الثلاثة - قال ابن القيم : بل هو الصواب المقطوع به . ووجهه أنه قد عرف الحق بدليله ، وبذل جهده في معرفة الصواب ، فحكمه في ذلك حكم المجتهد المطلق في الأبواب والأنواع كلها (١) .

٥ - إذن الشارع ، وأمره بالاجتهاد

إذا أنت رجعت إلى نصوص الشرع الإسلامى في الاجتهاد بالرأى - وهى التى سبق ذكر كثير منها في مبحث القياس - أيقنت أنها تأمر العلماء القادرين على الاجتهاد بالتدبر والاعتبار والاستنباط . قال الله تعالى : « فاعتبروا يا أولي الأبصار » . وحديث معاذ في الاجتهاد معروف مشهور .

وفي كتاب عمر إلى أبى موسى الأشعري : « الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . اعرف الاشياء والأمثال . وقس الأمور عند ذلك » .

وقال عمر لشريح : « اقض بما استبان لك من كتاب الله ، فإن لم تعلم كل كتاب الله فاقض بما استبان لك من قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن لم تعلم كل أقضية رسول الله فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين ، فإن لم تعلم كل ما قضت به أئمة المهتدين ، فاجتهد رأيك ، واستشر أهل العلم والصلاح (٢) » .

« ١ » الجزء الرابع من إعلام الموقعين ص ١٨٨ - الطبعة المنيرة

« ٢ » الجزء الأول من إعلام الموقعين ،

٦ — جواز الاجتهاد للنبي صلى الله عليه وسلم

ذهب بعض المتكلمين إلى أنه لا يجوز للرسول عليه الصلاة والسلام الاجتهاد في الأحكام الشرعية . وقال بعضهم : له الاجتهاد في الحروب فقط .

استدل المانعون بعدة أدلة ، منها قوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحيٌ يُوحى » . واستدلوا لهم مردود ، لأن ظاهر الآية أن ما ينطق به هو نفس ما يوحى إليه ، والضمير في « إن هو إلا وحيٌ يوحى » يعود إلى القرآن ، فلا تنافي بين الآية ، والإذن له بالاجتهاد .

ولو قلنا بعموم النص وشموله ما ينطق به - وحيًا كان أو غيره - فإن القول بالاجتهاد ليس عن الهوى ، بل هو مستند إلى الوحي الأمر به ، وإلى النصوص الدالة عليه .

وذهب جمهور الأصوليين إلى أنه - صلى الله عليه وسلم - متعبد بالاجتهاد ، غير أن الحنفية رأوا لزوم انتظار الوحي ، إلى حين اليأس منه ، وخوف الفوات ، فإذا لم يوح إليه ، وجب الاجتهاد ، كما قالوا : إن الاجتهاد بالنسبة إليه ينحصر في القياس ، لأن المراد من النصوص واضح له ، ولا تعارض بينها عنده حتى يحتاج إلى النظر في دفعه ، والإجماع إنما جاء بعد عصره - صلوات الله وسلامه عليه . وأكثر الأصوليين على أنه صلى الله عليه وسلم متعبد بالاجتهاد من غير تقييد بانتظار الوحي ، ويجوز عليه الخطأ في اجتهاده ، غير أنه لا يقر على الخطأ ، بل لابد أن ينزل الوحي مبدئاً وجه الصواب ، ناسخاً لحكم الاجتهاد . ولأنه لا يقر على خطأ لا تجوز مخالفته ، كما تجوز مخالفة سائر المجتهدين .

والقول باجتهاده عليه الصلاة والسلام هو المذهب المختار ، لأن الله - سبحانه - خاطب نبيه ، كما خاطب عباده ، وضرب له الأمثال ، وأمره بالتدبر والاعتبار ، وهو أجل المتفكرين في آيات الله وأعظم المعبرين - وإذا جاز لغيره من الأمة

أن يجتهد بالإجماع - مع كونه معرضاً للخطأ - فأولى أن يجوز لمن هو معصوم عن الخطأ (١) .

على أنه قد وقع الاجتهاد كثيراً منه صلى الله عليه وسلم ، يدل على ذلك القرآن والسنة ، فمن ذلك : أن الله تعالى عاتبه على إذنه لقوم من المنافقين أن يتخلفوا عن غزوة تبوك ، فقال : « عفا الله عنك ، لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ؟ » فهذا العتاب دليل على أن الإذن كان عن اجتهاد منه ، إذ لو كان بالوحي لم يعاتبه .

وروى أنه عليه الصلاة والسلام أتى يوم بدر بسبعين أسيراً ، فيهم العباس بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبي طالب ، فاستشار أصحابه فيهم ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هم بنو العم والعشيرة - أرى أن تأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام ، وقال عمر : « لا والله يا رسول الله ، ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكنني أرى أن تمكثنا فنضرب أعناقهم ، مكثي من فلان (لنسيب له) ، ومكث حزة وعلياً من أخويهما ، فلنضرب أعناقهم ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده ، والله أغناك عن الفداء ، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام رأى الفداء ، كما رأى أبو بكر . فزل قوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » . فرضا النبي برأى أبي بكر في قبول الفداء لم يكن عن وحي ، بل كان عن رأى واجتهاد .

ومن ذلك ما صح عنه - صلى الله عليه وسلم - من قوله : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى » . أى لو علمت أولاً ما علمت آخر ما فعلت ذلك ، ومثل هذا لا يكون فيما عمله - عليه الصلاة والسلام - بالوحي (٢) .

«١» راجع إرشاد النور للشوكاني ، والأصول للنخعي

«٢» المصدر السابق

٧ - اجتهد الصحابة ، ثم اجتهد العلماء من بعدهم

منع بعض العلماء اجتهد الصحابة في عصره صلى الله عليه وسلم ، محتجين بأن الذي في عصره - صلوات الله عليه - قادر على معرفة الحكم بالنص ، وبالرجوع إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - من غير أن يتعرض لخطأ الاجتهاد ، وذهب أكثر علماء الأصول إلى جواز ذلك ، وهو الرأي المختار ، لأن اجتهدهم وقع فعلاً برضاء صلى الله عليه وسلم ، كما ورد في حديث معاذ الذي اشتهر بين الأمة ، وتلقته بالقبول .

وقد ثبت أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يجتهدون في النوازل ويقيسون بعض الأحكام على بعض ، ويحتبرون النظير بنظيره . وكانوا في ذلك أفقه الأمة ، وأعلمهم بمقاصد الشرع وأحكامه - ولا غرو : فهم الذين شاهدوا التنزيل ، وعرفوا التأويل ، وفهموا مقاصد الرسول ، وكانوا أبر الناس قلباً ، وأعقهم علماً ، وأقلهم تكلفاً ، وأكملهم فطرة ، وأتمهم إدراكاً ، وأصفهم ذهناً (١) . وقد كان أحدهم يرى الرأي فينزل القرآن بموافقة - كما رأى عمر في أسارى بدر أن تضرب أعناقهم ، ورأى أن تحجب نساء النبي ، وأن يتخذ من مقام إبراهيم مصلًى . وقال للنساء النبي لما اجتمعن في الغيرة عليه : « عسى ربه إن طلقكُنَّ أن يُبدِلَهُ أزواجاً خيراً منكُنَّ مسلماتٍ مؤمناتٍ » ، فنزل القرآن بموافقة في ذلك كله - ولما توفي عبد الله بن أبي قام رسول الله ليصلى عليه فقام عمر فأخذ بثوبه ، وقال : يا رسول الله ، إنه منافق ، فصلى عليه رسول الله ، فأنزل الله عليه : « ولا تصلّ على أحدٍ منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره » .

ولما حكم النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ في بني قريظة حكم فيهم باجتهداه ، وقال : « إني أرى أن تقتل مقاتليهم ، وتسبي ذراريهم ، وتغنم أموالهم »

فقال النبي : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات » . ولما اختلفوا إلى ابن مسعود شهراً في المفوضة « وهي التي تزوجت ، ولم يسم لها مهر ، ثم مات عنها زوجها ولم يدخل بها » - قال : أقول فيها برأيي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فني ومن الشيطان ، والله ورسوله يري منه ، أرى لها مثل مهر نساها لا وكس ولا شطط ، ولها الميراث ، وعليها العدة ، فقام ناس من أشجع ، فقالوا : نشهد أن رسول الله قضى في امرأة منا مثل ما قضيت به - فما فرح ابن مسعود بشيء بعد الإسلام فرحه بذلك (١) ، لموافقة قضائه قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهناك - عدا هذا - كثير من الأحكام اجتهد فيها الصحابة في حياته - صلى الله عليه وسلم ، فأقرهم على اجتهدهم ، ولم يعنفهم - كالذي روى من أنه صلوات الله عليه ، أمر في اليوم التالي لليلة التي هزم فيها الأحزاب ، فنودي في الناس : « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة » ، فاجتهد بعضهم وصلوها في الطريق ، وقال : لم يرد منا التأخير ، وإنما أراد سرعة النهوض ، واجتهد آخرون ، وأخروها إلى بني قريظة ، فصلوها ليلاً - نظر الأولون إلى المعنى ، ونظر الآخرون إلى ظاهر اللفظ ، فلما ذكر أمر الفريقين للنبي لم يعاتب أحداً منهم ، ولم يعنفه ، وكما روى أن علياً رضي الله عنه أتاه - وهو باليمن - ثلاثة نفر يختصمون في غلام ، فقال كل منهم : هو ابني - فأقرع على بينهم ، فجعل الولد للقارع ، وجعل عليه للرجلين ثلثي الدية - فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فضحك حتى بدت نواجده .

واجتهد الصحابيyan اللذان خرجا في سفر ، لحضرت الصلاة ، وليس معهما ماء - فصليا ، ثم وجدا الماء في الوقت ، فأعاد أحدهما ، ولم يعد الآخر - فصوبهما وقال للذي لم يعد : « أصبت السنة ، وأجزأتك صلاتك » ، وقال للآخر : « لك الأجر مرتين (٢) » .

١٥ الجزء الأول من إعلام الموقعين ص ٦٧، ٦٨

٢٥ الجزء الأول من إعلام الموقعين ص ١٧٦، ١٧٧

كذلك روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه أمر عمرو بن العاص ، وعقبة بن عامر الجهني أن يحكما بين خصمين ، وقال لهما : « إن أصبتما فلكما عشر حسنات ، وإن أخطأتما فلكما حسنة واحدة » .

ولئن خالف بعض العلماء ، فنعوا اجتهد الصحابة في حياة الرسول ، لقد اتفق علماء الأصول على التعبد به بعد عصره - صلى الله عليه وسلم - ومطالبة العلماء إذا توافرت فيهم الأهلية بالاجتهاد ، سواء أكانوا من الصحابة ، أم من العلماء الذين جاءوا بعدهم ، لأنه أصبح بعد انقطاع الوحي عماد الفقيه في استنباط الأحكام .

وإننا إذا كرون بعض الشواهد والبيّنات التي تدل على مبلغ اجتهد الصحابة ، ونمو آرائهم في استنباط الأحكام الشرعية :

(١) فمن ذلك : قول الصديق رضي الله عنه في الكلالة : « أقول فيها برأيي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فني ومن الشيطان - أراه ما خلا الوالد والوالد ، فلما استخلف عمر قال : إني لأستحي من الله أن أرد شيئاً قاله أبو بكر .

(ب) عن عكرمة قال : أرسلني ابن عباس إلى زيد بن ثابت ، أسأله عن زوج وأبوين ، فقال : للزوج النصف ، وللأم ثلث مابق ، وللأب بقية المال . فقال : تجده في كتاب الله ، أو تقوله برأيك ؟ قال : أقوله برأيي ، ولا أفضل أمّا على أب .

(ج) عن وبرة الصلّي قال : بعثنى خالد بن الوليد إلى عمر ، فأتيته وعنده علي ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، فقلت له : إن خالد بن الوليد يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : إن الناس انبسطوا في الخمر ، وتحاقروا العقوبة ، فما ترى ؟ فقال عمر : هم هؤلاء عندك . قال : فقال علي : أراه إذا سكر هذى ، وإذا هذى افتري ، وعلى المفتري ثمانون ، فاجتمعوا على ذلك ، فقال عمر : بلغ صاحبك ما قالوا ، فضرب خالد ثمانين ، وضرب عمر ثمانين .

(د) جاءت جدتان إلى أبي بكر تطلبان الميراث ، فأعطى الميراث أم الأم ،

دون أم الأب ، فقال له رجل من الأنصار ، يقال له : عبد الرحمن بن سهل
يا خليفة رسول الله ، قد أعطيت الميراث التي لو ماتت لم يرثها - فجعل الميراث بينهما .
(هـ) اختلف الصحابة في قول الرجل لامرأته : أنت على حرام ، فكان
أبو بكر وعمر يريان أنه يمين ، وتبعهما جبر الأمة ، وترجمان القرآن ابن عباس ،
وقال ابن مسعود : هو طلقة واحدة ، وقال علي وزيد : هو طلاق ثلاث . وهذا
من الاجتهاد والرأى .

بعد هذه النصوص والشواهد التي أوردناها - لم يبق شك في أن الله تعبدنا
بالاجتهاد ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام أقر صحابته عليه ، فيما لا نص فيه ،
وأنه اجتهد بنفسه - صلوات الله وسلامه عليه - وأذن لصحابته بل أمرهم به ،
وأن الصحابة الأجلاء - رضوان الله عليهم - قد اجتهدوا فعلا في عصره صلى الله
عليه وسلم وبعده ، فجؤدوا في تمثيل الوقائع بنظائرها ، وتشبيها بأمثالها ، ورد
بعضها إلى بعض في أحكامها - وبذلك فتحوا للعلماء باب الاجتهاد ، ونهجوا لهم
طريقه ، وبيّنوا لهم سبيله . ثم ائقن العلماء من بعدهم أثرهم ، وساروا على سنتهم
الرشيدة ، فأطلقوا لأنفسهم حرية البحث والنظر ، ولم يفيدوا أنفسهم إلا بتلك
الاصول السامية ، والمبادئ العادلة التي قررها الدين الإسلامي من تحقيق العدالة
والمساواة ، ودرء المفسد ، ورعاية المصالح ، فكانوا يسيرون مع الحق أين سارت
ركائبه ، ويستقلون مع الصواب حيث استقلت مضاربه . وكان من ذلك أن تعدد
العلماء المجتهدين ، وكثّر سوادهم في جميع البلاد الإسلامية : في البصرة والكوفة ،
وبخارى ، وسمرقند ، وبغداد ، ومكة ، والمدينة ، والشام ، ومصر ، والاندلس .
وحضت الكتب الفقهية بالمذاهب التشريعية الإسلامية ، وتجاوبت أصداء البلاد
والاقطار بأسماء المجتهدين ، من أمثال الحسن البصري ، وسعيد بن المسيب ، وابن
جبير ، وأبي ثور ، ومجاهد ، وقتادة ، وسفيان الثوري ، وطاوس ، وابن سيرين ،
إلى الشعبي ، والأوزاعي ، وابن أبي ليلى ، وابن شبرمة ، وأبي حنيفة ، ومالك ،
والشافعي ، والليث بن سعد ، وأحمد بن حنبل ، وابن جرير الطبري ، وداود
الظاهري ، وابن حزم - تخلفوا لنا ثروة تشريعية ، جدرة بالفخر ، وتراثاً فقهياً

قينا بالإعجاب . ولو أننا تابعنا عملهم ، وتعاهدنا غراسهم ، وسرنا في الطريق الذي ساروا فيه ، فوضعنا لبنة أو لبنات في صرح الشريعة الشاخص ، وعرضناها عرضاً حسناً على الطالبين ، وسهلنا مراجعتها على الراغبين ، لكشفنا عن قوتها وراثتها وجمالها ، ولحلمنا المعجبين بالقوانين الغريبة ، على أن يولوا وجوههم شطرها ، ويختبئوا لها مدعين .

٨ - حكم الاجتهاد

الاجتهاد في كل عصر فرض من فروض الكفاية ، حتى ذهب كثير من العلماء والمحققين إلى أنه لا يجوز شرعاً خلو الزمان عن مجتهد قائم بحجج الله يبين للناس منازل إلهيم ، ولا بد أن يكون في كل قطر من تقوم به الكفاية (١) . وإن أردت تفصيلاً فالاجتهاد في حق العلماء له ثلاث حالات :

الأولى : يكون فيها فرض عين ؛ وذلك إذا سئل المجتهد وحده عن حادثة وقعت وخاف فوتها ، فإنه يتعين عليه النظر للحكم فيها - كذلك إذا نزلت بالعالم نفسه حادثة ، فإنه يجب عليه أن يستنبط حكمها بنفسه ، ولا يجوز أن يقلد غيره فيها إذا كان في الوقت سعة لا يخاف معها فوت الحادثة ، لأن الله تعالى أمر أولى الأبصار بالتدبر والاعتبار والاستنباط ، فقال : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » وقال : « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ » ، أم على قلوب أقفالها ، ، وقال : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ » ، وليس هذا خطاباً للعوام ، فيكون الخطاب للعلماء القادرين على الاجتهاد ، ويكون المقلد منهم مرتكباً محرمّاً لتركه ما أمَرَ به من التدبر والاعتبار ، ويمضد هذا فعل الصحابة ، فإنهم اجتهدوا ، واختلفوا في مسائل كثيرة - على ما بينا - وحكم كل باجتهاده ولم يقلد غيره ، ولأنه إذا قلد فإنما يقلد من لم تثبت عصمته من الخطأ ، وذلك إنما يجوز للعالم لعجزه عن النظر ، فلا يقاس عليه المجتهد مع قدرته ، بل يجب أن يطلب الحق بنفسه .

«١» راجع إرشاد الفحول ص ٢٢٢ طبعة صبيح .

الثانية : يكون فيها الاجتهاد فرض كفاية ، وذلك إذا عرضت الحادثة على أكثر من مجتهد ، فإذا امتنعوا جميعاً أئتموا ، وإذا أفتى أحدهم سقط الطلب عن الباقين .

الثالثة : يكون فيها مندوباً ، وذلك في حادثة لم تحصل ، سواء أُسئل فيها المجتهد أم لم يسأل .

والخلاصة : أن الاجتهاد فرض عين على مَنْ استغنى في واقعة حدثت وتعين للإفتاء فيها ، وفرض كفاية على استغنى في واقعة حدثت ، ولم يتعين للإفتاء فيها ، بأن وجد معه غيره ، فإن أفتى هو أو غيره سقط الفرض ، وإلا أئتموا ، ومندوب لمن استغنى في وقائع لم تحدث ، وأراد المستفتون علم أحكامها قبل نزولها .

وكون الاجتهاد فرض عين في حال ، وفرض كفاية في حال أخرى يستلزم عدم خلو الزمان عن مجتهد . ولتضافر الأدلة على ذلك ، ومنها ما سبق ذكره في هذا المبحث . قال كثير من العلماء ومنهم الحنابلة : لا يجوز خلو العصر عن المجتهدين ، ويدل على ذلك أيضاً - كما قال الشوكاني - ما صح عنه صلى الله عليه وسلم من قوله « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين حتى تقوم الساعة (١) » .

قال ابن دقيق العيد :

« الأرض لا تخلو من قائم لله بالحجة ، والأمة الشريفة لا بد لها من سالك إلى الحق على واضح المحجة إلى أن يأتي أمر الله » . وقال بعض العلماء : « لن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة في كل وقت ودهر وزمان (٢) » .

فمن قالوا بجواز خلو العصر عن المجتهدين لا ينهض لهم دليل ، ولا تقوم لهم حجة . وما قالوه من تيسر العلم على السابقين ، وصعوبته على المتأخرين لا يؤيده معقول ولا منقول - وما أحسن ما قاله العلامة الشوكاني في ذلك الموضوع :

«١» إرشاد الفحول ص ٢٢٣

«٢» المصدر السابق .

« لا يخفى على من له أدنى فهم أن الاجتهاد قد يسره الله للمتأخرين تيسيرا لم يكن
للسابقين ، لأن التفاسير للكتاب العزيز قد دونت ، وصارت في الكثرة إلى حد
لا يمكن حصره ، والسنة المطهرة قد دونت ، وتكلمت الأمة على التعديل
والتجريح والتصحيح والترجيح بما هو زيادة على ما يحتاج إليه المجتهد ، وقد كان
الواحد من السلف الصالح يرحل للحديث الواحد من قطر إلى قطر ، فالاجتهاد
على المتأخرين أيسر وأسهل من الاجتهاد على المتقدمين ، ولا يخالف هذا من له
فهم صحيح ، وعقل سوى » .



الفصل الثاني

التقليد

هو قبول قول بلا حجة ، بأن تأخذ بمذهب غيرك من غير أن تعرف دليله
ولسنا نعرض هنا لحكم التقليد في العقائد ، فإن موضع ذلك في علم التوحيد ، إنما
يبحث في العليد في العريع ، وهي المسائل الفقهية :

نص علماء الأصول على أن من له أهلية الاجتهاد لا يجوز له أن يقلد غيره متى
كان في ظرف متسع ، فلا يخاف فوت الحادثة ، بل يجب عليه النظر والاجتهاد .
فإن لم يكن في الوقت متسع وخيف فوت الحادثة صار كالعاجز الذي يجوز له
التقليد للضرورة ، كما نصوا على أن العامي ، ومن ليس له أهلية الاجتهاد يجب عليه
استفتاء المجتهدين فيما ينزل به من الحوادث ، واتباع آرائهم .

ترى من هذا أن الأصوليين لم يميزوا التقليد إلا عند العجز أو الضرورة ،
وفي ذلك حرص العلماء على بقاء باب الاجتهاد مفتوحاً ، كما كان في عهد صاحب
الشرعة صلى الله عليه وسلم ، وصحابته ، ومن اقتنى أثرهم من الأئمة الأعلام . وحالتنا
الآن لا توصف بعجز ولا ضرورة لوجود علماء إخصائيين في العلوم الشرعية ، وما
تحتاج إليه من علوم أخرى ، ولتوافر وسائل الثقافة ، وتعدد مناهل العلم وسهولتها
على الوراد في العصر الحديث .

وحسبك في استهجان التقليد أن الفتوى به محل خلاف بين العلماء ، وأن
لأصحاب أحد فيها ثلاثة أقوال (١) :

« ٣ » الجزء الأول من إعلام الموقعين ص ٣٧

أحدها : أنه لا يجوز الفتوى بالتقليد لأنه ليس بعلم ، والفتوى بغير علم حرام . ولا خلاف بين الناس - كما يقول ابن القيم - أن التقليد ليس بعلم ، وأن المقلد لا يطلق عليه اسم عالم ، وذلك قول جمهور الشافعية .

الثاني : أن ذلك يجوز فيما يتعلق بنفسه : فيجوز له أن يقلد غيره من العلماء إذا كانت الفتوى لنفسه ، ولا يجوز أن يقلد العالم فيما يقتضيه غيره .

الثالث : أنه يجوز ذلك عند الحاجة ، وعدم وجود العالم المجتهد .

وذهب جماعة من أهل العلم إلى عدم جواز التقليد في المسائل الشرعية الفرعية . قال القرافي : مذهب مالك وجمهور العلماء وجوب الاجتهاد وإبطال التقليد . وادعى ابن حزم الإجماع على النهي عن التقليد (١) ، وقال الشوكاني : المنع من التقليد إن لم يكن إجماعاً فهو مذهب الجمهور .

وقد ذم الله تعالى المقلدين في كتابه الكريم فقال : « أم آتيناكم كتاباً من قبلي فهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ، بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ ، وإنا على آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ، ، وقال : « اتخذوا أحبارهم ورُهبانَهُم أرباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ، .

وورد عن أعلام المجتهدين ذم التقليد ، والنهي على المقلدين ، حتى الأئمة الأربعة نَهَوْا عن تقليدهم ، وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة :

فكان أبو حنيفة إذا أفتى يقول : هذا رأى أبي حنيفة ، وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب .

ونقل عن مالك قوله : أنا بشر أخطئ وأصيب ، فانظروا في رأيي ، فما وافق الكتاب والسنة فخذوا به ، وما لم يوافق فاتركوه ، ، وكان يقول لأصحابه إذا استنبط حكماً : انظروا فيه فإنه دين ، وما من أحد إلا مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا صاحب هذه الروضة - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) راجع إرشاد الفحول ص ٢٣٦ ، وللشوكاني رسالة خاصة بهذا المبحث ، سهاها : القول المفيد في حكم التقليد .

وقال الشافعي لتلميذه الربيع : يا أبا إسحق ، لا تقلدني في كل ما أقول ، وانظر في ذلك لنفسك ، فإنه دين ، ، وقال : « مثل الذي يطلب العلم بلا حجة ، كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب ، وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري ، ، وقال المزني في أول مختصره : « اختصرت هذا من علم الشافعي ، ومن معنى قوله لأقربه على من أراده مع إعلامه نهيه عن تقليده ، وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ، ويحتاط فيه لنفسه ، .

وقال أحمد بن حنبل : « انظروا في أمر دينكم ، فإن التقليد لغير المعصوم مذموم ، وفيه عيب للبصيرة ، ، وقال لأبي داود : « لا تقلدني ، ولا تقلد مالكا ، ولا الثوري ، ولا الأوزاعي ، وخذ من حيث أخذوا ، ، وقال : « من قلة فقه الرجل أن يقلد في دينه الرجال (١) ، بل إن العلماء كانوا يرون التقليد أثرا من آثار العصبية أو الغباوة ، فقد روى عن الإمام الطحاوي ، وأبي عبيد على بن الحسين الذي ولي القضاء بمصر سنة ٢٩٣ هـ أنهما قالا : « وهل يقلد إلا عصبي أو غبي ، ، فطارت هذه الكلمة بمصر حتى صارت مثلا .

وبما ينسب لابن حزم قوله : وليعلم كل من قلد من صاحب أو تابع أن مالكا وأبا حنيفة ، والشافعي ، وسفيان ، والأوزاعي ، وأحمد ، وداود رضي الله عنهم متبرئون منه في الدنيا والآخرة ويوم يقوم الأشهاد .

ويقول ابن القيم نقلا عن بعض علماء السلف : « أجمع الناس على أن المقلد ليس معدودا من أهل العلم ، وأن العلم معرفة الحق بدليله ، .

بذلك استبان حكم التقليد والمقلدين ، وعلم أن الاجتهاد من مطالب الشريعة ومقاصدها ، وأنه واجب لا تبرأ ذمة العلماء منه إلا بأدائه .

الفصل الثالث

ما يجب على المسلمين وعلمائهم وحكوماتهم في هذا العصر

عرفنا - بما تقدم في هذا البحث - حكم الاجتهاد والتقليد ، وأن الرأي السديد الراجح عدم جواز خلو أى عصر من العصور عن الاجتهاد ، وثبت وقوع الاجتهاد من صاحب الشريعة - صلوات الله وسلامه عليه - ومن صحابته والتابعين ومن تلامه من الأئمة والحكام والقضاة والعلماء .

فيابنى قومي وعشيرتي من علماء المسلمين في مصر وسائر الأقطار الإسلامية : انصروا شريعتكم ، وقوموا عليها قيام السدنة المخلصين ، وامنحوها ما وهب الله لكم من عقول مستبصرة فاحصة ، وأفئدة بنور العلم والعرفان ، وهدى الدين مستضيئة مشرقة ، واتبعوا سلفكم الصالح الذى عرف واستيقن أن هذه الشريعة لا يكفل بقاءها الذى أراده الله لها إلى يوم الدين إلا بالاجتهاد المشروع الذى تراعى فيه أصول الشريعة القيمة ، وقواعد الدين الحنيف . ولا تقولوا : إننا لم نبلغ مبلغ سلافنا في أهلية الاجتهاد ، فحسبنا الرجوع إلى آرائهم والاتباع فإنه قد قامت عليكم الحجة ، ولزمت أعناقكم من هذه النصوص الكثيرة التى تحض على النظر والاجتهاد ، ومن هذه المذاهب الاجتهادية التى نقلت عن علماء المسلمين . ولستم بأقل منهم علما ، ولا دونهم نظرا وفهما ، وفيكم كبار العلماء الذين أحاطوا بأصول الشريعة وفروعها ، وأخذوا بقسط وافر من علوم العربية بل إنى أزعم أنكم أقدر منهم على النظر والاجتهاد ، فإن من علماء السلف لم يبتسر له الوقوف على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقدر الذى وصل إلينا ومنهم من لم يطلع على علوم القرآن التى دونت بعد ذلك .

أما نحن فأمامنا كتب التفسير كثيرة متنوعة ، ومنها تفسير آيات الأحكام ، وكتب الحديث التي جمعت سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولدينا المؤلفات التي ميزت صحيحها من فاسدها ، ومقبولها من مردودها ، والتي فيها التعديل والتجريح. ولدينا - عدا ذلك - كتب الفقه للأئمة المجتهدين وأتباعهم ، نستعين بها في المقابلة والترجيح ، ولدينا وراء هذا وذاك ما يكون ملسكة التشريع ، وتتفق به أذهان المجتهدين من هذه الثقافة العصرية الناضجة ، وألوانها المختلفة ، بل إنى أقول أكثر من هذا : إنه لا عذر لكبار علمائنا في تهيب الاجتهاد ، وقد فتح لهم الغزالي وابن القيم بابه على مصراعيه ، فإنهما سوغا تجزئة الاجتهاد .

أفيصعب على علمائنا المبرزين ويشق عليهم أن يختص بعضهم نفسه بالنظر والاجتهاد في مسائل الأحوال الشخصية ، أو في الفرائض ، وأن ينفرد بعضهم بالنظر في المعاملات ، أو العقوبات ؟ إنه لا شيء من ذلك يشق أو يتعذر ، إذا تركوا الحذر جانباً ، واعتصموا بالشجاعة الأدبية ، وعلوا أن الخطأ في الاجتهاد ليس بعاب ولا مأثم ، وأن المجتهد لا يخلو من الأجر أو الأجرين .

أما حكومات البلاد الإسلامية ، وفي صدرها الحكومة المصرية فإن عليها واجباً لا يقل عما يجب على علمائنا ، وهو تحقيق ذلك المقصد الجليل ، وتنفيذ هذا الرأي السديد الذي طالما تمناه المصلحون من تأليف لجنة دائمة ، أو بجمع للفقه الإسلامي يختار أعضاؤه من أئمة المذاهب الإسلامية وعلمائها في مصر وغيرها ، ومن أعلام القانون الوضعي الذين عرفوا لشريعة الإسلام قدرها ، واطلعوا على أسرارها ومزاياها (وهم بحمد الله كثيرون (١)) - على أن يناط به أمران :

الأول :- ترتيب الفقه الإسلامى على مختلف المذاهب ، وتجميعه في بنود

«١» من فطاحل القانون وجهاً بذته، أمثال: عبد السلام ذهني ، وكامل مرسى، وعبد الحميد بدوى، وعبد الفتاح السيد ، وعبد الرزاق السنهورى، وعلى بدوى وغيرهم .

مرتبة ، وأبواب منسقة في جميع بحوثه : في العبادات ، والمعاملات ، والأحوال الشخصية ، والموازيث ، والعقوبات وغيرها .

الثاني : - أن يبحثوا ويجهدوا لوضع أحكام لما جدّ ويستجد من الوقائع والحوادث ، والمعاملات - مراعين في ذلك القواعد الأصولية ، والمبادئ الشرعية ، والأصول الإسلامية ، ومسترشدين بآراء أئمة الفقه الإسلامي . وبذلك يستطيع كل دولة إسلامية - عند وضع قوانينها ، أو تغيير شيء منها - أن تستقي من الأحكام التي يقرها ذلك المجمع الفقهي الاجتهادي - وفقنا الله ، ورزقنا حسن النظر والاعتبار ، والبصر بحاسن شريعته ، إنه أكرم مسئول ، وأعظم مأمول .

مراجع هذا الباب :

- ١ - أصول الفقه للتخضري .
- ٢ - إرشاد الفحول - طبعة سنة ١٣٤٩ هـ .
- ٣ - إعلام الموقعين .
- ٤ - الإنصاف للبطليوسى .

الباب السابع بحوث وتحقيقات حول الشريعة الإسلامية

الفصل الأول

الفقه الإسلامي والقانون الروماني

ثار الجدل ، وحى وطيس البحث والمحاورة - حيناً من الزمن - بين الكتاب في بعض المجلات العلمية ، وفي الصحف اليومية والأسبوعية (١) - حول جواب هذا الاستفهام :

هل تأثر الفقه الإسلامي بالقانون الروماني ؟ وهل كان هذا القانون مصدراً من مصادره ؟

فراعتنى (٢) هذه البحوث أول واهلة ، ثم حاكت في صدرى ، وأثارت في نفسى بواعث الرغبة في تحقيقها ، لأن دعوى من زعم أن الفقه الإسلامى أخذ كثيراً من أحكامه - من القانون الرومانى جريئة يُعْزَوْها البرهان ، ولا تتأيد إلا بظنون لا تغنى من الحق شيئاً .

«١» نعتت هذه المباحث في مجلة الرسالة ، ومجلة الأزهر ، وهدى الإسلام ، وفي المشرق ، والبلاغ .

«٢» من راعه القى : أعجبه .

ومنشأ هذا الزعم رأى لبعض الباحثين من المستشرقين مثل « جولد زيهر (١) » ، و « سانتلانا » ، و « شيرمان (٢) » ، و « إيموس » ، فقد زعموا أن الفقه الإسلامى تأثر كثيراً بالقانون الرومانى ، وكان هذا الفقه مصدراً من مصادره ، استمد منه بعض أحكامه ، إما مباشرة ، أو من طريق التلبود الذى أخذ كثيراً من هذا القانون (٣) . وقد أبدوا رأيهم بثلاث حجج :

الأولى :- أنه بالمرآنة بين بعض مباحث الفقه ، وبعض مباحث القانون الرومانى نجد تماثلاً أو تشابهاً بينهما فى بعض النظم القانونية ، كما فى العقود ، والأموال ، والحقوق ، بل هناك قواعد نقلت بنصها من القانون الرومانى إلى الفقه الإسلامى ، مثل : « البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر » .

الثانية :- تماثل المعنى فى بعض الاصطلاحات العلمية ، كإطلاق كلمة « الفقه » على القانون الإسلامى ، وكلمة « الفقيه » ، على العالم به ، وذلك يوافق ما كان عند الرومان ، فإنهم يستعملون كلمة Juris وهى تدل على الفهم والمعرفة والحكمة .

الثالثة :- أنه كان بالشام مدارس فقهية عند الفتح الإسلامى لتعليم القانون الرومانى فى كل من قيسرية وبيروت ، تخرج فيهما كثير من أهل الشام ، كما كانت هناك محاكم تطبق القانون الرومانى وتنفذ أحكامه ، وقد استمرت فى البلاد بعد الإسلام زمناً ، وإذا كان المسلمون فى ذلك الوقت لم يأخذوا بحظ وافر من المدنية كان من الطبيعى إذا فتحوا بلاداً أرقى منهم حضارة وأوفر مدنية أن يأخذوا من نظمهم ، ويقتبسوا من أحكامهم (٤) .

ويقول المستشرق الألمانى الكبير الأستاذ الدكتور « برؤكلمان » ، فى كتابه

« ١ » كان أستاذاً بجامعة فينا .

« ٢ » أستاذ القانون الرومانى بجامعة يال بأمریکا .

« ٣ » فجر الإسلام ص ٢٩٠ من الطبعة الثانية ، ومجلة القانون والاقتصاد السنة الأولى

ص ٧٣٣ ، ٧٣٤

« ٤ » فجر الإسلام .

تاريخ الأدب العربي - حينما تكلم على تاريخ العلوم الدينية والتشريعية :
 « يعتبر الإسلام دراسة القانون والتشريع من العلوم الدينية ، وذلك لأن
 الأحكام مستمدة من القرآن ، والأحاديث النبوية ، ولما كانت المواد المستقاة من
 هذين الموردين لم تف بمحاجة الحياة العملية التي كانت تتشعب بسرعة ، وتعدد
 نواحيها بسبب غزوات العرب وفتوحهم الكثيرة في ممالك ذات حضارة قديمة
 كان المشرعون القدماء يفصلون بلا تردد فيما يعرض عليهم بما يوحيه رأيهم الخاص ،
 بكل شجاعة ، فكانوا بداهة يراعون القواعد والتقاليد المرعية في تلك البلاد
 الغريبة ، وبذلك نفذت إلى الإسلام بعض مبادئ القانون الروماني (١) .

هذا ما ذكره فريق المستشرقين ، وما علق بأذهان بعض مشرعي أوربة ،
 وتلك أدلتهم ، وهي - كما قلنا - ظنون طريفة ، قد تصدق بأدى الرأي ، وقد
 ينشط لها الإنسان عند النظرة الأولى ، ولكنها لا تقوى على البحث ، ولا
 تثبت أمام النظر الدقيق .

أما دليلهم الأول فنقول فيه : إن وجدت بعض الأحكام - على قلتها وندرتها -
 متشابهة في القانونين فليس ذلك بقاطع في أخذ أحدهما عن الآخر ، فقد رأينا أن
 بعض الأحكام الجزئية في الشريعة الإسلامية لم ينص عليها في الكتاب ولا في
 السنة ، وقد أُذِن لعلماء المسلمين في هذه الحالة بالاجتهاد ، وهم عند إبداء رأيهم
 يراعون تطبيق العدالة ، وتحقيق المصلحة ، وقد ينفق المشرعون في النظر إليها ،
 فيصلون فيها إلى حكم واحد ، وإن تباينت البلاد ، واختلفت الأمم - على أن دليلهم
 هذا مشترك الإلزام ، فكما يصح - جدلاً - أن يكون دليلاً على أخذ الفقه الإسلامي
 من القانون الروماني - يصح أن يكون كذلك دليلاً على أن القانون الروماني هو
 الذي اقتبس ، أو استمد ، أو لقيح - في بعض تطوراته - ببعض أحكام الفقه
 الإسلامي . وليس هذا ببعيد ، فإن الغربيين قد اتصلوا بالمسلمين في الأندلس ،
 وأخذ بعضهم العلوم المختلفة عن الأندلسيين ، فلا يبعد أن يكون من هذه العلوم
 القانون الإسلامي ، ولا يدفع هذا تأخر القانون الإسلامي في الوجود عن القانون

«١» من مقال مترجم نشر في مجلة الأزهر - المجلد السابع ص ٤٣٧

الرومان ، فإن القديم قد يقتبس من الجديد ، إذا كان الأخير أعلى كعباً ، وأرفع شأنًا ، وأصدق أثرًا ، وأكفل بتحقيق العدالة . ويشهد لهذا الاحتمال أن قاعدة « البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر » التي زعموا أنها أخذت من القانون الروماني - هي حديث منسوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد جرت في كلام عمر رضى الله عنه ، وذلك قبل امتزاج العرب بالرومان .

وكيف يتفق لهؤلاء المستشرقين أن يقولوا بهذا الرأي ؟ وأمامهم الكثرة الكثيرة من بحوث الفقه الإسلامي لا أثر فيها لهذا الاشتباه الذي وقعوا فيه ، وإلا فإن القانون الروماني من نظام الزواج ، أو الطلاق ، أو النفقات ، أو الإرث في الشريعة الإسلامية ١٤ . وأين هو من تشريع الدييات ؟ أو النظام الذي وضعه الإسلام لمخالفه ، أو ما قرره للمرأة من الحقوق ، والواجبات ، أو ما شرعه للأزواج ، وحسن معاملتهم ، وطرق تحريرهم . . . فهل كان في كل ذلك ناقلًا أو مقتبسًا ؟ أم هل يجوز أن يكون تشابه الأحكام في بعض قليل من مسائل المعاملات قيل فيها بالاجتهاد والرأي - موجباً لما زعموه من الأخذ عن القانون الروماني ١٤ .

خذ أيضاً دليلهم الثاني وانظر : هل يستحق منا الهدم والإبطال ؟

إن التشابه في معاني الألفاظ لا قيمة له فيما زعموه - على أن كلمة الفقه التي احتجوا بها لا تدل في أصل معناها اللغوي على علم التشريع ، وإنما تدل على الفهم والعلم بالشئ ، ثم أطلقت اصطلاحاً على الأحكام الشرعية ، لأنها تتطلب فقها وفهماً ، وقد جاءت في القرآن الكريم بمعناها اللغوي قبل امتزاج العرب بالرومان - قال الله تعالى : « فلولوا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين » فكيف استعمل المسلمون كلمة الفقه مجازاً لمعنى الكلمة المستعملة عند الرومان ١٤ ؟

وأما دليلهم الثالث فقد يجوز أن يكون من الطبيعي - كما يقولون - أن يأخذ المسلمون أحكامهم التشريعية بمن هم أوفر مدنية وحضارة - إذا لم تكن لهم تلك الشريعة السأوية المثلى التي امتازت بسمو أصولها ، وعدل أحكامها ، ولذلك كانوا

بها يعتزون ويفخرون ، وعليها يحرسون ، وعنها يناخون ، وفي سبيلها يجاهدون ولا يعقل أن يأخذوا أحكامهم القانونية من غيرهم ، وهم الذين كانوا يحرسون على الرجوع إلى القرآن والسنة لمعرفة الأحكام الشرعية ، فإذا لم يجدوا فيها الحكم الذي يبحثون عنه فزعوا إلى أهل الرأي والاجتهاد ، فأخذوا باجتهادهم ؛ وما كان اجتهدهم مبنياً إلا على أصول الشريعة وقواعدها ، ومراعاة المقاصد التي راعتها ، ومنها القياس على ما نُصَّ عليه من أحكامها ، وهذه الأصول وتلك القواعد قد بلغت أقصى درجات السمو والكمال في باب العدالة ، وتحقيق مصالح الناس ، ودرء المفاسد عنهم .

بقى قول الدكتور بروكلمان في كلمته السابقة : « وبذلك نفنت إلى الإسلام مبادئ القانون الروماني » .

إننا لا نستطيع أن نسلم بهذا الرأي ، إلا إذا كان المسلمون في حاجة إلى تعرف الأصول ، والمبادئ التي يبنون عليها تشريعهم ، وما حاجة المسلمين إلى هذه الأصول واقتباسها من غيرهم ؟ وكتاب الله بين أيديهم ، لم يترك في التشريع أصلاً من الأصول الصالحة ، ولا قاعدة من القواعد العادلة ، ولا مبدأ من المبادئ السامية ، إلا قرره ودعا إليه ، وهذه المبادئ التي سنّها هي أرقى من مبادئ أي قانون وضعي حتى في عصورنا الحديثة .

ونحن لا نكتفي بإدحاض حججهم ، ولا بإبطال شبهاتهم ، بل سندكر هنا من الأدلة ما يدمر رأينا ، ويكشف عن وجه الحق فيما ذهبنا إليه من أن الفقه الإسلامي شريعة مستقلة ، وأنه لم يتأثر يوماً بالفقه الروماني . وقد ثبت بما نسوقه من البيانات أن دعوى المستشرقين الجريئة قد انقلبت إلى ضدها ، وأن الفقه الروماني هو الذي اقتبس من الفقه الإسلامي .

وهذه أدلتنا :

(١) ارجع إلى كتب الفقه الإسلامي كلها . وبخاصة التي عرضت لذكر آراء

الائمة المختلفين ، وحرصت على بسط آراء الصحابة ، وفتاوى التابعين والمجتهدين مع ذكر أدلتهم ، ومصادر تشريعهم ، والمظان التي رجعوا إليها ، فلن تجد ذكرا لأقصوصة الاخذ من القانون الروماني ، وبما لاجدال فيه أن علماء الفقه كان يحرص بعضهم على دفع آراء المخالفين له ونقضها ، فلو أن بعضهم استمد بعض آرائه من القانون الروماني لكان هناك مجال واسع لمخالفه في نقده والظعن عليه .

(٢) أن المؤرخين الذين عنوا بذكر ما أفاده العرب والمسلمون من غيرهم من الأمم التي اختلطوا بها - حرصوا على ذكر ما أخذه العرب عن الفرس ، والهند ، واليونان ، وذكروا العلوم المختلفة التي عنى الخلفاء والأفراد بترجمتها ، والاستفادة منها : من الطب ، والفلك ، والنجوم ، وسائر علوم الفلسفة - ولم يذكر أحد منهم أن علماء المسلمين أخذوا من الرومان قانونهم ، أو من اليهود تلبودهم .

(٣) أن بعض المستشرقين قالوا : إن من دواعي الأسف أن مذهب الإمام الأوزاعي قد اندثر ، لأنه عاش في بيروت موطن أكبر مدرسة رومانية في الشام ، ولو عثرنا عليه لوجدنا فيه أثراً كبيراً للقانون الروماني (١) .

هذا قولهم ، ولكن الله يأبى إلا أن يحق الحق ، فقد ثبت أن عبد الرحمن الأوزاعي الفقيه الإسلامي بالشام - كان أهل الشام يعلمون بمذهبه ، كما انتقل مذهب إلى الأندلس ، وعمل به حيناً من الزمن ، وأنه من مدرسة الحديث لا من مدرسة الرأي ، فإن آراءه الفقهية التي ذكرها الشافعي في الجزء السابع من الام تدل على أنه كان من رجال الحديث الذين يكرهون القياس (٢) ، وحيث أن فلا يعقل أن يكون للقانون الروماني أثر في مذهب الأوزاعي ، لأن أهل الحديث ألزم الفقهاء للنصوص الشرعية ، إذ كانوا يتهيبون العمل بالقياس ، فكيف ينسب إليهم الاخذ من القانون الروماني ، كما ظن بعض المستشرقين ١٩ .

وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ،

١٩ « فجر الإسلام » ص ٢٩١ من الطبعة الثانية .

٢٠ « تاريخ الترميز » ص ٢٧٩ .

(٤) للفقهاء الإسلامى مصادر معروفة ، وأصول معلومة ، أرشد إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسنها بنفسه فى حديثه مع معاذ : كتاب وسنة ، فإن لم يوجد الحكم فيهما فاجتهاد بالرأى . كذلك فى عصر الخلفاء الراشدين لم يسيروا فى التشريع إلا على النهج الذى وضعه رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - كما يدل على ذلك كتاب عمر إلى أبى موسى الأشعرى ، فإنه حدد له مصادر التشريع والحكم : كتاب الله ، وسنة رسوله ، ثم دعاه إلى الفهم ومعرفة الأمثال والأشياء ، وقياس الأمور إذا لم يجد الحكم فى كتاب ولا سنة .

كذلك الأئمة المجتهدون فى القرنين الثانى والثالث لم يعرف عنهم فى استنباطهم الأحكام الشرعية إلا أنهم رجعوا إلى مصادر أربعة : الكتاب ، والسنة ، والقياس ، والإجماع ، وليس الإجماع شيئاً جديداً ، لأنه - عند الجمهور - لا بد أن يكون له سند من كتاب ، أو سنة ، أو قياس . وكل مناقشاتهم ومحاوراتهم ، وردود بعضهم على بعض عند اختلافهم فى الأحكام ، تدل أوضح دلالة على أنهم كانوا متقيدين بهذه الأصول الأربعة ، وما فى معناها من الاستحسان والمصالح المرسلة . ولم يعرف عن واحد منهم أنه نشأ نشأة تسهل له الاتخاذ من القانون الرومانى ، أو من غيره من القوانين ، أو أنه قرأ كتباً رومانية ، أو تعلم إلى فقهاء رومانيين ، وجميع الفقهاء المجتهدين نشئوا بنجوة من الببئة الرومانية ماعدا الإمام الأوزاعى ، وقد ثبت أن هذا الإمام أبعد المجتهدين عن الاتخاذ بغير النصوص الشرعية . بهذا ثبت أن المشرع الإسلامى لم يعتمد فى استنباطه الأحكام على مصدر رومانى ، أو مدد أجنبى .

(٥) وما يعضد الدليل السابق أنك إذا رجعت إلى كتب الفقهاء الإسلامى وهى مختلفة المذاهب ، متعددة الآراء - وجدت كل حكم فيها مستندا إما إلى الكتاب أو إلى السنة ، أو إلى الإجماع ، أو إلى الرأى ، والقياس ، والاستحسان ، أو إلى المصالح المرسلة ، وكليات الشرع ومقاصده ، فلست ترى فيها حكماً راجعاً إلى غير ذلك ، ومن المحال - فى العادة - أن تؤخذ أحكام من الفقه الرومانى فتدخل فى الفقه الإسلامى ، ثم يتواطأ الفقهاء الإسلاميون مجتهدوهم ومتابعوهم على جحود ذلك وكتمانه .

(٦) ثبت أن الشريعتين مختلفتان في المبادئ وكثير من الأحكام اختلافا يدل على استقلال الشريعة الإسلامية عن القانون الروماني :

ففي الشريعة الإسلامية نظم لا أصل لها في القانون الروماني كنظام الشفعة ، والوقف الأهلي ، ونظام العقوبة بالتعزير ، وموانع الزواج من الرضاع . وفي القانون الروماني أحكام لا أثر لها في الفقه الإسلامي ، كنظام التبني ، والوصاية على المرأة ، ونظام السلطة الأبوية ، والسيادة الزوجية . وقد يشتركان في بعض النظم ، ولكن قواعدها فيهما مختلفة متضاربة ، فمن ذلك : نظام الميراث ، فإن للمرأة فيه مثل الرجل في القانون الروماني ، ولها نصفه في الشريعة الإسلامية إلا في أولاد الأم ، وكذا نظام الطلاق : فإنه من حق كل من الزوج والزوجة في روما ، ومن حق الزوج دون (١) الزوجة في الإسلام ، وكنظام الزواج ، فإنه فردي عند الرومان ، متعدد عند المسلمين (٢) .

كذلك الشريعة الإسلامية قائمة على البساطة في التعامل ، وعلى نية الطرفين في التعاقد ، وعلى روح العدالة ، فلا تشترط لإتمام العقد صبغة رسمية ، ولا توجب لانتقال الملكية وضما خاصا ، بل يكفي فيه الاتفاق الحالي من الإجراءات الشكلية .

أما القانون الروماني فإنه قائم على إجراءات رسمية ، وأوضاع شكلية على الرغم مما استثنى فيها من هذا النظام الشكلي ، فلا يلتزم الطرفان في عقد إذا لم يوضع في أوضاع رسمية خاصة ، ولا تنتقل الملكية بين الطرفين بمجرد الاتفاق بل لابد من اتباع إجراءات أخرى شكلية . وهذا فاصل جوهري بين الشريعتين يعترف به

«١» هذا هو الأصل، وقد يكون الطلاق بيد المرأة إذا فوض إليها ذلك، ويكون بوساطة القضاء في مواطن معينة ، منها: التفريق بالحبوب ، وبالضرر ، وبإعسار الزوج ... الخ
«٢» من مقال فيم للاستاذ على بدوي نمر بمجلة هدى الإسلام عدد ٣٨ من السنة الثالثة. وانظر أيضا بحثه في السنة الأولى من مجلة القانون والاقتصاد ص ٧٣٤ ، ٧٣٥ .

أخذ ذلك الفقه في النمو والتدرج والاستقرار في القرون التالية : الثامن ، والتاسع ،
والعاشر ، حتى بلغ ذروة كماله ، وأوج علاه ، ودونت فيه الكتب المبسطة في
مذاهب الأئمة الأربعة وغيرهم ، وبذلك تكون نهضة الفقه الإسلامي بلغت
غايتها قبل أن يستيقظ القانون الروماني من سباته ، ويبحث من مرقد.

(٨) على أنه قد ظهر من المصادر والأدلة التاريخية ما قد يلقي بعض الضوء
على سر تشابه بعض القواعد والأحكام في الشريعتين ، فقد تبين من هذه المصادر
أن جربرت الفرنسي المعروف بابابا سلفستر الثاني ، والذي جلس على كرسي
البابوية إلى سنة ١٠٢٤ م - قد رحل مع إخوان له من أنصار العلم إلى بلاد
الأندلس الإسلامية قبل أن يجلس على كرسي البابوية ، فتلقوا العلوم في مدارس
الأندلسيين ، وفي جملتها الفقه الإسلامي ، ثم نقلوا من أحكامه ما وجدوه ملائما لهم
لرداءة الأحكام في بلادهم ، فأمدوا بها القانون الروماني ، ولعلمهم سكتوا عن
التصريح بذلك لكرهية المسيحيين في ذلك الوقت لكل شيء مصدره الإسلام .

ويؤيد هذا ما اتفق عليه مؤرخو الإفرنج من أن سلفستر الثاني هو الذي
وضع وحرر ونقح قوانين أوربا ، وأن نهضة القانون فيها تبتدئ من عصره ،
كما أشار إلى ذلك الأستاذ محمد علي بدوي في كتاب مبادئ القانون الروماني إذ
ذكر أن النهضة الأولى لهذا القانون بدأت بجامعة بولونيا الإيطالية التي هي أقدم
جامعات أوربا ، فظهرت بها نهضة القانون الروماني في آخر القرن الحادي عشر
إلى القرن السادس عشر (١) .

فلذا صح ما ذكر ، وهو أن هربرت أخذ عن المسلمين في الأندلس الفقه
الإسلامي فيما أخذ ، وأنه بعد أن عاد بنقح القوانين الأوروبية ، ومنها القانون
الروماني ، وأدخل عليها كثيرا من أحكام الفقه الإسلامي ، وأن نهضة القانون
الروماني وابتداء البحث فيه ، والعناية به في جامعات أوربا كانت في أواخر
القرن الحادي عشر الميلادي - لذا صح هذا وأضفنا إليه أن هربرت كان يعيش
إلى نهاية الربع الأول من هذا القرن - كان لنا أن نستنبط مطمئنين أن الفقه

الرومانى ظل رومانيا بحثا - كما كان فى عهد جوستينيان - إلى أوائل القرن الحادى عشر ، وإذ ذاك قبض له من هذب حواشيه ، وأصلح أحكامه ، ولقحه بلقاح إسلامى جديد ، وبذلك تكون دعوى المستشرقين قد انهارت ، ولم يبق لها أساس صحيح ، وحل محلها استنباط سليم تؤيده الأساليب العلمية فى الاستدلال ، وهو أن الفقه الرومانى وحده هو الذى تأثر بالفقه الإسلامى واستمد منه . ويجب أن يظل هذا الاستنباط مقبولا مسلماً به فى نظر الباحثين المنصفين حتى يقوم الدليل العلمى الصحيح على نقضه ، وهيات .

وبما يثبت صحة استنباطنا ماورد فى مصدرين تاريخيين : أحدهما شرقى ، والثانى غربى (١) :

أ - أما الشرقى فهو ما جاء فى « مجموعة رسائل فى شوارد المسائل » لمفضل الأسفركانى من علماء ما وراء النهر : أن أبا الوليد محمد بن عبد الله نقل فى تعليقاته على النهاية شرح الهداية : أن طلبه العلم من الإفرنج الذين كانوا يسافرون إلى غرناطة بالاندلس لطلب العلم اهتموا كثيراً بنقل الفقه الإسلامى إلى لغتهم ، ليستعملوه فى بلادهم لرداءة الأحكام فيها خصوصاً فى المائة الرابعة ، والخامسة من الهجرة ، وقد دونوا الفقه الإسلامى كاملاً ، وحوروه إلى ما يوافق بلادهم .

ب - وأما الغربى فهو ما قاله العلامة المؤرخ الألمانى (موسهيم) فى تاريخ الكنيسة فى كلامه عن القرن العاشر الميلادى :

إن هربرت السالف الذكر كان مديناً بمعرفته لكتب عرب الاندلس ، ومدارسهم ، لأنه مضى إلى أسبانيا فى طلب العلم ، وكان تلميذ علماء العرب فى قرطبة وأشبيلية ، وأثرت سفرته فى الأوربيين المتشوقين للعلم ، فقد كان لهم من ذلك الوقت فصاعداً رغبة عظيمة فى أن يقرموا ويسمعوا علماء العرب الساكنين فى أسبانيا ، وبعض نواحى إيطاليا ، وترجوا كثيراً من كتبهم إلى اللاتينية ، فعرّب أسبانيا هم أصل وينبوع كل معرفة برزغت فى أوربا فى القرن العاشر وما بعده . وإن علم القوانين

هو من أهم العلوم والمعارف التي اشتهرت في أوروبا في تلك الاوقات ، وإن ما أخذوه من القوانين المدنية ، والاحكام القضائية من الفقه الإسلامى هو ما لقبوه بالقوانين المدنية الجديدة الرومانية ، ، أو القانون الرومانى .

ويسرنا بعد ذلك أن يتجلى وجه الحق في المؤتمر المولى للقانون المقارن الذى انعقد بلاهاى فى أغسطس سنة ١٩٣٧ م ، فيقرر : أن الشريعة الإسلامية لم تتأثر بالقانون الرومانى ، بل هى شريعة مستقلة قائمة بذاتها (١) .

وكان الأستاذ العلامة إدوار لامبير الفرنسى أحد أعلام القانون المقارن ، يظن أن للقانون الرومانى أثراً كبيراً فى الشريعة الإسلامية ، ولكن استبان له بعد أن عمّق النظر فيها ، وأوغل فى دراستها ، واتصل بعلمائها أنها شريعة مستقلة بذاتها ، وهذا هو الحق الذى تبين بما فصلناه فى هذا البحث من الدلائل والبيّنات .

١٥ من تقرير مندوبى الأزهر فى مؤتمر لاهائى الذى نشرته خلاسته فى ٢٦ من نوفمبر سنة ١٩٣٧ م فى صحيفة الأهرام .

الفصل الثاني

الشريعة الإسلامية

وفاؤها بحاجات الأمم ومطالبها في كل عصر

دفع ماوجه إليها من شبهات

الشريعة الإسلامية أعدل الشرائع وأحكمها ، وأقواها أركاناً ، وأرسخها دعائم ، وأبقاها على تناسخ القرون والاحقاب ، فهي باقية ما بقيت الحياة الدنيا لا مبدل لها من دون الله ولا ناسخ ، وهي يسر ورحمة ، وحكمة ونعمة - أساسها رعاية المصالح ، ودفعه المفاسد ، وغايتها إسعاد البشر في معاشهم ومعادهم ، ولاغرو فهي قبس من نور هداية الله ، ومشتقة من سنا وحيه ، ووذيلة (١) مجلوة انعكست فيها سمات الرسالة وإرشاد النبوة ، ثم هي إلى ذلك مضمار لتداول قرائح المجتهدين من العلماء ، وميدان لنوى الأفكار الحرة المخلصة لله وللحق ، استهدوا بهديه ، وسعوا وفي يدهم مصباح هدايته ، فعرفوا من كتاب الله وسنة رسوله وجوه المصالح العامة ، والحكم التشريعية السامية ، وقواعد التشريع وأصوله العادلة ، وبها حكموا على الحادثات الجزئية ، والمسائل الفرعية ، فاستقام لهم من ذلك كله تشريع قيم ، واستوى منه قانون سماوى سداه جلب المصالح ، ولحنته دره المفاسد - انتظم جميع ما يحتاج إليه الأفراد والأمم من عبادات ، ومعاملات ، وأحكام مدنية ، وتجارية ، وشئون جنائية ، وأحكام سياسية ، واجتماعية : فقد نظم علاقة العبد بربه ، وحدد علاقة

١٥ ، الوذيلة كفية : المرأة .

الفرد بأسرته ومجتمعه ، وبين علاقة المجتمع بالفرد ، ووضع أساس النظم والعلاقات بين الأمم بعضها وبعض .

ورائده في ذلك كله تحقيق العدل والمساواة بين الناس كافة ، لا فرق بين عربي وعجمي ، ولا بين أسود وأبيض ، ولا بين ملك وسوقة ، ولا بين ضعيف وقوى ، - لا مقصد له إلا إقرار الحق والمعدلة - ألا ترى إلى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » .

وعن خولة بنت قيس قالت : كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسق من تمر لرجل من بني ساعدة ، فأتاه يقتضيه ، فأمر رسول الله رجلا من الأنصار أن يقتضيه ، فقضاه تمرا دون تمره ، فأبى أن يقبله ، فقال : أترد على رسول الله ؟ قال : نعم ، ومن أحق بالعدل من رسول الله ؟ فاحتطت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدموعه ، ثم قال : « صدق ، ومن أحق بالعدل مني ، لا يقدسُ اللهُ أمةً لا تأخذ لضعيفها من قوتها حقَّه غير مُتَعَتِّع (١) ... » ، وورد في النهاية : « لا قُدَّسَتْ أمةٌ لا يؤخذ لضعيفها من قوتها ، أى : لا طهرت . ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « المقسطون عند الله على منابر من نورٍ عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولُّوا (٢) » . وفي الحديث المتفق عليه : « إنكم تختصمون إليَّ ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعضٍ فأقضى بنحوٍ مما أسمع ، فمن قضيتُ له بشيٍّ من حقِّ أخيه

«١» الفروق للقرافي ج ٤ ص ٢٣٨ ، ومفتاح السنة ص ١٣٤ . طبعة سنة ١٣٤٧ هـ . نقله عن كتاب الترغيب والترهيب . ومتنع بفتح التاء كما في النهاية أى من غير أن يصيبه أذى يقلقه وزعجه ، يقال : تمتعه فتمتع . وقد ورد الحديث بعبارات مختلفة في الكتب ، ولكنها متحدة أو متقاربة في المعنى .

«٢» الطرق الحكيمة ص ٢١٦

فلا يأخذه ، فإنما أقطعُ له قطعةً من النار (١) .

وُفسر الميزان بالعدل في قوله تعالى : « الله الذي أنزل الكتابَ بالحقِّ والميزان » ، وقوله : « لقد أرسلنا رسلنا بالبيناتِ ، وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسطِ » .

هذا هو دستور التشريع الإسلامي : العدل مبدؤه وغايته ، والحق قوامه وشرعته ، سنَّ ذلك سيد الخليفة ، ومصلح البشر ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، ثم سار على سنته خلفاؤه الراشدون ، فقد جاء في كتاب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري : « وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك ، حتى لا يأس الضعيف من عدلك ، ولا يطمع الشريف في حيفك (٢) » .

فليت شعري - إذا كانت شريعة الإسلام قد بلغت المدى في الحرص على العدالة والمساواة ، ووصلت الغاية في الاستمسك بالحق ، والاعتصام بحبله المتين ، ولها من الأصول الراقية ، والقواعد السليمة ، والمبادئ السامية ، ما يعتمد عليه في وضع الأحكام عند عدم النص - ما الذي حدا (٣) الولاة على تنكس أحكامها ، والحكام أن يبحثوا عن قانون غير قانونها ، حتى تجرموا في عصور مختلفة ، وفي عصرنا هذا على مخالفة الشرع ١٩ .

زعموا أن لهم في ذلك حجتين - نقول ذلك فرضا وتوسعا - وإلا فهما في الحقيقة وهمان أو شبهتان داحضتان :

حجتهم أو شبهتهم الأولى

توهمهم أن الشريعة ناقصة ، لا تقوم بمصالح الناس ، ولا بسياسة الأمم

« ١ » الطرق الحكيمة ص ١٠٠ وقد سبق ذكر هذا الحديث في مبحث مجاسن التفسير الإسلامي ومزاياه .

« ٢ » مفتاح السنة ص ١٣٠ - نقله عن سنن البخاري .

« ٣ » في الأساس : حدوده على كذا : بعثته .

وحاجاتها، ولا تسير تطور الزمان، ولا تقي بمختلف الأحوال، وما جد من ضروب المعاملات، فطوعت لهم أنفسهم تعدى حدود الله ومخالفته في كثير من أحكامه وأوامره - وهو خطأ - لعمر الحق - عظيم، وضلال مبين، فإن الله تعالى أوجب على الأحكام القيام بالقسط في كل شيء مع التزام ما بينه من كليات الشريعة وأصولها، ومبادئها، فحكمه - كما يقول ابن القيم - دائر مع الحق، والحق دائر مع حكمه أين كان، وبأى دليل صحيح كان، فأى تشريع يقر العدل، ويمجرى مع الحق هو من الشريعة، غير خارج عن نطاقها.

على أن سعة أصول الشريعة الإسلامية وتعددتها، وسمو قواعدها، ورجوع علمائها إلى الإجماع، والقياس، والاستحسان، والمصالح المرسلة، والاستصحاب، وسد الذرائع عند الاجتهاد، واستنباط الأحكام، ثم بحوث المجتهدين في الفقه الإسلامي، وتوسعهم في البحث، وما أمرنا به من الاجتهاد عند عدم النص، وترك التقليد، وعدم جواز خلو الزمان عن مجتهد عند كثير من العلماء والمحققين - كل أولئك يهدم هذه الشبهة من أساسها، فلا يكون هناك نقص في الشريعة، وإنما النقص فينا وراجع إلينا - معشر القادرين على الاجتهاد - لأننا فرطنا في أداء هذا الواجب.

وإن في الشريعة الإسلامية من بحوث المجتهدين السالفين في المسائل المدنية والجنائية، والمعاملات ما يدحض هذه الشبهة - فن ذلك: أنهم أجازوا الحبس في التهم والضرب فيها، غير أنهم قسموا المدعى عليه في دعوى الجنائية، والأفعال المحرمة، كدعوى القتل، وقطع الطريق، والسرقه، ثلاثة أقسام: فإن المتهم إما أن يكون بريئاً ليس من أهل تلك التهمة، أو فاجراً من أهلها، أو مجهول الحال. فإن كان بريئاً لقرائن شاهدة لم تجز عقوبته اتفاقاً، وإن كان مجهول الحال لا يعرف ببر ولا فجور - فهذا يحبس حتى تنكشف حاله عند عامة علماء الإسلام، يحبسه القاضي أو الوالي، ومنهم من قال: الحبس في التهم إنما هو لوالى الحرب دون القاضي، واختلفوا في مدة الحبس قليل: هو مقدر بشهر، وقيل: هو غير مقدر، بل مرجعه إلى اجتهاد الحاكم.

وإن كان معروفاً بالفجور فحبسه أولى من حبس المجنون ، ويسوغ ضرب هذا النوع من التهمين (١) - بيد أن بعض العلماء أجاز لكل من القاضي والوالي ضربه ، وهو قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد وغيرهم ، منهم : أشهب بن عبد العزيز قاضى مصر ، فإنه قال : يمتحن بالحبس والضرب ، ويضرب بالسوط مجرداً ، وبعضهم قال : يضربه الولى دون القاضي ، وهذا قول بعض أصحاب الشافعى وأحمد ، ووجه أن الضرب المشروع هو ضرب الحدود والتعزير ، وذلك إنما يكون بعد إثبات أسبابها وتحققها (٢) ، وقيل : لا يضرب المتهم .

أضف إلى ذلك ما حفلت به كتب الفقه من تعدد آراء الفقهاء واختلافهم فى المسائل الاجتهادية حتى فى العبادات - مما يدل على خصب الشريعة الإسلامية ، وتقبلها لاختلاف الرأى فيما يصح فيه الاجتهاد (٣) .

فهل الشريعة الحرة التى فيها رُغْب وسعة ، والتى تجود بمثل هذه الآراء ، وترعرع فى أحضانها ، وفى ظل مبادئها وقواعدها وأصولها أئمة الاجتهاد ، وأعلام الفقه والتشريع - ترمى بالنقص ، وهى تصلح أن تكون مرجعاً للحكام يأخذون منها ما يناسب الأحوال فى كل عصر ومكان ١٤ .

ومما يدحض أيضاً شبهة نقص الشريعة اتساع باب التعزير والعقوبات فيها (٤)

«١» جاء فى الطرق الحكيمة ص ١٠٧ - أن التهم يضرب إذا عرف أن المال عنده وقد كتبه وأنكره - ليقرب به ، وذلك لما ورد فى حديث ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم لما صالح أهل خيبر على الصفراء والبيضاء - سأل زيد بن شعبة هم حى بن أخطب : أين كنت حى ؟ فقال : يا محمد أذهبته النفقات ، فقال للزبير : دونك هذا ، فمس الزبير بعمى من العذاب ، فدلهم عليه فى خربة ، وكان حلياً فى مسك ثور - والمسك : الجلد .

«٢» الطرق الحكيمة ص ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ .

«٣» فصلنا الوجه فى ذلك ووضعناه فى القول السادس عشر من محاسن الفريعة ومزاياها .

«٤» سبق أن ذكرنا خلاصة مبحث التنزير فى الثانى عشر من محاسن الفريعة الإسلامية ومزاياها ، واضطررنا إلى إعادة أكثره هنا ، لأن موضوع البحث يقتضيه ، ورأينا ذلك خيراً من الإحالة على ما مضى .

فإن المعاصي ثلاثة أنواع : نوع فيه حد ولا كفارة فيه ، كالزنا ، والسرقه ، وشرب الخمر ، والقذف . ونوع فيه كفارة ولا حد فيه ، كالجماع في الإحرام ، وفي نهار رمضان . ونوع لا كفارة فيه ولا حد ، كالنظر إلى الأجنبية ، واليمين الغموس ، عند الإمامين : أبي حنيفة وأحمد .

فالنوع الأول لا تعزير فيه لوجوب الحد ، وفي الثاني قولان للفقهاء . أما الثالث ففيه التعزير ، لكن هل هو كالحد فلا يجوز للإمام تركه ، أم هو راجع إلى اجتهاد الإمام في إقامته وتركه ؟ كما يرجع إلى اجتهاده في قدره ، على قولين للعلماء :

الثاني قول الشافعي ، والأول قول الجمهور (١) .

والتعزير يختلف باختلاف الجرائم ، وبحسب حال المذنب نفسه ، ولذلك قد يكون بالتوبيخ والزجر بالكلام ، ومنه ما يكون بالجلوس ، أو بالضرب ، أو بالنفي عن الوطن ، وقد يكون بالقتل ، وللفقهاء أقوال أربعة (٢) في صفة التعزير وقدره :

الأول : أنه موكول إلى اجتهاد ولي الأمر ، يقدره وفق المصلحة وعلى قدر الجريمة ، وبعض من رأى هذا الرأي سوغ بلوغ التعزير حد القتل إذا لم تندفع المفسدة إلا به ، كقتل الجاسوس إذا اقتضت المصلحة قتله ، وهو قول مالك ، وبعض أصحاب أحد ، ومثل قتل المفرق لجماعة المسلمين ، والداعي إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ، ففي الحديث : « مَنْ جَاءَكُمْ وَأَمْرُكُمْ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ ، يَرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَأَضْرِبُوا عُنُقَهُ بِالسَّيْفِ كَأَنَّ مَنْ كَانَ . » . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن من لم يلبثه عن شرب الخمر ، فقال : « مَنْ لم يلبثه عنها فأقتلوه ، فأمر بقتله عند عدم الانتهاء تعزيراً لأحدا ، وعلى هذا يحمل قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَأَجْلِدُوهُ ، فَإِنْ عَادَ فَأَجْلِدُوهُ ،

«١» القياس لابن القيم ص ١٥٤، ١٥٥

«٢» مضى أيضاً ذكر ذلك في باب محاسن الشريعة ومزاياها .

فإن عاد في الثالثة أو الرابعة فاقتلوه ، ، فأمر بقتله إذا أكره ، ولو كان ذلك حدا
لأمر به في المرة الأولى .

وأجاز أبو حنيفة التعزير بالقتل للصلحة ، كقتل المكثّر من اللواط ، وقتل
القاتل بالمثل ، مع أنه أبعد الأئمة عن التعزير بالقتل .

وقد يكون التعزير بغيره ، وهو درجات ومراتب ، تراعى فيه الجريمة وحال
المجرم : فقد عزر صلى الله عليه وسلم بالهجر ، وعزر بالنفي ، كما أمر بإخراج
المخثنين من المدينة ونفيهم ، وفعل عمر - من بعده - مثل ذلك ، كأمره بنفي نصر
ابن حجاج .

الرأى الثانى : أنه لا يبلغ أدنى الحدود : إما أربعين ، وإما ثمانين ، وهذا
قول كثير من أصحاب الشافعى ، وأحمد ، وأبى حنيفة .

الثالث : أنه لا يبلغ بالتعزير فى معصية قدر الحد فيها ، فلا يبلغ بالتعزير على
النظر والمباشرة حد الزنا ، ولا على السرقة من غير حرز حد القطع ، ولا على
الشم بدون القذف حد القذف ، وهذا قول طائفة من أصحاب الشافعى وأحمد .

القول الرابع : أنه لا يزداد فى التعزير على عشرة أسواط ، وهو أحد الأقوال
فى مذهب أحمد وغيره (١) .

كذلك ترى التعزير بالعقوبات المالية مشروعا فى مذهب مالك وأحمد وأحد
قولى الشافعى فى مواطن معينة . وقد جاءت السنة بذلك فى مواضع ، منها :
إضعاف الغرم على سارق ما لا قطع فيه ، وأمره صلى الله عليه وسلم بكسر دنان
الخر ، وشق ظروفها ، وأخذ شطر مال مانعى الزكاة (٢) .

«١» الطرق الحسكية ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ من طبعة سنة ١٣١٧ هـ

«٢» المصدر السابق ص ٢٤٥ ، ٢٤٦

وبعد ، فإذا ترى فيما سفته لك من النصوص والمذاهب والآراء الفقهية في العقوبات التي تدخل في باب التعزير ، وفي غير العقوبات من الأحكام الاجتهادية (١) الأخرى ؟.

لا ريب أن كل منصف يحكم بكمال الشريعة وسعتها ، وأنه لا عذر لمن يترك شريعة الإسلام إلى غيرها من القوانين .

وبطلت بذلك دعوى الجاهلين ، أو الخراصين ، وهي أن الشريعة لا تستطيع أن تمد الحاكمين في العصر الحاضر ، وبخاصة في القانون الجنائي . بالأحكام الصالحة ، فقد رأيت - فيما سبق من الأقوال خصوصا القول الأول - أن للشرعين المحدثين مجالا أي مجال في الرجوع إلى آراء أئمة الإسلام واختيار الصالح لنا منها ، أو في استنباط أحكام جديدة فيما يدخل في باب التعزير - على أن نحافظ على أصول شريعتنا ، ونراعى مقاصدها ، وننزل على المحكم القطعي من نصوصها ، وبذلك تستطيع الاقطار الإسلامية أن تضع قانونها الجنائي ، أو أي قانون آخر على أساس من الشرع قويم .

حجتهم أو شبهتهم الثانية

أن العقوبات التي قدرتها الشريعة الإسلامية في الحدود قاسية ، بل أسرف بعض الغالين ، فقال : إنها وحشية لا تتفق مع روح المدنية ، فقد حكمت برجم الزاني إذا كان محصنا ، وبجلد غير المحصن مائة جلدة ، وقضت بقطع يد السارق ، وبجلد شارب الخمر ، والقاذف ثمانين جلدة .

ولإدحاض هذه الحجة ، وإزاحة تلك الشبهة نقول : إن جميع الشرائع والقوانين السماوية والوضعية ترمى في غايتها إلى المحافظة على الضرورات الخمس : النفس ، والعقل ، والمال ، والنسل ، والدين ، إذ يترتب على التفريط فيها ،

١١٥ ذكرنا كثيرا منها في تضاعيف هذا الكتاب - راجع الوجه السادس عشر من محاسن الشريعة الإسلامية .

والاعتداء عليها التنازع ، والتظالم ، وسفك الدماء ، وفقد الأمن في الأنفس ،
والأموال ، والأعراض ، وانتشار المفاسد والشرور .

ولكن القوانين الوضعية - وبخاصة القوانين الأوروبية - تجانفت عن المحجة ،
وحادت عن الجادة ، وتنكبت الصراط السوى ، فلم تستطع المحافظة عليها بما يقطع
دابر الفساد ، وذلك لأنها لم تحرم الزنا إلا في حالات معينة ، وأباحته عند الرضا في
أكثر الحالات ، محتجة بالمحافظة على الحرية الشخصية ، فكانت عاقبة ذلك كثرة
اللقطاء الذين حرموا تربية الآباء وشفقتهم ، وانتشار الأمراض السرية التي تفتك
بالصحة فتكا ذريعا ، والإحجام عن الزواج الذي ترتب عليه بقاء كثير من النساء
في حالة من المسكنة ، والبؤس ، والتعس والشقاء . وفي الحالة المعينة التي حرمت
فيها الزنا لم تفرض إلا أيسر العقوبات ، فظلت الحالة على ما هي عليه من
انتشار البغاء ، وتمكن الشر والفساد - أما الاحتجاج بالحرية الشخصية
فردود ، فإن من القواعد المسلم بها أن للإنسان مطلق الحرية الشخصية إلا
فيما يعود بالضرر على نفسه ، أو على غيره ، وقد ثبت بالتجربة والمشاهدة
أن الزنا ضار بالزانيين صحيا وأديبا ، ثم يتعدى الضرر منهما إلى غيرهما
من أسرتهما ، وهو تدنسهما بفضيحة الجناية على الأعراض ، وهي عند من
لم تفسخ طبائعهم لا تقل ضررا عن التعدي على الأنفس بالقتل ، ولهذا ترى
الأفراد في الأمم حتى اليوم - خصوصا في الأمم الشرقية ومنها مصر - يحفزهم
دافع الشرف إلى الانتقام لأعراضهم ، وبذلك كثرت جرائم القتل من أجل الزنا .
كذلك أباحت هذه القوانين الغربية تعاطي المسكرات بحجة الحرية الشخصية ،
وما دروا أن هذه الحرية قاتلة بشهادة الأطباء الذين قرروا ضررها ، وإيذاءها
للجسم ، وتأثيرها في الجهاز العصبي ، وفي غشاء المعدة ، وفي الكبد ، والقلب (١) .

١٥ « ولأطباء بحوث جمة في بيان مضار الخمر، ريان تأثيرها في الجسم وإنساد أعضائه،
وإصابتها بمختلف الأمراض، فن ذلك بحث قيم للعالم الطبيب الدكتور محمد فخر الدين السكي نسر
في العدد السابع من مجلة لواء الإسلام جاء فيه : أن الإدمان من أكبر أسباب تصلب =

هذا إلى إضاعتها المال في غير مصلحة ولا فائدة محققة ، وجنائيتها على العقل ، وذلك شر عظيم ، قد يؤدي إلى مفسدة كبرى ، فقد يقتل السكر ، وقد يهجر زوجه وولده ، ويخرب بيته ، وقد يجنى حتى على عرضه ، وليس أدل على ذلك مما قرأناه في الصحف أن رجلا مدنا الخمر هجرته زوجه لذلك ، فسطا في غيبة عقله ، وضياح رشده على عرض ابنته الصغيرة ، ثم تعدى أيضا على عرض ابنه الذي لم يتجاوز إحدى عشرة سنة (١) .

هاتان جريمتان متاصلتان في نفوس البشر ، لأنهما صادرتان عن جبلة تزين للناس حب الشهوات - وقد رأيت أنهما مصدران لكثير من الشرور والآثام والمفاسد التي تنخر عظام الأمم ، وتدع المجتمع سقيا بالأوصاب والعلل الاجتماعية ، مهددا بالانحلال والقضاء .

أفترى مع هذا أن عقوبة الحبس أو التغريم زاجرة أو رادعة ، أو متكافئة مع الآثار السيئة ، والعواقب الوبيلة التي أسلفنا ذكرها ؟ لا شيء من ذلك يكون رادعا ، أو يكون من شأنه اجتثاث هذه الجرائم ، فلم يبق إلا أن تكون العقوبة بدنية ، لأنها أنفذ في النفس أثرا ، وأشد وقعا ، وأبلغ في زجر الجانين ، وردع غيرهم ، وأدنى إلى إصلاح النفوس ، وتطهير القلوب .

بقيت السرقة ، وهي من الجرائم الوضيعة التي أصفقت (٢) الشرائع والقوانين

== المبررين، وأن هذا التصلب يؤثر في تغذية أعضاء الجسم المختلفة ، وأهم هذه الأعضاء القلب ، وفساد أوعيته قد يعرض الإنسان للذبحة الصدرية ، وكذلك للخمر تأثيرها في الكبد، لأنها سريعة التأثير بالكحول، فيحدث فيها ما يعرف بتليف الكبد الذي يعوقها عن أداء وظائفها على الوجه الذي به صلاح الجسم، كما أن الإدمان يحدث في الكليتين التهابا حادا، أو مزمننا يلحق بالخلل وظيفة الكلية... الخ

«١» ولصار الخمر القاذرة ألقت الجماعات في أوروبا، وأمريكا ، والفرق ، لمكالفة الخمر، ومطالبة الحكومات بحريمها، وعقدت لذلك النضر المؤتمرات الدولية، وكانت الولايات المتحدة قد سنت قانونا بحريم الخمر، ثم مادت فالتته .

«٢» أطلقت واجتمعت .

والفطر والعقول على استهجانها ، وذنم مقترفها ، وعقاب مرتكبها . والقانون الأوربي يعاقب بها ، كما تعاقب الشريعة الإسلامية ، غير أن العقوبة في القانون الأول بغير القطع ، كالحبس والغرامة ، وفي الشريعة الإسلامية بقطع اليد .

وحكم الشريعة أولى بالاتباع ، وأحق بالمراعاة ، وأجدر بالتقدير : فإن السارق يأخذ خفية ، ويعتدى على صاحب المال في غفلته ، فهو جبان في اعتدائه ، نذيل في خديعته ، يستلب منه أعز شيء لديه ، بعد حياته وعرضه ، رقد يرتكب جريمة القتل مع السرقة ، بل كثيرا ماتقع هذه الجريمة كوسيلة يفتن بها إلى إتمام سرقة ، أو للفرار من تبعاتها ، فيقتل من غير تفريق ولا تمييز ، حتى الطفل في مهاده ، والشيخ الهرم في فراشه .

فإذا كانت عقوبة السارق ، وهو الذي يهدد المجتمع بأمنه والأسلحة وأخسها - هي الحبس ، أو الترخيم ، فهل ينزجر بها ويرتدع ؟ وهل تؤثر فيمن تحدثهم أنفسهم بارتكاب هذه الجريمة ؟ وهل يتحقق بذلك الأمن على النفوس والأموال ؟ كلا ، ولهذا نرى السرقات لا تقل ولا تنقطع ، بل تراها تكثر في مضاعفة وازدياد ، لأن العقوبة غير زاجرة ، ومن ثم نرى اللصوص في هذا العصر - الذي يزعم قادته أن قطع اليد لا يتفق مع روح المدنية - ينظمون أنفسهم ، ويكونون عصابات قوية مسلحة كأنها حكومة داخل حكومة - لا يبالون بالأموال ، ولا الأرواح ، كأنشاهد ذلك في الولايات المتحدة وغيرها .

ولو كانت العقوبة بدنية في مثل هذه الجرائم المهددة للأمن ، المثيرة للشر والفساد ، الفاضية على راحة المجتمع وطمأنينته - لانحسب الشر من أصله ، ولقلت هذه الجرائم ، وسلم المجتمع من رجزها ، وتطهر من رجسها - كما نشاهد آثار ذلك اليوم في البلاد الحجازية ، في عهد حكومتها السعودية ، وقد كانت من قبل مسلوبة الأمن ، لا يطمئن فيها مقيم ، ولا ظاعن على نفسه ، ولا على ماله ، وقد جاء في تقرير بعثة الشرف المصرية الموفدة إلى الحجاز في سنة ١٣٥٥ الهجرية ما يؤيد مذهبنا إليه من أن تنفيذ حدود الله تعالى كفيل باستتباب الأمن وراحة

البلاد ، وقاطع لدابر الفساد ، وأن تنفيذ أحكام شريعته يفضى إلى خير العواقب ،
ويؤتى أطيب الثمرات - قالت البعثة في هذا التقرير :
« لا يفوتنا أن نذكر مع الإعجاب حالة الأمن في تلك البلاد - تعنى بلاد
الحجاز - فإن الأمن هناك مستتب موطن الأركان في كل مكان ، وبخاصة في
الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة ، وإلى عرفات ، وإلى المدينة المنورة ، مع كثرة
القبائل الضاربة في جوانبها ، وقد كانت من قبل مصدراً للسلب والاعتداء على
حجاج بيت الله ، وفرض الضرائب غير المشروعة عليهم . ويرجع الفضل في ذلك
كله إلى يقظة رجال الحكومة العربية السعودية ، وضربهم على أيدي العابثين بأشد
العقوبات ، كقطع يد السارق ، وقطع أيدي وأرجل قطاع الطريق من خلاف -
وبما يدعو إلى تمام الرضا والإعجاب أن تنفيذ العقوبة مرة واحدة كاف غالباً في
عدم تكرار وقوع الجريمة التي تستوجبها . »

كذلك ثبت هنا كلمة وزير مصرى تولى وزارة العدل غير مرة ، هو الأستاذ
محمد صبرى أبو علم (رحمه الله) ، إذ أن هذه الكلمة شهادة ناطقة بما يترتب على تنفيذ
أحكام الشريعة الإسلامية ، وإقامة حدود الله من تمتع الأمة بسعادتها ، وأمنها ،
وسلامتها .

قال من خطبة (١) ألقاها في ذى الحجة سنة ١٣٥٨ هـ بمكة في حفل حجازى
بعد أدائه فريضة الحج : « والحق أن نعمة الأمن التي شملت هذه البلاد - يقصد
الحجاز - لتبدو مضاعفة القدر ، لأننا نشهدها في بلاد لم تعرف في العهود الماضية
إلا باختلال الأمن ، ولعل من أول البواعث على تمتع الجميع بنعمة الأمن
والسلامة هو ما التزمته حكومة هذه البلاد من إقامة حدود الله ، وتنفيذ أحكام
الشريعة الإسلامية ، فقد كفل لها ذلك نعمة الأمن ، والسلام ، والاطمئنان .
وإني لأرجو أن يتاح لجميع البلاد الإسلامية ما أتيسر لهذه البلاد من النزول

« ١ » نشرت في صحيفة أم القرى التي تصدر بمكة ، ونقلتها عنها صحيفة المصرى في عددها
الصادر في ١٠ من المحرم سنة ١٣٥٩ هـ الموافق ١٨ من فبراير سنة ١٩٤٠ م .

على أحكام الشريعة المقدسة التي لا يأتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .
ذلك ، والشرع الإسلامي الحكيم لم يحدد العقوبات إلا في أمهات الجرائم ،
وكبائر المعاصي ، وهي التي يضطرب لها جبل الجماعات ، وتشقى بها الأمم ، وهي
في خمسة مواطن :

١ — في الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فسادا ، وهم
قطاع الطريق .

٢ — والذين يقتلون النفس بغير حق .

٣ — والذين يرمون المحصنات العافلات .

٤ — والزانية والزاني .

٥ — والسارق والسارقة .

زد على ذلك جريمة الردة .

وماعدا ذلك من الجرائم لم يحدد العقوبات فيها ، بل ترك للحكام وأهل الرأي
من العلماء والمجتهدين أمرها ، ليلاحظوا ملائمة الجريمة ، وحالة المجرم ، وما
يناسب البيئة ، ويتفق مع أحوال الأمة في مختلف عصورها ، وذلك ما أسلفنا
شرحه في مبحث التعزير .

وكان من حكمة الله جل شأنه ورحمته بالناس ، أنه بين لهم العقوبات في
المواطن الخمسة السابقة ، إذ لو وكل إلى عقولهم استنباطها وهي جد خطيرة لذهبت
بهم الآراء كل مذهب ، ولعظم الاختلاف ، واشتد الخطب ، فكفاهم أرحم
الراحمين ، وأحكم الحاكمين مؤونة ذلك ، وتولى بعلمه ، وحكمته ، ورحمته تقديرها
ورتب على كل جنائية ما يناسبها من العقوبة ، ويليق بها من النكال ، وجعل
هذه العقوبات دائرة على القتل ، والقطع ، والجلد (١) :

«١» القياس في الشرع الإسلامي لابن تيمية ، وابن القيم ص ١٥٠ — الطبعة السلفية ستة

فأما القتل فجعله - كما قال ابن القيم - عقوبة أعظم الجنايات ، وفي مقابلة أكبر الكبائر ، وأعظمها ضررا ، وأشدّها فسادا للعالم كالجناية على النفس ، والجناية على الدين بالظعن فيه ، والارتداد عنه ، إذ بقاء المرتد بين أظهر عباده مفسدة لهم ، ولا خير يرجى في بقاءه ولا مصلحة إذا أصر على رده . كذلك جعل القتل عقوبة الجناية على العرض بزنا المحصن ، فإن الزاني حالتين :

أحدهما :- أن يكون محصنا قد تزوج فعلم ما يقع به العفاف عن الفروج المحرمة ، واستغنى به عنها ، وأحرز نفسه عن التعرض لحد الزنا ، فزال عنده من جميع الوجوه في تخطئ ذلك إلى واقعة الحرام ، فلذلك كان جزاؤه الرجم حتى يموت ، لما يترتب على الجناية على الفروج المحرمة من المفاسد العظيمة ، واختلاط الأنساب ، والفساد العام الذي أشرنا إليه فيما سبق .

والثانية :- أن يكون بكرا ، لم يعلم ماعله المحصن بما يقع به العفاف لحصل له من العذر بعض ما أوجب له التخفيف لحقن دمه ، وزجر بجلده مائة جلدة ، ردعا عن المعاودة للاستمتاع بالحرام وزجرا لغيره .

وأما القطع فجعله الشارع عقوبة السارق ، وهي أبلغ وأردع من عقوبته بالجلد ، ولم تبلغ جنايته حد العقوبة بالقتل ، فكان أليق العقوبات به إبانة العضو الذي جعله وسيلة إلى إيذاء الناس ، وأخذ أموالهم .

ولما كان ضرر المحارب أشد من ضرر السارق ، وعدوانه أعظم ، ضم إلى قطع يده قطع رجله ، ليكف عدوانه وشر يده التي بطش بها ، ورجله التي سعى بها ، وشرع أن يكون ذلك من خلاف ، لئلا تفوت عليه منفعة الشق بأكله .

وأما الجلد فجعله الشارع عقوبة الجناية على الأعراس بالقذف ، وعلى الإبضاع بالنسبة للبكر ، وغلظ عليه عند بعض الأئمة بالنفي والتغريب ، لينوق من ألم العربة ومجانبة الأهل والخطاء ما يزجره عن المعاودة - وجعله أيضا عقوبة الجناية على العقول بالسكر ، غير أن الشارع جعل عقوبة هذه الجناية دون حد الجنايات السابقة ، فكان يضرب فيها بالأيدي ، والنعال ، وأطراف

التياب ، والجريد ، وضرب فيها أربعين ، فلما استخف الناس بالعقوبة ، وتابعوا في شرب الخمر غلظها الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى أمرنا باتباع سنته ، فجعلها ثمانين بالسوط ، ونفى فيها ، وحلق الرأس . وهذا كله من فقه السنة ومن الاجتهاد المأذون فيه ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الشارب في المرة الرابعة ، فهي عقوبة ترجع إلى اجتهاد الإمام في المصلحة ، ومراعاة ما تقتضيه في كل حال (١) .

وعلى الرغم من أن أصحاب التشريع الحديث في البلاد الغربية وغيرها من البلاد التي حذت حذوها ألغوا العقوبات البدنية في معظم تشريعاتهم - يوجد اتجاه جديد نحو إعادتها . على أن العقوبات البدنية عند هؤلاء مقررة في بعض الحالات ، كما إذا دخل المحكوم عليه السجن ، وارتكب ما يخالف النظام الموضوع له ، فإنه من الممكن أن يعاقب بالجلد دون أن يجد أحد غضاضة في ذلك ، كما أنها مقررة أيضا بالنسبة للرجال العسكريين إذا ما ارتكبوا جريمة من جرائم القانون العسكرى .

ومن الذين يرون العمل بالعقوبات البدنية : لامبروزو ، ولا كسانى ، وبول كيش وغيرهم ، ولهم في ذلك ما يؤيد وجهة نظرهم ، فإن العقوبات البدنية جمعت الصفات التي يجب توافرها في كل عقوبة : فهي مؤثرة في نفس الجانى ، ورادعة للجرم ، كما أنها أفضل زاجر لغير المجرم حين يفكر في اقتراف الجريمة ، ومن الممكن أن تجعل هذه العقوبة متناسبة مع الجرم الذى يرتكب (٢) .

على أنه لم يفت الشرع الإسلامى أن العقوبات في الحدود بدنية ، وأن بعضها - لعظم الجرم - شديد ، كما في الزنا ، وأن الخطأ إذا تبين بعد تنفيذها جسم ، ولذلك احتاط لها عند إثبات أسبابها ، وتحقيق ما يوجبها ، فمن ذلك : اشتراطه شهادة أربعة مجتمعين لإثبات الزنا - طلبا للستر على العباد ، ومنة عليهم ، وكذلك

(١) القياس في المصروع الإسلامى ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٧

(٢) يراجع في ذلك مقال نمر بجلة الأزهر - المجلد ١٨ ص ٥٦١ ، ٥٦٣

في الإقرار به أرشد إلى عدم الاكتفاء بأقل من أربع مرات - حرصاً على ستر ما قدر الله ستره، وكره إظهاره، وتوعد من يحب إشاعته في المؤمنين بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة (١).

كذلك رأى الشرع درء الحدود بالشبهات، حتى صار ذلك قاعدة (٢) من قواعد الفقه الإسلامي، والأصل في تقريرها ما أخرجه الترمذي، والحاكم من حديث عائشة: «أدركوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلم نحرًا غطوا سبيلته»، فإن الإمام لأن يُخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة (٣).

وأخرج ابن ماجة من حديث أبي هريرة: «ادفعوا الحدود ما استطعتم»، بذلك البيان والتفصيل الذي ورد في هذا البحث يقتنع كل منصف بأن العقوبات التي قدرها الشارع في الحدود قد دعت إليها الحكمة، واقتضتها مصلحة الأفراد، وسعادة الجماعات، وسلامة الأمم، وبهذه الأحكام التي بينا لك وجوه المصلحة والنفع فيها تجلت لك حكمة الشرع الإسلامي فيما شرعه من الحدود، ووضح لك أنها - دون سواها - هي التي تقرّر بها المصالح، وتندفع بها الآثام والمفاسد. وبذلك ثبت كمال هذه الشريعة وسعتها وعدالة أحكامها، وأنها بما قامت عليه من أصول وقواعد، وبما تُنفَّذُ به من الأحكام الاجتهادية - صالحة على الدوام لكل أمة في أي عصر، تفي بحاجاتها ومطالبها، وتسائر ما يطرأ عليها من مختلف التطور والاحوال.

«١» القياس ص ١٠٩

«٢» سبق تفصيل القول فيها وبيانها في القاعدة الحادية والأربعين من القواعد الفقهية

للتفريع الإسلامي ص ٢٥٨

«٣» ورد الحديث بهذا النص في المجلد الأول من الأشباه والنظائر ص ١٦١

الفصل الثالث

أصول القوانين ومصادرها في العصر الحديث

تستمد الدول في العصر الحديث قوانينها من أحد نظامين يتقاسمان الأسرة الدولية ، وهذان النظامان هما :

١ - القانون المنحدر عن القانون الروماني .

٢ - القانون الإنجليزي الأصلي .

فالنوع الأول يعتبر في مبادئه وأصوله مرجعا مشتركا بين أكثر البلاد الأوروبية ، وأمريكا الجنوبية والوسطى ، وكثير من البلاد الأخرى كعصر في تشريعها المدني والجنائي .

والنوع الثاني : وهو المستمد أصله من أحكام المحاكم الإنجليزية القديمة - يصل بين إنجلترا ، والولايات المتحدة ، وأستراليا ، وكندا (ما عدا ولاية منها) ونيوزيلاندا الجديدة (١) .

ويرى الأستاذ لامبير الفرنسي أنه من واجب العلم الحديث أن يعمل على التقريب بين هذين النظامين القانونيين ، ليستنبط قواعد مشتركة بينهما ، تكون أساسا للقانون العالمي الذي يدعو إليه بعض أعلام القانون في العصر الحاضر .

وكان من الواجب - في رأينا - أن يوضع في صدر النظامين السابقين نظام

«٤» استقينا ذلك من محاضرة للأستاذ لامبير الفرنسي بكلية الحقوق المصرية في مارس سنة ١٩٣٧م ، وهو أستاذ القانون المقارن بليون بفرنسا .

ثالث ، هو الشريعة الإسلامية التي أقر كثير من المنصفين بأنها تحتوى على أسس المبادئ التشريعية ، وتتضمن أرقى الأصول والقواعد وأعدل الأحكام الفقهية ، حتى أن العلامة لمبير نفسه نقل عنه أحد تلاميذه : أنه المشرع العالمى الذى يقدر ما للشريعة الإسلامية من قيمة وأثر ، وأنه استطاع بعد التوغل فى دراستها والاتصال بأعلامها أن يقتنع بأنها شريعة مستقلة بذاتها بعد أن كان يظن أن للقانون الرومانى أثرا كبيرا فيها ، كما استطاع أن يضعها فى الميزان الصحيح من حيث الدقة والتطبيق فى عصرنا الحديث (١) .

وقد دعا هذا المشرع الفرنسى عند زيارته مصر فى سنة ١٩٣٧ - إلى إنشاء معهد للقانون المقارن بالجامعة المصرية ، يكون من أهم أغراضه تنشيط دراسة الشريعة الإسلامية باعتبارها أصلا من أصول القانون العام المقارن - فأعدت كلية الحقوق المصرية وقتئذ خلاصة مشروع للعهد المذكور ، جاء فيه أنه ينشأ لتحقيق أغراض ثلاثة :

- ١ - تنمية القواعد والمبادئ القانونية المشتركة بين الدول .
 - ٢ - التقريب بين الفقه الإسلامى وسائر الفقه فى العالم ، وتنشيط دراسة الشريعة الإسلامية باعتبارها مصدرا للقانون العام المقارن ، وإبراز ما يمكن أن يكون للشريعة الإسلامية - إذا درست دراسة علمية صحيحة - من نصيب فى تقدم الحضارة فى العالم .
 - ٣ - تكوين شباب ينقطعون للبحث العلمى ، وحثهم على إنتاج مؤلفات مصرية فى دائرة الغرضين الأولين .
- ولا شك أن هذه الأغراض من أشرف الأهداف ، وأنبى الغايات ، وهى التى ندعو إلى تحقيقها كل معهد مصرى ، أو إسلامى ، أو شرقى يعنى بدراسة الشريعة الإسلامية وبسائر القوانين - ولكن مشروع هذا المعهد لما يوضع موضع التنفيذ ، فعسى أن يهتم أولو الأمر ، فيعملوا على تنفيذه ، لأنه كفى لتحقيق الأمل فى إبراز محاسن الشريعة الإسلامية ومزاياها ، وما كان لها من أثر فى رقى الأحكام وتقدم التشريع .

١٥ - يراجع فى ذلك مقال نشر بصحيفة الأهرام فى ٢٠ من مارس سنة ١٩٣٧ م .

الفصل الرابع

التشريع الإسلامي والقانون المقارن

يمتاز الفقه الحديث في مختلف أنواعه وفروعه بأسلوبين من البحث العلمي قد أحدثا اتجاها جديدا في العلم القانوني ، وقد يكون لهما شأن خطير في توجيه التشريع الحديث ، وهما الدراسة التاريخية ، والبحث المقارن :

أولا : الدراسة التاريخية :

يقول العلامة الأستاذ على بدوي في بحثه القيم المدون بمجلة (١) القانون والاقتصاد ما خلاصته : إن البحث الفقهي كان مقصورا في كل أمة من الأمم على درس نظمها القانونية ، يبين أحكامها ، ومجال تطبيقها على الحالات الفردية المختلفة ، ثم اتجهت عناية الباحثين من ناحية إلى تتبع هذه النظم في مراحلها التاريخية ، ومعرفة أحوال نشوئها وتطورها ، ومن ناحية ثانية إلى دراسة ما يماثل ذلك من نظم الأمم الأخرى ، فامتدت دائرة جهودهم العلمية ، وتناولت قانونهم - لا باعتباره وحدة مستقلة ، بل على أنه حلقة من سلسلة حياة مطردة الحلقات يتصل ماضيها بحاضرها ، وعلى أنه جزء من مجموع تشترك فيه شرائع المجتمع الإنساني كل منها بنصيب .

ثانيا : البحث المقارن :

وكما أن البحث التاريخي يدلنا على مدى التماثل في تطور الشرائع خلال

عصورها المختلفة - كذلك الدراسة المقارنة ، أو البحث المقارن يبين لنا مبلغ التشابه في قواعد النظم القانونية بين شرائع الأمم المختلفة في عصر من العصور ، فإذا تناولت الدراسة المقارنة قوانين العصر الحديث كانت وسيلة للوقوف على مواطن التماثل ، ومواضع الخلاف بين شرائع الأمم الحاضرة ، وعلى أسباب ونواحي النقص أو الفساد في شريعة أية أمة من هذه الأمم ، كما نقف على درجة متابعتها لتطور المدنية الحديثة ، ومدى ما قدمته من المعونة في ميدان العلم القانوني العام . وإن ما يفيد من البحث التاريخي والبحث المقارن من التوفيق بين قوانين الأمم الحديثة ، وما يوحى به ذلك من سد النقص في الشرائع غير الكاملة لما يعين على الوصول إلى الغاية التي يجب أن ينشدها الفقه الحديث ، وهي توحيد التشريع في أمم العصر الحاضر ، أو التقريب بينها فيه ، وهي الدرجة القصوى التي يمكن أن يصل إليها القانون في تقدمه وتطوره (١) .

هذا رأى عالم قانوني مصري فيما يمتاز به الفقه الحديث ، وفي القانون المقارن ، وفي الغاية التي يجب أن تكون هدف التشريع الحديث .

كذلك عني رجال القانون من أهل الغرب بالقانون المقارن ، حتى عقدوا له المؤتمرات العلمية القانونية ، وتوسعوا في دراسته ، ونظموا بحوثه ، وأنشأوا له المعاهد الخاصة ، ومن أشهرها معهد القانون المقارن بليون .

ويراد به - كما قال الأستاذ لامبير الفرنسي ، في إحدى محاضراته التي ألقاها في مارس ولأبريل سنة ١٩٣٧ - نوعان من البحث :

الأول : - تاريخ القانون المقارن .

والثاني : - الدراسة المقارنة للقانون الحديث ، والغرض من هذا النوع تطور القانون في المستقبل على نحو ما بينا من قبل .

هذا مقال العلامة لامبير وغيره في العصر الحديث ، ونحن نقول : إن من ينظر إلى بحوث الشريعة الإسلامية وتاريخ التشريع فيها ، وإلى كتبها التي عرضت لآراء الأئمة المجتهدين وأدلتهم ومحاوراتهم ، وردود بعضهم على بعض ، والموازنة

(١) انتهى كلام الأستاذ على بدوى بقوله من التصرف والتلخيص .

بين المذاهب وترجيح بعضها على بعض - لايسعه إلا أن يحكم بأن فقهاء المسلمين ومشروعهم قد بدءوا بالسير في هذا الطريق قبل غيرهم ، وسبقوا في ذلك المشرعين وعلماء القانون في الأمم الأخرى ، وأنهم اهتموا إلى بعض البحوث والمسائل التي قد تدخل في موضوع القانون المقارن ، أو فيما يقرب منه ، وأن بعض بحوثه كانت مما تناولوه ، وإن لم يعرفوه بهذا الاسم الحديث والاصطلاح القانوني الجديد ، على أن ذلك كان في صورة متواضعة غير شاملة ، ويمكن أن يقال إن تاريخ التشريع الإسلامي يشبه في صورة ما النوع الأول من القانون المقارن ، وبسط آراء الأئمة المجتهدين وأدلتهم ، والموازنة بينها ، مع الترجيح قد يماثل النوع الثاني .

وحينئذ فلنا أن نقول - بحق - : إن ملكة التشريع الإسلامي عرفت بعمق التفكير ، وأصالة البحث ودقته ، وأن فقهاء الإسلام قد هدام البحث إلى بعض هذه الموضوعات ، فتوفروا عليها قبل أن تعرف أوربة نفسها ، وتستيقظ من سباتها ، وما ذلك إلا بفضل الروح التشريعية القوية التي جاء بها الإسلام .

وقد أخذت بعض المعاهد العلمية العالية في السنين الأخيرة - وفي صدرها بعض الأقسام العالية بالجامعة الأزهرية - تدخل في مناهج دراستها هاتين المادتين : تاريخ الفقه الإسلامي ، والمقارنة بين المذاهب ، ونأمل أن تعظم العناية بهما مادة وطريقة حتى ينضج التفكير ، وتتكون الملكات الفقهية ، ويوجد من العلماء من ينقطع للإنتاج والبحث العلمي ، كما نأمل أن تتطور الدراسة في الأزهر ، وفي كلية الحقوق - على مر الزمن - إلى المقارنة التفصيلية الدقيقة ، والموازنة الشاملة بين أحكام الشريعة ، والفقه الإسلامي ، وبين سائر القوانين والشرائع الأخرى ، وبخاصة في العصر الحديث .

الفصل الخامس

الشريعة الإسلامية وواجب الجامعة الأزهرية وكلية الحقوق المصرية

إن الغرض الشريف ، والغاية الحميدة ، التي ترقبها مصر والعالم الإسلامي من الأزهر : علمائه وطلابه هو التبحر في العلوم الدينية والإسلامية ، ليقوموا بنشر الإسلام وهديه ، وإذاعة عامده ومحاسنه ، ولينهضوا بواجب الإرشاد والهداية والإصلاح ، وأخذ الناس باتباع أحكامه ، فتحقق لهم السعادة والعزة في الدنيا ، ويفوزوا برضوان الله ونعيمه المقيم في الآخرة ، وذلك هو الفوز العظيم .
من أجل ذلك كان واجب المعاهد الأزهرية أولاً وقبل كل شيء هو دراسة الدين الإسلامي دراسة تحليلية تفصيلية عميقة ، ومن ذلك دراسة الشريعة الإسلامية ، أو الفقه الإسلامي - وما عدا ذلك فتبع ووسائل ، يستعان بها على تحقيق ذلك الغرض الإصلاحي الجليل .

ومن أول واجباتهم - في رأيي - عند دراسة الشريعة الإسلامية أن يتلقوا الآراء التشريعية التي استنبطها أئمة الاجتهاد على أنها آراء حرة يجب أن تناقش مناقشة حرة تعين على تنقيتها بما قد يكون في بعضها من الأخطاء ، وجعلها بحيث تلائم حالتنا الجديدة وعصرنا الحديث الذي جدّ فيه كثير من طرق المعاملات التي لم تكن من قبل ، فإن في الفقه الإسلامي آراء حسنة عادلة صالحة للتطبيق الآن ، كما كانت صالحة في عصر مستنبطها ، وهناك آراء - وإن حسنت في الماضي لا يحسن الآن العمل بها ، لاختلاف البيئة وتغير الأحوال ، وهناك آراء لولا

التعصب المذهبي ، أو السياسي ما حسنت في الماضي كما لا تحسن الآن (١) .
فن الذي يستطيع أن ينهض بواجب الترجيح والاختيار والاجتهاد - غير
أقطاب علماء الأزهر وفطاحلهم الذين تمكنوا من ناصية الشريعة ، واطلعوا على
قواعدها وأصولها ، وتمرسوا بأحكامها وفروعها زمنا طويلا ؟ لا يستطيع القيام
بهذا الواجب سواهم ، وهو أمانة في عنقهم . وإني أقول - ولا أخشى في الحق
لومة لائم - إن بعضا غير قليل من علماء الأزهر فيهم استعداد خصيب للقيام
بواجب الترجيح والاجتهاد ، ولكن ينقصهم من القادة والرؤساء حسن التوجيه
والقدوة الجريئة ، والمثل الصالح ، والشجاعة الأدبية - فإذا تم لهم ذلك رجوت
للشريعة الإسلامية على أيديهم عصرا ذهبيا تتجلى فيه حيويتها ، وقدرتها على
الوقوف أمام القوانين الغربية بحيث تكسف شمسها ، وتختل ذكرها ، ويكون لها
في هذا العصر الفراق والغلب على الشرائع الوضعية .

وثمة واجب آخر ، هو إبراز هذه الشريعة في صورة حديثة من حيث حسن
الترتيب والنظام ، وحسن العرض ، ومن حيث تقريبها للطالبيين ، وتسهيل تناولها
لمن يريد ، فإنه إن تم وضعها في هذه الصورة التي تجمع بين القوة وجمال العرض ،
وحسن التبويب والترتيب والجمع ، استطعنا أن نقنع الحكومات الإسلامية
- وبخاصة حكومتنا المصرية - أن تجعل من الفقه الإسلامي مادة لتشريعها ،
وأساسا لقوانينها .

ولقد يجدر بي في هذا المقام أن أنصح لآبناء الأزهر الذين أتموا دراستهم ،
والطلاب الذين هم في مرحلة التخصص ، والباحثين من خريجي كلية الحقوق بمن
يرغبون في الإحاطة بالشريعة الإسلامية - أنصح لهم جميعا أن يكبوا على دراسة
آثار ابن تيمية وتليذه ابن قيم الجوزية ، وأخص من بينها هذه الكتب : إعلام
الموقعين ، والطرُق الحكيمة ، وزاد المعاد ، والسياسة الشرعية ، وفتاوى ابن تيمية ،
والقياس في الشرع الإسلامي - يضاف إلى ذلك كتاب بداية المجتهد لابن رشد ،
وكتاب الفروق للقرافي المالكي ، والأشباه والنظائر لابن نجيم الحنفي ، وشروح

« ١ » وواضح أن هذا كله في الأحكام الاجتهادية التي لا نص فيها أو فيها نص يحتمل

الاجتهاد على ما هو مبين في موضعه .

أهمات كتب الحديث ، وكتاب نيل الأوطار ، وكتاب سبل السلام ، وتفسير آيات الأحكام ، فإنهم إن أحاطوا بذلك فهما وتحصيلا وتخريجا - رجوت لعدد غير قليل منهم أن يبلغ مرتبة الاجتهاد ، أو ما يقرب منها .
ولأنما دعوت لكتب ابن تيمية وابن القيم ، وكتب آيات الأحكام وأحاديثها ، وأمثال تلك الكتب ، لأن لها ثلاث مزايا :

الأولى :- عرضها للسنة والمذاهب الصحابة والتابعين وآراء المجتهدين مع ذكر أدلتهم ، ونقد ما يستحق النقد منها .

الثانية :- أن مباحثها خالية - غالبا - من روح التعصب المذهبي الذي نراه في كتب الفقه الأخرى حينما تعرض لآراء المخالفين .

الثالثة :- أن طريقتها في البحث أحييت طريقة السلف من الصحابة والتابعين ، وهي طريقة يتجلى فيها روح الإخلاص لله والحق ، والصحابة أئمة وأعلامهم بمقاصد الشرع وأحكامه .

وأدعو بقوة إلى ثلاثة أمور :

١ - الانكباب - كما ذكرت - على الكتب الفقهية الإسلامية التي لم تعرف بالتعصب المذهبي .

٢ - تلقى آراء المجتهدين والعلماء في الأحكام الاجتهادية ، على أنها آراء حرة قابلة للنقد والتغيير والمعارضة إذا تبين خطأها ، أو عدم موافقتها .

٣ - استخراج ما في الكتب الفقهية من الآراء القيمة ، وعرضها عرضا حسنا منظم التبويب ، سهل التناول في مؤلفات عصرية ، تنشر لبناء الجيل الحاضر ، ليعرفوا محاسن الشريعة ، ومبادئها الصالحة ، وأحكامها العادلة .

كذلك أدعو أولى الأمر في الجامعة الأزهرية إلى تنظيم مرحلة التخصص في الشريعة الإسلامية ، وتقسيمها إلى ثلاث شعب - على أن توزع مباحث الفقه الإسلامي على هذه الشعب الثلاث . ولتقريب وجهة نظرنا نقول :

إن الشعبة الأولى: تكون مثلاً للتخصص في العبادات ، والحدود ، والتعزير ،
والعقوبات ، والجنايات ، وما يتصل بذلك .

والثانية : للتخصص في المعاملات ، والوقف ، والدعوى ، والقضاء .

والثالثة : للتخصص في الأحوال الشخصية ، والميراث ، وسائر أبواب الفقه
ومباحثه .

وفي كل شعبة من الشعب الثلاث تكون الدراسة دراسة استيعاب ، وتحليل ،
وإحاطة ، ووقوف على مذاهب الأئمة والعلماء والمجتهدين في الإسلام ، مع دراسة
أصول الفقه ، وآيات الأحكام وأحاديثها ، وتاريخ التشريع ، كذلك يجب أن يقف
علماء الشريعة على مبادئ القانون العصري وأساليب بحثه حتى تمتزج فيهم العقلان
الشرعية والقانونية ، وذلك كله بعد أن يكون الطالب قد درس "جل" أبواب الفقه
ومباحثه قبل مرحلة التخصص دراسة عامة .

دعوت إلى هذا لأن التمكن في جميع نواحي الفقه الإسلامى ، والإحاطة
بعمامة أبوابه وفروعه إحاطة علم وتحقيق ، واجتهاد وترجيح قلما تجتمع لشخص
واحد ، وليس في ذلك نقص ولا ضير ، فقد سوغ بعض المحققين من العلماء تجزئة
الاجتهاد - على ما سبق بيانه في المبحث الخاص به - وإن لنا في سلفنا الصالح
أحسن الأسوة في ذلك ، إذ كان بعضهم حجة في ناحية من الشريعة ، في حين أن
غيره كان ثبنا في ناحية أخرى منها ، فقد كان زيد بن ثابت الأنصارى أعلم
الصحابة بأحكام الميراث ، ومعاذ بن جبل أعلمهم بالحلال والحرام - يشهد لذلك
قوله عليه الصلاة والسلام (١) :

« أرحم أمتى بأمى أبو بكر ، وأشدّها في دين الله عمر ، وأصدقها حياء عثمان ،
وأعلمها بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأقرأها لكتاب الله عز وجل أنى » ،

«١» راجع نيل الأوطار .

وأعلها بالفرائض زيد بن ثابت ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الامة أبو عبيدة
ابن الجراح . .

ولمى مثل هذا أدعو أولى الامر فى كلية الحقوق المصرية ، ليحققوا أملنا فى
إعداد قسم خاص لدراسة الشريعة الإسلامية (بعد إجازة الليسانس) دراسة
استيعاب واستيفاء ، تتاح فيها المقارنة بين المذاهب ؛ ويضاف إليها تدريس آيات
الاحكام وأحاديثها ؛ وأصول الفقه ، وتاريخ التشريع - وبذلك يحتل الراغبون
محاسنها ، ويعرفون دقائقها ، ويستخرجون لآلها ، ويستطيعون الموازنة بينها وبين
القوانين الوضعية موازنة تعود بأجل الفوائد ، وتقوى أطيب الثمرات ، وبذلك
يتبوا الفقه الإسلامى فى العلم القانونى الحديث مكانا عليا .



الفصل السادس

الشريعة الإسلامية ومبادئ التشريع الحديث

الشريعة الإسلامية لا تدانيها شريعة مماوية أخرى ، ولا قانون وضعى فى مصر أو غيرها من الأقطار الشرقية أو الغربية - فى أصالة مبادئها وقواعدها ، أو فى قيامها على أساس قومية من الحق الواضح ، والعدالة المطلقة ، والإصلاح الكامل ، والمساواة الشاملة ، والفضائل الحميدة ، أو فى تعدد مصادرها ، وصحة مراجعها ، أو فى خصب مباحثها ، أو فى سمو غاياتها ومقاصدها .

وكل قانون فى العصر الحاضر يدعى واضعوه كفايته للعدالة ، وتحقيقه لسعادة الأفراد والأمم ، وأنه جاء وفق ما تقتضى به عوامل التقدم والارتقاء - لا يمكن أن يعدو فى مبادئه وأغراضه المقاصد الآتية :-

الأول :- تحقيق العدالة والمساواة بين الأفراد والجماعات .

الثانى :- جلب المصالح ، ودرء المفاسد .

الثالث :- وفاؤه بطالب الأمة وحاجاتها ، ومواءمته لميولها وفطرتها والعصر الذى يطبق فيه .

الرابع :- مرونته ويسره ، وسهولة تطبيقه .

وأنت إذا نظرت بعين التدبر والحكمة والإنصاف : وتقصيت قواعد الشريعة الإسلامية وأصولها ، وبحث فيما خلفه المجتهدون الإسلاميون من أحكام الفروع الملائمة لعصورهم - لم ترتب أقل أرتياب فى تحقيق الشريعة الإسلامية . هذه

المقاصد ، وأنها وصلت في سموها وعدالتها وسماحتها إلى أبعد غاية .
وما ظهر نقصه من أحكام بعض الفروع في المعاملات وغيرها ليس بعيب
راجع إلى شريعة الإسلام ، وإنما هو راجع إلى المسلمين الذين لم يقيم علماءهم بما
يجب عليهم من الاجتهاد في كل عصر ، حتى تجميأ أحكام الفروع والوقائع
الاجتهادية ملائمة للأمة ، ولما جرت من الأحداث والشئون .

كذلك ما قيل : إن الحدود في الشريعة قاسية لا تتفق مع روح التشريع الحديث
قد فندناه ، وأدحضناه بالبرهان ، وبما دلت عليه التجربة والوقائع والمشاهدات ،
وذلك في الفصل (١) الثاني من هذا الباب .

أما الشرائع الحديثة فهي - وإن اشتملت على مبادئ نقر بسمو كثير منها ،
ونعترف بدقة وضعها ، وعلى أحكام يراد بها تحقيق العدالة ، وإجراءات نظامية
دقيقة - لم تستطع أن تقضي على كثير من الشرور والآثام التي تنخر منها عظام
الأمم ، وتنتشر فيها كثيرا من الأمراض الاجتماعية والخلقية : فقد أحلت الربا في
أكثر حالاته ، وهو الذي يوغر صدور بعض طبقات الأمة على بعض ، وينزع
الشفقة والرحمة من القلوب ، ويدع طوائف الأمة متحاربة متباغضة .

وفيه أكل أموال الناس بالباطل ، وتقوية لجانب ذوى الجشع من أصحاب
رموس الأموال على الضعفاء ، والفقراء ، وذوى الحاجة ، مما يورث أشد التفاوت
بين الطبقات ، ويؤجج بينها نيران العداوة والبغضاء .

وأباح شرب المسكرات ، وهى جناية على المال ، والعقل ، والصحة ،
والأهل ، والذرية .

وليس فيها ما يقي الأعراض من الجناية عليها ، فامتنعت الكرامات ، وكثر
اللقطاء ، وشاع في الأرض الفساد ، وخلت من الزواجر التي تحول بين المجتمع ،
وبين مفاسد الميسر والقهار .

وقد يحتاجون لإباحة بعض هذه المنكرات باحترام الحرية الشخصية ، وما

«١» راجع مبحث الجريمة الإسلامية : وقاؤها بمحاجات الأمم ومطالبها في كل عصر ،
دفع ماوجه إليها من شبهات .

دروا أن هذه الحرية قررها الإسلام على الأيساء استعمالها ، وألا يكون فيها ضرر على الأفراد ، أو المجتمع . وهذا هو شأن الحرية الصحيحة ، الجديرة بالرعاية والتقدير . .

ومما لاشك فيه أن هذه الجرائم - التي أشرنا إليها - مفسدها لا تقتصر على مقترفيها ، بل تشملهم ورهطهم ، وقد تتعداهم إلى المجتمع والأمة . من أجل هذا حظرت شريعة الإسلام تلك المناكير ، وأعدت كل أمة تأخذ بأحكامها الحياة الاجتماعية صالحة يسودها التقدم والنهوض ، وتنتفي فيها ذرائع الفساد وأسبابه ، وتتوافر فيها العزة ، والكرامة ، والمنعة ، وتلك هي الحياة الخليقة بخير أمة أخرجت للناس .

قل للآل ضلوا وضلت فلكهم في اليم : شرع الله خير منار



الفصل السابع

الشريعة الإسلامية وأعلام القانون في العصر الحاضر

عنيت طائفة من علماء الغرب ، ومحبي البحث بآثار المشاركة وعلومهم وفنونهم ، فكان منهم الباحث في اللغة العربية خاصة ، واللغات الشرقية عامة ، يبحث في أصولها ومشتقاتها ، وتطور ألفاظها وكتابتها ، ومنهم المطلع على آدابها ، والمعنى بطبع أهم الكتب العربية ، والأدبية ، ونشرها بعد تصحيحها وضبطها ، وتعليق الحواشي بما يعين على الفهم ، ويفتح المستغل .

ومنهم من تعدى ذلك فبحث في العلوم الشرعية من علوم القرآن والتفسير ، والحديث ، ومنهم من نظر في الفقه الإسلامي فاطلع على دقائقه ، وغاص في بحره ، وعلم أن فيه ثروة واسعة ، وكنوزا نفيسة ، فنوه بشأنه ، وأشاد بذكره ، ووجه أعلام القانون في وطنه إلى هذه الثروة القانونية ، فأعجبوا بها ، وبخعوا (١) بقوتها ، ومبلغ أثرها في الحضارة والإصلاح ، وإلى هؤلاء تجدد عنقا (٢) من أقطاب القانون في مصر وغيرها من الأقطار الشرقية قد عرفوا ثراءها ، وخصبها ، والحياة القوية الكامنة فيها ، فدعوا إلى التهل منها ، واتخاذها أساسا يرجع إليه في التشريع في مصر وغيرها من البلاد العربية والشرقية .

وإننا لذا نكرونا هنا آراء بعض أئمة العلم والقانون - في الشريعة الإسلامية من أولئك المنصفين من شرقيين وغربيين ، لتعرف أن الحق لا يعدم نصيرا ، وأنه يجب اتخاذ تلك الشريعة أساسا ومصدرا لتشريعنا في هذا العصر :

«١» بخعوا: أفروا .

«٢» جاعة .

١ — رأى الأستاذ لامبير الفرنسى :

يرى الكتب والمؤلفات الموضوعية فى الشريعة الإسلامية كنزاً لا يفتنى ، ومنبعاً لا ينضب ، وأنه خير ما يلجأ إليه المصريون فى العصر الحاضر فى البحوث العلمية ، حتى يعيدوا لمصر ولبلاد العرب هذا المجد العلمى الذى أخذ الزمن يطويه بحكم الإهمال ، وعدم العناية به ، ولذلك كان يشير على تلاميذه المصريين أن يعنوا بوضع رسائل (الدكتوراه) فى الشريعة الإسلامية (١) ، ولم يفته أن يؤكد أن الشريعة الإسلامية فى العصور الوسطى لتاريخ المدنية الإسلامية قد عملت على إمداد المدنية المسيحية الحاضرة بقسط وافر من الأصول العامة ، وأنها قامت بجانب المدنية اليونانية ، والرومانية بتغذية هذه المدنية الحاضرة (٢) .

٢ — رأى ليني أولمان :

قال (ليني أولمان) الأستاذ بكلية الحقوق بباريس فى رسالة الدكتور محمد صادق فهمى التى ألقاها فى الإثبات باللغة الفرنسية ، وعرض فيها لما قرره علماء الشريعة الإسلامية ، وبخاصة ابن قيم الجوزية :
إن كتاب الدكتور صادق جدير بأن يلحق بالكتب المكونة للمجموعات العلمية القانونية الحاضرة ، كمجموعة (سالى) وغيره من رموس القانون فى عصر النهضة القانونية الحاضرة . كل ذلك على اعتبار الشريعة الإسلامية فى المعاملات مصدراً حياً للقانون العصرى ، ومناطاً للحق فى أطواره المختلفة .

٣ — وقال الدكتور (انريكو انساباتو) : إن الشريعة الإسلامية تفوق فى كثير من بحوثها الشرائع الأوربية ، بل هى التى تعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتاً (٣) .

٤ — ونصح الأستاذ (بيولا كازيللى) بالأخذ من مبادئ الشريعة الإسلامية (٤) .

« ١ » مجلة الأزهر مجلد ٨ ص ٣٢

« ٢ » المصدر السابق مجلد ١٧ ص ٤٣٥

« ٣ » مجلة هدى الإسلام الصادرة فى ٢٠ من المحرم سنة ١٣٥٦ هـ

« ٤ » المصدر السابق نفسه .

٥ — وقال بعض الفقهاء : الشريعة الإسلامية بحر لا ساحل له .

٦ — رأى العلامة فارس الخورى وهو من أعلام الشرق ، وأحد كبراء سوريا المسيحيين : قال فى حفل أقيم فى دمشق لإحياء ذكرى مولد النبى صلى الله عليه وسلم :

إن محمدا أعظم عظماء العالم ، ولم يجد الدهر بعد بمثله . والدين الذى جاء به أوفى الأديان ، وآتمها ، وأكملها ، وإن محمدا أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية ، واجتماعية ، وتشريعية . ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الذى دعا الناس إليها باسم الله ، وبأنها متفقة مع العلم مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية .

إن محمدا الذى تحتفلون به وتكرمونه ذكره أعظم عظماء الأرض سابقهم وللاحقهم ، فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم ، وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئذ ، وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم على أسس تعد من أرقى دساتير العالم وأكملها .

٧ — رأى العلامة سانبيلانا :

قال فى بعض مؤلفاته : إن فى الفقه الإسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم المدينى ، إن لم نقل : إن فيه ما يكفى الإنسانية كلها .

٨ — وقال الاستاذ سليم باز المسيحى اللبنانى شارح مجلة الأحكام الشرعية : إننى أعتقد بكل اطمئنان أن فى الفقه الإسلامى كل حاجة البشر من عقود ، ومعاملات ، وأقضية ، والتزامات ، وليس الشاهد على ذلك ما هو مائل للأنظار فى دار الكتب المصرية ، وخزائن الكتب فى البلاد الإسلامية فحسب ، بل فيما حوته خزائن دور الكتب الأوربية أيضا ، من ليدن فى هولاندا ، إلى روما ، وبرلين ، وباريس ، والمتحف البريطانى ، بل إلى المكتبة البابوية فى قصر الفاتيكان ، فإن ما فى هذه المكتبات من الكتب الفقهية الإسلامية إنما هو ثمرة جهود الألوف الكثيرة من خول العلماء ، وهى الشاهد الأكبر على أنه لا يوجد معنى من معاني

الأحكام المنشود فيها العدل ، ولا حاجة من حاجات البشر في التشريع. إلا تقدم لفقهاء مسلم قول فيه .

٩ — وقال جوزيف كوهلر العالم القانوني الألماني - حينما اطلع على رسالة المرحوم الدكتور محمود فتحي في (مذهب الاعتساف في استعمال الحق عند فقهاء الإسلام) :

« إن الألمان كانوا يتهمون عجباً على غيرهم في ابتكار نظرية الاعتساف والتشريع لها في القانون المدني الألماني الذي وضع سنة ١٧٨٧ م ، أما وقد ظهر كتاب الدكتور فتحي ، وأفاض في شرح هذا المبدأ عند رجال التشريع الإسلامي ، وأبان أن رجال الفقه الإسلامي تكلموا عنه طويلاً ابتداء من القرن الثامن الميلادي - فإنه يجدر بالعلم القانوني الألماني أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون ، وأهله هم حملة الشريعة الإسلامية » .

١٠ — وقال العلامة الأستاذ (شيرل) SPERL عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا في مؤتمر الحقوقيين سنة ١٩٢٧ م :

« إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كنحمد إليها ، إذ أنه - رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قته بعد ألفي سنة » .

١١ - وقال الأستاذ فبري يخاطب أحد أدباء الترك :

« إن فقهم الإسلامي واسع جداً إلى درجة أنني أقضي العجب كلما فكرت في أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لزمانكم وبلادكم » .

١٢ — وقال هوكنجج الأمريكي أستاذ الفلسفة بجامعة هارفرد في كتابه (١)

«١» يراجع ما ذكر في ١٢، ١١، ١٠، ٩، ٨، ٧ في مجلة الأزهر : الجزء التاسع من المجلد

الثالث عشر .

« روح السياسة العالية » : إنى أشعر بأنى على حق حين أقدر أن الشريعة الإسلامية
تحتوى على جميع المبادئ اللازمة للنهوض .

١٣ - رأى الأستاذ محمد صبرى أبو علم - رحمه الله - أحد وزراء العدل
السابقين :

قال من كلمة له فى لجنة الأحوال الشخصية حينما أتمت قانون الميراث :
« وإنى لأعلم أن بأعماق شريعتنا كنوزا من الحكمة ، وجواهر من الأحكام ،
لا ينقصها إلا يد مدبرة ماهرة ، تمدها عقول راجحة مفكرة ، وأفئدة واعية ،
وصبر وأناة ، لتغوص على تلك اللآلى فى مكانها ، وتستخرج تلك الكنوز من
مظانها ، وتسهر على جمعها وتبويبها وتنظيمها سهر الصانع المتفنن على حجارته
النفيسة ، ينظمها عقدا ثمينا يأخذ بمجامع النفس ، ويستولى على البصر - كما أعلم أن
الفقه الإسلامى فيه من الآراء والأحكام ما يتسع لكل زمان ، ويجب مطالب
كل عصر . أليس للعرف فيه مقام غير منكور ، وللاجتهاد باب مفتوح تطل منه
العقول الثيرة ، فتوفق بين أصول الأحكام ، ومقتضيات الزمان ، وحاجات
العصر ؟ » .

١٤ - رأى الدكتور عبد الرزاق السنهورى عميد كلية الحقوق المصرية
السابق : قال من محاضرة له :

« علينا أن نأخذ فى دراسة الشريعة الإسلامية طبقا للأساليب الحديثة ، وأن
نقارن بينها وبين شرائع الغرب ، وإنى زعيم لكم بأن تجدوا فى ذخائر الشريعة
الإسلامية من المبادئ والنظريات ما لا يقل فى رقى الصياغة ، وفى إحكام الصنعة
عن أحدث المبادئ والنظريات وأكثرها تقدما فى الفقه الغربى ، .

١٥ - رأى الدكتور عبد السلام ذهنى :

قال العلامة عبد السلام ذهنى المستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة سابقا ، وهو
القانونى المتضلع ، والرجل المنصف الذى عرف للشريعة الإسلامية قدرها ، وبذل
غايته وكده فى إنصافها :

« إن بحوث أهل الشريعة الإسلامية فى المعاملات مستفيضة بكثرة لاحد

لها ، وفيها كنوز قيمة من البحوث العلمية والعملية في المعاملات ، هي أكبر تراث تركه الآباء في البلاد الناطقة بالضاد (١) ، وقال - زاده الله توفيقا وإحساناً - من كلمة له نشرت في مجلة الأزهر (٢) « كان يتعين لإنشاء المحاكم الأهلية على الطريقة المعروفة في الشريعة الإسلامية - كما كان يجب أن تعمل لها قوانين على غرار ما تقرر في الشريعة الإسلامية ؛ وما درج عليه الأهليون فيها ، ولكن الأمر جاء على خلاف ما تقضى به النعرة القومية ، والكيان المصري ، والميول العربية السليمة ... الخ » ، وقال مثل ذلك فيما كان يجب أن يعمل عند إنشاء المحاكم المختلطة (٣) .

وما أجل لإنصافه إذ يقول في كلمة نشرت له بمجلة الأزهر في الجزء السابع من السنة السابعة عشرة ما خلاصته :

إن الشريعة الإسلامية مليئة فيما يتعلق بالمعاملات بأصول مدنية غاية في الدقة والمتانة ... ولأحكامها في المعاملات من القدرة والقوة والتفوق ما يجعلها بحق في مستوى واحد مع القوانين المدنية العصرية من حيث الدعائم الأولى لعلم القانون ، ولعلم القانون المقارن ... إلى أن قال : وفي الأخذ بالشريعة الإسلامية في المعاملات المدنية تمكين للنزعة القومية في مصر ، وانتصار للكيان الشرقي العربي وكرامته ، وفيه إحياء لمجد مدفون بغير حق ، وبعث لحياة شرقية عربية جديدة بحق » .

١٦ - رأى العلامة الأستاذ على بدوى المحامى وعميد كلية الحقوق السابق : قال من مقال (٤) له عنوانه : مكانة الشريعة الإسلامية في الفقه الحديث :

« ١ » من مقال له في مجلة الأزهر - مجلد ٨ ص ٣٢ .

« ٢ » الجزء الثاني من المجلد السابع ص ٨٩ .

« ٣ » راجع تلك الكلمة القيمة بتأملها في المجلد السابع ص ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .

« ٤ » لمر في مجلة القانون والاقتصاد - السنة الأولى ص ٧٣١ وما بعدها .

لقد كانت الشريعة الإسلامية من بين الشرائع فى العصور الأولى للإسلام غنية بنظمها ومائة قواعدما ، كقيلة بضبط علاقات الأفراد وسلوكهم أجيالا طويلة بلغ خلالها الفقه الشرعى ذروته من البحث ، وعمق التفكير ، ودقة الأسلوب .
ثم قال : ليست مظاهر استقلال الفقه الإسلامى وتفوقه محصورة فى القواعد

المدنية والأحوال الشخصية ... ولكنها تبينت كذلك فى عدة مواضع من التشريع الجنائى الإسلامى ، فضلا عن أن الشريعة الإسلامية لا تقصر عن حل كثير من مسائل الإجرام التى لازالت مثارا للزراع بين فقهاء القانون فى العصر الحاضر ، فضلا عن سهولة التوفيق بين مبادئ القانون العصرى وبعض نصوص الشريعة الخاصة بالحدود ... فضلا عن ذلك كله فإن الشريعة الإسلامية تشمل من مبادئ العقوبة ونظمها ما لا يقل فى سعة النطاق ، وفى تهذيب الفكرة عن أحدث المبادئ والنظم الوضعية ، ومنها ما لم يكن له مثيل فى نظم العقوبات الرومانية .

ومن هذه النظم نظام الحسبة فى الشريعة الإسلامية ، وهى وظيفة اجتماعية فى العصر القديم تقابل وظيفة النيابة العمومية فى العصر الحديث ، ومنها كذلك نظام العقاب بالتعزير ، وهو أن يترك (١) تحديد العقوبة - نوعا ومقدارا - إلى تقرير القاضى ، يحكم بها تبعا لما يتضح لديه من ظروف كل جريمة ، والحالة المجرم ، ونفسيته ، ودرجة ميله إلى الإجرام ، وهو نظام يمتاز به الشريعة الإسلامية على الشرائع الأخرى ، وينادى به كبار العلماء الجنائيين فى العصر الحديث ، حتى تكون العقوبات محقة للغاية من تشريعها .

١٧ - رأى المؤتمر الدولى للقانون المقارن :

ثم جاء قرار المؤتمر الدولى للقانون المقارن الذى انعقد بلاهاى فى أوائل أغسطس سنة ١٩٣٧ م - مظهر فضل هذه الشريعة ورسوخ قدمها ، وعلو كعبها ، وهو الذى جمع أقطاب القانون وأعلام الشرائع فى العصر الحاضر - وخلاصته :

«١» يلاحظ أن هذا قول من أقوال أربعة للفهاء ، وقد مضى ذكرها .

« أن الشريعة الإسلامية حية صالحة للتطور ، ومسايرة المدنية الحديثة ،
وأنها لذلك جديرة بأن تشغل مكانة ممتازة بين مصادر القانون المقارن (١) ،
وبذلك أحرزت الشريعة الإسلامية قصب السبق ، وفازت فوزا عظيما ،
واعترف بمجدها الخالد أئمة العلم والقانون في الشرق والغرب .



« ١ » جاء في تقرير مندبي الأزهر في مؤتمر لاهي المذكور : أن المؤتمر قرر أن الشريعة
الإسلامية تحمل العناصر الكافية التي تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمن والمدنية - من
خلاصة التقرير المنشورة في صحيفة الأهرام في ٢٦ من نوفمبر سنة ١٩٣٧ م .

مراجع الباب السابع :

(أ) مصادر الفصل الأول منه :

- ١ — فجر الإسلام .
- ٢ — تاريخ التشريع ص ٢٧٩ .
- ٣ — تاريخ الأدب العربي للمستشرق الألماني بروكلمان (ترجمة مجلة الأزهر)
- ٤ — الجزء السابع من كتاب الأم .
- ٥ — بعض كتب الفقه الإسلامى .
- ٦ — مجموعة رسائل للإسفرنكافى من علماء ماوراء النهر .
- ٧ — تاريخ الكنيسة للبورخ الألماني موسمى .
- ٨ — بحوث نشرت فى مجلة الأزهر ، وهدى الإسلام ، والرسالة ، وفى بعض الصحف اليومية .
- ٩ — خلاصة تقرير مندوبى الأزهر فى المؤتمر الدولى للقانون المقارن الذى انعقد بلاهاى فى سنة ١٩٣٧ م .
- ١٠ — السنة الأولى من مجلة القانون والاقتصاد .

(ب) مصادر الفصل الثانى منه :

- ١ — مفتاح السنة ، وكتاب الترغيب والترهيب .
- ٢ — الفروق للقرافى .
- ٣ — الطرق الحكيمة .
- ٤ — مبحث محاسن الشريعة الإسلامية من هذا الكتاب .
- ٥ — النهاية فى غريب الحديث .
- ٦ — القياس فى الشرع الإسلامى لابن تيمية ، وتليذه ابن القيم .

٧ - تقرير البعثة المصرية الموفدة إلى الحجاز في سنة ١٣٥٥ هـ .

٨ - الأشباه والنظائر طبعة سنة ١٢٩٠ هـ .

٩ - بعض معجمات اللغة .

(ج) مرجع الفصل الثالث :

محاضرات العلامة الأستاذ لامبير الفرنسى التى ألقاها بكلية الحقوق المصرية
فى سنة ١٩٣٧ م .

(د) مراجع الفصل الرابع :

١ - محاضرات الأستاذ لامبير المذكورة .

٢ - بعض كتب الفقه الإسلامى ، وتاريخ التشريع .

٣ - السنة الأولى من مجلة القانون والاقتصاد .

(هـ) مراجع الفصل الخامس :

١ - بعض كتب الفقه الإسلامى : إعلام الموقعين ، زاد المعاد ، الطرق

الحكومية ، بداية المجتهد ، الأشباه والنظائر ، الفروق .

٢ - نيل الأوطار .

٣ - سبل السلام .

(و) مرجع الفصل السادس :

مبحث : وفاء الشريعة الإسلامية بحاجات الأمم ومطالبها فى كل عصر

(من مباحث هذا الكتاب) .

(ز) مراجع الفصل السابع :

١ - بحوث نشرت فى مجلتي الأزهر ، وهدى الإسلام .

٢ - خلاصة تقرير مندوبي الأزهر بمؤتمر لاهى المذكور .

٣ - مجلة القانون والاقتصاد .

خاتمة الكتاب

ثبت من بحوثنا في أصول التشريع الإسلامي وقواعده ، ومزاياه ومحاسنه ، ومن شهادة أئمة العلم ، وأساطين القانون في الشرق والغرب - أن شريعة الإسلام غنية مُثْرِيَّة ، وقوية مخصبة ، قد اشتملت على أسس المبادئ ، وأعدل الأحكام ، وأن فيها من الأصول ، والقواعد ، وحرية الاجتهاد ، ما يكفل لها دوام التطور ، والتجدد والبقاء ، وما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان - ما حافظنا على أصولها ، واهتدينا بنورها .

فإلى الأمم الإسلامية عامة ، والأمة المصرية خاصة ، وإلى حكومات هذه الأمم - أوجه النداء ، وأرسل هذه الصيحة بوجوب الرجوع إلى هذه الشريعة فيما تفضعه وتسنه من الأحكام والقوانين كلها ، وذلك لا تبيها لها إلا بتنفيذ ما اقترحناه في آخر مبحث الاجتهاد .

وعلى الشعوب الإسلامية وقادتها من العلماء ، وأولى الرأي أن يحملوا حكوماتهم وبجالسهم النيابية على الرجوع إلى الشريعة الإسلامية عند التشريع ، وإلا كانوا جميعا مسئولين أمام الله ، ومقصرين في حق أنفسهم ، ومفرطين في حق الأجيال القادمة ، وهم الذين يحتاجون إلى شريعة كالشريعة الإسلامية تربي فيهم خلق العزة والرجولية والكرامة ، وتبني نهضتهم الخلقية والاجتماعية والاقتصادية على دعائم وطيدة ، وأساس مكين . فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلبوا تسليما ، وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم .

نسألك اللهم أن تجدد عزائمتنا ، وتبعث فينا مشبوب الهمم لآحياء مجد الإسلام ووصاياه وأحكامه ، وتبي لنا من أمرنا رشدا .

رب : قد أديت بعض واجبي ، فاهد الأمم الإسلامية ، وأمتنا المصرية إلى العمل بشريعتك ، ووفقها لما يرضيك ، واهدنا جميعا إلى سواء السبيل .

اللهم اجعل عملنا هذا خالصا لوجهك الكريم ، وتقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ، واغفر لنا إنك أنت الغفور الكريم . وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والمهتدين بهديه إلى يوم الدين . اللهم آمين .

مبس أحمد الخطيب

فهرس

أبواب الكتاب وفصوله

صفحة

مقدمة الكتاب

من ٣ إلى ٦ نزول الوحي بالشرائع السماوية لهداية الناس - الشريعة الإسلامية
أمثل هذه الشرائع وأغناها بالمبادئ السامية ، والأحكام العادلة ،
وأبقاها على وجه الدهر - أثر الشريعة الإسلامية في الأمة العربية
وغيرها من الأمم - سبب رجوعنا في التشريع إلى القوانين الغربية
فيأعدا الأحوال الشخصية - ظن أولى الأمر قصور الشريعة - خطوطهم
في هذا الظن - دقة أحكام الشريعة وسمو أصولها ، قواعدها وخصب
مباحثها - الباعث على تأليف الكتاب .

٧ مباحث الكتاب

٩ الباب الأول : أصول التشريع الإسلامي التي اتفق عليها جمهور العلماء ،
الأدلة المتفق عليها بين الجمهور إجمالاً

١١٠١ الفصل الأول : كتاب الله أو القرآن الكريم : القرآن أصل الشريعة
ومصدرها الأول . سائر الأدلة تفريع عنه وراجع إليه - حجة القرآن
من الضروريات الدينية ، دليل حجته ، وجوب الرجوع في تشريعنا
واستقاء أحكامنا إليه . الآيات الدالة على ذلك - جزاء من لم يحكم بما
أنزل الله

١٢ تشريع القرآن وما اشتمل عليه من أحكام - ١٥ - أنواع الأحكام
في التشريع القرآني ، تشريع القرآن من حيث الإجمال والتفصيل
أربعة أقسام:

صفحة	
١٦	القسم الأول : التشريع المجمل
٢١	القسم الثاني : التشريع المبين بعض البيان
٢٥ إلى ٥٦	القسم الثالث : التشريع التفصيلي : القصاص ، الحدود ، التداين ، الحلال والحرام من الطعام ، الزواج ، الطلاق ، العدة ، نظام التوريث ... الخ
٥٧	القسم الرابع : تشريع القواعد ، والأصول العامة
٦٤	آساس التشريع القرآني ومزاياه
٦٨	الفصل الثاني - السنة :
	ما السنة ؟ ٧٠ حجية السنة ووجوب اتباعها . ٧٣ رأى الطائفة التي ردت السنة
٧٥	شبهها والرد عليها - النهى عن كتابة السنة - التوفيق بين النهى عن الكتابة ، والإذن بها ٨١ رتبة السنة في التشريع ٨٣ منزلة السنة من القرآن ٨٥ منزلة السنة من التشريع ٨٨ دلالة الكتاب على ما جاء في السنة من الأحكام ٩١ كتب السنة وأحاديث الأحكام
٩٤	شذرات من التشريع النبوي
١٤٧	الفصل الثالث - الإجماع :
	معنى الإجماع - النزاع في إمكانه ، وفي العلم به ، وفي طريق نقله
١٤٩	طريق الإجماع مبسور في هذا العصر - ١٥٠ حجية الإجماع
١٥١	سند الإجماع ، إجماع الصحابة ، هل ينقض الإجماع بإجماع آخر ؟
١٥٤	الفصل الرابع - الرأي والقياس :
	المراد بالرأي والقياس ١٥٥ تعريف القياس ١٥٦ حجية القياس
١٥٨	منكرو القياس . أدلة النافين للقياس
١٦٠	مثبتو القياس وأدلتهم
١٦٥	التفريط والإفراط في القياس - ما لا يجري فيه القياس
١٦٨	الباب الثاني : الأدلة المختلف فيها ، أو الاستدلال
١٦٩	الفصل الأول : مذهب الصحابة

صفحة	
١٧٢	الفصل الثاني : عمل أهل المدينة - رأى الإمام مالك - رأى المخالفين ، وتقسيم ابن القيم لعمل أهل المدينة
١٧٧	الفصل الثالث : شرع من قبلنا
١٧٩	الفصل الرابع : استصحاب الحال
١٧٩	معنى الاستصحاب - ١٨٠ اختلاف الفقهاء والأصوليين في اعتباره حجة - ١٨٢ أقسام الاستصحاب وصوره
١٨٥	- الاستحسان رأى الإمام الشافعى ١٨٦ الاستحسان عند المالكية ١٨٨ الاستحسان عند الحنفية ١٩١ تحرير القول فيه
١٩٣ إلى ١٩٦	الفصل السادس - المصالح المرسله :
	معنى المصلحة المرسله ، تنازع العلماء فى المصالح المرسله والاحتجاج بها رأى الجمهور ، رأى الغزالى ، رأى الإمام مالك ، طريقة الصحابه والتابعين
١٩٧	كلمة إجمالية فى أصول الفقه الإسلامى ومصادره
١٩٨ إلى ٢٠٠	الباب الثالث : أسباب اختلاف العلماء فى الأحكام الشرعية : اختلاف الصحابة - محاولة بحث أسباب الاختلاف فى مختلف العصور - كتاب الانصاف للبطلبوسى
٢٠١ إلى ٢٠٧	الفصل الأول : أسباب الاختلاف فى أحكام القرآن . اختلاف العلماء فى تفسير الالفاظ بسبب الاشتراك ، اختلافهم فى فهم النصوص القرآنية - اختلاف المدارك فى الاستنباط - الارتباط بين القرآن والسنة - الارتباط بين نص قرآنى ونص آخر منه
٢٠٨	الفصل الثانى : أسباب الاختلاف فى أحكام السنة
٢٠٨	سماع بعض العلماء الحديث دون بعض ٢٠٩ اختلافهم فى علة الحكم ٢٠٩ اختلاف الأحاديث الواردة فى الموضوع

- ٢١٠ تشدد بعضهم في قبول الحديث دون بعض - قد يأتي الخلاف من قبل الإباحة والتوسيع
- ٢١١ مدى تأثير النهي على العقود ٢١٢ التعارض في النصوص - الإفراء والتركيب ٢١٤ اختلافهم في عموم النصوص وخصوصها ٢١٤ اختلافهم العارض من قبل النسخ ٢١٥ اختلافهم في حمل الكلام على الحقيقة أو المجاز ٢١٥ النزاع في أكبر مسألة يدور عليها التكليف
- ٢١٨ إلى ٢٢٠ الفصل الرابع: أسباب الاختلاف في الأحكام المستنبطة بالرأى والقياس: تفاوت العلماء في استعمال القياس قلة وكثرة - اختلاف مقدرتهم على القياس والاستنباط - تأثر كل مجتهد بما يحيط به من الأحوال الاجتماعية، أو الطبيعية، أو السياسية - اختلاف نظرم في استنباط العلة والاستدلال على اعتبارها
- ٢٢١ إلى ٢٢٣ الفصل الخامس: حرية الاجتهاد في القرون الثلاثة: أسبابها، أثرها، فكرة وضع قانون عام للدولة الإسلامية، رأى ابن المقفع، رأى المؤلف
- ٢٢٥ إلى ٢٢٦ الباب الرابع: القواعد الفقهية في التشريع الإسلامي: وصف إجمالي لهذه القواعد والغاية منها، أهميتها، أفراد المؤلفات لها، ذكر كثير من هذه القواعد الجامعة
- ٢٢٦ الحكم يتبع المصلحة الراجحة ٢٢٧ لا ضرر ولا ضرار
- ٢٢٨ الضرورات تبيح المحظورات ٢٢٩ ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها
- ٢٢٩ الضرر لا يزال بالضرر ٢٢٩ يتحمل الضرر الخاص لأجل دفع الضرر العام ٢٣٠ إذا تعارضت مفسدتان ارتكب أخفهما
- ٢٣٠ درء المفاسد مقدم على جلب المصالح
- ٢٣١ إلى ٢٣٣ اليسر ورفع الحرج، المشقة تجلب التيسير، إن الأمر إذا ضاق اتسع
- ٢٣٤ العادة محكمة، المعروف عرفاً كالمشروط شرعاً ٢٣٧ قاعدة سد

الذرائع ، وتفصيل القول فيها ٢٤٢ من سعى فى نقض ماتم من
 جهته فسعيه مردود عليه
 ٢٤٢ من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه ٢٤٢ اليقين لا يزول
 بالشك ٢٤٣ الأصل بقاء ما كان على ما كان ٢٤٣ الأصل
 براءة الذمة ٢٤٤ قاعدة الاستصحاب ٢٤٥ هل الأصل فى الأشياء
 الإباحة ؟ ٢٤٥ الحراج بالضمان ٢٤٦ الأمور بمقاصدها
 ٢٤٦ سبيل الكسب الخيىث ٢٤٦ ما اجتمع محرم ومبيح إلا غلب
 المحرم ٢٤٧ إذا تعارض المانع والمقتضى قدم المانع ٢٤٧ المشروع
 على الأعيان والمشروع على الكفاية ٢٤٧ يقدم فى كل ولاية من
 هو أقدر على القيام بحقوقها ومصالحها ٢٤٨ تصرف الإمام فى شئون
 الرعية منوط بالمصلحة ٢٤٩ إذا تعارضت الحقوق قدم منها
 المضيق على الموسع والفورى على المتراخى ، وفرض العين على الكفاية
 ٢٥٠ الاجتهاد لا ينفذ بالاجتهاد ٢٥١ لا اجتهاد عند ظهور النص
 ٢٥٢ حكم الحاكم فى مسائل الاجتهاد يرفع الخلاف ٢٥٢ التابع
 لا يفرد بالحكم ، ويسقط الفرع إذا سقط الأصل ٢٥٢ الاحتمال
 المرجوح لا يقدح فى دلالة اللفظ ٢٥٢ إعمال الكلام أولى من
 إعماله متى أمكن ٢٥٤ ضابط لأسباب الإرث ٢٥٤ قاعدة
 ما ينتقل من الحقوق إلى الوارث وما لا ينتقل ٢٥٥ قاعدة
 ما يجوز التوكيل فيه ، وما لا يجوز ٢٥٦ لآخرة بالظن بين خطؤه
 ٢٥٦ قاعدة اجتماع المباشر والمتسبب ٢٥٧ قاعدة ما يوجب الضمان
 ٢٥٨ الحدود تدرأ بالشبهات ٢٦٠ الأصل فى العقد أن يكون
 لازماً وقد يكون غير لازم ، ضابط ذلك ٢٦١ الأصل اعتبار
 الغالب وتقديمه على النادر ٢٦١ الأصل فى الشهادة العلم واليقين وقد
 يجوز بالظن والسماع فى مواطن الضرورة ٢٦٢ يثبت نقيض

- حكم الأصل في الفرع لثبوت ضد علته فيه ٢٦٢ المثبت للحكم يحتاج إلى إقامة الدليل عليه اتفاقا ٢٦٣ الأصل في النصوص التعليل
- ٢٦٦ الباب الخامس : محاسن الشريعة الإسلامية ومزاياها : كثرة هذه المزايا وعجزنا عن إحصائها - ذكر ما تيسر من وجوه محاسنها :
- ٢٦٦ (١) يسرها وبعدها عن العسر والحرج ٢٦٨ (٢) موافقة أحكامها لمقتضى العقل والفطرة السليمة ٢٦٩ (٣) غايتها تحقيق مصالح العباد ٢٧٠ (٤) انقسام تكاليفها إلى عزائم ورخص ٢٧١ (٥) إباحتها الطيبات والزينة ٢٧١ (٦) توفيتها بمطالب الجسد والروح معا في حدود الاعتدال ٢٧١ (٧) المساواة في التكاليف والأحكام ٢٧٥ (٨) العرف أساس من أسس التشريع ٢٧٥ (٩) ليس لأحد في العبادات رأى شخصى ولا رياسة ، فدارها على اتباع ما جاء به الكتاب والسنة وعلى صحة النية ٢٧٦ (١٠) تتبعها بواعث العمل ونية العامل ٢٧٧ (١١) قيامها على الأخلاق والفضائل وخشية الله ومحاسبة الوجدان ٢٧٨ (١٢) اتساع باب العقوبات والتعزير ٢٨٠ (١٣) ترك الأحكام السياسية والعسكرية والقضائية لاجتهاد أولى الأمر والحكام ٢٨١ (١٤) اقتصار تشريعها التفصيلى على الأمور الثابتة التى لا تختلف باختلاف الأمم والعصور ، وقيامها على دعامة الاجتهاد فيما لانص فيه ٢٨١ (١٥) تعدد طرق الحكم والقضاء واتساع طرق إثبات الحقوق فيها
- ٢٨٦ (١٦) خصبها وتقبلها لحرية الرأى فيما يصح فيه الاجتهاد
- ٢٩٧ (١٧) الإصلاح الشامل الذى جاءت به الشريعة فى شئون المرأة
- ٣٠٦ (١٨) إبطال ظلم الرقيق ، ووضع الأحكام الكفيلة بتحريره ، ووصايا البر به
- ٣١٢ (١٩) كفالتها لأهل الذمة ورعايتها لهم

صفحة

- ٣١٦ (٢٠) إرشادها إلى أعظم وسيلة لاصلاح المجتمع والأفراد : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٣٢٠ إلى ٣٣٤ (٢١) سنها ما يحفظ الحق ويحميه من الظالمين : الجهاد في سبيل الله والحق - أسبابه وموجباته - حكمه ، حث الشريعة وترغيبها فيه إن وجدت بواعثه - الأمر بإعداد العدة - منزلة الشهداء - جهاد النساء - ما يترتب على القيام بواجب الجهاد - ما يترتب على تركه - في الجهاد الذي شرعه الإسلام من ريتان
- ٣٣٥ (٢٢) وضعها قاعدتين أساسيتين للحكم : سلطة الولاية مرجعها إلى الأمة - بناء الحكم على الشورى
- ٣٣٦ (٢٣) جعلها ولاية الخليفة أو الحاكم منوطة بالمصلحة
- ٣٣٩ (٢٤) تقسيدها الطاعة الواجبة للإمام أو الوالى بطاعة الله ورسوله - الحكومة الإسلامية ذات دستور مقرر - هو القرآن الكريم والسنة النبوية
- ٣٤٠ (٢٥) وضعها مبدأ محاسبة الوالى أو الحاكم إن جمع مالا لنفسه في أيام ولايته
- ٣٤٣ الباب السادس - التشريع الإسلامى وحرية الاجتهاد
حرية الاجتهاد في التشريع الإسلامى - أثر الاجتهاد في الشريعة الإسلامية
الفصل الأول - في الاجتهاد
- ٣٤٤ معنى الاجتهاد - محله - شروط الاجتهاد وأدوات الفتيا ٣٤٧ تجزئة الاجتهاد ٣٤٨ إذن الشارع وأمره بالاجتهاد ٣٤٩ اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم ٣٥١ اجتهاد الصحابة والعلماء من بعدهم ٣٥٤ عظمة الثروة التشريعية التي خلفها لنا هؤلاء المجتهدون ٣٥٥ حكم الاجتهاد ٣٥٦ عدم جواز خلو العصر عن المجتهدين عند كثير من العلماء والمحققين

صفحة	
٣٥٨	الفصل الثاني - التقليد
٣٥٨	معنى التقليد - حكم التقليد في الفروع - ٣٥٨ الفتوى بالتقليد
٣٥٩	أعلام المجتهدين وضم التقليد
٣٦١ إلى ٣٦٣	الفصل الثالث - ما يجب على المسلمين وعلماهم وحكوماتهم في هذا العصر: وسائل القدرة على الاجتهاد ميسورة في هذا العصر
	واجب العلماء - واجب الحكومات الإسلامية - تأليف لجنة دائمة للفقهاء الإسلامى وتعيين الغرض منها
٣٦٥	الباب السابع - بحوث وتحقيقات حول الشريعة الإسلامية
٣٦٥	الفصل الأول - الفقه الإسلامى والقانون الرومانى
٣٦٥	زعم بعض المستشرقين أن الفقه الإسلامى تأثر بالقانون الرومانى
٣٦٦	حججهم ٣٦٧ إحصاؤها ٣٦٩ الفقه الإسلامى شريعة مستقلة - أدلتنا على ذلك
٣٧٦	رأى المؤتمر الدولى للقانون المقارن ٣٧٦ رأى الأستاذ لامبير الفرنسى
٣٧٧	الفصل الثانى - الشريعة الإسلامية : وفاؤها بحاجات الأمم ومطالبا فى كل عصر ، دفع ماوجه إليها من شبهات
٣٧٧	حقيقة الشريعة الإسلامية ، اشتغالها على جميع ما يحتاج إليه الافراد والأمم ، دستور التشريع الإسلامى ٣٧٩ توم أن الشريعة ناقصة لا تقوم بمصالح الناس ٣٨٠ إبطال هذا الوهم - اتساع الشريعة لكل ما يقر العدالة
٣٨٤ إلى ٣٩٢	زعم من قال : إن الحدود فى الشريعة الإسلامية قاسية ، وأنها لا تتفق مع روح المدنية - إبطال ذلك بالبرهان القاطع والتجربة والمشاهدة - سلامة الأمم وأمنها وسعادتها بإقامة الحدود الشرعية
٣٩٣ و ٣٩٤	الفصل الثالث - أصول القوانين ومصادرها فى العصر الحديث
٣٩٥	الفصل الرابع - التشريع الإسلامى والقانون المقارن

صفحة	
٣٩٥	موضوعات القانون المقارن ٣٩٦ بحوث علماء الشريعة الإسلامية
٤٩٨	الفصل الخامس - الشريعة الإسلامية وواجب الجامعة الأزهرية وكلية الحقوق المصرية
٣٩٨	رسالة الأزهر في هذا العصر - واجب الأزهر ومعاهده الدينية
٣٩٩	واجب أقطاب علماء الأزهر - الترجيح والاجتهاد - إبراز الشريعة في صورة جديدة من حيث حسن العرض والترتيب - ٤٠٠ ، ٤٠١ تنظيم مرحلة التخصص في الشريعة الإسلامية ٤٠٢ واجب أولى الأمر في كلية الحقوق المصرية
٤٠٣	الفصل السادس - الشريعة الإسلامية ومبادئ التشريع الحديث
٤٠٣	مقاصد التشريع الصالح - تحقيق الشريعة الإسلامية لتلك المقاصد
٤٠٤	نقص الشرائع الحديثة ومساوئها - كمال الشريعة الإسلامية
٤٠٦	الفصل السابع - الشريعة الإسلامية وأعلام القانون في العصر الحاضر
٤٠٦	عناية طائفة من علماء الغرب بآثار المشاركة وعلومهم وفنونهم
٤٠٧ إلى ٤١٣	شهادة أساطين العلم والقانون في الغرب والشرق بفضل الشريعة الإسلامية وسمو أصولها ومبادئها وسعة مباحثها ، وأنها تحمل كل العناصر التي تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمن والمدنية
٤١٦	خاتمة الكتاب
٤١٦	قيام الشريعة على أسس المبادئ ، وأعدل الأحكام - واجب الأمة الإسلامية والأمة المصرية - واجب الحكومات - وجوب الرجوع إلى الشريعة الإسلامية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذا الكتاب ينظم مقاصد عامة ، ويشتمل على سبعة
ابواب جامعة وتحت كل باب ومقصد عدة فصول
ومباحث ، تبين اجزاء ، وتوضح اقسامه .

وهذه هي مقاصده وابوابه : -

الباب الاول - اصول التشريع الإسلامى ، او ادلة
الأحكام التفصيلية التى إتفق
عليها جمهور العلماء .

الباب الثانى - الادلة المختلف فيها .

الباب الثالث - اسباب إختلاف العلماء فى الأحكام الشرعية .

الباب الرابع - القواعد الفقهية فى التشريع الإسلامى .

الباب الخامس - محاسن الشريعة الإسلامية ومزاياها .

الباب السادس - التشريع الإسلامى وحرية الاجتهاد .

الباب السابع - بحوث وتحقيقات حول الشريعة الإسلامية .